الكتب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

مجلة شهرية . العدد الثامن والعشرون . السنة الثالثة . مايو ٢٠٠١ . الثمن عشرة جنيهات

Weghat Nazar - Volume 3 - Issue 28 - May 2001

محمد حسنين هيكل

"الفرانكوفونية".. وأخواتها

مدرسة الطب المصرية
من أبى زعبل
إلى قصر العينى
محمد فؤاد الذاكرى

جدلية الصحراء والمدينة
سلامة أحمد سلامة

الفن التلقائى
حسام الدين زكريا

عادل حسين ومأزق المثقف الوطنى
رءوف عباس

شحاتة هارون
مصرى عادى
يهودى غير عادى
أمينة شفيق

التحديث فى تركيا بين العثمانيين وأتاتورك

كلمـــــة..

A ALEXANDRINA
مكتبة الأسكندرية

اللغـــة.. والســـيـــاســـة

احدّ عشرَ يوماً كاملة امضاها الأمريكيون والصينيون فى البحث عن لفظ يعنى الاعتذار، يُرضى الصينيين الذين سقطت لهم طائرةٌ.. ومات لهم طيار، ويمنعُ فى الوقت نفسه إراقة ماء وجه الإدارة الأمريكية الجديدة.. التى هى، وبحكم كونها «سيدة العالم» تستنكف الاعتراف بالذنب.

«دبلوماسية اللغة» - وليست «البنج بونج» هذه المرة - نجحت فى الحفاظ على العملاقين على الطريق الذى دلفا إليه قبل سنوات طويلة. يومها لم تكن الطَرقاتُ الاقتناحيةُ، كما اعتاد الناسُ «لكفٍ على باب» وإنما كانت لكرةٍ صغيرةٍ بيضاء، على طاولة خضراء. وكان «مهندس اللعبة» الدبلوماسى الأشهر هنرى كيسنجر.

كرة كيسنجر الناعمة «المستديرة»، والتى بحثوا عنها - او لعلهم احتاجوها - هذه المرة أيضا، لم يجدها الدبلوماسيون تحت الطاولة، ولا فى اضابير الاتفاقات الدولية ذات الصلة بالطيران أو بالقواعد الحاكمة للمجالين الجوى والبحرى للدول ذات السيادة، وإنما بين دفتى القاموس، أو بالأحرى القواميس والمعاجم اللغوية التى كان فى اختلافها «دلالياً وثقافياً» الحل السحرى لأزمة لا يريد لها الطرفان قطعاً أن تستمر.

نطقها الأمريكيون إذن دون ان يعتبروها اعتذاراً. وسمعها الصينيون «ترجمةً» إقرارا بالذنبِ يعتبرونه فى ثقافتهم مهانةً ومذلة. ونجح اللغويون فى أن يصنعوا من معاجمهم «الاثنية» جسرا بين ضفتين لولا ابتعادهما - ويا للغرابة - ما كان بناؤه ممكنا ولا متاحا.

وإذا كانت العلاقةُ بين اللغةِ (اصوات ونبرات ودلالات وإيحاءات وتراثا) وبين ثقافة امة ما (متمايزة عن غيرها بالضرورة)- لا يحتاج إلى تذكرةٍ.. فضلاً عن برهان، فإن «الحل اللغوى» لواقعة الطائرة الصينية أخيرا، ليس الشاهد الأوحد لما بين اللغة والسياسة من علاقة. فقبل ثلاثة عقود نجح اليهود - ومازالوا - فى أن يُدخلوا العربَ فى «تيه» الصحراء الشاسعة التى تفصل بين لفظة «اراض» محتلة فى النص الإنجليزى، و«الأراضى» المحتلة فى النص الفرنسى للقرار ٢٤٢ الشهير. وقبل اسابيع فقط نحت الأمريكيون بذكاء، تعبير «العقوبات الذكية» مستَبِقين به قمة عربية ترقبها الجميع. ولم يكن صعباً أن يلاحظ - من يريد أن يلاحظ - كيف تسلل التعبير «الذكى» إلى لغة اجتماعات إقليمية سبقت القمة وجمعت اعضاء بها ذوى علاقة.

وتتعدد - بطبائع الأشياء - جوانب العلاقة بين اللغة والسياسة. واحدها - فقط أحدها - تعبر عنه وجهة نظر رَجُل مثل «جاك لانج» (وزير الثقافة الفرنسى) والذى يحذر من خطورة «الاستيلاء على اللغة»، والذى يمكن أن يكون «مُقدِّمة لإلغاء هَويّة أصحابها».

ليس بعيداً عن ذلك ما قرأناه قبل اسابيع عن قرار إمارة رأس الخيمة بدولة الإمارات العربية المتحدة، والذى فرض عقوبة موجعة، على الشركات التى تستخدم لافتات وإعلانات تحتوى على أخطاء فى قواعد اللغة العربية الإملائية والنحوية. القرار الذى أكد واضعوه أنه يستهدف الحفاظ على الهوية فى عالم متسارع متغير، بدا تنفيذه بكل حزم وحسم. وكان المأمول - تعميماً لفائدةٍ مرجوة - ان تحذو دول «عربية» كبرى حذو الإمارة الصغيرة التى ترقد فى هدوء الصحراء على ضفاف خليج طالما ماجت مياهُهُ بعواصفِ السياسةِ وتياراتِ الثقافةِ متباينةً ومتفاعلة، ومازال وصفه «لغوياً» بين فارسىٍ وعربى، انعكاسا لكل ذلك.

العلاقة المتداخلة بين اللغة والسياسة، لم تغب أبداً - ولا كان يحق لها ذلك - عن ذهن الساسة والمفكرين. فكمال الدين أتاتورك، بكل ماله ويكل ما عليه، كانت خطوته «السياسية» الأولى.. لغوية وفى «وجهات نظر» هذا العدد للشأن التركى مكانه فى مقال يحاول الإجابة عن سؤال قديم جديد: «من بدأ التحديث فى تركيا؟»

واللغة - بالمعنى الحرفى للكلمة - لها مكانها أيضاً فى مقال لشوقى ضيف رئيس مجمع اللغة العربية: المعقل الرسمى للغة التى هى عريقةٌ بتاريخها، ثريةٌ بتراثها، قويةٌ بدينها، كبيرةٌ بعدد الناطقين بها.. والتى هى بعد ذلك - أو ربما قبله - فى مأزقٍ لا تجد لنفسها فيه نصيراً إزاء غوائل عصور مُستَجِدّة، كما يقول محمد حسنين هيكل فى مقال يستغرب فيه انخراط العرب - أو بعضهم - من موقع المشارك - لا المراقب - وإن قيل ذلك، فى منظمة «الفرانكوفونية» والتى تنعقد «قمتها» فى أكتوبر القادم، لأول مرة فى عاصمة «عَرَبية» هى بيروت، لدَواعٍ «لا تُبدو - لى ولغيرى - مَفهومة، ولمقاصد لا يَظهَر فيها للأمّة نَفعٌ». والكلام لهيكل الذى يرى فى ذلك استمراراً «للمشرود عن نظام السِرب العَرَبى»، تتبَعثر أجنحته كلٌ منها مُستَسلمة لريح!

ويقارن هيكل بين منظمات وتشكيلات عدة، دخلها العالَم العَرَبى منذ بداية يَقظته الحديثة فى أعقاب الحرب العالمية الثانية، مشيراً إلى «مشروعات سَقَطَت لأنها كانت حَملاً خارج الرَحِم، فى حين نَجَحَ مشروع الجامعة العَرَبية لأنه حَمَلٌ طبيعىٌ». ذلك أن الأمّةَ كانت مُتَّسِقة مع نفسها، مُتَّسقة مع عالمها، مُعَبِّرة عن «هَويّة» يقوم عليها «ولاء»، ومُعَبِّرة عن «مَصالح» تَتَرتَّب عليها «التزامات» - ذلك أنه لا أحد فى هذا العالَم يَنسَى خارج هَويّته، أو يَنتَظِم خارج مصلحته.

الملاحظ أنه فى مَطلع السبعينات راحَ التنظيم العَرَبى الجامع - المعَبِّر عن الانتماء وعن المصلحة - يَتَراخى وتَنفلِت منه أجزاء تَتَطايَر وتَشرُد. فظهرت «أجنحة» تارة، و«اقتطاعات» تارةً أخرى، فى شكل تنظيمات و«كيانات»، منها ماكان استجابة لرؤى «لحظية» ضيقة. ومنها ماركن إلى هوية راهاء - أو اجتزاها. إقليمية. ومنها ما أعيا أصحابَه البحثُ عن هويةٍ، فلجأ إلى «اللغة» وقواميسها مرة أخرى.. ليبحث عن مسمياتٍ تصلحُ للمناسبة.

قد يكون ذلك كله مفهوماً، وإن انحصر فى مصالح ضيقةٍ، يحسب أصحابها أن الانزواء فى ركن - أو التحليقَ بعيدا عن السرب - يظل مأموناً وبعيدا عن الصراعات وطلقات القناصة.. إلا أنه فجأة، ومن المجهول، وبالانسياق - فى الغالب - أو بالانزلاق، ظَهَرَ على ساحة المنطقة مَشروع طارئ باسم «الفرانكوفونية». وهو مَشروع مُنظمة غربية لا تُغَيِّر بالنسبة للأمّة عن هَويّة، ولا أمن، ولا مصلحة، ولا أمَل. ومع ذلك فهناك الآن دَعوة إلى قِمّة لها. تَجتَمِع فى عاصمة من أجمل عواصم الأمّة العَرَبية، وأكثرها صلابة، وأغناها إسهاماً فى الثقافة العَرَبية. وهنا يَبرُزُ سؤال هيكل: ما هى «الفرانكوفونية» بالضبط؟ - تلك التى التحقنا بها ونحن لا نَعرف متى؟ - وتلك التى نشارك فى اجتماعاتها ولا نعرف لماذا؟!

ليس بعيداً أبدا عن مقال هيكل، يأتى مقال المفكر السورى ذوقان قرقوط والذى يقول فيه ان هوية مصر «العربية» ليست هوية مستعارة، على ماحاول بعضهم استعارة هوية أفريقية لها أو متوسطية أو أوروبية إلخ «هربا من المسؤولية»، بل هى هوية عربية أصيلة... ومصر بمثل ماهى مسؤولة عن عروبتها، فهى مسؤولة - شاء البعض أم أبوا - عن العرب بل وعن العروبية فى حد ذاتها.

وجهات نظر

"الفرانكوفونية"

محمد حسنين هيكل

"1"

مهمة مطروحة على عمرو موسى

■■ وَسط اهتمام مُتزايد بجامعة الدُوَل العَربية - مع ابتداء مَسئولية «عمرو موسى» عن أمانتها العامة - خَطَرَ ببالي أنها مُناسبة لطرح مسألة تستحق الاهتمام - هي ذلك الشُرود العَربي إقليمياً ودُولياً حتى أصبح جَمعُ الأُمة قريب شَبَه بسرب طيور ضاع نظامه وتَبعثرت اجتهته كلٌ منها مع ريح!

وخَطَرَ - أيضاً - ببالي أنه ربما استطاع المناخ الجديد في جامعة الدُوَل العَربية أن يُساعد على عودة الشارد والمبعثر، أو يُوقف الطيران الأعمى بحيث يَعود إلى السرب شيء من نظامه - واحترامه!

أعرض ذلك عارفاً حدود الجامعة العَربية، وحدود أمينها العام!

- بمعنى أنني أعرف أن الجامعة العَربية منظمة إقليمية تُشارك فيها دُوَل ذات سيادة، وَجدت «المشترك» بينها كبيرا. ورأت أنها في إطار هذا «المشترك» قادرة على إظهار نوع من «الإرادة الجماعية» لصالح شعوبها، مُدركة حَجم وعُمق ما بينهم من روابط لها طبيعة خاصة ومُتميزة.

- وبمعنى أنني أعرف أن الأمين العام للجامعة العَربية لا يصنع سياسة - وإنما هو في حدود «المشترك» بين الدُوَل الأعضاء في الجامعة مَسئولٌ عن التحضير والتجهيز ومتابعة التنفيذ بما يخدم المُتفق عليه ضمن «المشترك» ويُنظم حُسن أدائه.

لكنني مع ذلك أعرف أن لدى «عمرو موسى» مزايا لم تتوفر لآخرين:

١ - فهو يَجيء إلى مَنصبه كاختيار إجماع لم تُتخلف عنه دَولة عَربية واحدة.

٢ - وهو يَجيء إلى مَنصبه ومعه قدرٌ واضحٌ من الرضا العام يُضيف مَعنوياً إلى قُدرته.

٣ - وهو يَجيء إلى مَنصبه بدَرَجة عالية من الكفاءة والحَيوية.

٤ - وهو يَجيء إلى مَنصبه في ظرف تَستشعر فيه الأُمة خطراً على وجودها ذاته، ومن ثم فهي مُستعدة لأن تَسمع وقابلة لأن تَستجيب.

وهذه المزايا كلها لا تُعطي لـ «عمرو موسى» «سُلطة» لا يَمنحها له الميثاق - لكنها تُعطيه «حق» أن يَتكلم دون أن يَتلعثم، وأن يُبادر دون أن يَنظر خلفه، وأن «يُوصي» دون أن يَستسلم، وأن يَعتذر عن الولاية والوصاية وفي المقدمة ولاية ووصاية «دولة المقر» التي نَسيت نفسها مرات وتَصوَّرت أن الجامعة العَربية «إدارة أخرى» من إدارات الدولة المصرية، وساعدها على الوهم وجود المقر فيها. وواقع أن كل الأمناء العامين للجامعة - باستثناء واحد لا يُقاس عليه - كانوا من مُواطنيها. والغريب أن ذلك كان إصرارها دون نَصٍ في الميثاق!

أمهد بذلك وفي اعتباري أن مصر - ودُوَلاً عَربية غيرها - على وشك أن تُشارك في مؤتمر على مستوى القمة لتنظيم دولي يُطلق عليه وصف «الفرانكوفونية». وهذا التنظيم الدُولي يَعقد قِمتَه - في أكتوبر القادم - لأول مرة في عاصمة عَربية هي بيروت، لدَواعٍ لا تبدو - لي ولغيري - مَفهومة، ولمقاصد لا يَظهر فيها للأمة نَفعٌ.

ومُؤدى ذلك أنه مرة أخرى سنة ٢٠٠١ يَستمر الشرود عن نظام السرب العَربي، وتَتبعثر اجتهته كلٌ منها بمسلسلة لريح!

وفي بعض الأحيان يَتبدى لي أن مصر دَخلت تُنظيم «الفرانكوفونية» بالخطأ، أو بالشُرُوط، دون قصد. وفي أحيان أخرى يَتبدى لي خلاف ذلك وتُعذريني الدَهشة لأن الدُوَل لا تَدخل في تُنظيمات، إقليمية أو دَولية، إلا بناء على مَطالب من تاريخ أو مُستقبل، من أمن أو مصلحة، من زيادة فاعلية أو زيادة نفوذ - وأما بدون ذلك فإن الدَولة الرشيدة لا تُضيع وقتها، ولا جهدها، ولا هيبتها. إذ تُنسحب في غير مَكانها وفي غير ما يَعنيها، وبلا سَبَب يُقنع أو هَدف يُساوي.

والحاصل أن العالم العَربي منذ بداية يَقظته الحديثة في أعقاب الحرب العالمية الثانية - دَخَلَ وشارك في مُنظمات وَجَدَ نفسه فيها طبيعياً، ورأى مَطالبه منها جَليّة واضحة، وقصد من خلالها إلى ما يُريد واثقاً.

● وكانت البداية أن الدُوَل العَربية المستقلة سنة ١٩٤٤ تَقدَّمَت وانشأت بإرادَتها مُنظمة إقليمية (الجامعة العَربية) مُعترفة ذلك تأكيداً لانتماء قومي أصيل - فيه التاريخ، وفيه اللغة. وأملاً في شَراكة للمستقبل واسعة - فيها الاقتصاد والأمن، وفيها التعليم والثقافة، وفيها رَغبة فعل إقليمي مُؤثر يُساهم في بناء عالم تَتطلع إليه البَشرية بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية.

وفي وضوح فكر الأمة وعَزمها - فإنها رَفضت مَشروعات طُرحت عليها لتنظيم المنطقة إقليمياً وعَربياً، بينها مشروع حلف للدفاع عن الشرق الأوسط في نفس الصَف مع تركيا وإيران وباكستان. وبينها اقتراحات لمشروعات تَقوم إما في إطار «الهلال الخصيب» تُدعو إليه بغداد ويَجمع سوريا ولبنان والأردن (ولاحقاً تركيا)، وإما في إطار «سوريا الكبرى» يَجمع الدُوَل العَربية السابق ذكرها ولكن تحت تاج هاشمي!

وقد سَقطت كل هذه المشروعات لأنها كانت حَملاً خارج الرَحم، ونَجَح مشروع الجامعة العَربية لأنه حَملٌ طبيعي.

ثم لَحق بذلك أن الدُوَل العَربية الأعضاء في جامعة الدُوَل العَربية سنة ١٩٤٥ دَخَلت في النظام العالمي للأمم المتحدة - وكانت هي التي سَعَت للمشاركة في تأسيسه بـ «إعلان سان فرانسيسكو» طامحة أن تُحقق لنفسها مكاناً ووزناً في شئون عالم ما بعد الحرب، قاصدة أن تكون مَوجودة عند وضع القانون الأساسي الذي يَحكم مُجتمع الدُوَل في عالم السلام القادم، وهو ميثاق الأمم المتحدة.

وبالفعل فقد جاء نظام الأمم المتحدة شاملاً للسياسة (الجمعية العامة ومجلس الأمن) -

.. وأخواتها

والاقتصاد (صندوق النقد الدولي والبنك الدولي) - وممتداً إلى مجالات أوسع وأرحب بعد ذلك من الثقافة والعلوم (منظمة اليونيسكو)، إلى الصحة (منظمة الصحة العالمية)، إلى الطيران - إلى الرصد الجوي لسماء عالمية واحدة - وحتى توزيع موجات الإذاعة والتلفزيون (في بداية ثورة الاتصال).

وفي إطار ميثاق جامعة الدول العربية (على مستوى الإقليم) - وفي إطار ميثاق الأمم المتحدة (على مستوى العالم) - كانت الأمة مُشْفقة مع نفسها. مُشْفقة مع عالمها. مُعبّرة عن «هويّة» يقوم عليها «ولاء». ومُعبّرة عن «مصالح» تترتّب عليها «التزامات» - ذلك أنه لا أحد في هذا العالم ينتمي خارج هويّته، أو ينتظم خارج مصلحته.

□

وفي مرحلة الفوران التي اعترت العالم أحلاماً وأفكاراً وطموحات بعد انتهاء الحرب العالمية - شاركت الدول العربية أو بعضها - في تجمّعات استدعتها أسباب التكيّف والملاءمة. وخصوصاً حين بدا أن النظام الدولي الذي عبّر عنه قيام الأمم المتحدة ينزع إلى نوع من الاستقطاب الحاد بين إمبراطوريتين: الولايات المتحدة الأمريكية - والاتحاد السوفيتي.

ووقع في ذلك المناخ أن دول آسيا وافريقيا - وضمنها بعض الدول العربية - تنادت إلى طلب التحرر (وكان ذلك مقصد تجمّع «باندونج») - ثم تنادت إلى طلب قرار مستقل تبتعد به عن الانحياز المسبق لهذه القوة الأعظم أو تلك (وكان ذلك مطلب حركة عدم الانحياز).

وفي ذلك المناخ أيضاً نشأ ما سُمّي بالمؤتمر الإسلامي، وكانت مصر هي البادئة بالدعوة إليه بهدف ثقافي هو مساعدة الموروث الإسلامي ليكون فاعلاً حضارياً في عصور انتقلت فيها مراكز التنوير إلى ما وراء البحار والمحيطات!

وبالتوازي مع المؤتمر الإسلامي - وقع لقاء دول افريقيا - وضمنها بعض الدول العربية - ورجاؤه المساعدة على إنقاذ القارة السوداء من مطامع تتربّص بها، تقصد حرمانها من سيادتها أو حرمانها من موارداً!

وفي كل الأحوال فإن هذه التجمّعات (في آسيا وافريقيا - وأمريكا اللاتينية فيما بعد) كانت أشبه ما تكون بالنوادي يتلاقى أعضاؤها، مع ملاحظة أن الناس لا يشتركون في النوادي تملّلاً، وإنما لأنهم يجدون في إطارها مُشبعاً لحاجات يستشعرونها، وهم يحملون بطاقات عضويتها بالتحديد، دون أن يكون وراء ذلك - في الواقع العملي - ما هو أكثر من الاقتراب والانتساب.

ثم كان بجانب هذه التجمّعات - النوادي - أن المصالح استدعت أشكالاً من التقارب أوجدت ما يُشبه الاتحادات. وعلى سبيل المثال فقد كان طبيعياً أن تتقارب الدول المصدّرة للبترول مثلاً («أوبيك»)، أو أن تتقارب دول حوض النيل، أو الفرات، أو الأردن - لدواعٍ محصورة في حقل معيّن، أو بين ضفتين ظاهرتين!

وكان هذا كله في إطاره السليم: مفهوماً، معقولاً - ومقبولاً.

□

لكنه في مطلع السبعينات راح التنظيم العربي الجامع - المعبّر عن الانتماء وعن المصلحة - يتراخى وتُنفلت منه أجزاء تتطاير وتتشرّد.

- كانت البداية ثقافياً بين الملك «فيصل» (السعودية)، والملك «الحسن» (المغرب)، والشاه «محمد رضا بهلوي» (إيران) - على أن يتحوّل المؤتمر الإسلامي (الثقافي في أصله المصري) إلى منظمة سياسية جامعة للدول الإسلامية لها ميثاقها وإطارها والتزامها، ولم يكن القصد خالصاً لأن أقطار العالم الإسلامي على اتساع القارات لا يربطها على سبيل المثال أمن مشترك (لأنه يصعب ظهور تهديد، ويستحيل قيام ضرورات أمن مشترك - يستدعي فعل دفاع مشترك بين الملايو والمغرب، أو بين إندونيسيا وسوريا مثلاً) -

في إطار ميثاق جامعة الدول العربية (على مستوى الإقليم)، وفي إطار ميثاق الأمم المتحدة (على مستوى العالم)، كانت الأمة متسقة مع نفسها، متسقة مع عالمها، معبرة عن «هوية» يقوم عليها «ولاء»، ومعبرة عن «مصالح» تترتب عليها «التزامات». ذلك أنه لا أحد في هذا العالم ينتمي خارج هويته

وبنفس المقياس - وعلى سبيل المثال فإنه من الصعب تحديد ضرورات مصلحة مشتركة (بين موريتانيا وأفغانستان، أو تركيا والسودان مثلاً)، وأسباب ذلك منطقية لأن «الإسلام» نورٌ عابرٌ للقارات متجاوزٌ للأوطان - والأمن ليس كذلك، والاقتصاد ليس كذلك. لأن كليهما له موقع وله حدود.

ثم كان أن أصبح «المؤتمر الإسلامي» السياسي بديلاً موازياً أو مُقرّراً لجامعة الدول العربية. وفي الواقع فإن «المؤتمر الإسلامي» قُصد به أن يكون بديلاً لجامعة الدول العربية التي اخذتها الفكرة القومية إلى عداء مسلّح مع إسرائيل - وفي الحقيقة فإن هذا المؤتمر الإسلامي الجديد كان بذاته وصفاته مشروع «الحلف الإسلامي» الذي طرحته الولايات المتحدة استنساخاً لـ«حلف بغداد» بعد سقوطه سنة ١٩٥٨!

والمهم أنه بإنشاء «المؤتمر الإسلامي» الجديد جرى اقتطاع جزء من التنظيم العربي - المعبّر عن النظام العربي - لصالح تنظيم آخر اسمه «المؤتمر الإسلامي».

ولم يعترض أحد. ولم يكن في وسع أحد أن يعترض، لأن تنظيم المؤتمر الإسلامي وقع بعد ظروف حرب سنة ١٩٦٧ - وكانت الحركة القومية العربية مُقيّدة في فعلها - محصورة في ردّ فعلها - مطالبة بالتركيز على الأساسي، والتأجيل الفرعي، والتحرّك إلى أمام بغير انشغال بمعارك جانبية.

- ومع بداية الثمانينات وقع اقتطاع آخر من الجامعة العربية، فقد ظهر إلى جوارها وبالإضافة إلى «المؤتمر الإسلامي» تجمّع ثالث جديد هو «مجلس التعاون الخليجي». وإذا كان «المؤتمر الإسلامي» قد اقتطع جزءاً من وحدة التنظيم العربي، فإن مجلس التعاون الخليجي - أحدث تقسيماً في المصلحة العربية، وفي الإرادة العربية أيضاً. وأبسط النتائج أن بعضاً من أهمّ عناصر قوة الفعل العربي خرجت من صراع المستقبل باحثة لنفسها عن ركن من شبه الجزيرة العربية تظلّله مأموناً وبعيداً عن الصراعات - وكان ذلك إنكاراً للحقائق وللضرورات. لأن دُوَل الساحل العربي تُصبح بلا عُمق إذا انعزلت عن الداخل العربي - فالتاريخ ليس قشرة على سطح الجغرافيا، وإنما هو علاقة أطراف حيّة بجسم حيّ!

ثم حدث قريباً أن العقيد «معمر القذافي» أعلن نظرية «الفضاءات» الحضارية، وظهر له أن العالم العربي ليس له «فضاء» حضاري -!- وإنما فيه عُنصرية عربية تحسب نفسها دُولاً -!- وهي جميعاً بلا أمل في المستقبل إلا إذا عثرت لنفسها على «فضاء»، و«فضاؤها» هو افريقيا التي أعاد العقيد «القذافي» اكتشافها، وأعلن توحيدها، وقرّر تنظيم دُولها في اتحاد شامل تُرامى حدوده من «جوهانسبرج» جنوباً حتى «طنجة» شمالاً، ومن «داكار» غرباً حتى «دار السلام» شرقاً، ثم انتهز فرصة القمّة العربية الأخيرة في عمّان ودعا زملاءه من رؤساء الدول العربية أن يقيلوا من عُنصريّتهم، ويعودوا إلى رُشدهم، ويتّحدوا بالفضاء الافريقي قبل أن يسلّطوا من حساب القرن الواحد والعشرين، ويتركهم التقدّم وراءه بقايا من قرون سابقة!

وكان ذلك مرة ثالثة - ورابعة - وخامسة - اقتطاعاً لجزء من قوة الفعل والإرادة العربية يُضاف إلى كل ما سبق - يطرح ولا يجمع، ويقسم ولا يضرب!

- وخلال ذلك - وعلى طول سنين - طرأت على الساحة العربية مشروعات عرّضت نفسها

دون قبول، وهي مَنسيَّة هذه اللحظة أو ضائعة.

■ بينها مشروع - مُعلَّق - بعنوان الاتحاد المغاربي [لدُوَل شمال أفريقيا من تونس إلى المغرب، وهو حتى إشعار آخر حبرٌ على وَرَق، ولعله يَظَل كذلك].

■ ومشروع ضياع - وكان يُطلَق عليه اسم مجلس التعاون العربي [وقد ضَمَّ مصر والعراق والأردن واليمن - وكان مَشروعاً مَشئوماً من يومه، وربما أن الأثر الإيجابي المفيد لحَرب الخليج الثانية أنها أطاحَت به!]

■ ثم أطلَّ على الساحة مشروعٌ آخر مُعلَّق بين النسيان والضياع، هو «مشروع الشرق الأوسط»، وصاحبه «شيمون بيريز»، والفكرة المركزية فيه أن العَرَب ليست لهم هُوِيَّة أو مُستقبل غير المنطقة التي يعيشون فيها، وهذه المنطقة ليست لهم وَحدهم، وإنما لشركاء غيرهم فيهم إسرائيل وتركيا وكذلك إيران (عندما تَتِم تَصفية الثورة الإسلامية فيها بالطبع).

وكانت تلك كلها مُحاوَلات لم تَنجَح في تَجاوُز النظام العَرَبي الشامل، أو خَلْق تَوازُنات مُختَلِفة فيه بعد أن وَقَع انقسامه، ومن حُسن الحظ أنها جميعاً نُسِيَت أو تُعطِّلت.

وأخيراً، وفَجأة، ومن المجهول، وبالانسياق - في الغالب - أو بالانزلاق، ظَهَر على ساحة المنطقة مُشروع طارئ باسم «الفرانكوفونية» - وهو مُشروع مُنظمة غريبة لا تُعَبِّر بالنسبة للأمَّة عن هُوِيَّة، ولا أمن، ولا مصلحة، ولا أمَل. ومع ذلك فهناك الآن دَعوة إلى قِمَّة لها - تَجتمع في عاصمة من أجمل عَواصم الأمَّة العَرَبِيَّة، وأكثرها صَلابة، وأغناها إسهاماً في الثقافة العَرَبية.

وهنا يَبرُز سؤال: ما هي «الفرانكوفونية» بالضبط - تلك التي التحقنا بها ونحن لا نَعرف متى؟ - وتلك التي نُشارك في اجتماعاتها ولا نَعرف لماذا؟! ■

الإمبراطوريات تعوض عن القوة الضائعة

■ ■ ليس سرّاً خافياً على أحد أن مُنظمة «الفرانكوفونية» هي مُنظمة أقامتها «فرنسا» (وسَمَّتها الحَرَس استناداً إلى قاموس «أوكسفورد» - «الصوت الفرنسي»)، ثم إنه ليس خافياً أيضاً أن هذه المنظمة في السياسة الفرنسية وفي تركيبة الدولة الفرنسية اختصاص مُوزَّع بين رئاسة الجمهورية، ووزارة الخارجية، وبقايا وزارة المستعمرات، ثم - وهذا هو الأخطر - إدارة المخابرات الخارجية للدولة الفرنسية! (S.D.E.C.E.)

وهُوِّدِّي ذلك ببساطة أن هذه المنظمة مشروع فرنسي، قامَت على إنشائه الدَولة الفرنسية بسُلطتها، وتُوجِّهه الدَولة الفرنسية بأدَواتها، وتُدير الدَولة الفرنسية بأجهزتها لبلوغ هَدَف ومَصلحة، وهذه طبيعة أشياء وحقائق أمور، لأن الدُوَل الكبرى - وفرنسا بينها - تَصرف وقتها فيما يَنفَعها ولا تُضَيِّعه فراغاً أو هوايات!

وبالطبع فإنه من حَقّ كل قُوَّة كبرى - بما فيها فرنسا - أن يكون لها مشروعها إذا تَمَكَّنَت إرادَتها، وإذا استطاعت مَوارِدها.

وفرنسا بالتحديد قُوَّة كبرى لها وَزنها ولها دَورها:

● أوَّله فرنسا في قلب أوروبا قُوَّة مُتَحَرِّكة واصلة إلى أبعَد من غيرها لأنها صاحبة إسهام حضاري وثقافي، فكري وفني، لا يُضاهيه إسهام أوروبي آخر، وهي لذلك قِبلة عالمية مُعتَرَف بها قبل أن تكون قُوَّة يُحسَب حسابها.

● وثانيه أن فرنسا بحكم التَقابُل عبر شمال البحر الأبيض وجنوبه لها مع العالم العَرَبي علاقات مُتَشابكة وأحياناً مُشتبكة - والبحر الأبيض بُؤرة الصراعات العالمية، وفرنسا على شاطئه الشمالي مُواجهة لشقته الأخرى وعليها الشرق الأوسط ووراءها أفريقيا.

وفي إطار هذا التشابُك والاشتباك كانت فرنسا طَرَفاً فاعلاً في الحروب الصليبية، وكانت طَرَفاً في سباق إمبراطوري دَعا واحداً من أكبر قُوادها وهو «نابليون بونابرت» إلى غَزو مصر. وبعد تَراجُع الغَزو تارجَحَت فرنسا بين تأييد مشروع «محمد علي» في بدايته، وبين المشاركة مع القوى الأوروبية بعد ذلك في ضَربه وتَدمير أسطوله، وفَرض مُعاهدة سنة ١٨٤٠ عليه. وكانت فرنسا بعد ذلك إلهاماً للخديو «إسماعيل»، لكنها انضمت إلى بريطانيا في وصاية على المالية المصرية، حتى وَقَع اقتسام النفوذ بين الاثنتين بالوفاق الودّي في «فاشودة»، فانفردت بريطانيا بمصر، وانفردت فرنسا بالمغرب. وتأكيداً لـ«فاشودة» اقتسمت فرنسا مع بريطانيا الإرث العَرَبي لدَولة الخلافة باتفاقية «سايكس بيكو» (بما فيها تَنفيذ وَعد بَلفور بوَطَن قومي لليهود في فلسطين)، ثم كان ما كان من سياسات فرنسا على طول المسافة من الجزائر حتى السويس (١٩٥٦).

كل ذلك في إطار التشابُك والاشتباك، وكله الآن تاريخ، والتاريخ ليس خَزانة مَحفوظات وإنما هو تَجربة حَيَّة عاشت بالأمس يَوماً وتعيش الآن غيره - مُدرِكة أن الحياة مُستَمِرَّة، وحَرَكتها صراعٌ بالاتفاق والاختلاف، لأن الدُوَل لها مصالح ثابتة وسياسات مُتَغَيِّرة مع الظروف.

● وثالثه أن فرنسا جُزء كبير من قُوَّة أوروبا. وأوروبا هي المركز المؤسِّس لحَيَوية وتَدَفُّق مَدَنيَّة هذا العصر، وإذا كان التواصُل بين شمال البحر الأبيض وجنوبه مَطلوباً، وهو أكثر من مطلوب، فإن فرنسا كانت وتَبقى علاقة عَرَبية مَرغوباً فيها، خصوصاً عندما تكون العلاقة صَحِيَّة بالوضوح وبالشفافية.

● ورابعه أن انفراد الولايات المتحدة بالقوة بعد سقوط الإمبراطوريتين الكبيرتين في الشرق (الأوسط والأقصى) - يَدعو العَرَب وغيرهم أن يبحثوا عن حُلَفاء وعن أصدقاء خصوصاً في أوروبا. وفرنسا لأسباب عديدة صديقٌ مُحتَمَل، وصَداقته نافعة، على أن يكون معنى الصداقة مَفهوماً للأطراف - مُحافَظاً عليه ومُحرَّماً.

.....

.....

[وأتذكر عندما قَصَدتُ في شهر سبتمبر ١٩٦٧ إلى باريس لموعد مع الرئيس الفرنسي الأشهر الجنرال «شارل ديجول» - أنني مُرِرتُ على «جمال عبد الناصر» في طريقي إلى المطار أسمع آخر ما لديه قبل السفر. فلم تكن باريس يومها سياحة أو صحافة، وإنما كانت رسالة سياسية من مصر إلى فرنسا. واذكر ما قاله لي يومها وبنصِّه تقريباً:

«نحن في حاجة إلى دولة أوروبية كبرى لكي نَجد لأنفسنا جسراً إلى الغرب، وإلا فقد نَجد أنفسنا (وَسَط هذه المعركة) - مع الاتحاد السوفيتي وَحده. إن الاتحاد السوفيتي مفيدٌ لنا عسكرياً واقتصادياً - لكن وجودنا معه وَحده في هذه الظروف ضارٌ بصورَتنا أمام العالم الآن، وضارٌ بحقيقة موقفنا في المستقبل، ولهذا نحتاج إلى جسر مع أوروبا.

وفرنسا هي الجسر المعقول - لأن بريطانيا حَليفٌ مُخلص للولايات المتحدة - ولألمانيا ما زالت بَعد غير قادرة.

وإذن فرنسا هي المرشح الأصلح.

و«ديجول» الذي يُلهم فرنسا بنوع من استقلالية القرار تَستَعيد بها مجدها القديم - هو بالنسبة لنا رَجُل في مكانه وفي وقته.

وحتى إذا لم تكن فرنسا بالفعل مُستعِدَّة، وحتى إذا لم يكن «ديجول» مُتَفهِّماً بقدر كاف لمواقفنا - فإن فرنسا هذه اللحظة ضرورية».

أضاف «جمال عبد الناصر» بنبرة لها معنى:

«أريدك أن تعرف أنه إذا كانت فرنسا غير مُستعِدَّة - فعلينا أن «نَخترعها»..

وإذا لم يكن «ديجول» مُتَفهِّماً لمواقفنا فعلينا أن نَتَصَرَّف على أساس أنه مُتَفهِّم، وذلك بالممارسة سوف يُحدث أثره ويصنع حقائقه».

وفي قصر «الإليزيه» - في اليوم التالي - كان من حُسن الحظ أنني وُجِدتُ فرنسا - لأسبابها - مُستعِدَّة، و«ديجول» - بتجربته - متفهماً.

وهكذا فإن «جمال عبد الناصر» دَعا فرنسا إلى دور في أزمة الشرق الأوسط - وتَقَدَّمت فرنسا للدور (تَعتَبره مُقدِّمة وراءها ما وراءها، وكذلك تَفعَل القوى الكبرى إذا قبلت دَعوة ووُجِدَت فرصة).]

.....

.....

ثم حُسْنَ أن فرنسا ومع الدَور الذي ارتآه «ديجول» - حاوَلت وما زالت تُحاول أن تَتَّخِذ لنفسها خطاً مُختلفاً: تَتحَرَّك عليه باستقلالية - ولو نسبية - وضمن أغراضها أن تُنَوِّعي هيمنة أسلوب الحياة الأمريكي وطغيانه على الدُنيا - وذلك الخط الفرنسي المختلف مَجهودٌ يَستحق التكريم، ويَستوجب الاحترام، ويستحق المساندة.

على أن ذلك كله جزء من الحقيقة.

وبقيَّة الحقيقة ولا يُصح نسيانها - أن فرنسا قوة عُظمى، وكانت ذات يوم وإلى عَهد قريب إمبراطورية كبرى، ثم ضاعَ منها ما كان من أملاكها - لكن القوى الكبرى إذا فقدَت مجالها الإمبراطوري لا تُهرول بالانسحاب، وإنما تُحاول التعويض، وذلك مَنطق القُوَّة - وشخصيتها كذلك.

والشاهد أن بريطانيا حين فقدَت الإمبراطورية جَرَّبَت التعويض عنها - في ظروف مُتَغَيِّرة - بالكومنولث - وكان الرابط فيه هو الجنيه الإسترليني «يُلمِّد» عشرات من الدُوَل كانت يوماً حَبَّات عِقد واحد. وتَوصَّلت حكمة الإمبراطورية إلى «أنه مع انفراط العِقد فليس ضرورياً أن تُلَبعثر الحَبَّات وتَتَدحرَج».

وكان المثال البريطاني مُؤثراً على خيال الجنرال «ديجول» بعد انتهاء الحرب العالمية الثانية، وقد حرّكه الخيال وحكمة التجربة القديمة إلى فكرة التعويض عن الإمبراطورية. وتولّد لدى «ديجول» اعتقاد بأن فرنسا تحتاج إلى «مثيل فرنسي» للكومنولث البريطاني. وبما أن الفرنك الفرنسي لم يكن وقتها في قوة الجنيه الإسترليني - فإن اللغة الفرنسية طرحت نفسها بديلاً للإسترليني تُضيف إلى القوة الفرنسية وتدعمها بـ«عظمة الثقافة» التي تحتويها هذه اللغة. وكان حلم «ديجول» أن تكون «اللغة والثقافة الفرنسية» قادرة على خدمة «عظمة الدولة الفرنسية» (وربما أن ذلك كان تأثير صديقه ووزيره «أندريه مالرو»)!

هكذا وعند أواخر عهد «ديجول» - قبل أن تهل السبعينات - بدأت قصة ما سُمّي «منظمة «الفرانكوفون»» - «فرنسا - الصوت الفرنسي - اللغة الفرنسية».

أي أنه مشروع فرنسي. هدفه أن يُعوّض القوة الإمبراطورية الفرنسية. وقاعدته وسلاحه اللغة الفرنسية - حاملة الثقافة الفرنسية. ومن اللغة والثقافة إلى ما بعدهما حسب ما تسمح به الظروف وتحتمله الإرادة.

كذلك كانت نشأة المنظمة. وذلك هدفها. وبالتالي تحدّد موضعها عند نقطة مُعيّنة. في موقع مُعيّن من تركيبة الدولة الفرنسية بين الرئاسة - ووزارة الخارجية - ووزارة الدفاع - وبقايا وزارة المستعمرات - ثم إدارة المخابرات الخارجية الفرنسية (D.E.C.E).

□

وحين أعلن ميلاد المنظمة («الفرانكوفونية») رسمياً سنة ١٩٧٠ - كان «ديجول» قد اعتزل وترك قصر «الإليزيه» لـ«جورج بومبيدو» (صديقه ومُعاونه ونائبه في رئاسة حزبه) - وقد حدّث الميلاد أثناء انعقاد مؤتمر قمة لدُوَل الأفريقية الناطقة باللغة الفرنسية - وكلها بالطبع من المستعمرات الفرنسية السابقة. وكانت شهادة الميلاد اقتراحاً من رؤساء ثلاث دُوَل شاركت في اجتماع عُقد في «نيامي» عاصمة «النيجر». يحمل توقيع الثلاثة وهم «ليوبولد سيدجور» رئيس السنغال، و«الحبيب بورقيبة» رئيس تونس، و«هاماني ديوري» رئيس النيجر (وهي البلد المضيف للاجتماع).

ثم انتقلت مسئولية المنظمة الوليدة إلى الحكومة الفرنسية بوزاراتها وإداراتها وأجهزتها (بما فيها المخابرات)، وقامت الخارجية الفرنسية على وضع ميثاق لها يقول بغير التباس أن «الهدف من المنظمة الجديدة هو تجميع الدُوَل المتكلّمة باللغة الفرنسية (المستعمرات الفرنسية السابقة) حتى تعمل معاً في مجالات تطوير الثقافة، والتعليم، والعلوم والتكنولوجيا». ثم أضيف إلى ذلك هدفٌ جرى التعبير عنه بأسلوب شاعري وهو أن تكون المنظمة «حارساً للغة الفرنسية» (حتى لا تقوم اللغة الإنجليزية بقهرها وتهميشها).

لكن «المنظمة الجديدة» تخلّفت عن النمو لأسباب:

١ - أولها أن عدداً من المستعمرات الفرنسية السابقة خصوصاً في العالم العربي - بالذات سوريا في المشرق العربي، والجزائر في المغرب العربي - تخوّفت من المشروع واعتبرته محاولة «لإعادة الروح» إلى الإمبراطورية الفرنسية التي سقطت على المسافة ما بين الجزائر والسويس. وكان رأي سوريا والجزائر في ذلك الوقت أن «الثقافة شلال قوي مُدفّق بحيويّة إنسانية تتحرّك به من لغة إلى أخرى، كما أن المحتوى الثقافي للغة الفرنسية عالم ثائر بغيره وثائر فيه، وحتى إذا كانت اللغة وعاء الثقافة فإن كل لغة تُراث عالمي شائع لا يحتاج إلى وصاية دولة».

٢ - أن الطابع الفرنسي لإقليم «كيوبيك» - في كَنَدا - أثار مشكلة عويصة أمام المنظمة الجديدة، لأن كَنَدا كلها عُضوٌ مُهمٌ وبارزٌ في منظمة الكومنولث البريطاني، ولا يعقل أن يكون البلد كله في الكومنولث ثم يُشجّع إقليم منه مُستقل يدعوى طابعه الفرنسي وينتمي إلى مُنظمة مُنافسة هي «الفرانكوفونية».

ومن الغريب أن هذه المشكلة ما زالت قائمة حتى الآن. وإلى دَرَجة أنه عندما ذهب السكرتير العام لمنظمة الفرانكوفون (الدكتور «بطرس غالي») لزيارة إلى كَنَدا، وقعت مُشادة بين ولاية «كيوبيك» (فرنسية الطابع) وبين الحكومة الكَنَدية (عُضو الكومنولث) - أيهما يكون المضيف الرسمي للسكرتير العام الزائر (دَولة الكومنولث - أو إقليم الثقافة الفرنسية)؟!

٣ - إن كليرين تَرَدّدوا في الاعتراف بالمنظمة الجديدة على أساس «محدودية اللغة الفرنسية». وتقدير هؤلاء - وهو صحيح - أن اللغة الفرنسية رغم تراثها تقع في المرتبة التاسعة بمقياس الانتشار، لأنه في التساع التداوُل العالمي قبلها، تماني لغات غيرها هي: الصينية، والإنجليزية، والهندية، والأسبانية، والروسية، والعَرَبية، والبنغالية، والبرتغالية.

٤ - وأخيراً كان هناك سَبَبٌ رابع - أهَمّ الأسباب - وملخّصه أن الحكومة الفرنسية لم تكن لديها الموارد التي تمكنها من الصرف على المنظّمة وفتح الطريق أمامها حتى تُنافس الكومنولث البريطاني على الأقل. وفي تلك الأيام شاعَ في المجتمع الدولي وَصفٌ لمنظمة «الفرانكوفونية» يعتبرها: «مُنظّمة ذات «شهرة» متواضعة و«سُمعة» أكثر تواضعاً!».

ولعل السَبَب الذي استدعى ذلك الوصف القاسي أن مُنظّمة «الفرانكوفون» زادَ اقترابها من إدارة المخابرات الخارجية - والسَبَب الأعلى أن الاتحاد السوفيتي في أواخر الحرب الباردة اتخذ من أفريقيا ساحة لهجومه الأخير، وبتركيز على المستعمرات الفرنسية السابقة التي تأثر زعماؤها بالماركسية وانتمى عَدَدٌ منهم فعلاً إلى الحزب الشيوعي الفرنسي عندما كانوا طلبة علم في باريس (وبينهم رجال من أمثال «سيكوتوري» زعيم غينيا، و«موبوتيو كيتا» زعيم مالي، وكلاهما لم يكن عُضواً نشطاً في الحزب الشيوعي الفرنسي وحسب، وإنما استطاع أن يُصبح زعيماً نقابياً له سُطوته).■

٣

رَجُل باريس القوي في السبعينات

■■ في سبتمبر ١٩٧١ كنت في فرنسا لزيارة عَمَل، فقد كانت الطبعة الفرنسية من كتابي عن «جمال عبد الناصر وعلاقاته الدولية» على وشك أن تُظهر تحت عنوان «وثائق القاهرة» عن دار «فلاماريون» للنشر. لكن الزيارة أحاط بها مُناخ أضفى عليها ما زاد عن حقيقتها.

وكان السَبَب أنه شاعَ في الولايات المتحدة وفي أوروبا أنني - في ذلك الوقت - الصديق الأقرب إلى الرئيس المصري الجديد «أنور السادات» - وأنني كنت أحد الجسور التي انتقلت عليها الرئاسة إليه من سَلَفه («جمال عبد الناصر») - (وكان ذلك ما دعا جريدة مثل «النيويورك تيمس» أن تَنشر مقالاً بعَرض سَبعة أعمدة عنوانه «الرَجُل الأهَم الثاني في مصر» - وكنت المقصود به. ورغم أنني حاولت أن أصحّح، فإن كليرين تصوّروا أن التصحيح «تواضُع»!)

والشاهد أنني أذكر ذلك لأن وقائع ما سوف أسرده فيما بَعد تَرتّبت على هذا الانطباع رغم كل ما حاولت - وعليه فقد لاحَظتُ أثناء تلك الزيارة لفرنسا اهتماماً غير عادي يُبدَى في الترتيبات وفي المراسم. وبين ما لاحظته أنني طلبت مواعيد مع عَدَدٍ من الناس، لكن ما تحدّدَ لي تجاوَز ما طلبتُه، وهكذا وَجدتُ لي مواعيد تحدّدت مع رئيس الجمهورية، ورئيس الوزراء، ووزير الخارجية، وحتى وزير الاقتصاد وهو في ذلك الوقت «جيسكار ديستان» الذي أصبح فيما بعد رئيساً للجمهورية.

ومع أنني شديد الاعتزاز بمهنتي، فلم يكن صاحب القصر - الذي تحوّل إلى فندق - وهو «الدوق الماريشال دي كريون» صديق «هنري الرابع، وصَفيّه» - أمسكت «تيريز دي سان فال» بيدي وأخذتني جانباً لتقول لي همساً: «ابن عَمّي يريد أن يقابلك.. وقد طلَبَ مني أن أرتّب له مَوعداً معك بعيداً عن الإطار الرسمي. وكان يستطيع أن يَطلب تحديد موعد معك بواسطة وزارة الخارجية، لكنه فَضّلَ أن تَصل إليك رَغبته بطريق غير رسمي».

ولاحظت الكونتيسة «دي سان فال» أنني أحتاج لتفصيلاً أكثر، فأضافت دون سؤال: «ابن عَمّي مسئول كبير في الدولة وهو الكونت الكسندر دي مارانش».

ووقتها كان هذا الاسم جديداً عليّ وغريباً تماماً، لكنني لم أجد في جِدّة الاسم وغُربته ما في مَقدوري أن أتجاهَل حقيقة أن بعض ما قاله «رَسمي» أكثر منه «صَخَفي».

□

وحَدَث يوم ١٢ سبتمبر (١٩٧١) أن زارني لفنجان شاي حيث كنت أقيم في فندق «الكريون» (على ميدان «الكونكورد» وفي مواجهة المسلّة المصرية الشهيرة في وَسَطه) - عَدَدٌ من المهتمين بالفكر والنشر - أربعة أو خمسة (فقد سَجّلتُ المناسبة في أوراقي ولم أسجّل العَدَد) - وكانت بينهم صديقة عَزيزة هي الكونتيسة «تيريز دي سان فال»، وهي سيدة من أسرة عريقة جَذبَتها عوالم الثقافة فاقتربت واهتمت.

وانتهى اللقاء، وبينما كنا نخرج (من الصالون الوحيد الذي بقي على حاله من عَهد

يدعونى الى الاعتذار عن طلب اللقاء خصوصاً وقد جاءنى من صديقة عزيزة عرفتها من قبل زمناً طويلاً.

وصباح اليوم التالى ـ الساعة العاشرة صباحاً ـ كنت انتظر زائرى فى القاعة الصغيرة الأخرى المواجهة لصالون «الدوق الماريشال دى كريون» ـ وكانت تلك القاعة الصغيرة ما تزال أبهاها مكتبة أصيلة عتيقة، موحية ـ بكل محتوياتها وبينها الكتب صفوفاً على الرفوف ـ ينوء من الكبرياء والجلال (ومن سوء الحظ انها تَحَوَّلت فيما بَعد إلى رُكَّان لبيع التُّحَف والتذكارات). ولاحظتُ من حيث كنت جالساً ـ انتظر ضيفى ـ حَرَكة بَدَت لى غير عادية عند مَدخل الفندق، لكننى لم أتوقف مع ما لاحظتُ طويلاً، فالفندق هو المقر الرسمى الذى تختاره الحكومة الفرنسية لضيوفها، ومن الطبيعى أن يكون نُزلاؤه ممن يُستقبلون بحَرَكة غير عادية عند مَدخله. ثم وَصَلَ الرَّجُل الذى كنت انتظره، وقدَّم لى نفسه: «الكسندر دى مارانش، من مساعدى رئيس الدولة».

وبالمظهر والحَرَكة والإيماءة بدا لى الرَّجُل ارستُقراطياً إنجليزياً أكثر منه أرستقراطيا فرنسيا. وكنت قَدَّرتُ للقائنا نصف ساعة، لكن زائرى كان عارفاً ومُطلعاً ومُشوِّقاً إلى دَرَجة اننا جَلَسنا معاً ساعة ونصف الساعة ولم انتبه إلى مرور الوقت. وحين خَرَجتُ بعد انتهاء اللقاء أودَعه إلى باب الفندق، لم يكن فى مقدورى أن أتجاهَل حَجم «الضَجَّة» التى اثارها مَجيئه وانصرافه. فمدير الفندق نفسه كان واقفاً فى الانتظار ومعه مُساعده (الأستاذ «عزيز جرجس» وهو محاسب مصرى كُفء هاجَر إلى فرنسا مُبكراً)، كما أن هناك جماعة من الرجال كانوا مُثنائرين عند مَدخل الفندق وقد تَجَمَّعوا مع خروج «الكسندر دى مارانش» واحاطوا بسيارته حتى انطلقت إلى زحام «الكونكورد».

والتفت إلى مدير الفندق وسألته عن داعى ذلك الاهتمام كله ؟ وسألنى الرَّجُل باستغراب : «ألا تعرف مَن كان زائرك ؟» ـ قلت : «أعرف اسمه، وعَرَفتُ منه أنه من مساعدى الرئيس».

وفَهِمَ مدير الفندق على الطريقة الفرنسية: «آ... هم» ـ ثم تَرَدَّدَ قبل أن يقول :

«سيدى .. هذا أقصى رَجُل فى فرنسا، ومع ضَعف الأحزاب السياسية، ومع تَرَدِّى الإدارة الحكومية كما هو الواقع الآن ـ فإن الكونت الكسندر دى مارانش «أهم رَجُل» فى الدولة الفرنسية، هو مدير «المخابرات الخارجية» لفرنسا».

ثم أضاف بعد وَقفة قصيرة : «المخابرات الخارجية لفرنسا ـ والداخلية أيضاً .. إذ كيف يمكن ـ يا سيدى ـ أن تفصل الخارج عن الداخل؟»

وفى السفارة المصرية فى باريس ذات اليوم سمعتُ تأكيداً لوَضع «الكسندر دى مارانش» على هَرَم السُلطة فى باريس عند الذروة أو قربها. ومَرَّ علىَّ فى الفندق مسئول مصرى كنت أعرف انه حلقة اتصال لها دورها فى علاقات أجهزة المخابرات المصرية مع غيرها من أجهزة المخابرات فى فرنسا وحولها، وكان بوسائله قد عَرَف بزيارة «دى مارانش» لى، وزاد بما لديه فى تعريفى بأهمية زائرى!

□

مساء نفس اليوم عادَت الكونتيسة «تيريز دى سان فال» تتصل بى تليفونياً لتقول أن «ابن عَمِّها» يريد دَعوَتى فى مكتبه لأن لديه ما يَودُّ إطلاعى عليه والحديث معى فى شأنه، وقد طَلَبَ إليها أن «تجس النبض» لتتأكَّد من قبولى قبل أن يُجازف بالاتصال ليُوَجِّه الدعوة، وعَلَّقت «تيريز» : «الحقيقة أنك قد ترى مناسباً أن تُزُرَّله الزيارة».

ومساء اليوم التالى ـ ١٤ سبتمبر ـ كنت «أزُرُّ الزيارة» للكونت «الكسندر دى مارانش» فى مكتبه.

واترك وَصف إجراءات الزيارة ـ ووَصف مَقر إدارة المخابرات الخارجية الفرنسية S.D.E.C.E ـ ووَصف مكتب مديرها القوى ـ لأن ذلك مما يَطول شرحه، ويَخرج عن سياق الموضوع ـ لأرَكِّز أكثر على كلام «الكسندر دى مارانش».

.....

.....

بعد دقائق من بدء اللقاء لَمَسَ الرَّجُل زرّاً أمامه، وأضاءت ورائى خريطة بالألوان استدرت لأراها بناء على طلبه. وكانت الخريطة لمواقع إنتاج البترول فى افريقيا وآسيا على عَرض المسافة من انجولا على المحيط الأطلنطى وحتى الملايو على بحر الصين. وكان أهم ما فى الخريطة تلك الخطوط العريضة والأقل عَرضاً للطُرُق الرئيسية والفرعية لمواصلات البترول من منابعه إلى موانئ أوروبا. وخصوصاً «روتردام».

وقال لى «دى مارانش» وهو يُلفت نظرى إلى هذه الطُرُق لشبَكَة نَقل البترول ـ أو حَرَكة الدورة الدَمَوية لاقتصاد الغرب ـ كما سَمَّاها ـ ما مُلَخَّصه : «سوف اطبع لك نُسخة من هذه الخريطة، خُذها معك وادرسها على مهل. ودَقِّق فى مفاتيح الخريطة وأرقامها، وستُشعِّر بخطورة ما أريد أن أشرحه لك».

اللغة الفرنسية ـ رغم ثرائها ـ تقع فى المرتبة التاسعة بمقياس الانتشار، لأنه فى اتساع التداول العالمى قبلها، ثمانى لغات غيرها هى: الصينية، والإنجليزية، والهندية، والأسبانية، والروسية، والعربية، والبنغالية، والبرتغالية

وقلتُ له الكسندر دى مارانش»: «ثم ماذا؟»

وكانت تلك دَعوة له يَشرَح ويُسهِّب، ولم يَتَرَدَّد، فقد كان ذلك قصده وطلبه من دَعوَتى إلى مكتبه، وكان مُلَخَّص ما قاله :

١ ـ أن العالم العَرَبى ـ بثروله ومَوقعه ـ قَضيَّة كبرى بالنسبة للغرب : أمنه واقتصاده.

٢ ـ أن البترول فى الواقع ـ وبسبب إغلاق قناة السويس منذ سنة ١٩٦٧ ـ يَدور حول افريقيا على خطين : من الجزائر ـ إلى سيراليون ـ إلى نيجيريا ـ إلى انجولا ـ ثم يَلف حول «راس الرجاء الصالح». وهناك يَلتَقى بالمحيط الهندى ذاهباً وعائداً ـ هذا خط. وخط ثان أهم وهو من الخليج العَرَبى وإليه طالعاً على البَرّ من البَصرة إلى الموصل، ومن الموصل إلى القوقاز. ورأى «دى مارانش» فى النهاية أن هذه الدائرة نزولاً فى الأطلنطى إلى «راس الرجاء الصالح»، وصعوداً من هناك إلى المحيط الهندى، ونفاذاً من البصرة إلى القوقاز ـ هى الدائرة التى يَتعلَّق بها مصير العالم وتَجرى من حولها صراعاته. وانه فى داخلها ومن حولها تُتراءى كل المواقع الحسَّاسة والمكشوفة والمعَرَّضة للخطر.

٣ ـ وحماية البترول وتأمين مواصلاته يمكن فى أحوال عادية أن تكون مسئولية أمريكية ـ أوروبية، لكن المشكلة أن أمريكا غارقة فى المستنقعات الدَمَوية لفيتنام. ثم إن أوروبا ليست واعية بما فيه الكفاية. قُوَّة بريطانيا شاخَت. وقوة ألمانيا فى طفولتها. وهذا يُعطى مسئولية أوروبا لفرنسا بالدَرَجة الأولى.

٤ ـ وفرنسا لا تستطيع أن تقوم بالمهمة وحدها. ولا تريد أن تقوم بالمهمة وحدها، وإنما تريد شراكة مع العالم العَرَبى تَقودها مصر وهى أكبر الدُوَل العَرَبية. واعتقاده ـ وهو يريد أن يسمع تأكيداً له ـ أن مصر مُهَيَّأة للتعاون مع فرنسا أكثر من أى دَولة عَرَبية أخرى ـ كما أن فرنسا أكثر من جاهزة للتعاون مع مصر بحكم علاقات مُتَوَسطية زادت قرباً بصلات ثقافية بدَأت من «نابليون» وقَومه ـ ـ إلى الموقع الذى اعتبره وبحق ـ بتأكيد «دى مارانش» من جديد ـ «أهم موقع على خريطة الدُنيا» !

وكنت أريد أن أسمع «الكسندر دى مارانش». وقد الزَمتُ نفسى بحزم أن لا اتَدَخَّل فى مَجرى حديثه إلا بالقدر اللازم لاستمرار تَدَفُّقه. ولم يكن غافلاً عن قصدى، فقد أدرك بحاسته انَنى أريد أن أسمع فقط، ولم يكن يمانع. ومرة أخرى كان ذلك ما يريده وما يطلبه من لقائنا. وكذلك كَرَّرتُ له نفس ما سمعه منى سابقاً: «ثم ماذا؟»

واستطرد «دى مارانش» يسألنى بما مُلخصه:

«هل تظن أن الرئيس السادات على استعداد لأن يتعاون مع فرنسا؟ نريده أن يثق اننا معه بأكثر مما قد نظن».

ثم واصل حديثه بعد أسبابه:

أولاً - «نحن وأنتم مُنقسمون على أن الاتحاد السوفيتى موجود فى المنطقة ويؤيد العرب ليس حُبًا فيهم أو كراهية فى إسرائيل - وإنما هو هناك يُساعد لأنه يطلب الموقع - وثرواته (منابع البترول) - وخطوط مواصلاته من حول أفريقيا وحتى المحيط الهندى. والمياه الدافئة كما تذكر كانت حُلم «بطرس الأكبر» - وهى أحلام كل قيصر روسى من يومها وحتى الآن.

ونحن لدينا معلومات كافية عن طلبات الرئيس «السادات» من أصدقائه السوفييت (قالها وابتسم) - نعرف انه يطلب وانهم لا يُلبون طلباته. ونعرف انه مُنضايق».

ثانياً - «نحن ساعدناكم فى السلاح بأكثر مما تتصورون. وإذا كنتم تتصورون اننا تعاقدنا على أكثر من مائة طائرة من طراز «ميراج» لليبيا دون أن نعرف انها فى الحقيقة لكم (لمصر) - فإنكم تقعون فى خطأ كبير. لقد كنا نعرف. وعندما جاءتنا بعثة المشتروات الليبية الأولى كنا مُتأكدين أن رئيسها البريجادير «حسن مطاوع» ضابط رفيع الرتبة فى سلاح الطيران المصرى. ومع انه جاء إلى باريس هو ووفده بجوازات سفر ليبية. فقد كنا على علم - حتى قبل أن يلفت الأمريكان والإسرائيليون نظرنا - بأنها جوازات مصنوعة لهذه المهمة - وقد استطعنا الحصول على الجوازات الأصلية المصرية. كنا على علم - على يقين. لم يخدعنا أحد وإنما عرفنا الحقيقة من اللحظة الأولى. ومشينا فى اللعبة حتى نبيع لليبيا - أو لكم - مُقاتلة قاذفة حديثة طلبتموها من موسكو وبخلت بها عليكم».

.....

.....

استطرد الكونت «الكسندر دى مارانش» وكأنه يَرُدُّ على تساؤلات طرحت نفسها على خواطرى. واستشعرها بحواسه - فقال:

«لا أريد أن أخدعك وأصوّر لك المسألة لتبدو مساعدة لكم فى الحرب ضدّ إسرائيل. ذلك أبعد ما يكون عن تفكيرنا.

لقد قبلنا بالصفقة مع ليبيا ونحن نعرف انها فى الحقيقة لكم - قبلنا لأربعة أسباب:

● أن الصفقة من الناحية الاقتصادية مُجزية ونحن نريدها.

● وأن الصفقة تفتح للصناعة الفرنسية فُرصاً فى سوق المنطقة. ونحن نسعى إليه.

● أن دخول السلاح الفرنسى إلى المنطقة يُعطينا على مائدة «التسوية» مقعداً.

● ثم إننا شبه مُتأكدين أن المخاطرة محسوبة لأن طائراتنا لن تُشارك فى معركة. لأننا نعتقد أن الأزمة لا تحلها الحرب».

.....

.....

ومضت لحظة صمت. وواصل «دى مارانش» عرض أسبابه:

«ثالثاً - إن فرنسا اتخذت موقفاً حيال إزاء أزمة الشرق الأوسط يختلف عن موقف أمريكا وبريطانيا. وأنتم فتحتم صفحة جديدة معنا من أيام «ناصر». وأنت بنفسك جئت وقابلت الجنرال «ديجول». ولم أجد فى سجلات «الإليزيه محضراً تفصيلياً للمقابلة، ولكنى وجدتُ مُلخصاً لها واضحاً فيما يعنيه - مُؤداه: «إنكم تريدون فتح صفحة جديدة مع فرنسا».

رابعاً - سواء توصّلتم إلى حلّ سلمى مع إسرائيل أو لم تتوصّلوا فإن هذه الأزمة سوف تُجدّ خالاً لنفسها قريباً - سنة - سنتان - لا أستطيع أن أقدّر تماماً - لكنه بعد هذه الأزمة يتعيّن على مصر أن تمارس دورها إيجابياً فى المنطقة وفى العالم. ظروف سنة ١٩٦٧ التزمتكم سياسياً بموقف دفاعى - سلبى - لكنه بعد انتهاء هذه الأزمة عليكم أن تستأنفوا دوركم، ولكن دعنى أقول لك بصراحة أن دوركم فى المستقبل لا بد أن يختلف عن دوركم فى الماضى. والسبب بسيط وهو أن «السادات» غير «ناصر». ثم إن الزمن القادم يختلف عن الزمن الماضى».

□

قلت للكونت «دى مارانش»: «ما زال سؤالى المتكرّر فى هذا اللقاء قائماً مُعلّقاً فى الهواء: ثم ماذا؟»

وقال الرجُل بأمانة احترمتها فيه:

«افهمك جيداً.. أنت لا تريد أن تُلزم نفسك برَدٍّ على ما أقوله لك.. ولا حتى برَدّ فعل لما تسمعه منى. تريد أن تحتفظ لنفسك بموقفك. حسناً. (Bon) ذلك حقك!»

واستأنف حديثه طارحاً مُقترحات على شكل أسئلة:

- «ما رأيك مثلاً فى فكرة «عَمَل مُشترك» نقوم به معاً (فرنسا ومصر) فى أفريقيا. قد نرى أن ندعو معنا بعض الأصدقاء المهتمين الذين يمكن إقناعهم بالمشاركة. ما رأيك فى مُشاركة المغرب؟ فى مُشاركة إيران؟ كنا نتمنى لو استطعنا أن نعرض على «سوريا» أن تُشارك. لكن «سوريا» فيما يظهر لنا «مقفولة».

الروس يُقدّمون بسرعة فى وَسَط القارة الرّخو من غانا إلى الصومال، ومن مصلحتنا جميعاً إيقافهم!

- ما رأيك مثلاً فى فكرة حوار بين المسيحية والإسلام؟ - الإسلام تيّار سياسى صاعد فى المنطقة، وإذا لم نستطع ترويض هذا التيّار فقد يتحوّل إلى تهديد. المعهد الفرنسى كان لديه مشروع حوار بين الغرب والإسلام - الحوار بين الاثنين طويل - وعميق. وفى بعض الأحيان «لم يكن وديًا». فى الظروف المستجدّة نستطيع أن نُحوّله من عداء ناطق أو صامت إلى حوار مُنظّم ودود.

- ما رأيك مثلاً فى فكرة اشتراك مصر فى مُنظمة الفرانكوفون؟ - فى وقت من الأوقات كانت اللغة الفرنسية لغة الصفوة عندكم، ونعرف انها لم تُعد كذلك الآن لأن اللغة الإنجليزية طغت عليها. لكن الثقافة الفرنسية فى مصر لها جذور عميقة، ومُنظمة الفرانكوفون بالدرجة الأولى تُجمّع «ثقافى» وهى لمصلحتكم. وأنتم تريدون مدخلاً أوروبياً إلى الغرب. وفرنسا قلب أوروبا، وهى المرشّحة أن تكون مدخلكم إلى الغرب. مهما قلعلتم فإن هوى أمريكا سوف يظل دائماً مع إسرائيل. وإسرائيل صديق لفرنسا، لكنها صديق يلزم حدّه ولا يتجاوزه. ليس عندنا لوبى يهودى يؤثر على سياسة فرنسا. بالعكس عندنا فى فرنسا حساسية شديدة من اليهود. لسنا مُعادين للسامية طبعاً، لكننا نكره نفوذاً نراه عابراً للحدود، نافذاً إلى بعيد - إلى أبعد مما نرى؟!»

ومضى الكونت «دى مارانش» إلى اقتراحات أخرى عَرَضَ لها بسرعة - ولم يكن فيها ما يستوقف النظر، أو يلفت ويثير!

ونظرتُ إلى ساعتى. وتنبّهتُ إلى أننى فى هذا المكتب منذ ساعتين وثلث الساعة. وقد كان ما سمعته شديد الأهمية - لكن الوقت الآن أزف، ولدىّ موعد للعشاء مع وزير الخارجية «ميشيل جوبير». وقلت للكونت «دى مارانش» ما مُلخصه:

«إنه ادرك بذكائه وكَرَمه اننى أريد أن أسمع دون تعليق. ليس لأنى لا أريد أن ألزم نفسى بشىء، وإنما لأنى أعتبر أن ما قاله لى رسالة إلى الرئيس «السادات»، وسوف أنقلها إليه بأمانة. لكنه فى هذا الشأن سوف يسمع ردّ الرئيس من غيرى لأنى - حتى إذا لم يُصدّق هو ولم يُصدّق غيره - أريد أن أظل باستمرار داخل حدود رسالتها للدور، وتفهّمتُ فيما بينى وبين نفسى أن لا تتخطاها. وأحسب انه يستطيع أن يُفهمنى فيما أقول».

وكان الرجُل رقيقاً حين ردّ علىّ «بانه لا يتفهّم ما أقول فقط ولكنه يُصدّقه أيضاً. فقد سَمِعَ حتى قبل أن يُلقانى نصيحة من «كوف دى مورفيل» - وكان من قبل سفيراً لبلاده فى القاهرة (وفيما بعد أصبح رئيساً للوزراء) - ما يُؤكّد له هذا الموقف الذى التزمتُ نفسى به».

ثم أضاف: «انه واثق اننى أستطيع أن أنقل للرئيس «السادات» صورة كاملة مُقنعة لما سمعتُه منه».

وقلتُ بسرعة: «صورة كاملة نعم - ولكن مُقنعة.. هذه مسألة أخرى؟!»

وكان الرّجُل مُتحضّراً حين قال: «معك حق.. هناك فارقٌ بين الحالتين»!

أقوى رجل فى فرنسا يسأل:
- ما رأيك مثلا فى فكرة «عمل مشترك» نقوم به معا (فرنسا ومصر) فى أفريقيا؟
- ما رأيك مثلا فى فكرة حوار بين المسيحية والإسلام؟.
الإسلام تيار سياسى صاعد فى المنطقة، وإذا لم نستطع ترويض هذا التيار، فقد يتحول إلى تهديد.
- ما رأيك مثلا فى فكرة اشتراك مصر فى منظمة الفرانكفون؟

مُـغـامَـرات نادى «السـافـارى» فى أفـريقـيـا

■■ ومَرّت سنوات - تُجرُّ وراءها سنوات - وغابَت عن فكرى واهتماماتى مشروعات الكونت «الكسندر دى مارانش» رئيس إدارة أمن الدّولة ومكافحة التّجسّس «S.D.E.C.E» - بخصوص أفريقيا - والإسلام - والفرانكوفونية - وماذا يستطيع العَرَب أن يَفعلوا؟ وكيف يكون دورهم إذا قرروا «المشارَكة» فعلاً فى سياسات «دى مارانش» مُحَقّقة لصالح وأمن فرنسا و«أوروبا والعالم الحُر»، وفى نفس الوقت للعَرَب (كذلك فى شرحه).

ثم حَدَث فى طهران بداية سنة ١٩٨١ أننى وَجَدتُ أول مشروعات «الكسندر دى مارانش» أمامى حَيّة صاخبة بالحَرَكة - ورأيتُ الدليل عليها أمامى ناطقاً بالتفاصيل فى مجموعة الوثائق التى تَركها شاه إيران - «محمد رضا بهلوى» - وراءه عندما غادَرَ قصره الشاهنشاهى «نيافاران» قاصداً إلى مَنفى - مصرى - كَتَبَ عليه أن يَموت فيه!

وكان ضمن هذه الوثائق التى اطلعت عليها بتصريح من «آية الله الخمينى» قائد الثورة الإسلامية فى إيران - نُص معاهدة من أغرب النصوص السياسية التى صادَفتُها فى عَملى. وكانت المعاهدة تحمل عدّة توقيعات أوّلها وأبرزها توقيع «الكسندر دى مارانش»!

ثم كانت هناك مع نُص هذه المعاهدة - وثائق وأوراق أخرى ثُروى تفاصيل واحدة من أهَمّ العمليات السرية فى عصر الحرب الباردة - وكان مما يُضيف إلى أهميتها أن هذه العملية سَجّلَها اتفاق مكتوب وَقّعَ عليه الأطراف - خلافاً لكل المتعارف عليه فى التّجَمّع وراء عملية سرية.

.....

.....

[وربما أن اتفاقية «سيفر» المشهورة فى تواطؤ العُدوان الثلاثى بين بريطانيا وفرنسا وإسرائيل على السويس سنة ١٩٥٦ - كانت المثل الوحيد الذى سَبَق فى عصر الحرب الباردة. وعلى أية حال فإنه فى ذلك الوقت لم يكن نُص اتفاقية «سيفر» التى وَقّعَ عليها رؤساء حكومات بريطانيا وفرنسا وإسرائيل قد أذيع بنُصّه وتأكّد وجود الاتفاقية بيقين لا يُداخله شك. ومع ذلك فإن «سيفر» كانت اتفاقية وَقّعها ساسة - لكن المَذهل فى تلك الاتفاقية التى تركها شاه إيران وراءه فى مكتبه وخرج - لم تكن بتوقيع ساسة وإنما كانت بتوقيع مسئولى أجهزة مُخابرات مُثلوا رؤساء دُوَلهم مباشرة وفُوّضوا فى التوقيع، وهى - فيما أعلم - سابقة ليس لها مثيل فى العَمَل السِرّى.]

□

كانت مُلابَسات المعاهدة كما تُظهر الأوراق التى تركها الشاه وراءه - كما يلى:

١ - أن الكونت «الكسندر دى مارانش» زارَ طهران سِرّاً فى وقت ما - بين يناير ومارس سنة ١٩٧٤ - وعَرَض على الشاه خطة عَمَل مُشتَرَك «ضدّ النشاط الثورى الشيوعى فى أفريقيا». وهو - حَسَب قوله - نشاط يُهَدّد القارة كما يُهَدّد الطُرُق الملاحية المحيطة بها، وهذه الطُرُق أصبحت لها أهمية حَيَوية بحقيقة أن إغلاق قناة السويس (نتيجة معارك ١٩٦٧) جَعَلَ الدَوَران حول أفريقيا هو الطريق الدائرى الوحيد لمرور ناقلات البترول من كافة المنابع (الشرق الأوسط، والخليج، والقوقاز، وجنوب شرق آسيا، وسواحل أفريقيا الغربية (نيجيريا وأنجولا).

٢ - وكان «دى مارانش» يعرف اهتمام الشاه «محمد رضا بهلوى» بأفريقيا سواء لأسباب عاطفية إنسانية، أو لأسباب اقتصادية مالية. فمن الناحية العاطفية الإنسانية فإن والده «رضا خان» الذى خُلِع عن العرش سنة ١٩٤١ وتَمَرّر نفسيّاً - اختار مَنفاه فى جنوب أفريقيا (أبعد ما يكون عن إيران وعن الألمان الذين اتهم بالتواطؤ معهم). وقد بقى «رضا خان» فى جنوب أفريقيا حتى مات. لكنه أثناء وجوده فى المنفى اقتنع باستثمار جزء كبير من أمواله فى شركة «الترنسفال للتنمية»، وهى شركة كانت تعمل بالتعاون مع مجموعة شركات «دى بيرز» للتنقيب عن الماس فى مناجم جنوب أفريقيا - وكذلك فى صَقله وتسويقه. وكانت الشركة فى ذلك الوقت تُنتج وتُحتفظ بإنتاجها فى خزائنها تُسعّد به لعالَم ما بعد الحرب وأسواقه المتَشَوّقة للاستهلاك بعد سنوات من القيود والضغوط - وكانت تَوَقّعاتها أن «أمريكا» سوف تكون السوق الأعظم حينئذ - ثم تليها أوروبا عندما تُسعّد عافيتها بعد سنوات قَدّرَتها شركات الماس بما بين عشر إلى خمس عشرة سنة.

وفى ذلك الوقت - وحين كان «دى مارانش» يُفضى إلى الشاه بمشروعاته - كانت استثمارات أسرة «بهلوى» فى جنوب أفريقيا قد بلغت ذروتها. وزاد عليها أن ارتفاع أسعار البترول (١٩٧٤) مَكّن أسرة «بهلوى» من زيادة استثماراتها الأفريقية، التى أصبحت أكثر إغراء لسبب مُستَجِد وهو أن العَرَب دخلوا مُشترين بشدة فى أسواق الماس وأسواق غيره من الأحجار الكريمة (ولم يكن العَرَب يعرفون هذه الأحجار من قبل، لأنهم استغنوا باللؤلؤ المتاح لهم فى الخليج عن الماس الذى خطف بريقه أنظارهم من بعيد. ثم أصبح البعيد قريباً بنزول أسعار النفط بعد حَرب أكتوبر ١٩٧٣!)

٣ - أن «دى مارانش» أيضا كان يَعرف عند الشاه «نزعات إمبراطورية» تبحث عن ميادين تُحَقّق عليها طموحها - وهكذا عَرَض عليه أفريقيا.

وكانت حُجّج «دى مارانش» كما هى ظاهرة فى الأوراق:

- أن أفريقيا هى المجال الإستراتيجى الأكبر والأغنى، والأكثر تَعَرُّضاً للخطر والطمع من جانب «قوى الثورة العالمية» - الاتحاد السوفيتى - والصين.

- وأفريقيا هى العُمق الإستراتيجى الطبيعى والمفتوح للشرق الأوسط، وإذا كان العُمق الأوروبى فى الشمال مُزَحماً بما فيه من القوى - فإن العُمق الأفريقى فَراغ تماماً من أى قوة، لأن القوى الإمبراطورية التى كانت تملأ الفراغ إما غير قادرة وإما غير راغبة.

■ وبريطانيا مثلاً غير قادرة وغير راغبة (فى تقدير الكونت «دى مارانش»).

عندما جاء وقت الغنائم لم تكن الأطراف العربية هناك، وإنما كانت هناك إسرائيل تقيم شراكة مع «اتحاد معادن كونسوليديتد المحدود» الذى تملكه «دى بيرز»، ثم تحصل شركة إسرائيلية تعمل فى «أنجولا» على ثلاثين موقعا للبحث عن الماس مع الحق فى ثلاثمائة أخرى

■ وأمريكا قادرة وراغبة، لكن فعلها مُقيّد الآن (سنة ١٩٧٤) بسبب ضعف الرئاسة الأمريكية الذي نشبت فيه ورطة الحرب في فيتنام من أيام «جونسون». ثم فضيحة «ووترجيت» التي انزلق إليها الرئيس الحالي «ريتشارد نيكسون». وقد تفاقم العجز الأمريكي بالقيود التي وضعها الكونجرس مع وكالة المخابرات المركزية الأمريكية.

ـ وأنه فيما يتعلق بفرنسا فأمامها بافريقيا له أسباب إستراتيجية، وتاريخية، وثقافية. لأن فرنسا ـ كذلك يقول الكونت ـ قادرة وراغبة، لكن العبء كبير وهي لا تستطيع احتماله وحدها. وقد فكّرت في الغرب، وجسّت نبض أصدقاء لها بينهم وأهمهم «السعودية». ووجدت لديهم استعداداً، لكنهم أرادوا أن يستوثقوا من أن الولايات المتحدة لا تعترض. فهم يعرفون حساسية واشنطن من تعامُل أوروبي غربي، يجري وراء ظهرها. وقد تفهّمت فرنسا هذا الحذر السعودي وفتحت له الطريق. وتكفّل الكونت «دي مارانش» نفسه بمفاتحة مجلس الأمن القومي في البيت الأبيض («هنري كيسنجر»)، ووكالة المخابرات المركزية الأمريكية ورئيسها («ريتشارد هيلمز»). وحصل بالفعل على إشارة ضوء أخضر وصلت إلى السعوديين وهم الآن جاهزون.

«لكن الغرب يحتاجون تشجيعاً يُطمئنهم ويقودهم» ـ كذلك قال الكونت «الكسندر دي مارانش». وهكذا تحمّس الشاه «محمد رضا بهلوي».

وقد تعدّدت اللقاءات بين الاثنين ـ الشاه والكونت (ستة لقاءات في ظرف شهرين) وعرض الشاه استعداده لمفاتحة الرئيس «أنور السادات» في الأمر واثقاً أنه سوف يشترك. كذلك عرض الشاه استعداده لإقناع الملك «الحسن» ملك المغرب. وأبدى الكونت «الكسندر دي مارانش» ـ أنهم اتصلوا» بالملك «الحسن» وهو «محجب» بالفكرة، معتقد بإمكان تحقيقها. فقنع بجدواها.

٤ ـ وأبدى شاه إيران ملاحظة عما إذا كان مفيداً دعوة الجزائر للاشتراك في هذا «المجهود الطيب» لإنقاذ افريقيا. ولكن «دي مارانش» عارض مُفاتحة الجزائر لأن الرئيس الجزائري (هواري) «بومدين» ما زال يعيش «أوهام» الثورية» وله صداقات قوية مع الشيوعيين في موسكو وبكين ـ وزيادة على ذلك فإن الجزائر لديها «حلم افريقي» يخصها. وهو يشك أنها تريد أن تتعاون مع أحد في مشروع هو أكبر من اختصاص دولة واحدة، وأوسع من أحلام (جزائرية) لا تسندها إمكانيات حقيقية أو كافية!

٥ ـ أضاف «دي مارانش» أن المشروع لا يجب أن يكون مشروع دُول فقط. وإنما من الأفضل أن تُقدّر منه مجموعة الشركات الدولية المهشّمة بافريقيا ومواردها، وسمّى بالفعل، وعلى سبيل المثال لا الحصر، مجموعة شركات «الأنجلو أمريكان» التي تملكها عائلة «أوبنهايمر» في جنوب افريقيا (وهي أهم مُحتكر لأسواق الماس) ـ كما سمّى بنك «تشيز مانهاتن» الذي استثمر بكثافة في افريقيا ـ وأضاف أنه تحادث في «هذه الفكرة» مع «افيد روكفللر» رئيس مجلس إدارة «تشيز»!

وربما أن «دي مارانش» أشار في حديثه مع الشاه إلى أسرة «روكفللر» وهو يعلم أن الأسرة «متعامل نشيط» في «سوق البترول الإيراني». ثم إن الأسرة أيضاً على علاقة وثيقة بعرش الطاووس الإيراني من قبل ثورة الدكتور «محمد مصدق» (تأميم البترول الإيراني)، وبعد سقوط «مصدق» (بانقلاب موّلته شركات البترول العالمية ونفّذته وكالة المخابرات المركزية الأمريكية!

□

وبعد اتصالات مكثفة وسرية التقت في مدينة «جدة» (في أواخر سنة ١٩٧٤ أو أوائل ١٩٧٥) مجموعة من خمسة رجال مُفوّضين من رؤسائهم بالتوقيع على معاهدة للعمل السري المشترك في افريقيا. وكان الاجتماع في بيت الشيخ «كمال أدهم» رئيس المخابرات السعودية (في ذلك الوقت).

وطبقاً لنص المعاهدة الذي وُجد ضمن أوراق الشاه ـ بدأت المعاهدة بمقدمة جاء فيها:

«إن الحوادث الأخيرة في أنجولا وفي أجزاء أخرى من أفريقيا أظهرت أن القارة الإفريقية الآن وأكثر في المستقبل مسرحٌ لنشاط ثوري يؤدي إلى حروب يغذيها الاتحاد السوفيتي ويستعمل فيها أفراداً ومُنظمات موالين له. والهَدَف هو التمكين للعقيدة الماركسية إلى جانب تحقيق الأهداف الإستراتيجية التي تطلب هَيمَنة الاتحاد السوفيتي على القارة وعلى مَواردها الكامنة، مما يعطي السوفييت سيطرة مؤثرة على الموارد الخام المطلوبة للمؤسسات الصناعية والتجارية والمالية لأوروبا وللعالم الثالث. ونتيجة ذلك أن حياة أوروبا والعالم الثالث سوف تكون تحت سيطرة الشيوعية. كما أن الممرات البحرية حول القارة سوف تُصبح مُهدّدة. وكذلك مستقبلها السياسي الذي سوف تُتحكّم فيه نُظُم عميلة للشيوعية».

وتخلص مُقدّمة المعاهدة إلى أن «تلك المخاطر كلها لا بد من التصدّي لها وإفشالها».

وتمضي نصوص المعاهدة من هذا المدخل العام إلى التفاصيل المحدّدة فتقول:

ـ «إن الاتفاقية لها مفهوم عالمي واسع تُسانده الدُوَل الموقّعة عليها وأطراف آخرون يتعاطفون مع أهدافها.

ـ إن مسئولية تنفيذ الاتفاقية مَنوطة بـ«مركز عمليات خاص» مقره القاهرة يُسيّر وأضح هو موقع العاصمة المصرية في مركز يتوسّط افريقيا والمهتمين بشأنها من الدُوَل المشاركة في الاتفاقية (فرنسا وإيران مثلاً) ـ ومُهمّة هذا المركز أن يقوم «بتحديد أولويات العَمَل والميادين المستحقّة للاهتمام العاجل»، و«تخطيط العمليات المطلوب تنفيذها فيه»، و«تكليف من يديرها ويشرف عليها».»

[وبالفعل تمّ اتخاذ مقر لمركز العمليات في «مصر الجديدة» أصبح جاهزاً يوم ١ سبتمبر ١٩٧٦. ونَجَمَت مجموعة سكرتارية فنية، وانعقد فيه أول اجتماع لمركز العمليات بعد ذلك بأسبوعين.]

وبنصوص الاتفاقية:

ـ كان على فرنسا أن تتولى تزويد «المجهود المشترك» بكل ما يلزمه من معدات فنية ووسائل تكنولوجية، ومعلومات كافية تُمَكّن من تخطيط دقيق لهذا المجهود.

ـ وكان على المغرب أن تُقدّم مجموعات ميدانية، وقوات عمليات خاصة.

ـ وكان على السعودية أن تُموّل.

ـ وكانت إيران شريكاً بالعرض: من التخطيط إلى التنفيذ إلى التمويل.

لكن القوة الحقيقية وراء الإتفاقية كانت فرنسا و«مدير أمن الدولة فيها» الكونت «الكسندر دي مارانش» ـ مع أن نصّها حمّل خمسة توقيعات:

ـ الشيخ «كمال أدهم» ـ مدير المخابرات السعودية ممثلاً للملك «فيصل».

ـ الجنرال «أحمد الدليمي» ـ رئيس المخابرات المغربية ممثلا للملك «الحسن».

ـ الجنرال «نعمة الله ناصري» ـ مدير المخابرات الإيرانية (السافاك) ـ ممثلاً للشاه «محمد رضا بهلوي».

ـ الدكتور «أشرف مروان» ـ ممثلاً شخصياً للرئيس «أنور السادات» (وقد حضر الاجتماع التأسيسي ووقّع على المعاهدة. ثم تُقيّر منصبه فترك «مكتب الرئيس للمعلومات» ليُصبح مسئولاً عن إدارة الهيئة العَربية للتصنيع الحربي ـ وحَلّ محله مسئول غيره مُكلّف من الرئيس «السادات»).

ـ ثم ـ وهذا هو الأهم ـ الكونت «الكسندر دي مارانش» ـ مدير جهاز أمن الدولة ومكافحة الجاسوسية ـ ممثلاً لـ«الحكومة الفرنسية».

ومن المفارقات أنه في نهاية الاجتماع التأسيسي نوقش اقتراح بإطلاق اسم «رمزي» على «مجموعة الاتفاقية»، واقترح الشيخ «كمال أدهم» تسميتها «نادي السافاري» («السافاري» هو الوصف الذي يُستعمل لرحلات السياحة للصيد أو مشاهدة الوحوش في ادغال افريقيا ـ وقُبل الاقتراح على القور، وخرج إلى الوجود ذلك التنظيم السرّي للعمل في أفريقيا ـ وفق تصوّرات

بشكل ما وعلى نحو ما ظهرت في باريس دعوة إلى «حوار بين الأديان»، ونشأ ظن بأنه المشروع القديم لـ«دي مارانش» يطرح نفسه من جديد. وأنه على حسب تعبير سفير فرنسي سابق: «نفس النبيذ القديم معبأ في قوارير جديدة»!

وخطط الكونت «الكسندر دى مـارانش»، وشمسية الشيخ «كمال أدهم»!

□

ومَضَت السنون تَجُرُّ السنين، ووَجَدتُ نفسى مرة أخرى وجهاً لوجه أمام الكونت «الكسندر دى مارانش»، وكانت المواجهة هذه المرة قضائية - فى محاكم باريس.

والحاصل انّنى كنت عُرِّفتُ أثناء زيارة إيران (يناير) سنة ١٩٨١ بسرّ «مجموعة السافارى»، عندما وَجَدتُها فى أوراق الشاه ثم نُشرتْ تفاصيل عنها فى الطبعة الإنجليزية لكتاب «عودة آية الله» (الذى صَدَرَ باللغة العَرَبية تحت عنوان «مَدافع آية الله»، وكان ذلك فى حياة الرئيس «السادات» وقبل اعتقالات سبتمبر ١٩٨١ باسابيع قليلة).

وقد تَوَسَّعتُ فى النشر لأن ما قرأتُه هالنى بحجم ما فيه من مُغامَرات وخَمَاقات قامَت بها مجموعة نادى «السافارى».

- وكان بينه على سبيل المثال:

- أن «مجموعة السافارى» كانت أهم العناصر المؤيِّدة للجنرال «بوميا» عندما استولى على إقليم «كاتانجا» فى الكونجو بقصد تأميم مناجم الماس والنحاس الغنية فى هذا الإقليم لصالح الشركات الغربية الكبرى.

- وأن «مجموعة السافارى» تَعاوَنت بكل قوة مع «موبوتو» ديكتاتور الكونجو وجَزّاره الشهير. وعندما احتاج «موبوتو» قوات لتأمين قصره فى تلك الأيام، إذا مصر والمغرب تقرران إرسال قوات إلى الكونجو قامَت السعودية بتكاليفها.

- وأن «مجموعة السافارى» غامَت بعيداً فى القرن الأفريقى بحُجّة مساعدة «سياد برى» فى محاولته العسكرية اليائسة ضدّ اثيوبيا ونظام الحُكم الشيوعى الذى قام فيها بزعامة «منجستو هيلا مريم». ويشير مُلَخّص وثائق فى أوراق «مجموعة السافارى» إلى لقاء بين الرئيس الصومالى «سياد برى» وبين السفير المصرى فى «مقديشيو». وفى هذا اللقاء يَردُ - منسوباً إلى السفير المصرى - قول الرئيس الصومالى له «إن رَفْضَنى فى خطر». ثم تُذكِّر الأوراق بعد ذلك أن الرئيس «السادات» قرَّرَ أن تبيع مصر للصومال أسلحة سوفيتية (لاتريدها) بما قيمته ٧٥ مليون دولار (تدفعها السعودية).

وفى الأوراق (التى تركها الإمبراطور «محمد رضا بهلوى» فى مكتبه) أن «الولايات المتحدة تَدَخَّلت مرة لوقف نشاط «مجموعة السافارى» عند حَدّه المأمون الذى نقبله. وحَدَث ذلك عندما تمكن الجيش الصومالى بأسلحة وَصَلته حديثاً أن يُغيِّر الموقف فى ميدان القتال، وأن يُهَدِّد إقليم «الأوجادين» الأثيوبى. وكان أن وزير الخارجية الأمريكى «سايروس فانس» وَجَّه بنفسه تحذيرات إلى بعض الدُوَل المشاركة فى «مجموعة السافارى» بلفت نظرها إلى أن دخول الجيش الصومالى إلى منطقة «الأوجادين» ليس شأناً محلياً بين اثيوبيا والصومال (أو غيرهما من الدُوَل المهتمّة) - «لكنه الآن تَدَخّل غير مسئول من «المجموعة الفرنسية» قد يُؤدّى إلى انقلاب الموازين فى القرن الأفريقى بما لا تقبل به الولايات المتحدة.

.....

.....

[وظَهَرَ فى الأوراق أنه كان هناك اتفاق على أن تكون الولايات المتحدة وإسرائيل على علم بنشاط «نادى السافارى» - فقد كان فى مسئولية المخابرات السعودية أن تُبلغ المخابرات الأمريكية - وكان فى مسئولية المخابرات الإيرانية أن تُبلغ المخابرات الإسرائيلية.

.....

.....

ومن المفارقات الداعية إلى مزيج من الأسى والغَضَب أن ثلاث دُوَل عَرَبية (مصر والسعودية والمغرب) اشتركت بهمّة فى عَمَليات «نادى السافارى» فى أفريقيا - تحت توجيه وإدارة الكونت «دى مارانش» - لكنه عندما جاء وقت الغنائم لم تكن الأطراف العَرَبية هناك، وإنما كانت هناك إسرائيل تُقدِم شراكة مع «اتحاد مَعادن كونسوليديتد المحدود» الذى تملكه «دى بيرز». ثم تحصّل شركة إسرائيلية تَعمَل فى «انجولا» وهى شركة «افريفيبرا - إسرائيل» (التى يرأس مجلس إدارتها «شموئيل شتندر») على ثلاثين موقعاً للبحث عن الماس مع الحَقّ فى ثلاثمائة أخرى. والآن يَصل حجم الاستثمارات الإسرائيلية فى «انجولا» إلى بليون دولار.]

.....

.....

(وفى الأوراق التى تَرَكَها الشاه فى مكتبه أيضاً) أنه عندما تَدَخّل «سيروس فانس» بحَسم فى الموضوع فإن «نادى السافارى» اضطر إلى تهدئة أعصابه.

ثم تَحَوَّلت التهدئة إلى خمول عندما تأكد أن السوفيت حصلوا على وثائق حساسة عن نشاط «المجموعة» فى أفريقيا، وذلك بعد مؤتمر سِرّى «لها» انعقد فى الدار البيضاء (المغرب).

والذى جَرى وقتها هو أن عميلاً سوفيتياً سَرَق حقيبة أوراق الجنرال «نعمة الله ناصرى» وكانت على مقعد بجواره وهو ينتظر فى مطار الدار البيضاء قاصداً إلى «كان» حيث كانت تنتظره زوجته لإجازة فى «الريفييرا» الفرنسية. وشاع فى ذلك الوقت أن أحد مساعدى الكونت «دى مارانش» كان مُصدراً ثانياً حصل منه السوفييت على وثائق «نادى السافارى» - وظَهَر هذا المساعد وهو برتبة «كولونيل» فى المخابرات الفرنسية - كان عميلاً مباشراً للسوفييت. وحين انكشف أمره انتحر أو قُتل.

وهنا وَقَعت المواجهة القضائية بين الكونت «دى مارانش» وبينى.

□

أثناء عَمَلى فى كتاب «عودة آية الله» كنت قد عَرَفتُ ونَشرتُ واقعة سرقة حقيبة أوراق الجنرال الإيرانى «نعمة الله ناصرى» فى مطار «كارا بلانكا». وكنت قد عَرَفتُ وكَتَبتُ إشارة إلى قَتل أو انتحار أحد مُساعدى «دى مارانش»، بعد الشك فى عمالة السوفييت.

.....

.....

وكان مقرراً أن الطبعة الفرنسية من الكتاب سوف تظهر بعد الطبعة الأصلية الإنجليزية بشهر واحد. وحقوق الطبعات بكل اللغات عند مؤسسة «أندريه دويتش» الإنجليزية العريقة.

وفوجئتُ ذات صباح فى القاهرة بتليفون من لندن و«أندريه دويتش» رئيس مجلس إدارة شركة النشر العريقة فى لندن يقول لى: «إن الكونت «الكسندر دى مارانش» رَفَع قضيةً يطلب فيها وقف نشر الطبعة الفرنسية من الكتاب، ويطلب أيضاً إعطاءه الحق فى مُلاحَقة الكتاب فى كل طبعاته لأنه وَجَدَ فى النص المكتوب عن حادثة انتحار أو قتل مساعده المُتَّهَم بأنه عميل سوفيتى - ما يوحى بأن قتل الرَجُل أو انتحاره كان بأمر - أو بضغط - منه قصاصاً وعقاباً على خيانته.

وقلتُ على الفور لـ«اندريه دويتش» أننى فيما كتبتُ لم أتَّهِم «دى مارانش» بالقتل على الإطلاق. وعلى التليفون عَرَضنا - «أندريه دويتش» وأنا - للنص الإنجليزى كما كتبتُه، وطلبتُ إليه أن يبعث لى بالترجمة الفرنسية التى أعدّت له فى باريس.

وفى اليوم التالى عاد «أندريه دويتش» للاتصال بى فى القاهرة يقول «أن محامى الكونت دى مارانش اتصل بسائه عما إذا كان فى الإمكان ترتيب لقاء بين مُوكّله وبينى يَتم به تعديل النص الذى اعتبره الكونت مُسيئاً له ؟» - وقلت بوضوح «إننى فيما نشرتُ رَوَيتُ واقعة لم يَرد فيها اتهام بالقتل للكونت أو لغيره، وقد كان مَدْفَى هو «سر نادى السافارى» وليس «سر قتل كولونيل فرنسى».»

وقُبِلتْ فكرة اللقاء المباشر - كما عَرَضَ محامى «دى مارانش».

وعندما تقابلنا من جديد - وهذه المرة فى فندق «بلازا اتينيه» - كان «الكونت «دى مارانش» رَجُلاً مُختلفاً. (تَرَكَ منصبه، وقَدَّ قُوَّته، وسقط مشروعه «نادى السافارى»). ولم تمض عدة

بالتجربة العملية ظهر أن الحوار «المستحيل» يقترب أكثر من اليهودية. ثم إن إسرائيل تُحاول أن تأخذ الناحية اليهودية فى الحوار لحسابها. وكان ذلك هو الإطار الذى جاء فيه حاخامات إسرائيل. وأولهم الحاخام «لاو»، ودخلوا إلى رحاب «الأزهر»

دقائق حتى حلّت المشكلة. فقد قرأتُ النصّ الفرنسي ووجدتُ أن ما تُرجم عن الأصل الإنجليزي الذي كتبته كان تعبيراً يحتمل التأويل. ومساء ذلك اليوم في فندق «بلازا» وفي حضور «أندريه دوبنش» واثنين من المحامين أعدتُ قراءة النصّ المترجم إلى الفرنسية عن الإنجليزية. وامسكتُ قلماً وغيّرتُ ثلاث كلمات بالعدد وأعطيت النصّ الجديد للكوتن «دي مارانش» أساله «إذا كان ذلك يكفيه؟» ـ وكان تعليق الرجُل رقيقاً بالنكة الإنجليزية « fair enough عادل بما فيه الكفاية».

وبدا مرتاحاً، وكذلك كنتُ.

ثم ذهب الجميع وبقي هو، وقد أحسستُ أن لديه ما يقوله. وكنت مثله لديّ أنا الآخر ما أقوله.

كانت قصّة «نادي السافاري» كلها قد انقضى زمنها: سقط عرش الشاه في طهران، ثم مات «محمد رضا بهلوي» في القاهرة ـ ثم انتهت حياة الرئيس «السادات» في مشهد مُروِّع على منصة عرض عسكري ـ وترك «كمال ادهم» موقعه مسئولاً عن المخابرات السعودية ـ كما أن الكوتن «دي مارانش» نفسه أصبح على التقاعد!

وبدأتُ الحديث فقلت لرجُل فرنسا القوي ذات يوم:

«إنني استغربت أنك لم تعترض فيما نشرتُه إلا على واقعة الكولونيل ـ تصوّرتُ أن نشر قصّة «مجموعة السافاري» من الأصل سوف يضايقك؟»..

وردّ بتوَدّة رَجُل عَرَف الدنيا وخبرها قائلاً ما مؤداه: «ذلك حقك ما دامت التفاصيل قد أتيحت لك».

واستطرد:

«وبالنسبة لي فليس هناك في الموضوع كله ما أخجل منه: كان هَدَفي ولا يزال مصلحة فرنسا، ونفوذها، ودَورها في العالم. الأوضاع في أفريقيا تهتز، وسوف تَظل تهتز لأن نصف أفريقيا فرنسي أو كان فرنسياً في يوم من الأيام. وهذا استثمار لا يستحق الإهمال، وميراث لا بد من حمايته من وجهة نظر فرنسا ولضروراتها».

ثم أضاف الكونت «دي مارانش»:

«أتذكر أنني تحدثت معك في هذا الموضوع عندما التقينا في باريس قبل سنوات».

وقلت: «إنني أتذكر ولكني لا أفهم». ولم أكمل بقية عبارتي، فلم أقل له إنني على استعداد لأن أرى قوى عظمى تُعمّل بكل طاقتها «لتعويض إمبراطورياتها الضائعة» بوسائل مُستجدّة ـ لكن الذي لا أفهمه هو ما الذي تفعله «قوى محلّية» في مشروعات إمبراطورية لا شان لها بها ـ لا مَصلحَة ولا أمن ولا هَدَف من أصله؟!»

.....

.....

وتشعّب الحديث مع الكونت «الكسندر دي مارانش» لأكثر من ساعة، ثم خرج الكونت «دي مارانش» وخرجت معه من صالون «البلازا أتينيه» إلى باب الفندق، وكان خروجه عادياً، لا إجراءات، ولا حراسة ظاهرة أو خَفيّة، ولا وجوه يَمتزج فيها الاهتمام بالرَهبة كما حَدَث قبل سنوات في فندق «الكريون».

كانت الدنيا قد تَغيّرت، وتَغيّرت الحظوظ.

لكن مصالح الدُوَل ومطالبها الضامنة لهذه المصالح ـ لا تَتَغيّر! ■

الدور الآن على الإسلام؟!

■ ■ عندما قابلتُ الكونت «دي مارانش» في مكتبه (سبتمبر ١٩٧١) كان لديه جَدول أعمال كامل:

● البند الأول فيه (وقتها) هو العَمَل في أفريقيا. وكان أمَله أن يَلتَفّ الرئيس «السادات» وأن يَتّفِقَ ومعه السعودية والمغرب وإيران. وشاه إيران المتحمّس، وموارد بلاده الطائلة.

● والبند الثاني في جَدول أعمال «دي مارانش» ـ «التعاون» مع الإسلام الذي رآه قوة صاعدة ومؤثرة مع تراجع الفكر القومي بعد ١٩٦٧. وكان افتراب الكونت من هذا الهَدَف ـ وقتها ـ باقتراح حوار بين «المسيحية والإسلام»، والدولة الإسلامية المهيّأة لهذا الدور في رأيه ـ مظهراً وجوهراً ـ هي المملكة العربية السعودية.

● والبند الثالث ـ على جَدول أعمال الكونت ـ دَعوة أكبر عَدَد من الدُوَل العَرَبية (وأولها مصر) إلى مُنظّمة «الفرانكوفون»، وهي البديل الفرنسي للكومنولث البريطاني ـ والجامع لشتات مستعمرات فرنسا السابقة في أفريقيا ـ والحارس للغة فرنسا وحُمولتها ـ وكان ظنّ الكونت أن هذا البند يمكن أن يُعهَد به إلى «المغرب». وكان أمَله أن قاعدة فرانكوفونية في المغرب تستطيع الوصول إلى الجزائر. وتستطيع أيضاً طمأنة المشرق (سوريا ولبنان) ـ خصوصاً إذا تَصَرّف الملك «الحسن» في الموضوع برِقّة وكياسة لا تستثير الجزائر.

□

في الوقت الذي بدأ فيه البند الأفريقي يتحرك ـ ويبدو تَحَرُّكه مشجعاً مليئاً بالاحتمالات بعد أن دَخَل «نادي السافاري» رحلة التأسيس الجدّي والتأهّب للعَمَل ـ جاء الدور على البند الثاني: «الإسلام».

وكان «دي مارانش» مُشَجّعاً بانضمام السعودية إلى «تَجَمُّع العَمَل في أفريقيا». ولعدة شهور بدا أن السعودية تُستجيب. فقد وَصَلت إلى باريس وفود عُلماء دين سعوديين. كما أن وفوداً علمية مقابلة ـ مسيحية ـ تُوَجّهت إلى جدة تحت عنوان ما أطلق عليه في ذلك الوقت «الحوار الإسلامي المسيحي» ـ وفجأة تباطأت الحركة على خط باريس ـ جدّة، ثم تَوَقّفت تماماً.

وذات مرة في باريس خطر لي أن أسأل عما جرى في ذلك الحوار الإسلامي ـ المسيحي؟ وكان مُؤدّى ما فهمته أن مُلتقى السعودية في ذلك الوقت (وأظنّه الشيخ «عبد العزيز بن باز») اعترض على المشروع من أساسه. فقد كان حسبانه عندما سمح باللقاءات أن فرنسا تريد أن «تَتَعرّف على الإسلام». لكنه عندما وَجَدَ الموضوع «حواراً» تَغيّرت فتواه ـ إلى الاعتراض والإنكار.

وبدا أن الفكرة ماتت في مَهدها خصوصاً بعد أن تَرَك «دي مارانش» موقعه وسافر في النسيان.

ثم تَبيّن فيما بعد أن الخطط لها عُمر يستبقيها على الساحة حتى بعد غياب آبائها الشرعيين. وذلك ما كان.

والذي جَرى أنه أواخر السبعينات وأوائل الثمانينات كانت «باريس» ساحة نشاط شرق أوسطي مُتَعَدّد الجبهات ساعَدَت عليه ملابسات:

■ فيها معاهدة «كامب دافيد» التي عَجّزت عن جَذب دُوَل عَرَبية غير مصر تنضم إليها.

■ وفيها إن مستقبل السلام في الشرق الأوسط بدا مُعَرّضاً للخطر لأن الجهد الأمريكي الذي أوصَلَ إلى «كامب دافيد» قطع أنفاسه بعدها رُسُلاً إلى كل عاصمة عَرَبية بغير نتيجة.

■ وفيها أن الثورة الإسلامية في إيران بعد نجاحها راحت تَعرض نفسها وكأنها شكل المستقبل.

■ وفيها أن اغتيال الرئيس «السادات» (أكتوبر ١٩٨١) أحدثَ صدمة في العالم كله خصوصاً والمدفع الرشاش الذي اغتاله «إسلامي».

■ وفيها أن إسرائيل أصبَحَت شديدة القلق. تَخشى من تُداعيات نجاح الثورة الإسلامية، وتُوقف عَمَلية السلام. وكان يهود أمريكا في حالة حَيرة مما حَدَث. وأما يهود أوروبا فقد زادَ نشاطهم خصوصاً في باريس، وكانت أسرة «روتشيلد» رأس الحربة في نشاط يهود أوروبا. كما كانت أرملة الزعيم الاشتراكي الكبير «مندييس فرانس» نجمة الجهد اليهودي من مقر إقامتها في باريس.

■ وفيها أنه ظَهَرَ في أوروبا من يعتقدون انهم الطَرَف الغربي الذي يستطيع أن يدخل إلى الشرق الأوسط ويقوم بمهمة تلطيف الأجواء على الأقل (وبينهم «كريايسكي» مُستشار النمسا وغيره).

■ ثم إن هذا كله كان المناخ الذي تَقَدّمَت فيه دُوَل أوروبية فلتت نفسها فوق الشبهات لاستحالة اتهامها بخطط إمبراطورية ـ بالنسبة إلى حجمها. وكانت الدُوَل الاسكندنافية «السويد» أوّلاً. ثم «النرويج»، طليعة الجهد السويدي النرويجي هو الذي قاد بعد سنوات إلى اتفاقية «أوسلو».

■ وكذلك وَصَل التأهّب الفرنسي مَداه. ذلك أنه إذا كانت تَطوّرات الحوادث قد عادت إلى أوروبا بدور وضعته الحقائق المستجدة على عَتَبَة بابها، فإن فرنسا هي الأقدر وهي الأجدر. فلا بريطانيا مقبولة لقيادة دور أوروبي ـ شرق أوسطي ـ ولا ألمانيا جاهزة لمثل هذا الدور ـ وفي نفس الوقت من وجهة النظر الفرنسية ـ فإنه لا «ستوكهولم» ولا «أوسلو» لديها الجاذبية الغالبة لباريس وأنوارها الباهرة.

□

وبشكل ما وعلى نحو ما (والوقائع هنا غامضة والصلات مُلتبسة) ظهرت في باريس دعوة إلى «حوار بين الأديان»، ونشأ ظن بأنه المشروع القديم لـ«دي مارانش» يطرح نفسه من جديد ـ وأنه على حَسَب تعبير سفير فرنسي سابق: «نفس النبيذ القديم مُعَبّأ في قوارير جديدة»!

لكن طَعم «الجديد» بدأت تختلف في بعض الملامح عن طَعم «القديم».

وفي حين أن المشروع «القديم» كان طرفه الإسلامي هو السعودية ـ فإن المشروع الجديد بدا وكان طرفه الإسلامي هو مصر.

وفي حين أن الراعي الإسلامي السابق هو

مُفتي السعودية (الشيخ «بن باز» الذي تَوَقَّف في مُنتصَف الطريق وانسحب) - فإن الراعي الإسلامي هذه المرة كان «الأزهر» (الذي لم يُعارض ولم يُرفض، ولعله انتظر إشارة من الدولة تُدُل على ما تراه صالحاً للأزهر وللبلد).

وأخيراً فإن عنوان المشروع السابق كان «الحوار الإسلامي المسيحي» - لكن العنوان في المشروع المستجد أشمل فهو «حوار الأديان».

وبالتجربة العَمَلية فقد ظَهَر أن الحوار «المسلَّجد» يقترب أكثر من اليهودية - ثم إن إسرائيل تحاول أن تأخذ الناحية اليهودية في الحوار لحسابها - وكان ذلك هو الإطار الذي جاء فيه حاخامات إسرائيل، وأولهم الحاخام «لاو»، ودخلوا إلى رحاب «الأزهر».

ولقد بدا الأمر في ظاهره مثيراً للمشاعر، وانصرف الكثير من النقد لشيخ «الأزهر» دون مُراعاة لمقامه الجليل، مع أنه كان بادياً لكل من يريد أن يرى أن «الشيخ» يَنْصرِّف بظن أنها «الدولة ومصالحها العُليا». وقد بدا «الشيخ» حائراً بين «ظنون ما هو مطلوب منه لمصالح أعلى» وبين هَجَمات عنيفة تُعَرِّض لها واعتقاده أن الصواب جانبُها. وفي هذه الحيرة التي تنازعت «الشيخ» ظَهَرت في تصرفاته - وذلك طبيعي وإنساني - ردود فعل عَصَبيَّة أدّت بدورها إلى زيادة المساحة في سوء الفهم بين «نوايا الشيخ» وبين «ظواهر» ما سَمَح به.

.....

.....

والشاهد أن المشروع كله في هذه اللحظة يومي! إلى أشياء :

■ يومي! هذه اللحظة إلى أنه جزء من محاولة «تفويت نوع من السلام» لا يُصح إدخال «الأزهر» فيه ولا يَليق.

■ يومي! أيضاً إلى أنه «دخول في رحاب الإسلام» بغرض سياسي لا يتفق بالضرورة لا مع رسالة الدين الإسلامي، ولا مع عالميته المفتوحة على الدنيا كلها.

■ يومي! أخيراً إلى أنها «ربما لا تكون فرنسا» و«تبيذها القديم في قوارير جديدة». وإنما هو على الأرجح «نبيذ جديد في قوارير قديمة» توحي بأنه لا اختلاف - بينما هو في الواقع أكثر من مجرد اختلاف !

.....

.....

وربما أن الأمر هنا يحتاج إلى مُراجعة، وربما أن شيخ «الأزهر» ومقامه الجليل له على الدّولة حَق أن توضح أمامه رؤيتها للمصالح العليا للبلد، ومقتضيات هذه الرؤية فيما هو مطلوب منه.

لكنه من غير المقبول أن يبقى الحال على حاله !

والشاهد أن العلاقة بين «الأديان» لا تحتاج إلى حوار وجَدَل، وإنما تحتاج إلى فهم متبادَل. والحوار في مفهومه الطبيعي يُطالب أطرافه أن يَتوصّلوا إلى لقاء، وذلك يجوز في الأفكار وليس في الأديان. فالأديان مسألة «إيمان» لا يُعرف حَلاً وَسَطاً، بل إن الحَلّ الوَسَط يجرح اليَقين ! - ولذلك فالمطلوب من كل «مؤمن» أن يحترم «إيمان» غيره عن طريق الفَهم وليس عن طريق الجَدَل. يَدخُل في ذلك أنه حتى مقولة أن «الكل أبناء إبراهيم» مقولة تحتاج إلى تدقيق. فالدين ليس نَسَباً عائلياً، ولكنه اختلاف «مُعتقَدات إلهية ورسولية» مُتجاوزة للنَسَب - البَشَري - على فَرض تحَقُّقه.

وحتى إذا تَقَدَّم منطق «الحوار» على منطق «الفهم» - فالأولى بأي «حوار» دِيني يقوم عليه «الأزهر» أن يكون إسلامياً - مسيحياً، وأن يُجرى أولاً بينه وبين الكنيسة القبطية، وهي واحد من أهم مُكَوِّنات الشخصية المصرية والثقافة الوطنية من قبل دخول الإسلام إلى مصر وبعده.

وهنا قد يُصبح الحوار - على قاعدة الوَطن الواحد - مُجدياً ونافعاً لأنه على أرض وإلى هَدَف. ■

٦

قِـمَّـة فـرانكوفـونيـة في بيـروت مع الخـريف القـادم

■ مع أواخر الثمانينات وبداية التسعينات عادت فرنسا - وكان بنود «دي مارانش» وُصايا - لها جَدول أعمال جاء الدَور فيه على «الفرانكوفونية»، واللفظ أنها وسيلة للنفاذ صالحة مع متغيرات شديدة الأهمية طرأت على الساحة العالمية.

والواقع أن الأفكار - الوَصايا - التي عَبَّرَ عنها الكونت «الكسندر دي مارانش» عادت تَطرَح نفسها في عالم مُتَغَيِّر :

١ - الاتحاد السوفيتي يَترَنَّح، وهو على وشك السقوط.

٢ - ودُول كانت تحت سيطرته تَنفلت الآن من قبضته (بولندا - تشيكوسلوفاكيا - بلغاريا - وغيرها) وتحاول البحث عن مكان لها يَصلها بأوروبا الغربية.

٣ - وفرنسا - والرئيس فيها في ذلك الوقت «فرانسوا ميتران» - تَتَخَوَّف من انفراد الولايات المتحدة بأمور العالم ومصائره.

٤ - واللغة الإنجليزية - وهي عِماد لغة العُلوم والتكنولوجيا والإنترنت - تَتَوَسَّع بشدة وتزيح غيرها من اللغات، ومع اللغات حمولاتها الثقافية.

٥ - ومن وجهة نظر رَجُل مثل «جاك لانج» (وزير الثقافة الفرنسي) فإن خطورة الاستيلاء على اللغة يمكن أن تكون مُقَدِّمة لإلغاء هُوِيَّة أصحابها. وإذن فإن اللغة الفرنسية - حاملة ثقافة فرنسا - ووعاء هُوِيَّتها الإنسانية والتاريخية - في خطر.

٦ - إن أفريقيا تَتَحَوَّل بسرعة من ساحة حرب باردة بين الشرق والغرب، لتُصبح ساحة منافسة ساخنة بين الولايات المتحدة وبين فرنسا. وفي وقت الحرب الباردة بين الاتحاد السوفيتي والغرب، كانت الولايات المتحدة وفرنسا «على نفس الجبهة إلى حَدٍّ ما» أمام عَدُوٍّ ماركسي مُشترَك ظَهَرَ في غينيا وفي مالي، ثم الكونجو وأنجولا - لكنه بعد انتهاء الحرب الباردة تباعَدَت المواقف مع تَباين المصالح.

□

والواقع أن الذي يُتابع الخلافات الأمريكية - الفرنسية يستطيع أن يلمح كيف تَطَوَّرت الأمور بحيث جَرى - ولا يزال يجري - تَدعيم «الفرانكوفونية» لكي تُدخل المنافسة الساخنة مع الولايات المتحدة الأمريكية - في أفريقيا وخارجها أيضاً.

ومن المفيد - مثلاً - مُلاحَظة ما كَتَبَه «جورج بول» مساعد وزير الخارجية الأمريكي (مع «دين راسك» - على عهد «كنيدي» و«جونسون») في مذكراته - وقوله فيها أنه : «طوال السبعينات والثمانينات لم يكن لدى الولايات المتحدة مانع من تنشيط «الفرانكوفونية» لأنها كانت في خندق قريب من خنادقنا في أفريقيا !».

ومن المفيد أيضاً مُلاحَظة ما رَواه «كود ووتيير» في كتابه «أفريقيا و ٤ رؤساء من فرنسا» (هم «ديجول» - و«بومبيدو» - و«جيسكار ديستان» - و«ميتران») - ومُؤدّاه «أن الخلافات بين الولايات المتحدة وفرنسا - بعد انتهاء الحَرب الباردة مع الاتحاد السوفيتي - احتدمت في أفريقيا بسبب الرفض الأمريكي لدور فرنسي خاص في القارة السوداء مع ظروف مُتَغَيِّرة».

وكَشَفَ «ووتيير» أنه أثناء محادثات على أعلى المستويات بين الولايات المتحدة وفرنسا وَرَدَت عدة مَطالب فرنسية لم تقبل بها واشنطن :

- أحد المطالب الفرنسية أنه بسبب القرب الجغرافي عبر البحر الأبيض، وبسبب العلاقة القديمة (الاستعمارية)، وبسبب سيادة اللغة الفرنسية - فإن فرنسا لا بد أن يُعتَرَف لها في القارة الأفريقية بنوع مما يُعتَرَف به للولايات المتحدة في أمريكا اللاتينية طبقاً لـ«مبدأ مونرو» الذي يَقبَل العالم به أن أمريكا اللاتينية اختصاص للولايات المتحدة أصيل - لا يَدخل فيه طَرَف أجنبي، وإذا دَخَل فبحساب وبعد إذن.

- مَطلب آخر عَبَّرَ عن نفسه - على مائدة المفاوضات - بطريقة فَجَّة تُرى ضرورة الاعتراف بأن أفريقيا هي منطقة «صيد محفوظ» chasse guardée لفرنسا، ومفهوم العبارة أنها عَودة إلى أيام كانت مَوارد القارة فيها نُهباً بالقِسمَة بين الدُوَل الكبرى وشركاتها !

- وفيما كَتَبَه «ووتيير» وغيره - مثلاً - إن كلا من فرنسا والولايات المتحدة الأمريكية اتخذت لها في القارة الأفريقية رجالاً مُحسوبين عليها، ترعاهم وتدعمهم، ولسنوات طويلة كانت فرنسا حامية رَجُل مثل «جان بيدل بوكاسا» الذي قام بانقلاب في جمهورية أفريقيا الوسطى وأعلن نفسه «إمبراطوراً»، وأمَرَ بصُنع «تاج» في محل «كارتييه» في باريس يقوم هو بوضعه فوق رأسه «على طريقة نابليون» - وكانت فرنسا توافق، وكان رؤساؤها وبينهم «جيسكار ديستان» يقبلون هدايا «بوكاسا» من قطع الماس والزُمُرُّد (وسَبَّبَ ذلك ضَجَّة كبيرة في فرنسا).

وفي مقابل ذلك فإن «جوزيف ديزيريه موبوتو» أصبح لأكثر من عشرين سنة رَجُل الولايات المتحدة القوي في الكونجو، وقد سُمِحَت له الولايات المتحدة وساعَدَته بالتخطيط كي يأسر منافسه الوطني «لومومبا» زعيم استقلال الكونجو، ثم يقتله وهو أسير، ثم يعتَرف أحد عُملاء وكالة المخابرات المركزية الأمريكية أن جثة «لومومبا» لم يُعثر عليها لأن الأوامر قضت باستعمال «منشار كهربائي !» يُحَوِّلها إلى «شرائح» يُبعثر في بُقَع مختلفة من الأرض، أو مواقع مُتباعدة من الماء في نهر الكونجو المتدفق بسرعة نحو المحيط.

- وكان الصراع على المواد الخام، والبترول - كالعادة أوّلها

«الفرانكوفونية».. وأخواتها

ـ حرباً مستمرة بين عملاقين أحدهما أمريكي والآخر فرنسي. الأمريكي هو شركة «أوكسيدنتال» والفرنسي هو شركة «إلف أكويتين» ـ والموقعة بينهما كانت ـ ولا تزال حتى الآن ـ شبه حرب في جمهورية «الكونجو برازافيل» !

وقد وصلت الصراعات بين الفوتين ـ بوكالة الشركات الدولية الكبرى ـ إلى حدّ استباحة منطقة البحيرات العظمى باستغلال الأجناس والأعراق والقبائل، وتحويل قلب أفريقيا («رواندا») إلى فيضان دموي يُعيد تكوين البحيرات باللون الأحمر.

وخلال هذه المنافسة الساخنة فإن القوة الأمريكية في أفريقيا دخلت إلى الساحة بنفسها وباسمها وتحت علمها مُعتمدة على غلبة لها في العصر كاسحة ـ وأما فرنسا فقد حاولت وراء واجهة «الفرانكوفونية»، وبمنطق ثروة كثيراً في الأدبيات الأساسية «للفرانكوفونية» مؤداه أنه في «مجال السياسة الخارجية فإن المصالح تنسى على خطّ متواز مع الثقافة. وأنه في حالة فرنسا بالتحديد فإن هذه المقولة أصدق ما يكون !»

□

كان الصراع الثقافي ـ متوازياً مع الصراع الاقتصادي ـ عنيفاً على «روح» أفريقيا بمقدار عنفه على «موارد» أفريقيا.

وكانت الولايات المتحدة تُقدّم أسلوبها في الحياة إغراءً، وتُقدّم تكنولوجيا التقدُّم إقناعاً ـ وفي نفس الوقت فإن فرنسا اعتمدت على «اللغة» وعلى «الثقافة» فاطرات تجُرّ المصالح وراءها.

وفي خضم هذا الصراع أصبح للوجه الأمريكي في القارة رجال ـ وللوجه الفرنسي رجال.

وكان أبرز الوجوه الفرنسية ـ رجال من أمثال «ليوبولد سنجور» (السنغال)، و«هوفيه بوانيه» (ساحل العاج).

ومن المفارقات أنه في خضم الصراع انتزعت فرنسا واحداً من رجال أمريكا هو «سانا بانتشي» الذي استولى على الحكم في نيجيريا، ونهب مليارات من مواردها. وقد قرّر الانضمام إلى مجموعة «الفرانكوفون» طلباً للنجاة، لكن الولايات المتحدة طاردته بانقلاب من داخل جيشه فتح الباب لحُكم مدني ـ صديق لأمريكا ـ يرأسه جنرال سابق هو «أوباسنجو» الرئيس الحالي لأكبر بلد أفريقي في تعداد السكان.

وفي هذا الإطار وليس في غيره يَنْفَجِر النظر إلى عملية إحياء «الفرانكوفونية» التي أخذت مع بداية التسعينات تُتَّجه بنشاط ظاهر إلى العالم العربي.

.....

.....

[وبرغم أنني واحد من الذين يَتَحَمَّسون لأي محاولة لوقف الهيمنة الأمريكية على العالم حتى لو كانت في إطار مُنافسة ـ فإن الحالة هنا أكثر تعقيداً، بمعنى أن المنافسة الساخنة أمريكية وفرنسية يمكن متابعتها باهتمام والاستمتاع بمشاهدتها وعن بُعد، لكنها في البداية والنهاية صراعٌ لا شأن للعرب فيه ـ لا في مجال المصالح ـ ولا في مجال اللغة وحمولاتها الثقافية.]

.....

.....

ولم يلتقط كثيرون من العرب إلى معنى اختيار الدكتور «بطرس غالي» أميناً عاماً للأمم المتحدة في أوائل التسعينات، ومع «لحظة توفيقية» بين الولايات المتحدة وفرنسا.

ولم يلتفت كثيرون إلى معنى اعتراض الولايات المتحدة على تجديد خدمة الدكتور «بطرس غالي» لمدّة ثانية كانت من حقّه تقليدياً ـ لأن رُعيات التوفيق تعذّرت، وحلّت محلّها تلك المنافسة الساخنة، مما اقتضى اختيار «كوفي عنان». وتجديد اختياره هذه الأيام لمدّة خدمة ثانية.

.....

.....

[وقد سمعتُ أحد وزراء الخارجية الأوروبيين يقول في معرض محاولة لشرح ما جرى ويجري في الأمانة العامة للأمم المتحدة ـ وقوله بالنص :

«قضى بطرس غالي طول المدّة التي قضاها في منصب السكرتير العام للأمم المتحدة وهو يحاول إقناع أمريكا أنه ليس مُرشّح فرنسا ـ لكن «مادلين أولبرايت» كانت تعرف أكثر.

وقضى كوفي (عنان) الشهر الأول من عمله سكرتيراً عاماً للأمم المتحدة يُحاول إقناع أوروبا أنه ليس مُرشّح أمريكا ـ ثم شاك نفسه وقفّ عن المحاولة، وتَرَك للأطراف أن يأخذوه كما هو، وإذا خسيوه مُرشّح أمريكا فهذا حقهم، وأما هو فلم يُعد مشغولاً بإقناع أحد ـ بشيء !»]

.....

.....

ويحلول المنافسة محل اللحظة التوفيقية في العلاقات الفرنسية ـ الأمريكية ـ ومجيء «عنان» ـ عُرضة على «غالي» وقبل أن يكون سكرتيراً عاماً «للفرانكوفونية».

(وربما أسجّل هنا أن رجالاً من طراز «كوفي عنان» و«بطرس غالي» ـ رجال لهم قيمة في حدّ ذاتهم ـ وكلٌ منهما مُؤهّل للمنصب الذي وَصَل إليه ـ لكن هناك فارقاً بين القيمة في حدّ ذاتها ـ وبين الملابسات التي تُحيل القيمة إلى نقطة الوصول).

.....

.....

[وفي أواخر الثمانينات وبداية التسعينات بدا أن مصر تقترب دون داعٍ من «الفرانكوفونية».

واتذكر أنني سألتُ، وفي السؤال استغراب يُقارب القلق، عن السبب ـ وقيل لي والقائل مسئول : «إن مصر لم تُقبل بأكثر من وَضع المراقب».

وكان ردّي أن مصر عندما تريد وضع المراقب ـ سواء في أفريقيا أو غيرها ـ عليها أن تطل إما من نافذة سياستها الأفريقية المستقلة، وإما من خلال عضويتها كمؤسس في منظمة الوحدة الأفريقية ـ وإما من موقعها الأهم من خلال جامعة الدول العربية.

لكنه يبدو لي غير منطقي أن تُراقب مصر من موقع «الفرانكوفونية» نفسه.]

.....

.....

على أن مصر راجت تقترب أكثر، وكانت المحاولة حثيثة تُشجّع اقترابها باعتقاد أنه إغراءٌ لغيرها، ونداءٌ أن الباب مفتوح.

□

ثم كان أن تقرّر لأول مرة عقد مؤتمر «للفرانكوفونية» على مستوى القمّة ـ في عاصمة عربية ـ هي بيروت، والموعد أكتوبر القادم (٢٠٠١).

وذلك في أقل القليل وَضع غير مريح، بمعنى :

١ ـ أن الدول العربية كلها ـ وليس بعضها ـ من واجبها أن تُتابع ما يَجري على الساحة العالمية وتُهتم به وتأخذ حَرَكته في علمها وفي حسابها، لكنها وهي تفعل ذلك عليها أن تُعرف أنها طرف مُستقل له مجالاته الشرعية في العَمَل الجماعي الدولي وأولها الجامعة العربية ومؤسساتها ـ والأمم المتحدة ونظامها ـ ومجالات أخرى مُستقلة من العَمَل الجماعي تُهتم بالمصالح وتحصيل العلوم والتكنولوجيا إلى آخره. أما معسكرات القوى العُظمى، أو مُنافساتها، أو تَحَيُّزاتها ـ فذلك ما لا شأن لها به.

٢ ـ أنه إذا كانت الدول العربية ـ أو بعضها ـ تريد أن تكون حارسة لغة وحافظة ثقافة، فاللغة العربية أولى بالرعاية خصوصاً وهي أكثر انتشاراً من اللغة الفرنسية، وليست أقل غنى، ثم إن هذه اللغة الآن في مأزق لا تجد لنفسها فيه نصيراً إزاء غوائل عصور مُستجدّة ـ تستشعرها فرنسا ـ وهذا حقها ـ ولا يَستشعرها العرب، وإذا استشعروها تركوا لغتهم إلى مُنظمة في مُهمّتها «حراسة اللغة الفرنسية والثقافة الفرنسية».

٣ ـ أنه إذا كانت الدول العربية في حاجة إلى تأثير دولي نافذ فإن إعادة تنظيم الجامعة العربية ـ مع قادم جديد يُدير شئون أمانتها العامة ـ أولى من زيادة تأثير مُنظمة فرنسية همُّها تعويض إمبراطورية مضى زمنها بدائرة أخرى للنفوذ على نحو ما فعلت الإمبراطورية البريطانية : «الفرانكوفونية» ـ مثيل فرنسي «للكومنولث».

.....

.....

ولعله من المفيد هذه اللحظة أن تكون هناك مراجعة تطلب التثبّت والبقين :

ـ نعم لفرنسا من قلب أوروبا.

ـ ونعم لفرنسا صاحبة التاريخ وشريكة الحضارة.

ـ ونعم للفكر الفرنسي والثقافة الفرنسية.

ـ ونعم لفرنسا جواراً شمال البحر الأبيض.

لكن فرنسا التي تقصد الشعوب عن الإمبراطورية مسألة أخرى !

.....

.....

ويقال ـ ضمن ما يُقال ـ أن هذه القمّة «الفرانكوفونية» القادمة قصد مقصود لدعم لبنان ـ البلد المضيف لها.

ثم إن ترتيبات القمّة قاربت أن تكتمل ويصعُب الرجوع عنها أو إلغاؤها.

لكني أجازف وأتجاسر على سؤال :

«ألا يمكن أن تكون القمّة القادمة (في بيروت ـ أكتوبر ٢٠٠١) ـ تجمّعاً لأصدقاء لبنان وأحبابه يُنادون إلى الإحاطة به عرفاناً بقيمته وفضله (حتى على اللغة العربية والثقافة العربية)؟ ـ وأليس واردا أن لبنان هذه اللحظة يحتاج عالما يحرسه بأكثر مما تحتاج اللغة الفرنسية إلى حارس أفريقي أو عربي؟ ـ ثم ما الذي يمنع أن يتحول مؤتمر أكتوبر القادم في بيروت على مستوى القمة، إلى تجمع من أجل لبنان وحوله وتكون إدارته وتنظيمه ـ جهدا مشتركا بين منظمة «الفرانكوفون»، وجامعة الدول العربية، والأمم المتحدة، والمؤتمر الإسلامي، وحتى مجموعة دول الخليج؟

هل يُمكن؟

ولِمَ لا؟»

.....

.....

لسوء الحظ فإن ذلك السؤال سوف يَظل بلا إجابة لأن العالم العربي الآن عَجَلة تُجرى مُسرعة ـ ولا تُعرف إلى أين؟ ■

دار الشروق

تقدم أحدث وأهم إصداراتها

تطلب من دار الشروق ٨ شارع سيبويه المصرى - رابعة العدوية مدينة نصر ت، ٤٠٢٣٣٩٩ ومكتبة الشروق ١ ميدان طلعت حرب ت، ٣٩١٢٤٨٠
مبنى «فرست» - الجيزة - أمام حديقة الحيوان ٣٥ ش الجيزة مبنى فرست مول محل رقم ١٩ - ت - فاكس ٥٧٣٥٠٣٥ - ٥٦٨٥١٨٧
ومن والمكتبات الكبرى

من بدأ التحديث:

ماضي تركيا الدفين

كريستوفر دي بيليج

■ منذ تأسيس الجمهورية التركية على أنقاض الدولة العثمانية سنة ١٩٢٣، وهناك من يشجع مواطني الدولة الجديدة على قبول رواية شديدة الانتقائية من التاريخ. وطبقاً لهذه الرواية، فإن الدولة العثمانية والجمهورية التركية على عداء متبادل - فالأولى نظام إقطاعي عسكري يقوم على سياسة إسلامية رجعية، والثانية جمهورية علمانية استمدت مبادئها من مفكري التنوير الفرنسيين، والدولة غير مأسوف عليها، بينما تحتفي الجمهورية بالتمجيد، وأية صلة بين الاثنتين لا تعدو كونها مصادفة.

ولم يكن التاريخ مرناً في شيء مرونته في مقارنة خصال عبد الحميد الثاني، السلطان البارز في نصف القرن الأخير من الدولة العثمانية، ومصطفى كمال أتاتورك، مؤسس الجمهورية. إذ يحلو للمؤرخين الأتراك وصف السلطان عبد الحميد بالدكتاتور الدموي - القاتل والمصاب بجنون العظمة والرجعي. وصحيح أنه ربما ألغى أبرز نظام دستوري مبكر للدولة، وأن في عهده لقي آلاف الأناضوليين حتفهم في ثورتهم ضد المسلمين العثمانيين في تسعينيات القرن التاسع عشر. وقد وصف أتاتورك عبد الحميد بأنه «شخصية كريهة تدين اللذة والتسلط»، وقد أسعده خلع السلطان ونفيه سنة ١٩٠٩.

ومنذ ذلك الحين والأتراك الجمهوريون - أو «الكماليون» الذين كان أتاتورك الأب المؤسس لهم - يدينون الرأي ذاته في السلطان. لقد ضحّوا على سبيل المثال فشل محاولات السلطان عبد الحميد في الترويج للوحدة الإسلامية. إذ أنشأ خط سكك حديد الحجاز الذي كان ينقل الحجاج الأتراك من اسطنبول إلى الأماكن المقدسة في الجزيرة العربية التي كانت تخضع للسيطرة العثمانية، إلا أن هذا لم يؤد إلى توحيد المسلمين سياسياً. ومن ناحية أخرى فإن أتاتورك كان يحتقر أبناء دينه من العرب وكان له رأي يزدري الدين بصفة عامة. وفي الوقت الذي ينهم فيه السلطان بتوجيه العائدات الآتية من ضريبة الإنتاج إلى دائني الدولة الأجانب، فإنه يحمد لأتاتورك وضع نظام كفء للمحاسبة. وفي عهد السلطان عبد الحميد كان من الواضح أن الدولة تستحق لقب «رجل أوروبا المريض»، الذي جرى العرف على نسبه إلى القيصر الروسي نيقولا الأول في وقت سابق من القرن، وإن كان هذا غير صحيح. ومن ناحية أخرى، زعمت جمهورية أتاتورك أنها بلد فتى قوي ينمو بسرعة.

ومن الطبيعي أن أكثر من يحتقرهم الكماليون هم الذين يحاولون تبرير أعمال السلطان «عبد الحميد». إن الكماليين يقولون إن الدفاع عن هذا الحاكم الرجعي يرقى إلى مهاجمة أتاتورك نفسه. ولذلك كان المتوقع عند نشر المؤرخ نسيب فضل كساكورك لكتابه «أولو خاقان الثاني: عبد الحميد خان»، وهو السيرة التي كتبها لعبد الحميد، أنه سوف يثير عليه هجوماً مريراً من جانب الصحفيين الكماليين. ووصف الكاتب الصحفي الإسلامي عبد الرحمن دليبيك عبد الحميد بأنه «أحد أمهر السلاطين».

ومضى سليم ديرينجيل في كتابه الذي صدر مؤخراً إلى أبعد من ذلك في تكديس صفو الحكمة الكمالية التقليدية. وديرينجيل، الذي يعمل أستاذاً للتاريخ في جامعة بوغاز أنش، وهي أفضل الجامعات العامة سمعة في تركيا، ليس إسلامياً. وهو يأمل في أن تنضم تركيا إلى الاتحاد الأوروبي بعد أن منحت وضع المرشح سنة ١٩٩٩. إلا أنه لا يعتقد فقط أن عبد الحميد ومؤيديه بحاجة إلى أن «ينقذوا...من المهاجمين الكماليين»، بل إنه يرى أن عبد الحميد وأتاتورك «تجمع بينهما أمور كثيرة». وفي معرض البحث الواعي العليم غير المتعاطف الذي يتناول الدولة العثمانية خلال عهد عبد الحميد الذي دام ثلاثين سنة، ومحاولات النظام الحاكم للحفاظ على سلطته بين رعاياه اليائسين، يقدم ديرينجيل بديلاً لعالم التاريخ التركي الازدواجي.

ويؤدي كتاب اندرو مانجو الضخم الذي يحظى بالإعجاب Atatürk وظيفة مشابهة، وإن تمت بطريقة مختلفة. ومع أن أتاتورك نفسه لم يظهر بشخصه ولحمه في كتاب مانجو، فمن المؤكد أن هذا الكتاب سيصبح السيرة المعيارية، لأنه يقدم رواية مفصلة ومقنعة للحياة داخل تركيا في عهد أتاتورك وقبل مجيئه.

بل إنه رغم إعجاب مانجو بأتاتورك، فإن كتابه هو أكثر سير أتاتورك العلمية التي ظهرت حتى الآن انتقاداً له. ويصف مانجو بالتفصيل سمات أتاتورك التي تحاشى تناولها من سبقوه من كتّاب السير، مثل غطرسته الشديدة، وادعاءاته المبالغ فيها بشأن تغييره للتاريخ، والفظاظة والازدراء الذين عامل بهما المرأة. ويقول مانجو إن أتاتورك لم يكن فوق شبهة «الحكم بإعدام الزملاء السابقين بما يتنافى مع مبادئ العدالة». وفي بعض الأحيان كان نظامه أقرب إلى الفاشية. واعتمدت آخر سيرة باللغة الإنجليزية لأتاتورك، وهي من تأليف باتريك كينروس، اعتماداً كبيراً على تذكر أتاتورك للأحداث. وهو ما لا يفعله مانجو، الذي سيكون لكتابه أثره على أسطورة أتاتورك.

[1]

في أواخر القرن الثالث عشر، خرج عثمان غازي القائد التركماني المسلم على رأس جيش لتوسيع إمارته عند الحدود الأناضولية على حساب الإمبراطورية البيزنطية، التي كانت في سبيلها إلى الانهيار وكانت تحكم جزءاً كبيراً من تركيا واليونان الحاليتين من القسطنطينية. (كانت تربط عثمان قرابة بعيدة بالأتراك السلاجقة الذين كانوا يسيطرون على أجزاء من آسيا الصغرى منذ القرن الحادي عشر). وخلال ثلاثمائة سنة، قضى من خلفوا عثمان على البيزنطيين الأرثوذكس اليونانيين وحولوا القسطنطينية إلى أعظم مدينة مساجد في العالم. فقد حولوا إقطاعية عثمان إلى دولة دينية رفيعة الثقافة ومتعددة الأعراق تتسم بالتسامح بصورة عامة مع رعاياها من غير المسلمين، إلا أنهم تعهدوا كذلك بالجهاد ضد الكفار الذين فشلوا حتى ذلك الوقت في إخضاعهم. وامتد نفوذ الدولة العثمانية من الدانوب إلى الفرات، وعلى امتداد جزء كبير من ساحل البحر المتوسط الجنوبي.

كما سيطرت الدولة العثمانية على العالم الإسلامي. ولكي يعزز العثمانيون مطالبتهم بزعامة المسلمين، ادعوا سنة ١٥١٧ أن آخر الخلفاء العباسيين أوصى السلطان سليم الأول على الأماكن المقدسة في مكة والمدينة. ورغم الشك في صحة هذه القصة، فقد اعترف ملايين المسلمين في الشرق الأوسط وفي غيره بالسلطان خليفةً للمسلمين. وأعلن السلطان سليمان القانوني - الذي وسع حدود الدولة إلى أقصى مدى لها:

أنا زعيم أمة محمد. تصحبني قدرة الله ومعجزات محمد. أنا سليمان الذي يرفع اسمه في الخطبة في مكة والمدينة. أنا الشاه في بغداد، والقيصر في الأراضي البيزنطية، والسلطان في مصر.

وعلى العكس من الأملاك الاستعمارية في غرب أوروبا، كانت الدولة العثمانية إمبراطورية قومية في معناها الأوسع وحسب. ففي زمن محمد الفاتح، الذي استولت قواته على القسطنطينية سنة ١٤٥٣، كانت الأقاليم الخاصة بالخلافية العراقية تتلقى عليها الالتزامات العمومية المفروضة على الغازي (المقاتل في سبيل الله). ويقول خليل انشنالك، وهو أشهر من يرجع إليهم بشأن الدولة العثمانية في تركيا: «كان الجهاد والاستعمار شما الأساس الديناميكي في الفتوحات العثمانية». وهناك القليل من الأدلة على أن محمداً كان يفكر في نفسه باعتباره تركياً، ذلك أن هذه الكلمة كانت تستخدم في ذلك الوقت استخداماً مجازياً، وكان استخدامها فضفاضاً جداً فيما يتصل بالناحية العرقية. وصارت الكلمة لدى مسيحيي أوروبا الذين لم تخضعهم الدولة العثمانية، مرادفة لكلمة مسلم. وعلى التراب العثماني، كانت «تركي» تعني شيئاً أشبه بالقرع.

وبالنسبة للغريب الذي يألف الطبيعة العنصرية للاستعمار الأوروبي، فإن ما

1- The Well-Protected Domain,
Ideology and legitimation of Power in Othoman Empire, 1876-1909
(الأيديولوجية وشرعية السلطة في الامبراطورية العثمانية ١٨٧٦-١٩٠٩)
By Selim Deringil
IB Touris, 1999, 272pp.

2- Atuturk: The Biography of the Founder of Modern Turkey
(أتاتورك.. سيرة حياة مؤسس تركيا الحديثة)
By Andrew Mango
Overlook Press, 2000, 539pp.

3- A Middle East Mosaic
(فسيفساء الشرق الأوسط)
By Bernard Lewis
Random House, 2000, 512pp.

العثمانيون أم أتاتورك؟

السلطان عبدالحميد

كمال أتاتورك

يجذبه إلى تلك الدولة هو عدم اهتمام العثمانيين بالخلفية العرقية. وكان ذلك التسامح خروجاً عن الفصل العنصري للمسلمين غير العرب في ظل الخلافة العربية المبكرة، وكانت له منافعه العملية. فكثير من أطفال الرعايا المسيحيين، وخاصة من يعملون بالزراعة، جذبتهم الدولة وكانوا بمثابة أشخاص متحمسين دخلوا في الإسلام في القصر وفي الحرملك، كما كانوا أفراداً في الإنكشارية - وهي أول جيش عامل في أوروبا. وحظيت هذه التركيبة، التي تجمع بين التحول الديني والتعاون من أجل الخدمة العامة، بولاء الشعوب التي فتحت بلادها. كما أنها حالت دون ظهور طبقة أرستقراطية راضية عن نفسها، وجددت طاقة الطبقة الحاكمة. وكان وزراء محمد الفاتح الخمسة من العبيد السابقين الذين جندوا لخدمة السلطان.

وبالإضافة إلى انفتاح الدولة العثمانية على الاختلاف العرقي، فقد كانت في الوقت ذاته متسامحة نسبياً مع الأقليات الدينية - وهو التسامح الذي يأمر به القرآن، وبات واقعاً عندما برز السلطان حامياً لملايين المسيحيين الأرثوذكس في أنحاء البلقان. وعندما فتح السلطان بايزيد الثاني حدود الإمبراطورية أمام اليهود المطرودين من أسبانيا في أواخر القرن الخامس عشر، كانت تلك اللفتة منه تنم عن الحرص وبعد النظر، وإلى جانب كونها لفتة إنسانية؛ فإن ثروتهم ستساهم في يوم من الأيام مساهمة كبيرة في خزانة الدولة. وأظهر تعداد ١٨٩٣ للدولة (التي تقلص حجمها في ذلك الوقت) أن من بين السبعة عشر مليون عثماني المسجلين - وربما كان الرقم الحقيقي أعلى من ذلك بكثير - كان هناك حوالي خمسة ملايين ما بين مسيحي ويهودي. وفي اسطنبول نفسها، لم يكن عدد المسلمين يزيد على ٥٠ بالمائة من السكان.

وفي نهاية القرن السابع عشر، اجتمع التوسع التجاري الأوروبي والتقدم التكنولوجي مع سوء الإدارة الاقتصادية العثمانية والنكسات العسكرية والدبلوماسية لتحول جميعها دون المزيد من نمو النفوذ العثماني. وقد تداعت الدولة تحت عدم كفاءة إدارتها، وعدم أهلية الكثير من سلاطينها، وعدم مسايرة جيشها للعصر. وفي الوقت الذي تولى فيه عبد الحميد الحكم سنة ١٨٧٦، كان العثمانيون يعتمدون دبلوماسياً واقتصادياً على القوى الأوروبية الكبرى. وكانت الشعوب الخاضعة لهم تطالب بالاستقلال، متأثرة في ذلك بالحركات القومية التي ظهرت في أنحاء أوروبا. وعندما دخل أتاتورك في خدمة عبد الحميد ضابطاً صغيراً في الجيش، كان بقاء الدولة يعتمد على التلاعب بالخصوم داخل العالم المسيحي الأوروبي، حيث سعى السلطان إلى تأليب كل من الفرنسيين والبريطانيين والروس والألمان على بعضهم البعض. وكثيراً ما كان ينجح في مسعاه.

[٢]

ولد مصطفى كمال أتاتورك في سالونيكا الخاضعة للعثمانيين عام ١٨٨٠ أو ١٨٨١ في جو سياسي عقيم. وقد أمضى فترة تعليمه

اعترف ملايين المسلمين في الشرق الأوسط وفي غيره بالسلطان خليفة للمسلمين. وأعلن السلطان سليمان القانوني - الذي وسع حدود الدولة إلى أقصى مدى لها - أنا زعيم أمة محمد. تصحبني قدرة الله ومعجزات محمد. أنا سليمان الذي يرفع اسمه في الخطبة في مكة والمدينة. أنا الشاه في بغداد، والقيصر في الأراضي البيزنطية، والسلطان في مصر

العسكري وسط الكآبة والهزيمة. فقبل الحرب العالمية الأولى شكلت الجبل الأسود وصربيا وبلغاريا واليونان تحالفاً عسكرياً، لتنهي بذلك السيطرة العثمانية على البلقان إلى الأبد. وبعد أن تحالف العثمانيون مع الألمان أثناء الحرب، كانوا يأملون في وقف التوسع الروسي، واستعادة الأراضي التي فقدوها في البلقان. وأخيراً كان أملهم مع استمرار الحرب هو خلق إمبراطورية تركية جديدة في وسط آسيا. ولكن ما حدث هو أن المسئولين العثمانيين شاهدوا رعاياهم وهم يتواطأون مع عدوهم في طردهم من البلاد العربية. واحتلت قوات الحلفاء اسطنبول وشرقي تراقيا وميناء أزمير على بحر إيجة وموانئ جنوبي الأناضول. وما إن حل عام ١٩١٨ حتى لفظ «الرجل المريض» أنفاسه. وكانت القوى الكبرى على وشك اتخاذ قرار بشأن الطريقة التي يتم بها التخلص من رفاته، مع أن السلطة كانت لا تزال في يد الحكومة العثمانية من الناحية الرسمية.

وكان أتاتورك في ذلك الوقت ضابطاً غير معروف على نطاق واسع برتبة لواء سبق له الخدمة بإخلاص في صده للهجوم الذي شنه الحلفاء على الدردنيل سنة ١٩١٥، إلا أن أتاتورك كان طموحاً ومتشبثاً بآرائه. وكان يكره تأييد تركيا لألمانيا في الحرب العالمية الأولى. وبدلاً من أن ينتظر نتيجة المفاوضات بين ممثلي الشقيق الأصغر للسلطان عبد الحميد، السلطان محمد السادس وحيد الدين، والحلفاء، شرع في تنظيم المقاومة في الأناضول. ولم يكن تحدي أتاتورك في «حرب الاستقلال» التي شنها للمحتلين البريطانيين والفرنسيين واليونان والإيطاليين وحسب، بل تحدى كذلك النظام العثماني الذي استسلم استسلاماً مخزياً.

وأظهرت معاهدة ١٩٢٠ التي عقدت في سيڤر أن أتاتورك كان محقاً في توجيهه ضربة إجهاضية. فقد أشار الحلفاء في سيڤر إلى أنهم سيقبلون إنشاء دولة كردية وأخرى أرمينية في الأناضول، على أن تستولي اليونان على أزمير وما حولها. ووقعت الحكومة التركية على المعاهدة، مما فتح ثغرة أمام أتاتورك ينأشد من خلالها المسلمين الأتراك في الدولة، الذين وعدهم بألا يقسّم وطنهم الأناضولي. ومن ثغرة، التي أقام فيها نظاماً حاكماً منافساً لذلك الذي في اسطنبول، رفض المجلس القومي الأعظم، وهو برلمان أتاتورك الجديد، معاهدة سيڤر وأعلن أن من وقعوا عليها من الأتراك خونة. وبدعم من تركيبة غير محتملة تضم أشباهه من القوميين الأتراك، والملكيين، والقتلة، شن أتاتورك حملة عسكرية لطرد الغزاة.

وبعد عامين من الكفاح ضد ما اعتبرهم كثيرون صعاباً لا سبيل للتغلب عليها، حقق أتاتورك هدفه. فقد ألقى باليونانيين في البحر عند أزمير، ونصت شروط الهدنة على انسحابهم من تراقيا؛ كما سحب البريطانيون والفرنسيون والإيطاليون قواتهم كذلك. وكانت معاهدة لوزان في سنة ١٩٢٣ انتصاراً لأتاتورك. وإلى جانب محو معاهدة سيڤر، قدمت المعاهدة اعترافاً دولياً بحكومته وبالجمهورية الجديدة التي ظلت حدودها قائمة حتى يومنا هذا، مع بعض التعديل الطفيف. ورفضت مطالب الأكراد والأرمن.

كان ما أنجزه أتاتورك عظيماً من النواحي العسكرية والسياسية والدبلوماسية؛ فقد نجح في القضاء على الإمبراطورية متعددة القوميات، حيث صورها على أنها تقوم على مفهوم عاطفي عفى عليه الزمن. وما إن انتهت حرب الاستقلال حتى بات واضحاً أنه لن يُسمح بعد ذلك بتنوع الأناضول الديني والعرقي. فقد برزت هوية تركية من الصراع العرقي، وخاصة الصراع بين الأتراك والأرمن، الذين لقي حوالي نصف مليون منهم مصرعهم أثناء الإبعاد والمذابح سنة ١٩١٥، وصار مسلمو الأناضول ينظرون إلى المسيحيين الأرمن والمسيحيين بشكل عام على أنهم خونة، واعتبر المسيحيون المسلمين طغاة. وعلى هذه الهوية التركية أقام أتاتورك جمهوريته.

وفي سنة ١٩٢٥ شرع أتاتورك في تبادل باللوقا للسكان بين تركيا واليونان. فقد أرسل ما يربو على المليون أناضولي أرثوذكسي يوناني إلى اليونان، وقطع الرحلة نفسها ٣٨٠ ألف تركي في الاتجاه المعاكس. وعانى كثيرون من المصاعب الجمة. إلا أن هذا التبادل أفضى بعملية التطهير الديني والعرقي إلى خاتمة إنسانية نسبياً. وكان قمع أتاتورك فيما بعد للنزعة القومية الكردية -في جزء منه- رد فعل للطابع الإسلامي الرجعي للثوار الأكراد الأوائل. إلا أنه كان كذلك جزءاً من عملية أكبر للمجانسة تعد حيوية لأمن تركيا. ويقول مانجو: «لم يات أكبر تغيير في التاريخ الاجتماعي التركي مع إصلاحات أتاتورك، بل سبقها حين غادر المسيحيون البلاد».

وليس مستغرباً أن حرب الاستقلال صارت هي الفصل الأول من التاريخ الرسمي لتركيا الحديثة. فقد خلقت كل من بطولة أتاتورك وخيانة السلطان الظروف المواتية للثورة السياسية والاجتماعية التي تلت ذلك. حيث خرج السلطان من اسطنبول متسللاً على سفينة حربية بريطانية. ولا يمكن الا يروق هذا لأتاتورك، لأنه زاد من قوة السلطة الأخلاقية التي كان بحاجة إليها كي يقنع الأتراك بقبول إلغاء حكمهم الملكي ثم الخلافة بعد ذلك بعام. وفي سنة ١٩٢٢ اتهم أتاتورك الأسرة العثمانية بالاستيلاء على «سيادة وسلطنة الأمة التركية». وأضاف «أنهم أداموا هذا الاغتصاب طيلة ستة قرون». وفي وقت لاحق وُصِفَ وحيد الدين بأنه «فاسد». وكانت تلك كلمات مريعة؛ وهي تصور ما آل إليه العثمانيون فجأة.

[٣]

وطبقاً لما يقوله سيفكت باموك، الذي شارك في تأليف كتاب مهم عن تاريخ الدولة العثمانية الاقتصادي والاجتماعي، فقد كان هناك «قرار سياسي اتخذه النظام الحاكم الجديد بأن لا تستمد شرعية من الشرعية القديمة.....فعن طريق الإساءة إلى الدولة العثمانية وحده يمكنهم خلق جمهورية

جديدة». وأمضى أتاتورك فترة رئاسته فى تشجيع شعبه على اعتبار الدولة القديمة استبداداً متخلفاً منعت ايديولوجيته المرشدة ـ وهى الإسلام ـ نخبته التركية من مجاراة التقدم التكنولوجى والاقتصادى الغربى ـ وهو الشلل الذى يمكن علاجه بإصلاحاته المحدّثة والمعلمنة. وفى كتاب The Emergence of Modern Turkey أيد برنارد لويس أكثر المقولات الأكثر كمالية ـ وهى أن ثورة أتاتورك كانت تمثل «تحرير آخر الشعوب الخاضعة للدولة العثمانية».

صحيح أن لويس متعاطف مع أهداف تلك الثورة وأساليبها. إلا أن كتابه The Emergence of Modern Turkey اعترف بأن الدولة الجديدة بدأت فى الظهور حتى قبل أن يولد أتاتورك، وبأن أتاتورك أنهى عملية الإصلاحات التى كان العثمانيون يسعون لتحقيقها منذ بداية القرن التاسع عشر. وفى كتاب «أطول قرون الإمبراطورية»، وهو كتاب عن تاريخ الإصلاح العثمانى فى القرن التاسع عشر، يكرر تشلبر أورتايل ويشير إشارة واضحة إلى تأثير الدولة العثمانية على النظام الجمهورى. وفى كتابه الأخير، يمضى ديرينجيل بمقولته خطوة إلى الأمام. فهو يقول إن «خيطاً مباشراً يمكن مده من القاعات المذهبة فى الباب العالى إلى مبنى البرلمان الآيل للسقوط فى أنقرة».

بدأ السلطان محمد الثانى الإصلاحات العثمانية بجد وإخلاص فى الربع الثانى من القرن التاسع عشر، وتم توسيعها بسلسلة من المراسيم الإصلاحية المعروفة باسم «تنظيمات». وشملت تلك الإصلاحات تحديث القوات العسكرية وتحسينات فى التعليم. كما علمنت الإصلاحات النظام القانونى الإسلامى علمنة جزئية، وحدت من نفوذ علماء الدين. بل إن التغييرات التى ينظر إليها حالياً على أنها كمالية خالصة، مثل استبدال الأبجدية العربية بالأبجدية الرومانية لكتابة اللغة التركية، وتحديث الملابس، وتحرير المرأة، كانت قد اقترحت أو بدأ العمل بها فى عصر الدولة العثمانية. كما أن صحافة الجمهورية وبرلمانها وتقليدها الخاص بالسياسة الحزبية تعود جذورها جميعاً إلى الدولة العثمانية.

ولا ينبغى أن نفزع من أن أتاتورك المصلح استمد أفكاره من نماذج عثمانية. فقد ولد عثمانياً وأمضى بداية حياته العملية فى الفلق باسمها ـ سواء أكان يدافع عن الإقليم العثمانى فى ليبيا ضد إيطاليا فى عامى ١٩١١ و١٩١٢، أم كان يقود القوات فى غاليبولى سنة ١٩١٥. وحقيقة أنه أمضى عامين فى صوفيا ملحقاً عسكرياً وكان متحمساً للثقافة الفرنسية بشكل يعيد إلى الأذهان مهندسى التنظيمات الأساسيين ـ وجميعهم يتحدثون الفرنسية وخدموا فى السفارات العثمانية فى أوروبا. واستفاد أتاتورك نفسه فى شبابه من استثمار عبد الحميد المفوط فى التعليم. وعندما صار رئيساً، اتبع النموذج السلطانى فى تجنب الحروب الخارجية غير الضرورية والمكلفة.

هذا كله يثير سؤالاً، وهو إذا كان أتاتورك تكوّن بصفته عثمانياً، وكانت معظم السياسات التى نفذها من اقتراح من سبقوه من العثمانيين أو أنهم نفذوها تنفيذاً جزئياً، فما هو على وجه الدقة الذى يفصله عنهم؟ لكى نجيب عن هذا السؤال، يجدر بنا استعادة الحجة التى ساقها ديرينجيل بأن أتاتورك وعبد الحميد «كانا سيجدان أن هناك أموراً كثيرة تجمع بينهما». ويتسم تعليق ديرينجيل بأنه مبالغ فيه لوقوعه فى خاتمة كتابه، ذلك أنه يدعونا لتخيل استحالة تاريخية مغرية.

لنتصور السلطان الملتحى فى قاعة الاستقبال بأحد مقار إقامته فى منتزه يلدز، الذى يدفعه خوفه من الاغتيال إلى الا يغادره إلا نادراً. وكما هو سلوكه مع ضيوفه من غير رجال الدين المسلمين، لا ينهض السلطان العثمانى لمقابلة رئيس الجمهورية التركية. بنحنى أتاتورك ثم يجلس على مقعد يشير إليه أحد الياوران. إنه حليق الذقن وممتلئ من كثرة شرب الخمر. والواقع أنه يود لو يتناول كأساً من «العرقى» فى تلك اللحظة، ولكنه يعلم أنه لا ينبغى له أن يطلبها. وهو يرتدى ملابس رسمية منعقة بتباهى بأن خطوطها جيدة مثل أية ملابس رآها فى أوروبا. إلا أن السلطان لا يشعر بالراحة وهو يرتدى معطف الصباح. فالقفطان المطرز الذى كان أسلافه يرتدونه يناسبه أكثر.

غير أن هناك مشكلة وشيكة. فالتركية العثمانية التى يتكلمها السلطان لغة شديدة الرسمية، وزاخرة بالمفردات العربية والفارسية، ويكثر فيه ذكر الله والرسول، وتستخدم الكثير من الصنعة والتلميحات. الرئيس يفهم ما يقال تمام الفهم، بما أنه ولد وتعلم كعثمانى، ولكن يبدو أنه يجيب بلغة مختلفة كل الاختلاف. وهناك فى عاصمة الجمهورية التركية، أنقرة، يسعى أتاتورك وزملاؤه إلى تطهير التركية من كثير من التأثيرات الفارسية والعربية بقدر الإمكان، حيث يبحثون عن بدائل «تركية» للكلمات «الأجنبية». وعندما يشير السلطان إلى أنه لا يفهم هذه التركية «الأنقى»، يعرض عليه أتاتورك الحديث بالفرنسية أو الألمانية. ويصر السلطان على أى من العربية أو الفارسية. ويستدعى أحد المترجمين.

وبما أن مشكلة الاتصال قد حُلّت، فبإمكان الرجلين أن يختبرا نظرية ديرينجيل. ورغم ذلك فهما يبدوان وكأنهما ينتميان إلى ثقافتين مختلفتين. كتاب «روح القوانين» لمونتسكيو، وأوجست كونت، وإنش جى ويلز، والثورة الفرنسية، ومقال بعنوان «هل يمكنك إنكار وجود الإله؟» ـ يلاحظ عبد الحميد أن كل ما هو غير إسلامى ودنيوى وأوروبى يلفت نظر هذا الرئيس. حتى اسم الجمهورية، تركيا، مأخوذ من الفرنسية .Turquie ويمضى أتاتورك فى كلامه ليصف بالتفصيل تمثالاً له مع العديد من زملائه فى أنقرة، وقد أتمه منذ سنوات مثال نمساوى يدعى كريبل، يهز عبد الحميد كتفيه. فقد حظر السلطان عرض تماثيل له فى أنحاء الدولة، ذلك أن هذا مناف للإسلام ويشجع المتآمرين.

ويحاول السلطان أن يعطى الرئيس انطباعاً عما يعتبره عفن أبحاثه الفكرية. وهو يقول إن مهمة المحدّث الإسلامى هى أن يعيد اكتشاف جوهر الإسلام، الذى يمكن بالضرورة تطبيقه على الحياة الحديثة، كما يقول إن أفضل ما فى أوروبا موجود بالفعل فى الإسلام. على سبيل المثال، ليست «الديمقراطية» سوى تنويع على الآية القرآنية «وشاورهم فى الأمر» ـ آل عمران ١٥٩، التى يأمر فيها الله الرسول بمشاورة أصحابه؟ فلماذا تقلد الغرب برعونة، بينما لدى الإسلام الإجابة عن كل أسئلة الإنسان؟

ويقطع صوت الآذان المقابلة قبل أن تنتهى. وعند الباب يقود موظف الياوران الرئيس إلى غرفة صغيرة للصلاة خصصت للضيوف. يشير أتاتورك للوجل بأن يبتعد. إنه يريد العودة إلى مزرعته خارج أنقرة. وبينما يغادر المقر، يلتقط فقرة من إحدى خطبه الأثيرة: «أصدق مرشد لإنجاز كل شىء فى هذه الدنيا، ولإقامة الحضارة، وتحقيق النجاح، والاستمتاع بالحياة، هو المعرفة والعلم. والتماس أى مرشد سوى المعرفة والعلم علامة من علامات الغفلة والجهل والانحراف».

بالإضافة إلى انفتاح الدولة العثمانية على الاختلاف العرقى، فقد كانت فى الوقت ذاته متسامحة نسبياً مع الأقليات الدينية. وهو التسامح الذى يأمر به القرآن، وبات واقعاً عندما برز السلطان حامياً للاجئين المسيحيين الأرثوذكس فى أنحاء البلقان. وعندما فتح السلطان بايزيد الثانى حدود الإمبراطورية أمام اليهود المطرودين من أسبانيا فى أواخر القرن الخامس عشر

إن الفصل بين أتاتورك ومن سبقوه من العثمانيين، حتى من عارض عبد الحميد منهم، يعد فصلاً بين المصلح الذى يدعو للتغيير لظنه أنه سوف يقوى النظام الحالى فى آخر الأمر، والثورى الذى لا تعنى التغييرات نفسها أى شىء بالنسبة له، ما لم تكن محصوبة بتبديل ذلك النظام برمته. وأشار برنارد لويس برقة فى كتابه The Emergence of Modern Turkey إلى أنه عندما اتجه أتاتورك إلى الحضارة الأوروبية، كان يفهم هذه البديهية أحسن من أى عثمانى آخر. «لا يمكن أن يكون اقتراض حضارة ما بممارسات حضارة أخرى محدوداً أو معزولاً... فكل عنصر يؤتى به من الخارج يأتى معه بسلسلة من التبعات».

وكتاب لويس الأخير A Middle East Mosaic موجز لطيف. ولكن لا شكل له. للآراء الشرقية فى الغرب والآراء الغربية فى الشرق. وهو ينقسم إلى أقسام تحمل أسماء من قبيل «حزمة من الآراء المسبقة»، و«الطعام والشراب» و«الفطنة والحكمة»، و«النبوة والإمبراطورية». ومن اللافت للانتباه والمفيد أن تكون بين أيدينا مقتطفات من مذكرات فلوبير بشأن إحدى قوافل الجمال، وملاحظة مارك توين الخاصة بـ«قرية المساكين» فى القدس، إلى جانب برقية كارل ماركس المطولة التى بعث بها من لندن عن حرب القرم. وتوجيهات من العراقيين والإيرانيين والمصريين عن كيفية التعامل مع الجواسيس. ويبدو أن تعليقات آتشيسون على مُصَدِّق، رئيس الوزراء الإيرانى، **تأسف أسفاً ضمنياً على الدور الذى قامت به** أمريكا فى خلعه سنة ١٩٥٣:

ربما أبطأنا فى إدراك أنه فى المقام الأول إيرانى ترى ورجعى ذو عقلية إقطاعية تحركه كراهية متعصبة للبريطانيين والرغبة فى طردهم وطرد كل أعمالهم من البلاد، بغض النظر عن ثمن ذلك. لقد كان مثلاً عظيماً ومقامراً كبيراً.

إلا أنه من الصعب أن نحدد ما الذى يود لويس أن يخرج به القارئ من هذه المجموعة. فقليل من الملاحظات التى ضمّنها كتابه تبين أى إدراك كبير أو أصالة كبيرة بشأن الفروق بين الثقافات. والمجموعة التى انتقاها لويس من محاضرات الرحلات والخطابات وغيرها، توضح أكثر

من أى شىء آخر الاحتقار المتبادل والجهل اللذين أوحيا - ومازالا يوحيان - بآراء كل من أبناء الشرق الأوسط والأوروبيين.

[٤]

يرى الزائر العابر أن فكرة فقدان الأب المؤسس لتركيا لسلطته تخالف المنطق والعقل إلى حد ما. فبعد ما يزيد على ستين سنة من وفاته، لم يكن أتاتورك أكثر بروزاً مما هو عليه الآن. فلا يكاد يمر أسبوع دون أن تقيم له إحدى البلديات تمثالاً ضخماً جديداً. كما يعلق موظفو الدولة والمحامون صورته على دبابيس أربطة أعناقهم. ويحيي الساسة، ومنهم أصحاب الآراء التى لا تتفق مع آرائه، ذكراه فى خطبهم. وفى الذكرى السنوية للأحداث المهمة فى حياته (وحياة الجمهورية بالتالى) تتناقص الصحف اليومية مع بعضها فى إبداء الإعجاب به. وتزيّن المبانى العامة بصور ضخمة لأتاتورك السياسى والجندى ومحب الأطفال.

ولا يزال ملايين الأتراك ينظرون إلى أتاتورك باحترام وتبجيل. فلو لم يطرد المحتلين الأوروبيين فى ١٩٢٢ و١٩٢٣، ويقنعهم بالاعتراف بحدود جمهوريته الجديدة فى لوزان، لربما لم يكن هناك وجود لتركيا التى يعرفونها. بل إن معظمهم يشارك أتاتورك طموحه من أجل شعبه - وهو بناء الدولة القومية الحديثة. ورغم قوة الصحوة الإسلامية الحديثة فى تركيا، والآثار المنهكة لحرب الثورة القومية الكردية طوال ست عشرة سنة فى الجنوب الشرقى، فإن معظم الأتراك يتبنون مبدأ كمالياً أساسياً، وهو أن بلدهم بلد علمانى يقوم على أسس قومية.

إلا أن اتفاق الأتراك المحدثين مع جوانب رسالة أتاتورك تصحبه كراهية متزايدة لوجها العام. فمن بين الستة «مبادئ الأساسية التى لا تتغير» التى ادخلها أتاتورك فى الدستور، لا يزال واحد منها فقط بلا تغيير - وهو الجمهورية. أما الخمسة الأخرى - وهى القومية والشعبية والدولية والعلمانية والثورية (الولع بالتغيير) - فقد جرى تعديلها. إذ أثارت الصحوة الإسلامية وقوة الوعى العرقى الكردى المستمرة الشكوك فى العلمانية والقومية، فى حين جعل تأثير اقتصاد السوق الخاص بأوروبا والولايات المتحدة - ناهيك عن صندوق النقد الدولى الذى وقّعت تركيا اتفاقية معه سنة ١٩٩٩ - سائر المبادئ غير متماشية مع العصر. والأمر الأكثر أهمية هو أن أعداداً متزايدة من الأتراك مستاءة من إشراف الجنرالات ومن السيطرة عليها بالقوانين الاستثنائية وبنود الدستور.

ولا شك فى أن أسلوب أتاتورك الدكتاتورى كان فى مصلحة تركيا أثناء حرب الاستقلال والفترة التالية لها مباشرة. فمن الصعب رؤية الطريقة التى كان يمكن بها لشخص يراعى المعايير الديمقراطية إقناع القادة والإداريين العثمانيين بتحدى سلطانهم وطرد المحتلين الأجانب. إن أى منهج تشاركى ما كان ليخدم أتاتورك فى مساعيه للسيطرة على الجهازين المدنى والعسكرى اللذين أقامهما فى أنقرة. لقد استغل تلك الهيمنة فى خلع سلطة السلطان، وقمع التمرد على الجبهات العديدة، وإعلان الدولة الجديدة، وطرد اليونانيين. ولم يكن بالإمكان إقامة الديمقراطية بين عشية وضحاها كى تتصدى للتحديات التى واجهها أتاتورك عندما كان يسعى لتولى السلطة.

أن فكرة فقدان الأب المؤسس لتركيا لسلطته تخالف المنطق والعقل إلى حد ما. فبعد ما يزيد على ستين سنة من وفاته، لم يكن أتاتورك أكثر بروزاً مما هو عليه الآن. فلا يكاد يمر أسبوع دون أن تقيم له إحدى البلديات تمثالاً ضخماً جديداً. كما يعلق موظفو الدولة والمحامون صورته على دبابيس أربطة أعناقهم

ومن ناحية أخرى، نجد أن الخمس عشرة سنة التى أمضاها رئيساً لجمهورية دستورية فى وقت السلم موضع قدر أكبر من الجدل. ويقول مانجو: «من الناحية النظرية، انتقلت السيادة من السلطان إلى الأمة....إلا أن أتاتورك هو الذى كان يمارسها باعتباره الرئيس. وكان رئيس الوزراء هو وزيره الأول فى كل شىء ما عدا الاسم». ويرى مانجو فى استنتاجه أن أتاتورك كان محقاً فى عدم تخليه عن القيود المفروضة على المعارضة السياسية فى حياته. وهو يقول إنه فيما بين الحربين «لم يكن بالإمكان المحافظة على الديمقراطية فى كثير من المجتمعات الأكثر ثراء والأفضل تعليماً». وللحق، فإن هذه المجتمعات نفسها - وهى فى أغلبها أوروبية - وضعت أنظمة ديمقراطية فعالة، فى حين فشلت تركيا فى ذلك.

بل إنه منذ الهزيمة التى مُنى بها حزب أتاتورك الشعبى الجمهورى فى انتخابات ١٩٥٠ وكانت بداية سياسة التعددية الحزبية، ذكّرت ثلاثة انقلابات عسكرية «تصحيحية» الأتراك باهتمام الجنرالات الخطير بالشئون اليومية. وحالت دون الديمقراطية ضغوط الحرب الباردة، حين كانت تركيا دولة مواجهة لحلف الناتو. وكان ينظر إلى معارضة اليسار على أنها مدمرة. وكان هناك قدر كبير من الفساد فى البرلمان والجهاز البيروقراطى. فقد جرى تعويد الأتراك العاديين على الركوع للسلطة مهما كانت. ولا بد أن أتاتورك يتحمل بعض الوزر فى ذلك. فربما وضع دستوره فى سنة ١٩٢٤، الذى يدعو إلى برلمان يتم انتخابه من خلال حق التصويت للذكور وحدهم، إطاراً للتحول الديمقراطى فيما بعد؛ إلا أن كمال حكم باعتباره «دكتاتوراً فعلياً»، وكان عدم سماحه للديمقراطية بالانتعاش فى فترة رئاسته بمثابة سابقة تنذر بالسوء. إنه تعليق سيئ على نوعية الحياة العامة التركية أن يظل أتاتورك أهم شخصية فى سياسة البلاد بعد ستين سنة من وفاته.

إن التلاعب بذكراه منظر يتسم بالبشاعة، ذلك أنه يجعله يبدو وكأنه رجل تافه ومنتقم، لا صاحب رؤية كما كان. ويتذكر الجنرالات وكبار الساسة مبداه الخاص بتركيا الموحدة عندما يلقون القبض على الأكراد، الذين يعرضون مطالب خاصة بالحقوق الكردية، ويدينونهم. واستحضر الجنرالات ذكرى أتاتورك منذ ثلاث سنوات عندما أخرجوا أول حكومة إسلامية فى تركيا من السلطة.

وفى الوقت الذى يدرس فيه الأتراك احتمال أن يتخلوا طواعية عن قدر كبير من سيادة أتاتورك التى حصلوا عليها بشق الأنفس وينضموا إلى الاتحاد الأوروبى، فإنهم يعيدون تقييم التاريخ الكمالى ومعه مواقفهم من الدولة العثمانية. وطبقاً لما يقوله المؤرخ التركى انشلبر اورتايل، فإن تزايد الاهتمام مؤخراً بالعصر العثمانى مرجعه إلى الرغبة فى اكتشاف «ما هو معنى الدولة العثمانية». وربما يعود بعض من هذا إلى الحنين إلى الماضى: فقد كانت الدولة العثمانية، حتى فى مرحلتها الأخيرة، قوة عظمى، بينما تركيا ليست كذلك. وهو فى جزء منه تسجيل نقاط من جانب الإسلاميين الأتراك الذين يحبون أن يثيروا حفيظة العلمانيين بتذكيرهم على حماس الدولة العثمانية الدينى. إلا أن النتيجة النهائية واضحة: فكما يمكن لنا أن نتوقع، سوف يميل التاريخ الكمالى لمصلحة الكمالية، وكلاهما قد أصابه التصدع.

وكانت الغلطة الكمالية الأساسية هى تجاهل المسألة التى يواجهها أى بلد إسلامى يسعى إلى التحول الاجتماعى والسياسى على النمط الأوروبى أو الأمريكى الشمالى. فإلى أى مدى يمكن التوفيق بين شعب من الشعوب، جزء كبير منه من المسلمين المؤمنين، وبين أساليب الحكم والتفكير الغربية؟ ويوحى النجاح النسبى لثورة أتاتورك بأن هذا ممكن، ولكنه شديد الصعوبة. وحتى الآن لم يتحقق الهدف إلا على حساب المُثل الأوروبية القيمة الأخرى، كالحرية وحقوق الإنسان. وبما أن الأتراك يحلقون تحليقاً مشكوكاً فيه على أبواب الاتحاد الأوروبى، فلا بد أنهم يحاولون العثور على حل أكثر إرضاء لهذا التناقض. وفى إيران المجاورة، حيث الجدل أصعب من أن يتم، يحاول مصلحو الديمقراطية الشىء نفسه.

وإذا كان على تركيا أن توفق فى نهاية الأمر بين الجوانب الجمهورية والإمبراطورية وجوانب حكم رجال الدين الخاصة بهويتها، فحينئذ سيكون التاريخ مرشداً مهماً. ويبدو أن أعداداً متزايدة من عامة الأتراك توافق على ذلك. ففى سنة ١٩٩٨ شاركوا فى احتفال على مستوى الأمة بالذكرى الخامسة والسبعين لميلاد الجمهورية. وفى العام الماضى أحيوا ذكرى مرور سبعمائة سنة على ميلاد الدولة العثمانية التى خلعتها الجمهورية وشانت أيديولوجيتها، وإن كان الاحتفال على نطاق أضيق. وليس هذا خروجاً على القياس كما قد يبدو. فداخل معظم الأتراك هناك شىء من أتاتورك وشىء من عبد الحميد، بغض النظر عما تقوله لهم كتبهم المدرسية. ■

بترتيب خاص مع:
The New York Review of Books
ترجمة: أحمد محمود

لكى لا يطفى الوطنى على القومى

أى مستقبل للجامعة العربية؟

ناصيف حتي

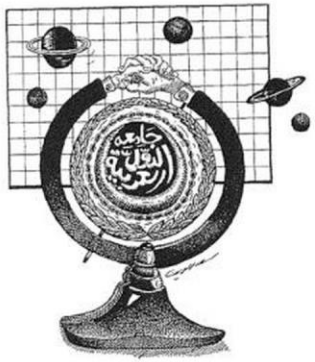

■■ تصور الكثيرون أن النظام العربى الذى عاش حالة من الفوضى والتفكك والانكشاف الكلى فى التسعينيات قد دخل مرحلة الاحتضار وبقى فقط الإعلان الرسمى عن وفاته. فأزمة الخليج الثانية كشفت العجز الذى كان يعيشه النظام العربى ودفعت تداعياتها إلى تعميق حالة «اللانظام» والفوضى. وإذا كانت للحرب فى الخليج تداعيات سلبية على هذا النظام فإن تداعيات السلام المنقوص فى الفضاء العربى الإسرائيلى قد سمحت، بل شجعت البعض الإسرائيلى والخارجى على التشكيك بقومية النظام معتبرة إياها مسئولة عن التخلف وحاجزًا أمام التقدم وللتذكير فقط دعا شيمون بيريز إلى التخلى عن جامعة الدول العربية باعتبارها تنتمى إلى الماضى الذى يجب إقفال صفحته والتفكير بصيغ تعاون جديدة. كل ذلك سمح بطرح مشاريع إقليمية تقوم على الجغرافيا الوظيفية بشرط نفى الهوية العربية، وكنا، كما أشرنا فى مقال سابق، «بشرط تحقيق السلام والتقدم والتحديث يتطلب من العرب وحدهم، دون غيرهم، فى عالم يتسم بانتعاش الهويات وتجددها، التخلى عن هويتهم» وكأننا أيضًا لا نستطيع الجغرافيا القومية أن تحتضن الجغرافيا الوظيفية التعاونية. وتشكل بالتالى وعاء لهذه الأخيرة دون أن يكون ذلك الوعاء مقفلاً على الخارج فى عصر العولمة أو غير متصالح مع بيئته المباشرة ولكن بالشروط التى يحددها لهذه المصالحة.

إذا كان السؤال القائم فى التسعينيات من نوع هل من مستقبل لجامعة الدول العربية يحمل نوعًا من التشاؤم الحتمى فإن بعض المعطيات تسمح بتحويل السؤال إلى: أى مستقبل لجامعة الدول العربية؟ وهو سؤال يحمل نوعًا من التفاؤل المشروط. وإذا رأى البعض أن العرب عاشوا لحظات قومية فى الماضى سرعان ما انتهت إلا أن المعطيات الجديدة بما تحمله من تغيير قيمى ومؤسسى تسمح بالحديث عن نشوء نظام عربى جديد يقترن بولادة جامعة عربية جديدة، ولابد من التذكير بأحد المسلمات المعروفة على صعيد السياسة الدولية وقواعدها التلازم الوثيق بين النظام الإقليمى. فبقدر ما يكون الأول متطورًا بقدر ما تزداد فعالية الثانى، الأمر الذى يساهم بدوره فى تطوير النظام الإقليمى والعكس صحيح.

المعطيات الثلاثة هى - أولاً - مأسسة القمة العربية ودوريتها بعد أن بقيت القمة موسمية وعرضة للتجاذبات السياسية وخارج إطار الجامعة منذ خمسين عامًا ونيف، الأمر الذى أضعف القمة من جهة وأبقى الجامعة ضعيفة من جهة أخرى رغم كل الدعوات التى تمت فى الماضى لإدماج القمة فى الجامعة العربية ويعتبر القرار الصادر عن مؤتمر القمة العربى غير العادى المنعقد فى القاهرة فى ٢١ - ٢٢ أكتوبر ٢٠٠٠، تحولاً نوعيًا وتاريخيًا على الصعيد المؤسسى. صحيح أن استقرار القمة كأعلى سلطة تقريرية لمجلس جامعة الدول العربية لا يعنى النجاح التلقائى فى حل الخلافات العربية لكنه يعنى توفير أفضل الفرص لاحتواء الخلافات أو تجميدها أو تسويتها كما أن دورية القمة تزيد من هذه الفرص وتمنع من تلافى تناول بعض الخلافات الرئيسية أو تجاهلها، زد على ذلك أن عنصرى الاستمرارية ومستوى صناعة القرار الجماعى خاصة بالنسبة لطبيعة صناعة القرار فى الدول النامية، تضفيان مزيدًا من المصداقية والجدية على القرارات العربية. كما يلحظ الملحق الخاص لميثاق جامعة الدول العربية بشأن القمة حق الدعوة لدورات غير عادية إذا ما استدعى الأمر ذلك مما يضفى مرونة على دور القمة ولا يجعلها أسيرة قوالب زمنية. ويعطى الملحق هذا الحق بطلب عقد دورات غير عادية يستدعى عقدها موافقة ثلثى الدول الأعضاء إلى الأمين العام وهو ما يعزز دور هذا الأخير فى رصد الأزمات العربية أو العربية الدولية وفى الدبلوماسية الوقائية. من المكاسب الجانبية أيضًا أن القمة توفر الإطار للقاءات تهدف إلى تسوية خلافات أو احتواء أخرى كان من الصعب عقدها خارج إطار هذه الآلية العربية نظرًا لاعتبارات عديدة معنوية وغيرها قد تحكم أطراف اللقاء فى حين توفر القمة المخرج الأمثل لهذه القمم المصغرة ذات الهندسات المختلفة.

وفى سياق تعزيز أجهزة الجامعة العربية، كان مجلس الجامعة قد أقر فى ٢٨ مارس ٢٠٠٠ إنشاء آلية جامعة الدول العربية للوقاية من النزاعات وإدارتها وتسويتها بين الدول العربية التى تعمل تحت إشراف مجلس الجامعة. وستعطى عملية مأسسة القمة دفعًا قويًا لتفعيل هذه الآلية الأساسية فى الدبلوماسية الوقائية.

ثانيًا: انتشار قيم ومفاهيم التعاون الاقتصادى واستقرارها فى اتفاقيات عربية ومن الأمثلة على ذلك إنشاء منطقة التجارة الحرة العربية الكبرى والعديد من اتفاقيات التجارة الحرة الثنائية، إلى جانب التعاون القطاعى مثلاً فى مجالى الربط الكهربائى والغاز الذى يضم مصر وسوريا والأردن ولبنان وأخيرًا تبنى القمة عقد المؤتمر الاقتصادى العربى الأول فى القاهرة فى نوفمبر ٢٠٠١ بناء على مبادرة جمهورية مصر العربية وتكمن أهمية المؤتمر فى شموليته إذ أنها المرة الأولى التى يشارك فيها إلى جانب الأطراف الرسمية القطاع الخاص والعربى وكذلك الأجنبى والمؤسسات الاقتصادية الإقليمية والدولية. ومشاركة هذه الأطراف ضرورية فى ظل العولمة واقتصاد السوق لإنجاح أهداف هذا المؤتمر. وعلى صعيد آخر خص البيان الختامى للقمة العمل الاقتصادى العربى المشترك بفقرات عديدة وبشكل دقيق وتفصيلى وبعكس ذلك التوجه العربى «الجديد» نحو إيلاء «المسألة الاقتصادية» الأهمية التى تستحقها فى عملية تطوير التعاون العربى المتعدد الجوانب.

ثالثًا: الاهتمام الكبير الذى أولته القمة وبلغة واضحة أيضًا لعملية الإصلاح الشامل للأمانة العامة للجامعة والدعم والصلاحيات التى منحتها فى هذا الخصوص للأمين العام للانطلاق فى ورشة إعادة الهيكلة والإصلاح ويسمح ذلك ليس فقط بإعادة تنشيط دور الأمانة العامة ولكن بالعمل أيضًا على بلورة وظائف جديدة لها وتوسيع وظائف قائمة لتكون «ديناميو» أساسيًا فى عمل جامعة الدول العربية. ويعبر هذا التوجه عن أهمية الدور المستقبلى الذى يوليه القادة العرب للأمانة العامة.

إن المعطيات السابقة تدفع باتجاه إحداث المصالحة المطلوبة بين «القومى» و«الوطنى» اللذين يشكلان ثنائية شديدة التعقيد فى النظام العربى وإحدى أهم خاصيات هذا النظام. وتبقى هذه الثنائية من مصادر التأثير الأساسية فى السياسات العربية وفى العلاقات بين المجتمع والدولة من المنظور العربى. فهى قد تكون مصدر توتر وتدخل من جهة كما أنها قادرة أن تكون مصدر تعبئة للإمكانات العربية. وقوة للنظام العربى ودوله من جهة أخرى فيما لو تم خلق تناغم بين طرفى هذه الثنائية.

فلم يعد من الجائز أن يبقى «القومى» غطاء انتقائيًا، خاصًا ببعض القضايا أو موسميًا أو الاثنين معًا، لمصالح «وطنية» أو انعكاسًا لمشاعر أو عواطف جامعة، مهما كانت هذه مشروعة لكنها غير قابلة للتحول إلى سياسات عملية وقادرة أن تكون فقط مصدر اضطراب وإحباط وقلق. ولم يعد من الجائز أيضًا أن يبقى «الوطنى» ذا حساسية سلبية مفرطة تجاه الآخر العربى فى عصر لم تعد علاقات الاعتماد المتبادل فيه خيارًا وطنيًا بل واقعًا موضوعيًا يزداد رسوخًا يومًا بعد يوم. فالتطلع إلى التقدم يفترض التطلع إلى الاندماج فى فضاء إقليمى أوسع من «الوطنى». يتطلب ذلك كله ونحن على مفترق طرق إحداث تطور ومراجعة فى ثلاثة مجالات رئيسية. أولها: تفعيل مؤسسات العمل العربى المشترك، الأمر الذى يستدعى بداية البحث بطبيعة عمل القمة فالتنفيذ

(*) الأفكار الواردة فى المقال تعكس وجهة نظر الكاتب ولا تمثل بالضرورة رأى المنظمة التى يعمل بها

والمتابعة والمساءلة الجماعية من العناصر الضرورية لإعطاء مصداقية لمفهوم القمة الدورية ولقراراتها التى يجب أن تكون ذات قابلية للتنفيذ ضمن فترة زمنية محدودة هى المسافة التى تفصل بين القمتين. الأمر الذى يستدعى بداية إنشاء آلية خاصة لذلك: تروبكا وزارية هى فى حقيقة الأمر رباعية تضم وزراء خارجية الرئاسة السابقة والرئاسة الحالية والرئاسة اللاحقة مع الأمين العام للجامعة. تعمل بإشراف رئاسة القمة التى تتشاور دون شك مع التروبكا الرئاسية بشكل خاص فى هذا المجال، من أجل متابعة تنفيذ قرارات القمة على جميع الأصعدة.

وتكون هذه التروبكا بمثابة الجهاز الدبلوماسى والتنفيذى للقمة ولا ضير، تلافيًا لحساسيات قد تنشأ أو لتلافى الالتباس والازدواجية فى بعض المجالات، فى أن تنضم إلى هذا الجهاز رئاسة مجلس الجامعة على المستوى الوزارى وهى رئاسة نصف سنوية. وقد يكون من المفيد التفكير لاحقًا بأن يتولى وزير خارجية دولة رئاسة القمة رئاسة الدورتين الوزاريتين والإبقاء على التروبكا المذكورة سابقًا فى هذا الإطار تلافيًا للاضطراب المؤسسى وتبسيطًا للعمل العربى خاصة أننا أمام جهاز واحد فى نهاية الأمر هو مجلس الجامعة الذى ينعقد على مستويات مختلفة ولا يجوز بالتالى أن تكون هنالك رئاستان مختلفتان تعتبر كل منها رمزًا وتعبيرًا عن المؤسسة العربية ذاتها وفى الإطار العام ذاته.

ومن مهام التروبكا الوزارية دون شك تقديم تقرير سنوى إلى الرئاسة يتعلق بتقويم تنفيذ القرارات التى اتخذتها القمة السابقة لتكون هنالك مساءلة جماعية فى بداية كل قمة حول ما آلت إليه قرارات القمة السابقة وهو ما يشجع على تخفيض سقف بعض الأهداف العربية فى صياغة قرارات القمة لتبقى منسجمة قدر الإمكان مع الإمكانيات التى ستوضع فى خدمة هذه الأهداف حتى يمكن تنفيذها وهو ما يشجع أيضًا على الابتعاد عن الخطاب السياسى «العاطفى» والعام والمبهم ومحاولة صياغة مواقف عملية محددة يمكن ترجمتها فى عمل دبلوماسى جماعى.

لابد أيضًا من إحداث تقويم شامل لعمل المنظمات العربية المتخصصة. ينطلق هذا التقويم من ضمن المنظمة ذاتها فى مرحلة أولى ثم يجرى فى إطار مأسسة الجامعة ككل آخذين بعين الاعتبار عنصرين رئيسيين: أولهما: أن على هذه المنظمات أن تتعامل مع الثقافة الوظيفية الجديدة السائدة فى العالم بجميع عناصرها لتوفير خدمة أمثل للمصالح العربية، وثانيًا: نشاط هذه المنظمات يجب أن يندرج دائمًا فى خدمة أهداف الجامعة ككل كما تحدد سياستها القمة فى المجالات التى تخص عمل هذه المنظمات.

ثالثًا: أن المحور الأساسى للإصلاح والتحديث يتعلق بالأمانة العامة للجامعة التى لا يجب أن تكون جهازًا تنفيذيًا «عصريًا» فحسب بل «صندوق أفكار» (Boite A Idees) لأجهزة العمل العربى المشترك لتكون فى موقع المحرك والمبادر وليس فقط فى موقع المنفذ. ومفهوم صندوق الأفكار يتطلب أن تعمل الأمانة العامة أيضًا ضمن صيغ مختلفة ومرنة كجهاز رصد للتطورات والمستجدات على الصعيدين الدولى والعربى تستطيع من خلال ذلك أن تبلور أفكارًا ومقترحات وتصورات عملية للسياسات العربية المشتركة أو أن تقترح سياسات جديدة تستدعيها هذه المستجدات.

ومن أجل تنشيط الأمانة العامة وضخ دماء جديدة فى جسدها الوظيفى من المفيد الأخذ بالعناصر التالية:

أولاً: فيما يتعلق بالتوظيف. البدء من أول السلم الوظيفى أسوة بما يجرى فى وزارات الخارجية وتلافيًا لإحداث أى اضطراب وظيفى أو معنوى فى الهيكل الإدارى، الأمر الذى يحصل عادة من خلال ما يعرف بنظام «الإسقاط بالمظلة» المعمول به فى الأمانة العامة وهو نظام يتعارض مع مفهوم «الجسم الدبلوماسى» إذ قد يدخل شخص فى وظيفة عليا من خلال احتساب فقط لسنوات تخرجه أيًا كانت خبرته فى الخارج ليتقدم على من هو «ابن» المؤسسة وتدرج فيها واكتسب الخبرة التراكمية المطلوبة فى مجالات عملها. ويمكن إبقاء استثناء فى أضيق المجالات فى هذا الباب إذا ما دعت الحاجة إلى ذلك، إن إعمال هذا المبدأ يساهم فى تصحيح الخلل الكبير الحاصل فى الهرم الوظيفى للأمانة العامة.

ثانيًا: ودون المساس بنظام الكوتا أو المحاصصة بين الدول الأعضاء يجب أن يكون الاختيار من خلال امتحانات عامة تقوم على المعايير المعمول بها فى مجمل وزارات الخارجية من خلفية علمية وثقافية عامة ولغات أجنبية إلى جانب العوامل الشخصية التى يفترض أن تتوافر فى كل دبلوماسى أو موظف دولى والتى تختبر فى الامتحان الشفهى على أن يقضى الموظف الجديد دورة تدريبية متنوعة قد تطول لسنة كاملة يتنقل خلالها فى جميع إدارات الأمانة العامة. فأيًا كان التخصص الذى يحمله الموظف الجديد والمجال الوظيفى الذى يتطلع للعمل فيه فإن عمله يتأثر ويؤثر فى جميع القطاعات الوظيفية فى الأمانة العامة، الأمر الذى يستدعى أن يكون على اطلاع ودراية كافيين بمختلف أعمال هذه القطاعات، زد على ذلك أنه فى نهاية الأمر يمثل الجامعة العربية ولا يمثل تجاه الآخرين قطاعًا وظيفيًا معينًا مما يفرض عليه أعباء شمولية التمثيل. وإلى جانب الدورة العملية، يخضع الموظف الجديد لدورة تعليمية تشمل محاضرات وندوات مصغرة تتناول مختلف جوانب آليات العمل العربى المشترك والقضايا والمسائل التى تعنى بهذه الآليات.

ثالثًا: إقرار نظام الدورات التدريبية المتخصصة والعامة لجميع موظفى الأمانة العامة حول مختلف المسائل والقضايا التى يعنى بها عملهم كأن تشمل هذه الدورات محاضرات مكثفة إلى جانب تقنية المحاكاة للتدريب على العمل الدبلوماسى.

رابعًا: إن إعادة الهيكلة تتطلب التكيف مع تغير الاهتمامات والأولويات فى العقود الخمسة الماضية ومعها الأدوار والوظائف التى تقوم بها الجامعة أو التى يصدر القيام بها أو تعزيزها. فاللجان المتخصصة والتى تضم أعضاء من إدارات مختلفة (Interdepartmental) حسب المسألة المطروحة والتى تعمل كجهاز متابعة واتصال «وحزام نقل» الأمين العام، تزيد من مرونة وفعالية العمل فى الأمانة العامة. كذلك الأمر بالنسبة لخلق نظام «الملفات» المختصة.

وخامسًا: من الضرورى منح الأمين العام سلطات كافية تسمح بإرساء نظام حوافز مرن يستطيع من خلاله تنشيط العمل بواسطة خلق حالة من التنافس الإيجابى بشكل مستمر ومنع حصول حالات من الركود الذهنى والكسل الوظيفى التى عادة ما تصيب الإدارات الجامدة بالترهل. وأخيرًا لابد من إضافة ملحق إلى الميثاق العام يعطى الأمين العام الصلاحيات التى تعطيها المادة ٩٩ من ميثاق الأمم المتحدة لأمين عام المنظمة الدولية.

ثانى المجالات الخاصة بالمراجعة والتطوير تتعلق بالنظام العربى، وبداية لابد من التأكيد على ضرورة إيلاء الشأن «الداخلى» العربى أولوية مطلقة مقارنة بالشأن «الخارجى» الدولى فلا يمكن أساسًا بلورة سياسة عربية خارجية فعالة إذا لم تستند إلى بيت عربى فى حالة مصالحة مع ذاته وعلاقات عربية عربية مستقرة تسمح بتوظيف الحد الأدنى الممكن من الإمكانات الجماعية خدمة لعلاقات «خارجية» ناشطة تخدم الكل العربى. فإذا كان «الداخل» مصابًا بتناقض وتضارب فى الأولويات وتبعثر فى السياسات، تدخل السياسة الخارجية المشتركة فى عالم المستحيلات أو تصبح من نوع سياسات التمنى والمناشدة التى تفقد كل تأثير والأمثلة على ذلك كثيرة آخرها فى التسعينيات.

وتشكل آلية جامعة الدول العربية للوقاية من النزاعات وادارتها وتسويتها بين الدول العربية أحد أهم المداخل لهذا الدور العربى. ومن الضرورى الإسراع فى تنفيذ القرار الخاص بإنشاء هذه الآلية وربما إحداث تعديلات طفيفة عليه بسبب المستجدات الحاصلة من خلال مأسسة القمة خاصة فيما يتعلق بتشكيل الجهاز المركزى وهو جهاز وزارى.

وفى تقديرى أن هيئة الحكماء التى ينشئها هذا الجهاز يمكن أن تلعب أيضًا دورًا استشاريًا بالنسبة للأمين العام خارج الصلاحيات المحددة فى الآلية والخاصة بالنزاعات، لتكون أحد الروافد المؤسسية الرئيسية فى مساعدة الأمين العام على بلورة أجندة تحركه على الصعيد العربى. وقد يكون من المفيد العمل على إنشاء محكمة العدل العربية لتكون الجهاز القانونى إلى جانب هذا الجهاز السياسى فى دبلوماسية احتواء وتسوية النزاعات العربية. فمن أهم أدوار الجامعة العربية العمل على دفع عملية مأسسة مختلف جوانب العلاقات العربية العربية سواء من خلال إنشاء هذه الأجهزة أو قوننة دور الأمين العام ونشر قيم الثقافة المؤسسية العربية للتعاون مع مختلف أوجه العلاقات عن تعاونية وخلافية والتأكيد على منافع هذا المدخل.

تبقى هنالك أيضًا مهمتان أساسيتان للجامعة: أولاهما: أن تكون بمثابة حزام نقل للأفكار والحوار بين النظام الدولى العربى

من الضرورى منح الأمين العام سلطات كافية تسمح بإرساء نظام حوافز مرن يستطيع من خلاله تنشيط العمل بواسطة خلق حالة من التنافس الإيجابى بشكل مستمر ومنع حصول حالات من الركود الذهنى والكسل الوظيفى التى عادة ما تصيب الإدارات الجامدة بالترهل

(State System) والنظام المجتمعي العربي في مختلف قطاعاته. وتساهم من خلال ذلك في تعزيز شرعيات العمل العربي وفي ترشيد هذا العمل من جهة وتعبئة الإمكانات والموارد العربية من جهة أخرى لدعم هذا العمل العربي. وللجامعة أن تنشط في إنشاء «لوبيات» لها في الدول العربية من جمعيات أصدقاء للجامعة أسوة بها هو قائم بالنسبة للأمم المتحدة. تعمل هذه الجمعيات في تدعيم هذا الحوار الذي أشرنا إليه ويكون دورها مكملاً لدور الجامعة. ثانيًا هذه المهام: وهي منبثقة عن الأولى، قوامها أن تنشط الجامعة بواسطة الأمانة العامة والمنظمات المتخصصة على دعم وتعزيز دور الهيئات غير الحكومية في مختلف القطاعات وإحداث ربط بينها وتشجيع انشاء مجتمع مدني عربي من قوى وقطاعات ناشطة ذات اهتمامات ومصالح «عربية». ولا داعي للتذكير بوجود علاقة جدلية «إيجابية» بين مجتمع مدني إقليمي حيوي وتنظيم إقليمي ناشط وفعال. فالتجربة الأوروبية خير مثال على ذلك. خلاصة القول أنه بقدر ما تنجح الجامعة في الإسهام في مأسسة العلاقات العربية العربية والإسهام في خلق مجتمع مدني عربي بقدر ما تنجح في تطبيع العلاقات العربية العربية وإرسائها على قواعد ثابتة وتقاليد مستقرة وهي شروط ضرورية لتثمير الإمكانات العربية وتعظيمها.

ثالث مجالات المراجعة والتطوير يتعلق بالخارجي أو الدولي، وبداية لابد من التأكيد على الصعيد المفهومي أن المقصود بالسياسة الخارجية للجامعة العربية هي السياسة المشتركة وليس الموحدة إذ أن هذه الأخيرة من الصعب تحقيقها مادمنا نتحدث عن دول لها أولويات مختلفة، والسياسة المشتركة تعني تحديد مساحة التوافق بين الدول الأعضاء في الجامعة والعمل دائمًا على توسيعها والبناء عليها.

من ينظر إلى العلاقات العربية المشتركة مع الخارج يلاحظ بسرعة أن بعض هذه العلاقات التي شهدت ازدهارًا ولو نسبيًا في الماضي قد أصيبت بالبهتان والتهميش والترهل وأننا مازلنا نردد بشكل تلقائي ودوري بضرورة العمل على إحياء هذه العلاقات التي توقف بعضها لأسباب سياسية مثل الحوار العربي الأوروبي والتعاون العربي الأفريقي كما أن هناك علاقات يفترض أن تكون على درجة عالية من الأهمية لم ننشئها أو لم نهتم بإنشائها أو قد سبقنا المجتمع المدني العربي إلى ذلك مثل العلاقات التي يجب أن تقوم مع دولتي الجوار إيران وتركيا اللتين ترتبط معهما بعلاقات استراتيجية وحضارية أيًا كان الوضع السياسي الذي تعيشه تلك العلاقات. وقد جرت حوارات أكاديمية وفكرية عربية تركية وعربية إيرانية ولم يحدث شيء بعد على الصعيد الرسمي وهذه من المهام الأساسية الملقاة على عاتق الجامعة.

والمطلوب في تقديري وفقة مع الذات هدفها - أولاً - بلورة تصور يتعلق بالعلاقات من «حوارات» وشراكة استراتيجية بمفهوم الشمولية والاستمرارية والتنوع التي على الطرف العربية، جامعة الدول العربية وثانيًا: بعد تحديد هذه الأطراف، إيجاد «مجموعات تفكير» متخصصة كل منها في إحدى هذه العلاقات المعطلة أو المعلقة أو المنشودة. تضم كل من المجموعات خبراء تختارهم الدول وخبراء يختارهم الأمين العام لإحداث تقويم كلي للعلاقات المعنية من خلال استخلاص دروس الماضي ومحاولة تحديد الجوانب الممكنة لهذه العلاقات ونقاط الالتقاء والاختلاف المحتملة ومحاولة استكشاف وفهم المتغيرات الحاكمة عند الطرف الآخر لعلاقاته العربية لتشكل هذه الأفكار والتصورات مادة لاتخاذ القرار الرسمي بإعادة صياغة العلاقات مع أفريقيا ومع أوروبا مثلاً على قواعد ستكون دون شك مختلفة جذريًا عما كان قائمًا في الماضي. كما أنه من المفيد البحث في إقامة حوارات استراتيجية على الصعيدين الرسمي وغير الرسمي ولو برعاية رسمية مع القوى الكبرى. وهناك حوار قائم مع الصين الشعبية وبناء على مبادرة صينية أساسًا ولو أنه بحاجة لتنشيط أو إعادة تصويب لتصحيح هذه الحوارات المتغيرة باشخاصها تقليدًا راسخًا في العمل العربي المشترك وتؤسس منتديات لها. وعلى الصعيد الخارجي أيضًا هناك الجانب الإعلامي الاستراتيجي وهو جانب يعيش حالة من الإهمال والقصور. فبقدر كون الإعلام المباشر الذي يقوم على نقل المعلومات والمواقف ضروريا ومفيدًا إذا ما جرى تلافي المنطق الإعلاني والتبسيطي والدعائي، بقدر ما أن المطلوب التركيز على الإعلام الثقافي. وهذا الأخير استراتيجي الأفق وشمولي الأبعاد، إذ يعني بتغيير الصور والمدركات الحسية التي يحملها الغير عن «العرب» وقيمهم وفضاياهم ويكون ذلك من خلال العمل على تقديم صورة حقيقية عن الجانب المطروح لكنها تضع الأمور في نطاقها التاريخي السوسيولوجي مثلاً مما يسمح بفهم السلبيات في إطارها الصحيح متى وجدت وتقدير الإيجابيات.

ويمكن للجامعة العربية أن تعمل الكثير في هذا المجال في عصر ثورة الاتصالات من خلال آليات مختلفة مثل الندوات والمحاضرات وتبادل الوفود والقوافل الثقافية المختلفة على سبيل المثال وليس الحصر. وللجاليات العربية دور أساسي في هذا المجال في عصر الهويات المركبة والهجرات المتكاثرة.

ومن الضروري ربط الصلة مع هذه الجاليات التي لكل منها خاصيتها بسبب عنصري الجغرافيا والتجربة لكنها تشترك كلها في كونها مصدر طاقات كبيرة إذا ما أحسن توظيفها تستطيع أن تقوم بدور ناشط لتعزيز علاقات التفاهم بين «العرب» والأوطان التي تحتضن هذه الجاليات. فليس المقترب الموسمي والعاطفي هو القادر بجذب هذه الجاليات بل إن المقترب الثقافي الذي يطمئن هذه الجاليات إلى هويتها المركبة مصدر غني ومعه المقترب المصلحي هما القادران على توثيق هذه العلاقات.

خلاصة القول أنه بقدر ما يتقدم التعاون في جميع المجالات الممكنة بقدر ما تكسب السياسات الوطنية شرعيات قومية تعززها وتحتضنها وبقدر ما تكتسب الشرعيات القومية مضمونًا ماديًا قائمًا على المنافع المشتركة والمتبادلة بقدر ما تزداد قوة هذه الشرعيات ومكانتها. وتبقى الجامعة فيما لو نجحت في هذه المهام، وهناك مصلحة الجميع في نجاحها، وإن اختلف مدى استيعاب هذه المصلحة في لحظة معينة، نقطة التلاقي والتوازن المنشود بين الوطني والقومي. ■

كتاب الزاوية

من رسائل الجاحظ

الجاحظ

هو عمرو بن بحر (٧٧٥-٨٦٨م). ولد ومات في البصرة من أسرة فقيرة. اضطر إلى احتراف بيع الخبز والسمك إلى جانب مواصلة التعليم في الكتّاب والمسجد. قصد بغداد حيث حظي باهتمام الخلفاء والوزراء وولاّه المأمون ديوان الرسائل.

اتصل بعلماء الكلام وانضم للمعتزلة، وقد أحاط بمعارف عصره من عربية وأجنبية.. ألّف أكثر من ٣٥٠ كتابًا صوّر فيها جميع مظاهر النشاط في المجتمع الإسلامي. أشهر كتبه «الحيوان» و«البيان والتبيين» و«البخلاء» و«المحاسن والأضداد». وفيما يلي مختارات من رسائله عن الحنين إلى الأوطان والبلاد تحقيق عبدالسلام هارون.

١- الشوق إلى الأوطان والبلدان

إن السبب الذي بعث على جمع نتف من أخبار العرب في حنينها إلى أوطانها، وشوقها إلى تُربها وبُلدانها، ووصفها في أشعارها توقُّدُ النار في أكبادها، أنّي فاوضتُ بعضَ من انتقل من الملوك (في) ذكر الدِّيار، والنُّزاع إلى الأوطان، فسمعته يذكر أنه اغترب من بلده إلى آخرَ أمهدَ من وطنه، وأعمر من مكانه، وأخصبَ من جَنابه. ولم يزلْ عظيمَ الشأن جليلَ السُّلطان، يقود الجيوش ويَسُوس الحروب، وليس بِبابه إلاّ راغبٌ إليه، أو راهبٌ منه؛ فكان إذا ذكر التُّربة والوطنَ:

إذا ما ذكرتُ الشِّعر فاضت مدامعي
وأضحى فؤادي نُهبةً للهُمُاهمِ
حنينًا إلى أرضٍ بها اخضرَّ شاربي
وحُلَّت بها عنّي عُقودُ التمائم
وألطفُ قومٍ بالفتى أهلُ أرضه
وأرعاهُمُ للمرء حقَّ النقادمِ

في تاريخ الوطن شخصيات تلعب دورها وتمضي في طريقها فلا تترك أثرًا ينبئ عن وجودها، وشخصيات أخرى تضرض نفسها بإلحاح مخلفة وراءها آثارًا يدور الجدل حولها، وعادل حسين المثقف والمناضل الفذ ينتمي إلى النوع الثاني من الشخصيات العامة بفضل ما تركه للثقافة العربية المعاصرة من فكر جديد بالاهتمام، وما لعبه من أدوار في إطار الحركة الوطنية المصرية

عادل حسين ومأزق المثقف الوطني

رءوف عباس

■■ عرفت عادل حسين - أول ما عرفته - من عمله الرائع «الاقتصاد المصري من الاستقلال إلى التبعية» الذي صدر عام ١٩٨١ وكان يباع سرًا في القاهرة، ويمثل موضوع الساعة في حوارات المثقفين، وكنت اتحدث مع الصديق السيد يس عن تلك الدراسة الهامة، فإذا بعادل حسين يدخل علينا مكتب السيد يس بمركز الدراسات السياسية والاستراتيجية، أحسست خلال الحديث أني أعرفه منذ سنوات، فقد كان (رحمه الله) يمتاز بشخصية آسرة، ويتمتع بقدرة متميزة على الحوار والجدل. وتواعدنا على اللقاء في بيته بمصر الجديدة، وتصادف أن كانت هذه الزيارة (التي حددنا موعدها سلفًا) بعد اغتيال السادات بحوالي أسبوع، وبالطبع كان حوارنا الذي دام نحو الثلاث ساعات حول هموم الوطن في تلك المرحلة الدقيقة من تاريخه. ورغم متابعتي لكتاباته، لم التق به إلا بعدما حسم اختياره بالانضمام إلى حزب العمل ورئاسة تحرير «الشعب»، وكان ذلك في مناسبة اجتماعية ببيت أحد الأصدقاء، واذكر أنه قابل بصدر رحب نقدي الشديد لأسلوبه في صياغة مقالاته التي كان ينهيها - عندئذ - بعبارة «الله أكبر والعزة للإسلام» مهما كان موضوع المقال، فذكرته بما قاله مصطفى النحاس باشا لأخيه أحمد حسين عندما عرض عليه نسخة من برنامج «مصر الفتاة» يتصدرها شعار «الله - الوطن - الملك» فقال له النحاس إن ذكر «الله» في مطلع بيان حزبي ليس إلا شوذة، وقلت لعادل - يومها - أخشى يا صديقي أن يفهم من عبارتك أنك لجأت إلى نفس الشيء، ورغم محاولته الدفاع عن وجهة نظره، فوجئت باختفاء العبارة التقليدية من مقالاته التالية.

ومضت بضع سنوات ثم التقينا بصفة شبه منتظمة بصالون أنور عبدالملك، وكانت لعادل حسين تجليات لافتة للنظر في الحوارات التي كانت تدور بين رواد الصالون من المناضلين الماركسيين القدامى والناصريين والقوميين، وكان البون شاسعًا بين ما يطرحه عادل من أفكار في جلسات صالون أنور عبدالملك وما نقرأه له على صفحات «الشعب»، فقد كان إطار فكره في تلك الدائرة المغلقة قوميًا جدليًا يشي بتأثره العميق بالفكر الماركسي، تحس عندما تسمعه ثم تقرأ مقالاته بالشعب التي تبنى فيها أكثر اتجاهات التيار الإسلامي تطرفًا، بالحيرة الشديدة لهذه القدرة الفائقة على الجمع بين الأضداد، فشتان ما بين أطروحاته الفكرية في صالون أنور عبدالملك وبين الأسلوب الديماجوجي الذي صاغ به مقالاته في الشعب، ولا نستطيع أن نجد تفسيرًا مقنعًا لذلك إلا في إطار مأزق المثقف الوطني الذي يشغله الهم الوطني العام: الاستقلال الوطني، والتنمية التي تحقق قدرًا معقولاً من العدالة الاجتماعية، والحفاظ على الهوية القومية، ويسعى - في نفس الوقت - إلى حشد الجماهير وراءه لتحقيق ما يتمناه لوطنه وأمته، فيستخدم خطابًا يدغدغ عواطف الجماهير قد يبعده كثيرًا عن الهدف الذي جعله يسعى لحشد الجماهير من أجله.

ولد عادل حسين في ٢٩ من نوفمبر ١٩٣٢ لأسرة تنتمي إلى الطبقة المتوسطة الصغيرة التي كانت قطب الرحى في الحركة الوطنية المصرية، وقدمت لمصر معظم قياداتها الوطنية من مصطفى كامل إلى جمال عبدالناصر مرورًا بسعد زغلول ومصطفى النحاس وأحمد حسين وحسن البنا، كما قدمت العناصر الوطنية الفاعلة والمؤثرة في مختلف التيارات التي عبرت عن الحركة الوطنية المصرية.

كان عادل أصغر أبناء محمود أفندي حسين الذي ورث عن والده مهنة «المباشر» وهي مهنة يتولى صاحبها ضبط حسابات الدوائر الزراعية لكبار الملاك، وكانت حكرًا على الأقباط، ولا يعمل بها إلا عدد قليل من المسلمين. وخلف محمود حسين والده في عمله بإحدى الدوائر القريبة من بلدته «كفر البطيخ» بمحافظة دمياط، ولعل كفاءته جعلته ينتقل للعمل ببعض الدوائر الزراعية الكبرى حتى انتهى به المطاف في دائرة السلطان حسين كامل بالقاهرة حيث استقرت الأسرة قل مولد الابن الأكبر أحمد حسين عام ١٩١١، ونستطيع أن نستنتج أسلوب محمود أفندي حسين في تربية أبنائه من سيرة ابنه الأكبر أحمد حسين الذي بدأ يهتم بالعمل السياسي منذ كان تلميذًا بالمرحلة الثانوية حتى إذا دخل الجامعة وعمره ١٨ عامًا كان شعلة من النشاط وكان اسمه معروفًا بين الطلاب ثم على المستوى الوطني بعد تأسيس «مشروع الفرش» عام ١٩٣٠، ثم أنشأ «جمعية مصر الفتاة» في العام التالي، وحولها إلى حزب سياسي عام ١٩٣٣. فسيرة أحمد حسين تشي بالكيفية التي كانت

عادل حسين

أحمد حسين

تقوم بها الأسرة عند تربية أبنائها، وإتاحة الفرصة لهم للانخراط في العمل الوطني العام.

وعندما ولد عادل كان شقيقه أحمد حسين يكبره بواحد وعشرين عامًا، وعندما تفتح وعيه في سنوات الحرب الثانية كان أحمد حسين معتقلاً بناء على طلب الإنجليز من حكومة الوفد اعتقال رموز التيارات السياسية المائلة للمحور أو الموالية لدوله. وقد تأثر عادل تأثرًا كبيرًا بأخيه أحمد حسين الذي كان له أثره الواضح في تكوين الوعي السياسي عند عادل، وأصبح شقيقه الأكبر مثله الأعلى الذي يتلمس خطاه، ويسعى دائمًا للاقتداء به، مما كان له صداه في اختياراته السياسية فيما بعد، بل في انغماسه الشديد في العمل السياسي.

وقد بدأ عادل حسين نشاطه السياسي في «حزب مصر الفتاة» تحت زعامة أخيه، وكان عمره عندئذ - فيما ذكر لي - خمسة عشر عامًا، أي عام ١٩٤٧ الذي لعب فيه حزب مصر الفتاة دورًا بارزًا - بالتنسيق مع الإخوان المسلمين - لتأييد قضية فلسطين واستخدام العنف ضد الجالية اليهودية في مصر، ثم تسمى «حزب مصر الفتاة» بالحزب الاشتراكي عام ١٩٤٩ عندما لاحظ أحمد حسين تصاعد الاهتمام بالفكر الاشتراكي بين الشباب الذي كان دائمًا ضالته المنشودة لحشد التأييد الجماهيري لحركته، وهو نفس السبب الذي دفعه من قبل إلى تغيير اسم الحزب (عام ١٩٤٠) إلى «الحزب الوطني الإسلامي» عندما أحس أن «جماعة الإخوان المسلمين» قد سحبت جموعًا من أعضاء حزبه إلى حركتها بعد إعلانها النزول إلى ميدان العمل السياسي عام ١٩٣٨، وفي ذلك التغيير والتبديل كان أحمد حسين يسعى لحشد الجماهير وراء حركته، فلا بأس من أن يغير ويبدل في برنامج الحزب وخطابه السياسي، وقد تأثر عادل - دون شك - بأخيه ومثله الأعلى في خطابه السياسي في السنوات الأخيرة رئيسًا لتحرير «الشعب» ثم أمينًا عامًا لحزب العمل. فمن كانت لديه معرفة دقيقة بتاريخ مصر المعاصر يكاد يجد تطابقًا (وليس مجرد تشابه) بين أسلوب الخطاب السياسي لعادل حسين وذلك الذي عرف عن شقيقه الأكبر مؤسس مصر الفتاة وزعيمها.

ولا يستطيع منصف أن ينكر دور أحمد حسين في تكوين الحس الوطني عند أخيه عادل، فقد انخرط الأخير في نشاط الحزب في أكثر مراحل تطوره راديكالية، فاشترك في كتائب الشباب التي أعدها الحزب للمشاركة في الكفاح المسلح في منطقة القناة عام ١٩٥١، وذاق مرارة السجن لأول مرة عندما اعتقل أحمد حسين وبعض أعضاء حزبه عقب حريق القاهرة في ٢٦ يناير ١٩٥٢، وكان بين صفوف الحزب حتى قامت ثورة يوليو بحل الأحزاب في مطلع عام ١٩٥٣، ولعل إلغاء حزب مصر الفتاة أو (الحزب الاشتراكي) كان له تأثيره السلبي على الشاب عادل حسين، جعله يتحفظ تجاه نظام ثورة يوليو، ويختار أن يتابع عمله السياسي في صفوف «الحركة الديمقراطية للتحرر الوطني» (حدتو) وهي المنظمة الماركسية التي تعاونت مع الضباط الأحرار قبل الثورة ثم تبنت موقف الاتحاد السوفيتي منهم بعد قيام الثورة بفترة قصيرة فاعتبرت ما قاموا به انقلابًا عسكريًا فاشيًا لصالح عصبة بنك مصر، أي لصالح الرأسمالية الوطنية. ولم يكن عادل قد بعُد كثيرًا عن فكر الحزب الاشتراكي الذي تبنى الكثير من الأطروحات السياسية التي قدمها اليسار المصري في الأربعينيات.

ويبدو أن الشاب الممتلىء حماسًا للعمل السياسي لم يستمتع بهذا العمل إلا أسابيع قليلة، فقد اعتقل مع بعض نشطاء (حدتو) لمدة قاربت على الثلاث سنوات (١٩٥٣ - ١٩٥٦) وما كاد ينعم بالحرية وينابع نشاطه السياسي في صفوف تلك المنظمة الشيوعية حتى عاد إلى المعتقل مرة أخرى ضمن موجة الاعتقالات الواسعة التي تعرض لها الشيوعيون على اختلاف تنظيماتهم عام ١٩٥٩ واستمر في المعتقل حتى أفرج عن الشيوعيين عام ١٩٦٤. وقد ساعدت سنوات الاعتقال الطويلة عادل حسين على العمق في الفكر الماركسي وامتلاك ناصية المنهج الجدلي، كما جعلته يتجه إلى الاهتمام بالاقتصاد اهتمامًا كبيرًا جعله يبارى المتخصصين فيه رغم اتساع الشقة بين دراسته الأصلية (درجة البكالوريوس في الجيولوجيا) وبين علم الاقتصاد، واستطاع - فيما بعد - أن يقدم للمكتبة العربية أروع ما كتب عن الاقتصاد المصري المعاصر.

ولا يعني ذلك أنه قد تبنى الفكر الماركسي تبني أولئك الذين يقيمون لأيديولوجية ما معبدًا يشتغلون بسدانته، فقد كان أبرز ما امتاز به عادل حسين ديناميكيته وحرصه على الاستقلال الفكري، فشهدت سنوات المعتقل الأخيرة مراجعة هامة لفكره، كانت التطورات التي شهدتها مصر على يد ثورة يوليو خلال الفترة التي غاب فيها عادل مع رفاقه الشيوعيين وراء أسوار المعتقلات موضع تفكيره ومجموعة من رفاقه فمقولة النظام العسكري الفاشي الذي استولى على السلطة لصالح عصبة بنك مصر، أثبتت افتقارها إلى المصداقية، فخط التحرر الوطني واضح وضوح النهار، ودور النظام في حركة عدم الانحياز لافت للنظر. والإجراءات التي اتخذت على طريق التحول الاشتراكي في يوليو ١٩٦١ جذبت انتظار عادل وحفنة من رفاقه المعتقلين فتبنوا اتجاهًا انفردوا به بين رفاقهم الآخرين يرى أن في النظام جماعة اشتراكية يمكن أن تقود البلاد إلى طريق الاشتراكية، خاصة أن ذلك كان يتسق مع الاتجاه الذي شاع في دوائر اليسار العالمي - عندئذ - والذي قال بوجود طريق غير رأسمالي للاشتراكية تسير عليه نظم الحكم في البلاد حديثة العهد بالتخلص من ربقة الاستعمار.

وما كاد عادل يسترد حريته المفقودة عام ١٩٦٤ حتى اختار لنفسه توجهًا جديدًا، قطع روابطه التنظيمية بالشيوعية، وإن ظل يحتفظ بأثر باق لتجربته

عادل حسين

الفكرية الماركسية انعكست على منهج مؤلفاته، وأسلوبه في الحوار، وفي ترتيب أولوياته السياسية التي بناها في مقدمتها الاستقلال الوطني والديمقراطية والعدالة الاجتماعية، وهي جميعًا الثوابت التي دار حولها محور الحركة الوطنية المصرية منذ بدايتها.

عُيّن عادل حسين بعد خروجه من المعتقل عام ١٩٦٤ صحفيًا بدار أخبار اليوم، واختاره خالد محيي الدين ليعمل معه في سكرتارية مؤتمر السلام إلى جانب رفعت السعيد، لكنه لم يعمر في ذلك الموقع طويلاً لأسباب لا نعرفها وإن كنا نستطيع تفسيرها على ضوء نفوره الدائم من التبعية بمختلف أشكالها.

اختار عادل النضال في حركة القومية العربية تعبيرًا عن اطمئنانه لخط عبدالناصر، كان الاستعمار بمختلف أشكاله عدوه اللدود، وكان نضاله السياسي منذ نعومة أظفاره في صفوف مصر الفتاة وتحت قيادة مثله الأعلى أحمد حسين موجهًا ضد الاستعمار، فكان التوجه القومي بالنسبة له قلعة النضال ضد الهيمنة الأجنبية، وكانت التحولات السياسية والاجتماعية التي قادها نظام عبد الناصر تفي - إلى حد ما - بما كان ينشده من العدل الاجتماعي، ولكنه ظل محتفظًا بموقفه المعارض من ظاهرة القصور في التحول الديمقراطي وإن كانت لا تحتل أهمية بارزة عنده، وهو الذي يؤمن بالدور التاريخي «للزعيم» في قيادة الأمة في مرحلة التحول سعيًا لتحقيق الاستقلال الوطني ودعمًا له، وضمانًا لتحقيق العدالة الاجتماعية. لقد آمن بهذا الزعيم في شخص أخيه أحمد حسين، ثم أصبح مقتنعًا به في شخص جمال عبد الناصر.

وما كاد الرجل يستقر عند توجهه الجديد، يتحمس له، ويسهم فيه بفكره فيما خرج من قلمه من كتابات، حتى جاءت هزيمة يونيو ١٩٦٧، فأصابته بما أصابت به غيره من المثقفين من خيبة أمل، ولكن عادل حسين لم يسمح لتلك الخيبة أن تقوده إلى اليأس بعد ما احتل الكيان الصهيوني خُمس مساحة مصر «سيناء»، بل قام بعملية مراجعة فكرية شاملة قادته إلى معسكر التيار الإسلامي في نهاية المطاف. وكل من اقترب منه واتصل به في السنوات القليلة التي تلت هزيمة ١٩٦٧ يؤكد شواهد تلك المراجعة عنده التي عبر عنها في عمله المهم «نحو فكر عربي جديد، الناصرية والتنمية والديمقراطية» الذي نشر عام ١٩٨٥، وحسم به خياره السياسي الأخير بالانضمام إلى «حزب العمل الاشتراكي».

ورغم أن عادل حسين لم يسجل مواقف سياسية واضحة فيما بين ١٩٦٧ ورحيل عبد الناصر إلا أنه ظل محسوبًا على التوجه القومي الناصري الذي اختاره بعد خروجه من المعتقل عام ١٩٦٤، فناله ما نال أصحاب هذا التوجه من الإجراءات التي اتخذها أنور السادات بعد تصفية ما أسماه بمراكز القوى، فابتعد مع من أبعدوا من الإعلاميين عن مواقعهم، وفضل التوجه إلى بيروت حيث عمل بضع سنوات في مركز دراسات الوحدة العربية وشارك في تحرير مجلته «المستقبل العربي»، ولكن همه الرئيسي كان عملية المراجعة لتجربته الفكرية في التوجه القومي، وكانت سنوات بيروت - في رأيي - أهم مرحلة في صياغة مشروعه الفكري، فعكف على دراسة ما حدث لمصر من تطورات سياسية قوضت دعائم التوجه القومي، وجرت معه البلاد إلى طريقه التبعية للإمبريالية العالمية، وحققت أهداف الصهيونية، وكانت ثمرة الدراسة عمله الرائع الخالد «الاقتصاد المصري من الاستقلال إلى التبعية ١٩٧٤-١٩٧٩» الذي نشر عام ١٩٨١، وهو الكتاب الذي قال عنه جلال أمين «إن أي عالم اقتصاد يتمنى أن ينسب هذا الكتاب له».

فبعد دراسة دقيقة وموثقة للتحولات التي شهدتها مصر على يد نظام السادات فيما بين تطبيق ما سمي «بالانفتاح الاقتصادي» ومعاهدة السلام مع الكيان الصهيوني، ذهب عادل حسين إلى أن «توازن القوى الدولي فرض علينا أن نخضع لقرارات الدول الغربية المتقدمة صناعيًا، وبالتالي فإن مهمتنا الأولى هي أن يتمكن مجتمعنا من انتزاع حقه في أن ينهض وفق متطلباته واحتياجاته، وأن يجسد هذه الإرادة المستقلة في سلطة سياسية قادرة، تحفز وتنظم القوى الاجتماعية المتطلعة للنهضة الأصيلة، وتقود ما تتطلبه هذه النهضة من تجدد ذاتي ومن تنمية شاملة (تتضمن تنمية اقتصادية مستقلة وتنمية قدرات الدفاع)». ورأى في الهيمنة المتنامية لقيم الحضارة الغربية أداة فعالة لفرض التبعية، مما يفرض علينا أن ننتزع حقنا في النهضة وأن نعمل على إقامة نسق عربي مستقل في مواجهة تحديات التفكك الإقليمي العربي والكيان الصهيوني والنفط والمال النفطي، كما علينا أن نواجه موقعنا من التراث الإسلامي بكل امتداداته في آسيا وأفريقيا وبكل آثاره المباشرة على مضمون حضارتنا.

وعرض عادل حسين لآليات الانتقال إلى التبعية بدءًا باختراق السلطة السياسية وإصدار القرارات المترابطة التي من شأنها تصفية الإدارة الاقتصادية المستقلة، وعودة الإدارة الأجنبية المباشرة كمدخل لإعادة تشكيل البنية وهيكل التنمية، ومن ثم كان انهيار ميزان المدفوعات، وكان الإغراق في الديون المصرفية عملاً مدبرًا. وهنا قدم عرضًا تفصيليًا موثقًا للدور الذي لعبه صندوق النقد الدولي لتحقيق تنازل الدولة المصرية عن صلاحياتها في إدارة الاقتصاد الوطني للجهات الأجنبية، ودور البنك الدولي في تحقيق التوجه الاقتصادي نحو هيكل تابع وبنية تابعة. وأنهى الكتاب بتأكيد أن التحولات التي شهدها الاقتصاد المصري في السنوات الخمسة موضوع الدراسة جزء لا يتجزأ من مفهوم السلام الأمريكي - الإسرائيلي هدفه إبقاء مصر خاضعة وضعيفة، وبذلك يضمن الأمن والتوسع للمشروع الصهيوني.

وفي إطار هذا العمل المهم قدم عادل حسين نقدًا لأطروحات الفكر الماركسي والفكر الليبرالي باعتبارهما يعجزان عن تقديم دليل عمل يصلح لمجتمعنا نتخذه إطارًا لمشروع لنهضة عربية مستقلة. ويستشف من هذا النقد تشكيك عادل حسين في صلاحية الفكر الغربي على اختلاف توجهاته للمجتمع العربي وإن لم يذكر ذلك صراحة في هذا الكتاب على نحو ما فعل في كتابه الآخر «نحو فكر عربي جديد»، ولكننا نلمح في استشهاداته رجوعًا إلى مقولات ابن خلدون، وجمال الدين الأفغاني، وبعض ما جاء بكتب التراث الإسلامي، ولعل تلك الاستشهادات كانت أكثر ما استخدمه منها ضعفًا، فقد نسي أو تناسى أن مقولات هؤلاء جاءت في سياق تاريخي موضوعي يختلف تمامًا عن ظروف المجتمع المصري في سبعينيات القرن العشرين، ولكنها - على أية حال - تعطي مؤشرات عن حيرة المؤلف وبحثه الدءوب عن إطار مرجعي إسلامي يعبر عن ثقافتنا ويغنينا عن الحاجة إلى ما هو غربي.

ولكنه عبر عن هذا التوجه بصورة واضحة في البحث الذي تقدم به لندوة «التراث وتحديات العصر في الوطن العربي - الأصالة والمعاصرة» التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية وعقدت بالقاهرة عام ١٩٨٣، وكان موضوع بحثه عن الحاجة لمناهج بحث عربية إسلامية في العلوم الاجتماعية، وقد راعني إنكاره التام لمناهج البحث في العلوم الاجتماعية التي نعرفها لأنها غربية على ثقافتنا، وأنها صيغت من أجل إخضاعنا للغرب والهيمنة علينا، وقدم مقترحات قضاضة لإطار مقترح لما يجب أن تتضمنه مناهج البحث الإسلامية في العلوم الاجتماعية. وأذكر أنه في تعقيبه على المداخلات التي قدمها الحضور على ورقته، وكانت تدور في سياق عدم الحاجة إلى ابتداع «مناهج بحث إسلامية» لأن مناهج البحث المعروفة نتاج للفكر الإنساني الذي ساهم العرب فيه، وأن المخاوف التي أثارها ليس لها ما يبررها، في ذلك التعقيب تمسك برأيه بطريقة خطابية وأعلن أنه نادم لأنه أضاع ما يقرب من الثلاثين عامًا من عمره في «فكر رث».

ومن الطريف أن أحد المشاركين من الإخوان المسلمين انتقد هذا الموقف في حديث جانبي، وأبدى مخاوفه من أولئك الذين يعبرون عن تحولهم الفكري إلى

ما كاد عادل يسترد حريته المفقودة عام ١٩٦٤ حتى اختار لنفسه توجهًا جديدًا، فقطع روابطه التنظيمية بالشيوعية، وإن ظل يحتفظ بأثر باق لتجربته الفكرية الماركسية انعكست على منهج مؤلفاته، وأسلوبه في الحوار

عادل حسين

التوجه الإسلامي بهذا الشكل المتطرف الذى يفوق ضرره ما قد يكون فيه من نفع.

وفيما بين صدور «الاقتصاد المصرى من الاستقلال إلى التبعية» وانعقاد الندوة سالفة الذكر، كان وقوع الثورة الإسلامية فى إيران قد جذب أنظار الكثير من المثقفين، ولكنه اكتسب معنى آخر عند عادل حسين، فهذه ثورة شعبية انتصرت على أعتى النظم الاستبدادية التابعة للغرب، وأذلت «الشيطان الأكبر» أمريكا، وأعلنت عداءها للصهيونية والدعوة للجهاد لتحرير فلسطين. هذه التطورات وما صاحبها من دعاية سياسية إيرانية لمست وترًا حساسًا عند عادل حسين الذى كان قد حسم اختياره الفكرى استنادًا إلى عدائه الشديد للغرب الذى يمثل خطرًا شديدًا على الاستقلال الوطنى، ويحبط محاولة تحقيق مشروع نهضوى عربى. هذا العداء الشديد للغرب قاد عادل حسين إلى نفى كل ما هو غربى بما فى ذلك الفكر الغربى ورغم دعوته اللاقتة للنظر إلى ضرورة وضع مناهج إسلامية للبحث فى العلوم الاجتماعية، ظل تأثره فى كتاباته الفكرية واضحًا بالمنهج الجدلى الماركسى، ويتجلى ذلك بوضوح فى كتابه الأخير المهم: «نحو فكر عربى جديد ـ الناصرية والتنمية والديمقراطية» الذى نشر عام ١٩٨٥.

ويكاد الفصل الأول من الكتاب يقدم نصًا للورقة التى تقدم بها عادل حسين إلى ندوة «التراث وتحديات العصر فى الوطن العربى» فهو يتناول النظريات الاجتماعية الغربية باعتبارها قاصرة وعاجزة. وقد قدم الكتاب بعبارة لافتة للنظر قال فيها: «إننى منحاز لأمتى العربية ورسالتها الإسلامية» وأنه يؤمن بحقها فى إنهاض حضارتها المستقلة (بكافة مكوناتها) ويقف إلى جانب العدل الاجتماعى والمستضعفين. وفى الفصل الأول طالب بعزل النظريات الاجتماعية الغربية خارج إطار «خصوصيتنا التاريخية المتميزة»، ورأى أن العلوم الاجتماعية الغربية كلها «كانت مجرد إجابة على أسئلة أوروبية حديثة» وهى تختلف عن الأسئلة التى يواجهها مجتمعنا من مواقع التبعية والتخلف الاقتصادى ومن ثم نحتاج إلى مدارس تختلف عن مدارسه «حتى نفهم مجتمعنا ومراحله فى ضوء عقيدتنا السائدة». ويدعو إلى مشروع حضارى عربى إسلامى مستقل، يستند إلى نظرية مستقلة ومشروع تنموى مستقل نابع من خصوصيتنا التاريخية والاجتماعية والثقافية. والنظرية المستقلة عنده تقوم على الإيمان بالله الواحد الخالق.

وقد أجهد عادل حسين نفسه فى البحث عن سند لأطروحته الفكرية الجديدة فى كتابات أبو حامد الغزالى وابن تيمية والماوردى والفارابى والرازى وغيرهم. ولا يحتاج القارئ المدقق إلى بذل جهد كبير لاكتشاف أن المؤلف لم يطلع على أى من تلك الكتب التى يستشهد بها للدلالة على صلاحية النظام الإسلامى السياسى لمجتمعنا المعاصر، فشتان بين شروط الإمامة والتزامات الحاكم نحو الرعية فى الفقه وبين التطبيق العملى أو ما كان معمولاً به فعلاً. ولو تعمق عادل حسين فى قراءة التاريخ الإسلامى لوجد البون شاسعًا بين النظرية والواقع. ولما وجد أحدًا من الحكام يلتزم بالقيود الفقهية، ولصدمه تحول نظرية الحق الإلهى للملوك المورونة عن البيزنطيين إلى أمر مسلم به على يد العباسيين وغيرهم. وربما تروى كثيرًا فى إطلاق أحكامه على هذا النحو.

وعلى كل، تكمن أهمية هذا الكتاب فى تعبيره عن الخيار الفكرى الأخير لصاحبه، ولا يخالجنى الشك أنه لو أتيحت له الفرصة لتأصيل هذا التوجه ربما استطاع أن يقدم مساهمة فكرية مهمة فى هذا المجال، ولكنه انخرط بعده فى العمل السياسى فى صفوف حزب العمل. وإن شئنا الدقة لقلنا أن عادل حسين عاد إلى مصر الفتاة حزبًا ومنهجًا وأسلوبًا للعمل السياسى، عاد إلى طريق مثله الأعلى وقدوته أخيه أحمد حسين.

كان المسرح مهيأ أمامه للعب دور رئيسى فى الحزب لعله كان بالنسبة له حقًا مكتسبًا بحكم الإرث، وما لبث أن أصبح الأمين العام للحزب، ولعب دورًا رئيسيًا فى ذلك التحالف الذى أقامه مع الإخوان المسلمين وحزب الأحرار لخوض «انتخابات ١٩٨٧» على ما فى ذلك من غياب للكياسة السياسية التى تميز بها رائده أحمد حسين الذى كان يحرص دومًا على استقلال حزبه عن الإخوان، قد ينسق معهم فى مواقف معينة ولكنه يحرص على استقلال حركته عنهم. وكانت النتيجة زيادة نفوذ الإخوان وتأثيرهم على مواقف حزب العمل. أمر واحد سار فيه عادل على درب أخيه أحمد حسين هو ذلك الأسلوب الديماجوجى الذى غلب على الخطاب السياسى فى مقالاته التى احتلت مساحة كبيرة من صفحات «الشعب»، وكذلك اتباع أسلوب الإثارة ودغدغة عواطف الجماهير من أجل حشدهم وراء الحزب. وجماهير الحزب التى أراد عادل أن يستقوى بها كانت الجماعات الإسلامية، ولكن الأجندة الإرهابية منها استلهمت كتابات عادل حسين فى الهجوم على السياحة (السياحة حرام) أو الهجوم على بعض الكتاب «الدنيويين» على حد تعبيره باعتبارهم نقيض المتدينين فى تحديد الأشخاص الذين تستهدفهم عمليات الاغتيال. لقد دهش عادل حسين حين علم أن قوات الأمن ضبطت مع إحدى خلايا الجماعات الإرهابية مقاله الذى هاجم فيه أحد الكتاب الأقباط وسمه قائمة يتصدرها اسم ذلك الكاتب على رأس المخطط لاغتيالهم، وتقى بحدة علاقته بمثل تلك الأعمال. ولم أملك إلا تصديقه فى ضوء معرفتى لنزاهته ونبله، ولكن خطابه الديماجوجى لابد أن يورطه فى مثل هذه المواقف. وهو ما كان لايدركه تمامًا. ولا أدل على ذلك من إثارة موضوع رواية حيدر حيدر «وليمة لأعشاب البحر» وما نتج عنها من آثار سلبية على الحزب والجريدة معًا.

لقد استطاع عادل حسين أن يبعث الحياة فى حزب العمل، ولكن شتان بين ما بدا به وما انتهى إليه الحال. غير أن هذا الجانب من أعمال عادل ربما يطويه النسيان، ولكن يبقى ما تركه من مشروع فكرى موضع الجدل وتبقى سيرته نموذجًا فذًا لأزمة المثقف الوطنى. ■

كتاب الزاوية

من رسائل الجاحظ

٢ ـ فى الحنين إلى الأوطان

قالت الحكماء: الحَنين من رقّة القلب، ورقّة القلب من الرَّعاية، والرَّعاية من الرَّحمة، والرَّحمة من كرم الفطرة، وكرم الفطرة من طهارة الرُّشدة، وطهارة الرُّشدة من كرم المحتد.

وقال آخر: ميلك إلى مولدك من كرم مَحتدك.

وقال آخر: عُسرك فى دارك أعزُّ لك من يُسرك فى غربتك.

وأنشد:

لقربُ الدار فى الإقتار خيرٌ
من العيش الموسَّع فى اغتراب

وقال آخر: الغريب كالغَرْسِ الذى زايل أرضه، وفقد شربَه، فهو ذاوٍ لا يثمر، وذابلٌ لا يُنضر.

وقال بعض الفلاسفة: فطرة الرجل معجونةٌ بحبِّ الوطن.

ولذلك قال بُقراط يُدَاوِى كلَّ عليلٍ بعقاقير أرضه؛ فإنّ الطبيعةَ تَتَطلَّع لهوائها، وتنزع إلى غذائها.

وقال أفلاطون: غذاء الطبيعة من أنجع أدويتها.

وقال جالينُوس: يتروّح العليل بنسيم أرضه، كما تنبت الحبة ببلِّ القَطر.

والقول فى حبِّ الناس الوطن وافتخارهم بالمحالِّ قد سبق، فوجدنا الناسَ بأوطانهم أقنعَ منهم بأرزاقهم.

ولذلك قال ابن الزُّبير: «لو قَنَع الناس بأرزاقهم قناعتَهم بأوطانهم ما اشتكى عبدٌ الرزق». ■

مصرى عادى يهودى غير عادى

شحاتة هارون.. «الآخر»

أمينة شفيق

لكل إنسان أكثر من هوية. وأنا إنسان. أنا مصرى حين يضطهد المصريون. وأسود حين يضطهد السود. ويهودى حين يضطهد اليهود. وفلسطينى حين يضطهد الفلسطينيون

مات شحاتة هارون شحاتة سلفيرة كما عاش سنوات عمره الإحدى والثمانين، محاطا بزوبعة وتوابع متتالية لهذه الزوبعة. صاغ وضعه الخاص كمصرى يعتنق الديانة اليهودية هذه الزوبعة الممتدة، التى لم تهدأ حتى بعد أن لفظ آخر أنفاسه والتف حول جثمانه مئات الأصدقاء والأحباء المصريين من المسلمين والأقباط.

بعد الوفاة، جلست أسرته الصغيرة المكونة فى الأساس من زوجته، مارسيل سيمون ومن ابنتين المهندسة ماجدة هارون والمحامية نادية هارون ليكتبن نعيه فى جريدة الأهرام. واختارت الأسرة فى كتابة مقدمة النعى. فى حالة المسلمين تتقدم النعى إحدى العبارتين «البقاء لله» أو «انتقل إلى رحمة الله تعالى» أو تتصدره آية من الكتاب الكريم. فى حالة المسيحيين تتصدر النعى عبارة «انتقل إلى الأمجاد السماوية». أما فى حالة شحاتة هارون المصرى اليهودى الديانة، فما هى العبارة التوراتية التى ستتصدر النعى؟

كيف تتصرف الأسرة؟

بعد التفكير والمداولة قررت الأسرة أن تستعير، من كتابه الوحيد الذى قدمه للقارئ» المصرى بعنوان «يهودى فى القاهرة»، عبارة تلخص البعض من أفكاره التى أسهمت فى صياغة هذه الزوبعة. وكانت هذه العبارة قد وردت فى حديث صحفى أجراه معه الكاتب الراحل صلاح حافظ فى مجلة «روز اليوسف» عقب الإفراج عن شحاتة هارون فى القضية رقم ١٠٠ لعام ١٩٧٥ حصر أمن دولة عليا، ثم نقلها شحاتة هارون إلى كتابه هذا مع نص الحوار. وجاءت العبارة كالتالى:

لكل إنسان أكثر من هوية. وأنا إنسان. أنا مصرى حين يضطهد المصريون. وأسود حين يضطهد السود. ويهودى حين يضطهد اليهود. وفلسطينى حين يضطهد الفلسطينيون.

مات الإنسان.

ثم يستأنف نص النعى.

توجهت الأسرة إلى شباك إعلانات مؤسسة الأهرام فى شارع الجلاء. قدمت النعى ودفعت تكاليفه ثم انصرفت. بعد ساعة أو حوالى الساعة، اتصل مسئول شباك الإعلانات بالأسرة ليبلغها أن العبارة التى تتصدر النعى قد حذفت. فهى عبارة غير مفهومة وغير واضحة. «هى إيه الحكاية؟ مصرى على يهودى على أسود على فلسطينى. حاجة مش مفهومة».

بعد اتصالات، توجهت المهندسة ماجدة الابنة الكبرى لشحاتة هارون إلى أحد المسئولين عن التحرير فى جريدة الأهرام لتشرح له أصل الموضوع وجذور المشكلة.

شرحت كيف أن الأسرة لا تستطيع كتابة أى عبارة قرآنية أو إنجيلية فى صدارة النعى. سألها المسئول: «ليه؟».

أجابت: «إحنا لا كده ولا كده. إحنا يهود. فضلنا كتابة عبارة تدلل على أفكار والدى السياسية».

وبعد أن تم الشرح والتفسير، نشر النعى فى اليوم التالى فى صفحة الوفيات فى جريدة الأهرام كما أرادته الأسرة الصغيرة لشحاتة هارون شحاتة سلفيرة عضو نقابة المحامين المصريين وعضو اللجنة المركزية لحزب التجمع الوطنى التقدمى الوحدوى والمحامى بالنقض.

هكذا يُعرِّف شحاتة هارون. أو هكذا كان يجب أن يُعرَّف شحاتة هارون. وهو تعريف بسيط لا يحدث زوبعة ولا يصنع توابع لها. لكن هذا الإنسان المصرى المولد والنشأة والحياة عاش هذه السنوات الطويلة من عمره يجنح دائما إلى تأكيد حقيقة لا تحتاج منا، نحن الأناس المصريين العاديين، إلى تأكيد. ثم ليعود ويؤكد دائما، بجنوح من نوع مختلف، على هذا التأكيد. حقيقة أنه مصرى الجنسية والهوية والهوى. كان يضع جانبا كل التعريفات التى قد ترفعه إلى شريحة اجتماعية أنيقة أو مثقفة ليتمسك بتعريف واحد... مصريته. عاش يؤكد هذه الحقيقة لسنوات طويلة تزيد على الخمسين عاما، هى بالتقريب أكثر من ثلثى عمره.

واستمرت الزوبعة التى أحاطت وفاته حتى بعد أن نشر النعى بالنص الذى أرادته الأسرة فى جريدة الأهرام.

لقد واجهت الأسرة مشكلة أخرى. فالمفروض أن يصلى حاخام يهودى على جثمان الراحل. وفى مصر لا يوجد حاخام. ترك آخر حاخام مصرى أرض مصر عام ١٩٧١. يومها، كتب شحاتة هارون خطابا بصفته مفوضا من الجالية اليهودية فى مصر» تفويض لكتابة الأمر ورفعه إلى السلطات.. فقط» إلى وزير داخلية مصر يطالبه فيه بسرعة إحضار حاخام ليقود الصلاة فى المعبد الذى يذهب إليه أبناء الطائفة للعبادة. ويكلّف لوزير الداخلية بالنص: «نريده عربيا إما من سوريا أو العراق أو لبنان أو تونس أو الجزائر أو المغرب. وإن لم نستطع، نحضر حاخاما من إيران أو من بلغاريا». ولم يات حاخام إلى مصر لأسباب قد لا نعرفها ولكن يمكن أن نستنتجها.

بعد توقيع اتفاقيات كامب ديفيد وبعد أن تم تبادل السفراء بين مصر وإسرائيل حدث ما لم يكن فى حسبان الجميع. فقد فوض كبير حاخامات إسرائيل السفير الإسرائيلى فى القاهرة للقيام بكل المراسم والطقوس التى تقام فى كل المناسبات اليهودية الدينية السعيدة وغير السعيدة، ومنها ما يخص حالات الوفاة. «فإسرائيل هى دولة كل اليهود. أليس كذلك؟» وبالتالى يصبح حاخاماتها مسئولين عن كل اليهود. «أليس كذلك أيضا؟» ومادام لايوجد حاخام فى مصر، يصبحون هم، أى حاخامات إسرائيل ويمثلهم كبيرهم، مسئولين عن كل يهود مصر بمن فيهم شحاتة هارون الرافض لكامب ديفيد وكل ملحقاتها بدءا من نصوصها إلى تلك العلاقات التى أقيمت بموجبها بين مصر وإسرائيل. وعلى هذا الأساس الإسرائيلى لفكرة مواطنة كل يهود العالم لدولة إسرائيل، وعلى أساس أن إسرائيل مسئولة عن كل يهود العالم تم تفويض السفير الإسرائيلى بهذه المهام الدينية التوراتية.

لكن شحاتة هارون يجنح دائما لتأكيد مصريته وهو ما يتعارض مع التفويض الدينى للسفير. من وجهة نظر شحاتة هارون، إسرائيل ليست وطنا لكل اليهود. وهو يهودى ولكنه مصرى. وبالتالى لا يقبل أن يصلى على جثمانه السفير الإسرائيلى. «بأية صفة؟».

فكان للزوبعة التى أحاطته فى حياته أن تستمر بعد وفاته، عندما استدعت أسرته حاخاما فرنسيا للصلاة على جثمانه فى المستشفى الإيطالى بالعباسية بدلا من الصلاة عليه فى المعبد اليهودى فى شارع عدلى فى وسط القاهرة، تجنبا لأية توقعات غير مستحبة من أطراف غير مرغوب فيها.

فكان لشحاتة هارون ما أراد فى حياته وبعدها.

ويرقد الآن شحاتة هارون فى مقبرة أسرته فى البساتين على مقربة من أبيه الخواجة هارون شحاتة سلفيرة وأمه البجرا زكى كريم. يرقد حيث كان يريد وعلى الأرض التى سعى دوما للبقاء عليها، مصريا يعتنق الديانة اليهودية التى ورثها مع هويته المصرية من أبوين مصريين يهوديين ينتميان إلى الفقراء من المصريين اليهود.

ولد عام ١٩٢٠ فى القاهرة ابنا لأسرة صغيرة وفقيرة، عمل أبوه طوال عمره بائعا فى محل شيكوريل المملوك لأحد رموز اليهود الرأسماليين. يعرض البضاعة النسيجية على الزبائن من نساء الطبقتين العليا والوسطى. ثم يقيس الأمتار ويقطعها لتحملها كل زبونة بعد أن تكون قد تلقت من والده بعضًا من المجاملات والمداعبات اللفظية، «كان والدى خبيرا فى هذه المجاملات، وكان يعتبرها جزءا من أساليب جذب الزبائن. وكان يفرح ويبتهج وتنفرج

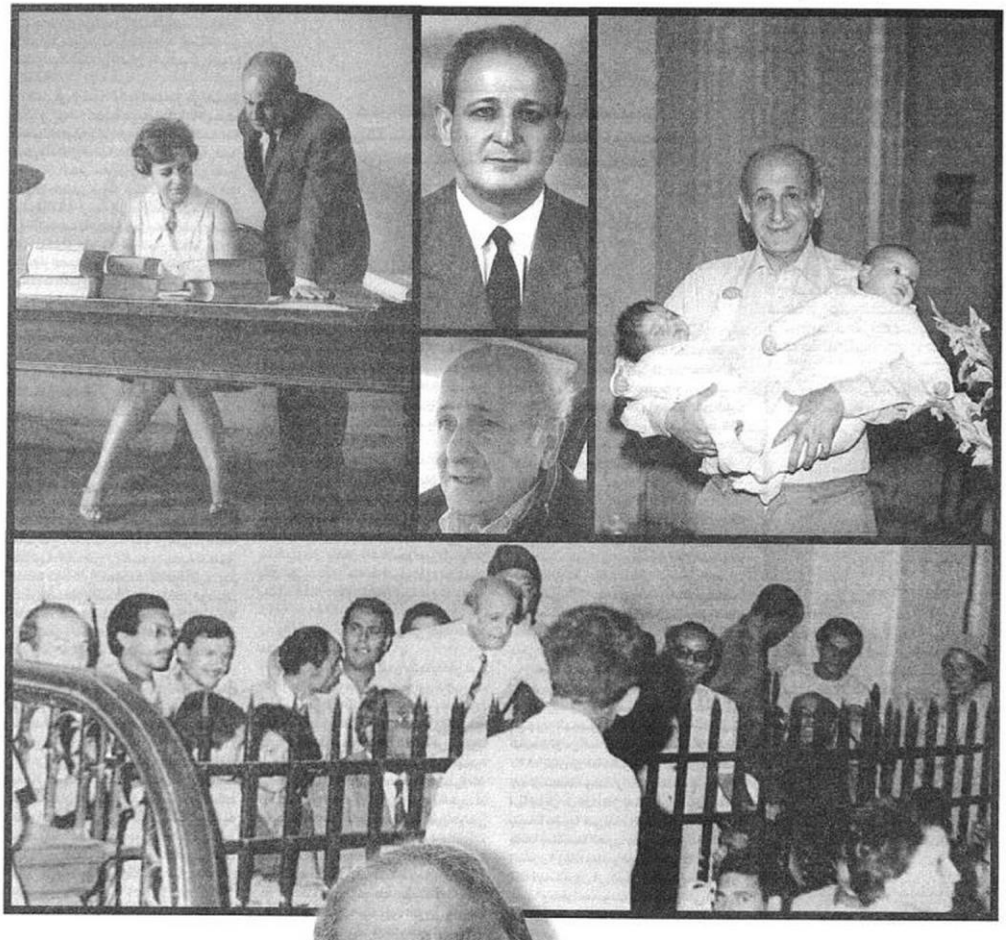

شحاتة هارون.. صور من حياته

أساريره عندما تدخل النسوة الأنيقات الجميلات إلى المحل ويسألن تحديدا عن « الخواجة هارون» ثم يتجهن إليه ليسألنه عن آخر الموضة في الألوان والنقوش وأنواع الأقمشة».

لم يكن لهذا الوالد العامل في محل شيكوريل من أمنية في حياته إلا أن يعلم شحاتة الابن الذكر، أو «الأمانة» بالثقافة العبرية، التي قدمها الرب إلى الوالدين. أفضل تعليم في أفضل مدارس وجامعات حتى يفخر به وهو يمتهن مهنة جيدة ويحتل مركزا مرموقا. لذلك أرسله إلى مدرسة الفرير بالرغم من كاثوليكيتها وبالرغم من مصاريفها العالية التي كانت ترهقه. وفرله الملبس اللائق حتى لا يشعر الصبي بأية تفرقة بينه وبين أبناء الطبقات المصرية العليا في المدرسة. أحضر له شيخا ليلقنه أصول اللغة العربية السليمة ليعده للمهنة المرتقبة. ومثل الكليريين من المصريين في ذلك الوقت حرم ابنته ديان الأخت الكبرى لشحاتة من فرص التعليم العالي لمجرد إتاحة أكبر الفرص للابن الذكر الوحيد. مع كل ذلك، كان يلقنه أقسى دروس الأدب والأخلاق إذا ما أخطأ حتى لو كان الخطأ صغيرا.

في مدرسة الفرير تعرف على زملاء كثيرين، منهم من بات وزيرا ومنهم من أصبح عضوا في مجلس قيادة الثورة ومنهم من نما مهنيا فأصبح من كبار المهنيين المصريين من الأطباء والمحاسبين والمحامين والسفراء وأساتذة الجامعات. كون شبكة هائلة من المعارف والأصدقاء. أما بعد أن أنهى دراسته الثانوية، فقد قرر أن يلتحق بكلية حقوق جامعة فؤاد الأول «جامعة القاهرة الآن». ولم يبخل الأب على شحاتة الابن الذكر الوحيد و«الأمانة التي قدمها له الرب». وفي الجامعة ازداد اتساع دائرة الأصدقاء والمعارف الذين تخرج من صفوفهم كتاب مسرح وصحفيون وشعراء وأدباء وسياسيون.

لقد تنوع الأصدقاء واتسعت دائرتهم. دخل ببوتهم ودخلوا بيته. أكل على موائدهم وأكلوا على مائدته. اتفق مع بعضهم واختلف مع الآخرين.

لكن، في الجامعة اكتشف شيئا جديدا في الحياة. عرف أنه بجانب الدراسات القانونية التي يجب أن يدرسها توجد أيضا دراسات أخرى في الحياة تستحق منه العناية، وخاصة تلك الدراسات السياسية. بدأ بالتحرك إلى حزب مصر الفتاة، وتركه. ثم تحرك إلى حزب الوفد وتركه. وبدأ يتعرف على تيار سياسي جديد، التيار الاشتراكي.

حتى هذه المرحلة لم يكن شحاتة هارون قد أحاطته أية زوبعة. كان مصريا عاديا ولكنه كان يهوديا غير عادي. كان يهوديا محاطا بكم هائل من المصريين العاديين، ومن خليط من كل الأديان ومن كل التيارات السياسية. لم يعش في محيط يهودي خالص وإنما عاش في حالة مصرية كاملة. خليط كامل من المهن والتخصصات ومن الأفكار السياسية.

الذي حركه إلى الحياة الأكثر اتساعا، كان لقاء تم بعد تخرجه من الجامعة، ربطه الخواجة هارون، والده، مع شخص مصري يهودي آخر اسمه داڤيد ناحوم انشغل كثيرا بتأسيس نقابة للعمال المصريين العاملين في المحال التجارية. هنا تعرف شحاتة على

كان يضع جانبا كل التعريفات التي قد ترفعه إلى شريحة اجتماعية أنيقة أو متأنقة ليتمسك بتعريف واحد... مصريته

مشاكل من نوع اجتماعي جديد تواجدت في أماكن تجمع بين عمال تجارة مسلمين ومسيحيين ويهود من جانب وأصحاب محال تجارية من جانب آخر. وفي حالة والده كان صاحب المحل الذي استمر يعمل عنده طوال الحياة دون أية فرصة للترقية والترفي، من اليهود المالبين الكبار.

ثم اتسعت حركته في الحياة العامة بعد انغماسه في التنظيمات اليسارية. تم القبض عليه عام ٤٦ في قضية شيوعية تحمل اسم «تنظيم بيج بن». وقد سميت بهذا الاسم لأن القبض تم على أعضاء مجموعتها في ملهى صغير كان يحمل ذات الاسم «بيج بن» وكان يطل على ميدان طلعت حرب الآن» سليمان باشا سابقا». ثم تم القبض عليه مرة ثانية عام ١٩٤٨.

وأرسل إلى سجن عين موسى حيث استمر حتى عام ١٩٥٠.

داخل جدران هذا السجن وتحديدا في عام ١٩٥٠ بدأ شحاتة هارون ينسج أول ملامح تلك الزوبعة التي أحاطته طوال حياته واستمرت تحيطه بعد وفاته، في هذا العام بالتحديد كانت الجامعة العربية قد اتخذت قرارا سريا يلزم كل الدول العربية لدفع اليهود إلى الهجرة إلى خارجها. كانت أولى موجات الهجرة تلك الاختيارية والأخرى الإجبارية لليهود العرب قد بدأت بالفعل. في داخل سجنه في عين موسى في سيناء اتخذ شحاتة هارون قراره الذي لم يحد عنه لأكثر من خمسين عاما هي الفترة الواقعة ما بين ذلك العام، ١٩٥٠ إلى عام ٢٠٠١ العام الذي توفي فيه. لم يتخذ هذا القرار بمفرده وإنما شاركه فيه يهود آخرون. واختلف معه يهود فضلوا البعد عن الزوابع وتوابعها.

منذ هذا التاريخ، استمر شحاتة هارون يعلي من مصريته ويتمسك بالأرض التي ولد عليها ويرفض كل المحاولات القهرية التي تعرض لها من أجل أن يرحل عن البلاد دون عودة. لم يكن سهلا عليه أو على والديه المتقدمين في السن أو على زوجته التي لقبها بالصبورة أو على ابنتيه الصغيرتين المتخرطتين في صفوف مدرسة تسب اليهود في كل درس من دروس القومية والتربية الوطنية.

صمد الرجل وأسرته. ولم يكن صموده عاطفيا. بل كان عقليا منطقيا مع سبق الإصرار. كتب يقول: «أنا يهودي نعم.. يساري نعم.. لكن الصفة الأهم هي أنني مصري.. وفي حدود معلوماتي لا يشترط لأن أكون مصريا أن أغير ديني أو عقيدتي السياسية».

لقد اقتنع أن هذه الدولة العنصرية الناشئة على أرض الفلسطينيين لا يمكن أن تنمو على أكتاف ويساعد هذا العدد المحدود نسبيا من اليهود المهاجرين من شرق أوروبا، أو بهذا العدد الأقل من البلاد الأوروبية الغربية. في عام ١٩٥٠ تبقن أن هذه الدولة، من أجل أن تستمر، لابد أن تستوعب، وبشكل سريع، يهودًا مهاجرين من كل مكان حتى تستطيع أن تقيم بنيانا بشريا على هذه الأرض التي سلبتها. فلماذا يساعدها العرب على تحقيق هذا الهدف البشري؟ ولماذا يهاجر اليهود العرب إلى هناك؟ لماذا لايستمرون في البلاد العربية التي ولدوا عليها وحملوا جنسيتها؟ اقتنع أن على اليهود في كل بلد أن يستمروا حيث هم. يتفاعلون مع مجتمعاتهم وينافضون الهجرة إلى إسرائيل. لذلك استمر يعارض موجات هجرة اليهود العرب، الاختيارية أو الإجبارية، إلى هناك. كما استمر يشير، في كتاباته، إلى أن هجرة اليهود العرب إلى إسرائيل أمدتها، أي أمدت الدولة العبرية، بنسبة تتراوح بين ٦٠ و٦٥٪ من زادها البشري.

كان يفخر دائما وكثيرا بأن نسبة صغيرة من اليهود المصريين الذين تركوا مصر إجباريا أو اختياريا توجهت إلى إسرائيل. وأن النسبة الأكبر هي التي توجهت إلى بلدان أوربا الغربية. «ربما لم يسافر إلى إسرائيل إلا نسبة تتراوح بين ٢٠ و٢٥٪ من يهود مصر والباقي نجدهم في فرنسا أو إيطاليا».

استمر على موقفه الفكري هذا المناهض للهجرة حتى في تلك الحالات التي بدا فيها ضد تيار جارف.

عندما ترك الشاعر محمود درويش أرض فلسطين في نهاية الستينيات وتم الترحيب به في كل الأوساط العربية كتب شحاتة هارون رسالة إليه يقول فيها:

نداء ورجاء من يهودي القاهرة إلى شاعر حيفا

أخي ورفيقي محمود درويش

تحية خالصة طاهرة أهديها إليك من القاهرة «صخرتي التي لن أبيعها بالألى». حبيبتي التي أبدا لن أهجرها.

أكتب لك ملهما عليك صارخا إليك من أعماق أعماقي: عد يا محمود إلى حيفا. عد إليها. إن «أقواس القزح» ستغطي حتما سماءها إذا غنيت أنت من حيفا.

عزيزي يا أقرب القوم إليّ. أنت لا تعرفني وأنا لا أعرفك. كيف؟ وأنت أخي وأنا لك الأخ. حاصرتنا سويا سياسة الغباء والظلام. صمدت أنا وما كان لي سوى الأمل (في حزب) فكيف لا تصمد أنت ولك الحزب.

الليل ينجلي، يبدأ الفجر شعاعه. فلنتمسك به معا، أنت في حيفا وأنا في القاهرة.

أنت وأنا الأمل. أنت وأنا شمس الغد. لو عدت أنت لحيفا وصمدت أنا في القاهرة.

التوقيع

شحاتة هارون

تلك كانت وجهة نظره التي لم يتمسك بها فكريا فحسب وإنما اتخذها كموقف ثابت في الحياة. يعليها ويؤكد على علوها. ويتخذ منها سلوكا يوميا في علاقاته الشخصية والمهنية والسياسية. لذلك لم يتقوقع خوفا من المياه الهادرة المحيطة به وإنما اقتحم هذه المياه بكل شجاعة. وفي أحيان كثيرة، بشجاعة يحسده عليها الآخرون. وفي أحيان كثيرة أخرى، بشجاعة يتعجب منها كل الآخرين. تعامل مع كل الجبهات والجهات، مهما علت مقاديرها الاجتماعية أو السياسية، على أنه مصري له حقوق المصريين وعليه واجباتهم التي تمليها عليهم هذه الهوية التي ورثوها.

شحاتة هارون

ألیس مصریا ككل المصریین من مواطنین أطباء محامین وسیاسیین وأدباء وشعراء وحتی من العمال والفلاحین؟».

فی عام ١٩٥٦، عقدت نقابة المحامین مجموعة من المؤتمرات النقابیة لمساندة قرار الرئیس الراحل جمال عبد الناصر الخاص بتأمیم قناة السویس. حضرها شحاتة هارون وأعلن تأییده للقرار. وبعد أن شنت إنجلترا وفرنسا وإسرائیل العدوان الثلاثی علی بورسعید بهدف إسقاط نظام عبد الناصر وإعادة القناة إلی الملكیة الأجنبیة، دعت النقابة إلی مؤتمرات أخری لتأیید الثورة وقیادتها. حضرشحاتة هارون مؤتمرین منها وعندما توجه لحضور المؤتمر الثالث التقطه عبد العزیز الشوربجی، نقیب المحامین حینذاك، من بین الحاضرین، وطرده خارج النقابة. صدم شحاتة وترك المؤتمر وعاد إلی منزله لیبكی.

وفی عام ١٩٦٧ فتحت نقابة المحامین باب التطوع والتبرع لمساندة القوات المسلحة والدعم العسكری فكتب شحاته إلی النقیب الجدید أحمد الخواجة رسالة یقول له فیها:

> عزیزی أحمد
> تحیة كفاح أبعثها إلیك مع استمارة التطوع. تاركا لك اختیار المكان الذی أستطیع فیه أن أؤدی حقی وواجبی فی المعركة.
> وإذ أعتبر مجلس النقابة قیادة لی، تجدنی رهن إشارتك.
> وتفضلوا بقبول فائق الاحترام
> التوقیع
> المحامی شحاتة هارون

حدد الفارق بینه وبین الآخرین. الفارق أن المصریین یشكلون كثرة من المسلمین والمسیحیین. أما هو فمصری یهودی واحد. لكنه مصری مثلهم. ولن یتنازل عن هذه الهویة مهما عظمت المتاعب.

لا یهم.

بالفعل، لم یكن یهتم.

لذلك كان یحاول دائما أن یشرح وجهة نظره لكل مسئول فی هذا البلد حتی لو كان جمال عبد الناصر.. شخصیا.

فی عام ١٩٦٣ أرسل برقیة إلی الرئیس جمال عبد الناصر. جاء نصها كالتالی:

> السید الرئیس جمال عبد الناصر
> رئیس الجمهوریة
> ورئیس الاتحاد الاشتراكی العربی
> تحیت من مدیری مكاتبكم. عایز أقابلك إنت بقه. أرجوك.
> التوقیع
> شحاتة هارون
> بطاقة عائلیة
> ١١٧٤٩/ عابدین
> ١٩٦٣/٤/٢٨

فی عام ١٩٥٦ وفور وقوع العدوان الثلاثی علی بور سعید، فرضت الدولة الحراسة علی عدد كبیر من غیر المصریین وكذلك علی عدد آخر من الیهود. وكان مكتب المحامی شحاتة هارون ضمن المنشآت التی أخضعت لقرار فرض الحراسة رقم ٢٥٨. فما كان منه إلا أن اتبع ذات الأسلوب الذی یتبع عادة من كل المصریین. أبرق لكل مسئول فی البلاد، للرئیس جمال عبد الناصر وللمشیر عبد الحكیم عامر وللسید علی صبری وللسید زكریا محیی الدین وللدكتور عبد المنعم القیسونی و و و. لم یترك مسئولا إلا وبرق إلیه شارحا مصریته ویهودیته. ثم أرسل شاكیا إلی بعض الصحف، الجمهوریة والأخبار ومساء وروز الیوسف والهدف.

فتم رفع الحراسة عن مكتبه ونشر الخبر فی الوقائع المصریة فی عددها الصادر یوم ٢ دیسمبر عام ١٩٥٦.

ثم حدث أن ألغیت التوكیلات الصادرة له من بعض الشركات التی فرضت علیها الحراسة بعد سنوات من استمرار هذه التوكیلات. حدث ذلك یوم ٤ فبرایر عام ١٩٥٧. لم یسكت واتبع ذات الأسلوب فی الإبراق إلی كل المسئولین شارحا لهم موقفه الذی لا یلین. أبرق إلی رئیس الجمهوریة وإلی وزیر الداخلیة وإلی وزیر المالیة و و و. یشرح أنه مصری أبا عن جد ویهودی أبا عن جد. ولا تعارض بین الهویتین.

المهم أنه یتبع دائما ذات البناء الهرمی المركزی فی تقدیم الشكاوی. مثله مثل كل المصریین المتقدمین بالشكاوی. للرئیس أولا ثم للنائب ثم لرئیس الوزراء ثم لوزیر الداخلیة.. وهكذا.

فی برقیاته ومراسلاته التی تتعدد مع المناسبات السعیدة أو غیر السعیدة التی تلم به كان یوقع علیها دائما موضحا أنه الشخص الفلانی المتهن مهنة كذا والمعتنق للدیانة الیهودیة والحامل للبطاقة الشخصیة أو العائلیة رقم كذا. سار علی هذا النظام حتی عام ١٩٦٣. أما بعد عام ١٩٦٣ فبدأ یضیف إلی كل هذه البیانات بیانا جدیدا وهو أنه عضو مؤتمر وحدة باب اللوق فی الاتحاد الاشتراكی العربی منذ أول نوفمبر عام ١٩٦٣ برقم عضویة (١٤٧٩). ولا تتصور أن عامة المصریین الذین كانوا یرسلون شكاواهم إلی المسئولین فی هذا الزمان كانوا یسجلون حقیقة عضویتهم فی الاتحاد الاشتراكی العربی أو موقع وحداتها أو رقم عضویتها أو حتی تاریخ الانضمام إلی التنظیم السیاسی. أما شحاتة هارون فكان یصمم علیها لیذكر الجمیع أنه لم ولن یتنازل عن أی من حقوقه التی یقرها الدستور.

إصرار غیر عادی علی التمسك بذاته وبجسده جزءا من النسیج الداخلی لمصریته.

وتستمر أغرب تلك البرقیات هی تلك الموجهة إلی السید علی صبری مدیر مكتب الرئیس جمال عبد الناصر لسنوات ثم رئیس مجلس وزراء مصر مع بدایات الستینیات. كان یبدأها بـ عبارة «السید رئیس مجلس الوزراء». ثم یبدأ حدیثه بـ عبارة «عزیزی علی...». أعتذر لرفع الكلفة بینك وبینی. هل تتذكرنی؟ أنا...». ثم یمضی فی حدیثه أو شكواه أو تأییده لقرار تكون الحكومة قد اتخذته لصالح «الطبقات الكادحة المصریة» من العمال والفلاحین. والسبب فی رفع الكلفة أنهما، السید علی صبری وشحاتة هارون، كانا زمیلی دراسة لسنوات فی مدرسة الفریر. فكانه كان یلجأ إلی زمیل صبا وشباب لیعید شرح مشاكله التی قد تكون مفهومة من قبل هذا الزمیل القدیم، سبب عامل الزمن المشترك وطول سنوات التعارف والزمالة بما تحمله من تجارب وفهم وود متبادل.

ولكن فی كتاباته إلی كل المسئولین لم ینس أن یرفع رأیه فی كیفیة التعامل مع الیهود وما هی المضایقات التی تواجههم ولماذا یصر أن تكون مصر.. ومصر بالتحدید هی الأكثر دیمقراطیة وتسامحا وقبولا للآخر. وكان یطالب بكل شجاعة ووضوح أن تعید مصر النظر فی هذا التعامل. لقد تعامل مع كل المسئولین علی أنه مثلهم.. مصری. ولكنه مختلف.. یهودی ومتمیز الفكر.. یساری. ثم شجاع لا یخاف من الحق ولا من الحقیقة.

وتمسك بذات الموقف مع كل ما هو غیر مصری. فی إحدی رسائله إلی صحیفة لوموند الفرنسیة ردا علی مقال كتب عنه یدافع عنه قال: «.. أنا قادر علی الدفاع عن نفسی لأنی قادر علی شرح وضعی فی بلادی..».

وفی حدیث له فی جریدة أمریكیة علق الصحفی علی موقفه المناهض للصهیونیة وللدولة الإسرائیلیة العنصریة قائلا: «سوف یقولون أنك لست یهودیا. وأنك تهاجم إسرائیل لأنك تعیش فی مصر وتخاف من الدولة المصریة. ولو كنت تعیش فی الولایات المتحدة أو فی إسرائیل ذاتها لقلت عكس هذا الكلام». أجابه شحاته: «الذین یقولون أنی غیر یهودی لا یبصرون لأنهم یعیشون تحت تأثیر الدعایة الصهیونیة التی تعمی الناس. لقد اخترت أن أعیش فی مصر بمحض إرادتی وبناء علی قناعتی وقراری ولن أتنازل عن هذا القرار. وفی حقیقة الأمر إذا كنت أعیش فی إسرائیل فإننی لن أقوی علی شرح رأیی هذا لأنی سأشعر بخوف أكبر من رابطة الدفاع الیهودیة «منظمة عسكریة یهودیة إرهابیة». ولم تكن المرة الأولی أو الأخیرة التی یتعرض فیها المحامی المصری الیهودی لمواقف تسلبه هویته الدینیة أو تنتهه بالعمل لصالح جهات مصریة لم تكن له أیة علاقة بها، بل كان دائم التقدم لها والسعی لشرح وجهة نظره لها. لقد عاش مشدودا بین من یسعی لنزع هویته المصریة من ضمیره وبین من ینزع بالفعل هویته الدینیة من وجدانه. لكنه استطاع أن یقف علی قدمیه علی الأرض التی ولد علیها مقتنعا ومصمما أن لا یبدیل لها.

فی حیاته السیاسیة الخاصة هذه مر باعنف تجاربه عندما اعتقل فی شهر یونیة عام ١٩٦٧ علی أنه یهودی مشكوك فی ولائه لمصریته. حاول أن ینساها كواقعة الیمة فی حیاته. لم یستطع. كان یذكرها بمرارة لما تحمله من انتهاكات لكرامته كإنسان مصری مخلص محب لبلده ولشعبها. ولكنه كان یتذكر دائما أنه بعد الإفراج عنه، وكان ذلك بعد أربعة شهور قضی جانبا منها فی أقسام البولیس وجانبا آخر فی سجن أبی زعبل. أن المرحوم الأستاذ لطفی الخولی وكان حینذاك رئیسا لتحریر مجلة الطلیعة، توسط له لدی السید شعراوی جمعة وزیر الداخلیة الذی قابله واستمع إلی شكواه من مبدأ الاعتقال ثم من المعاملة غیر الكریمة التی عومل بها مع الآخرین من فقراء المصریین الیهود. كما استمع خلال الحدیث إلی رأیه السیاسی الكامل فی الصراع

من وجهة نظر شحاتة هارون، إسرائیل لیست وطنا لكل الیهود. وهو یهودی ولكنه مصری. وبالتالی لا یقبل أن یصلی علی جثمانه السفیر الإسرائیلی. «بأی صفة؟»

شحاتة هارون

كتاب الزاوية

من رسائل الجاحظ

٥ـ حنين الملوك لأوطانها

كانت الملوك على قديم الدَّهر لا تؤثر على أوطانها شيئًا.

وحكى الموبَذ أنَّه قرأ فى سيرة إسْفَنْديار بن يستاسف بن لُهْراسف، بالفارسية، أنه لما غزا بلادَ الخزر ليستنقذ أختَه من الأسر، اعتلَّ بها، فقيل له: ما تشتهى؟ قال: شَمَّةً من تُربة بلخ، وشَرْبةً من ماء واديها.

واعتلَّ سابور ذو الأكتاف بالروم، وكان مأسوراً فى القدّ، فقالت له بنت ملك الروم وقد عشقته: ما تشتهى مما كان فيه غذاؤك؟ قال: شَربةً من ماء دجْلة، وشَمَّةً من تربة إصطخر! فغبرت عنه أياماً ثم أتته يومًا بماء الفرات، وقبضة من تراب شاطئه، وقالت: هذا من ماء دجلة، وهذه من تربةِ أرضك، فشرِبَ واشتمَّ من تلك التربة فنقه من مرضه.

ولما افتتح وَهرز بن شير زاذ بن بهرام جور اليمن، وقتل ملك الحبشة المتغلب ـ كان ـ على اليمن، أقام بها عاملاً لأنو شروان، فبنى نجران اليمن ـ وهى من أحصن مدن الثغور ـ فلما أدركته الوفاةُ أوصى ابنه شير زاذ أن يحمل إلى إصطخر ناوسَ أبيه، ففعل به ذلك.

فهؤلاء الملوك الجبابرة الذين لم يفتقدوا فى اغترابهم نعمة، ولا غادروا فى أسفارهم شهوة، حنُّوا إلى أوطانهم، ولم يؤثروا على تُربهم ومساقط رءوسهم شيئًا من الأقاليم المستفادة بالغزاى والمدن المغتصبة من ملوك الأمم.

وهؤلاء الأعراب مع فاقتهم وشدّة فقرهم يحنون إلى أوطانهم ويقنعون بتربهم ومحالهم.

ورأيت المتأدِّب من البرامكة المتفلسف منهم، إذا سافر سفراً أخذ معه من تربة مولده فى جراب يتداوى به.

العربى الإسرائيلى. قال شحاتة هارون أن السيد شعراوى جمعة استمع إليه طويلا وبكل التركيز ثم سأله: «أستاذ شحاتة، إنت مش شايف برضه أن الكلام عن الاشتراكية كان صعب قوى فى مثل هذه الظروف التى تمر بها البلد؟».

كما أنه فى حياته الشخصية مر باعنف تجربة يمكن أن يمر بها أى أب لابنة صغيرة مريضة.

لا يعرف الكثيرون، حتى من أقرب المقربين إليه ولأسرته، أنه أنجب فى حياته بنات ثلاثة، منى وماجدة وناهدة. الذى يعرف الرجل يعرف أن له ابنتين فقط، ماجدة وناهدة. وحتى ابتناء الأخيرتان لم تكونا على علم بهذه الابنة الثالثة التى كانت الكبرى. لقد مر شحاتة فى تجربته مع ابنته هذه عندما كانت البنتان صغيرتين.

عندما ذهبت إلى أسرته أطلب صوراله فى شبابه مع ابنتيه ماجدة وناهدة لم أجد له صورة واحدة تجمعه بهما كطفلتين. عرفت من البنتين أنهما تعرفان أن والدهما تخلص من كل صور الأسرة القديمة حرقا. والسبب انه لم يكن يتحمل رؤية صورة الابنة الكبرى، منى، وسط الأسرة. وأنهما لم تعرفا بحقيقة أنه كانت لهما أخت كبرى إلا بعد أن تجاوزتا سن الخامسة عشرة، وليس قبلا. وكان ذلك بالصدفة البحتة فى سياق أحد أحاديث عمتهما، ديان. والسبب أن هذه الابنة أصيبت فى طفولتها فى الخمسينيات بمرض عضال فى الدم فنصحه الأطباء بالسفر بها إلى باريس للعلاج. وبالفعل تقدم إلى السلطات للحصول على تأشيرة الخروج وموضحا سبب الطلب. وعندما عرف أن شرط الحصول على هذه التأشيرة هو أن تكون بلا عودة إلى الوطن المصرى. قرر أن يعالجها بالإمكانيات المتاحة فى مصر. وكانت إمكانيات ذلك الوقت غير متقدمة. فرحلت الابنة بعد أن عاشت لشهور تحصل على دفعات من دم أبيها. بكى وأحرق كل صور الأسرة التى تجمعها بالطفلة الصغيرة. وحاول أن ينسى الموضوع بأكمله. لم يذكره أبدا لابنتيه.

الذى اقترب من شحاتة هارون اقترب من إنسان يتمتع بحس ساخر وتحيطه، بجانب هذه الزوبعة الخاصة بسبب يهوديته، حالة أخرى من خفة الظل والاستمتاع بالنكتة المصرية وتناقلها. حسده الكثيرون على حسه الساخر وعلى خفة ظله كما حسدوه على إصراره على الاقتراب من أجمل وأبدع ما فى الحياة، بالرغم من هذه الخصوصية الفريدة وبالرغم من كل متاعبها وتجاربها. أحبه كل من اقترب منه .. ثم فهمه فهما جيدا، فى إحدى مناقشاته مع بعض شباب حزب التجمع ساله ماهر بيومى زميله الحزبى فى أمانة القاهرة: «هل صحيح يا أستاذ شحاتة ان اليهود عباقرة؟» أجاب شحاتة هارون: « هل قدم التاريخ عبقريًا يهوديًا من اليمن أو من العراق أو من اثيوبيا أو حتى من مصر؟، العبقرية تنمو وتظهر فى البلاد المتقدمة صناعيا وعلميا. يمكن تولد فى البلاد النامية ولكنها لاتجد فرص النمو والانتشار. الإنسان ابن وامتداد لواقعه الاقتصادى والاجتماعى. أما فى البلاد النامية اللى هى متخلفة فاليهود زيهم زى الآخرين. متخلفون. طيب ما أنا يهودى اهه بس متخلف. مش أنا برضه متخلف. لأنى من بلد نامى يسعى إلى التقدم».

وفى أحد اجتماعات المؤتمر العام لحزب التجمع جلس الأستاذ شحاتة بجانب كارم هاشم، زميله فى الحزب وفى أمانة القاهرة وفى المؤتمر. جلس الاثنان لتناول وجبة الغداء التى يوزعها الحزب فى مثل هذه المناسبات(كيس بلاستيكى يحمل ساندويتش طعمية وساندويتشين فول وكيس بلاستيك صغير به مخلل) مال كارم على الأستاذ شحاتة قائلا:

«أستاذ شحاتة تاخد واحد فول وتديني واحد طعمية؟».

اجاب الأستاذ شحاتة: «لأ».

عاد كارم للعرض: « طيب تاخد اتنين فول وتديني واحد طعمية؟».

قال الأستاذ شحاتة: «قلت لك لا. يا أخى أنا بحب الطعمية».

لحظه كارم بعرض ثالث: «طيب تاخد اتنين فول والمخلل وتديني واحد طعمية؟».

قفز الأستاذ شحاتة الخبير فى براءات الاختراع والعلامات التجارية من على مقعده وقال صارخا: « إيه يا أخى.. ما تسيبنى أتمتع بالطعمية. بلاش زن وإلحاح. هو إنت إيه... يهودى؟».

لتشعر بذاتك ..!

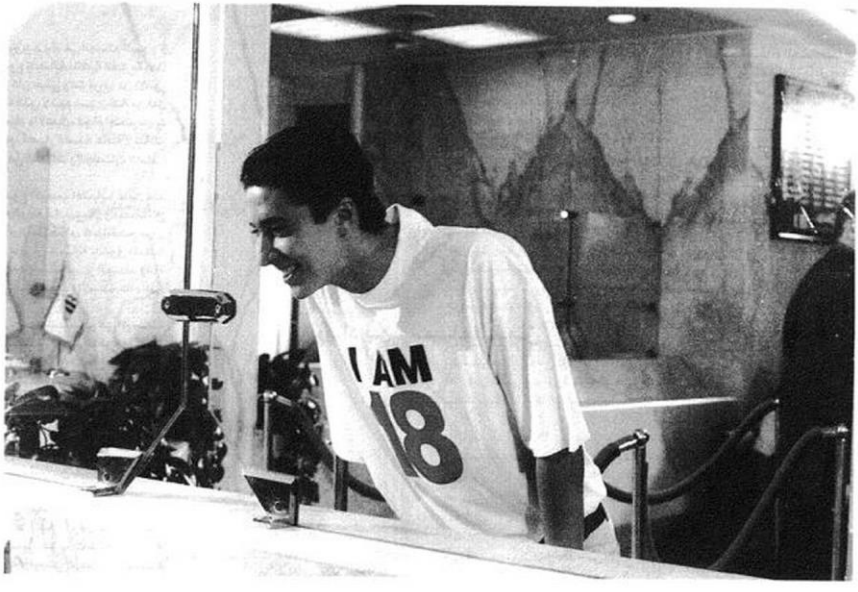

مؤسسة مالية متكاملة تسهل لك الحياة وتؤثر فيها

نعم وأنت فى الثامنة عشر يمكنك أن تفتح حساباً جارياً أو حساب ودائع أو حساب توفير بفوائد متميزة وتتابع كل ذلك إليكترونياً وتحصل على بطاقة ماستر كارد وبطاقة خدمة البنك الفورى ATM كل ذلك بإنضمامك إلى خدمة حسابات الشباب التى يقدمها البنك التجارى الدولى لتضاف إلى سلسلة خدماته غير التقليدية التى تسهل لك الحياة وتؤثر فيها .

CIB

البنك التجاري الدولي (مصر) ش.م.م

Commercial International Bank (Egypt) S.A.E.

Silver Jubilee 25

رمز الثقة

www.cibeg.com

وزارة الإعلان

التوازن الصعب في قانون الملكية الفكرية

زياد بهاء الدين

■■ لا يكاد يوجد بلد في العالم اليوم لا يشغله موضوع حماية الملكية الفكرية، هذا الموضوع الذي كان حتى وقت قريب من الأمور المتخصصة التي لا تهم سوى قلة من أهل القانون والاقتصاد والأعمال. فجأة اقتحم بيوت الناس وعقولهم، فصار قضية عامة لا ينقطع الحديث عنها في الندوات والجلسات العامة والخاصة.

ولأن الموضوع اكتسب اهتمامًا عامًا، فقد اختلط فيه الواقع بالخيال والحقائق بالأساطير والآمال بالأحلام، كما انقسم الرأي حوله بين من يرى أن حماية حقوق الملكية الفكرية وسيلة للاستعمار الجديد وأداة للسيطرة على الشعوب والاستيلاء على ثرواتها.

- ومن يرى أن هذه الحماية هي الوسيلة الوحيدة لضمان تقدم العلوم والفنون والتكنولوجيا وكافة ألوان الإبداع والاختراع. فما هي الحقيقة في كل هذا؟ ولماذا اكتسب هذا الموضوع أهمية كبرى مفاجئة؟ وأين تقع مصالح الدول النامية منه؟

الإجابة عن هذه الأسئلة تتطلب الرجوع إلى الوراء لفهم أصل الموضوع وأساسيه القانوني والاقتصادي من خلال طرح أسئلة أخرى أولوية وضرورية.

فما هي - أولاً - هذه الملكية الفكرية التي يدور حولها كل هذا الجدل؟ وهل كل شيء غير ملموس يعتبر محلاً للملكية الفكرية؟ والإجابة هي أن الملكية الفكرية هي كل ما يكون نتاجًا للتفكير وليس بالضرورة ما هو غير ملموس، بمعنى آخر هي كل ما ينتج عن أي نوع من البحث أو الدراسة أو الإبداع الفني، بشرط أن تكون له قيمة اقتصادية، ولذلك يدخل في عداد الملكية الفكرية، عمل الكاتب والمؤلف والملحن والعازف والمغني والمخترع والباحث ومصمم برامج الكمبيوتر وغيرهم ممن ينتجون عملاً هو نتاج التفكير أو الإبداع الإنساني، أما أهمية أن تكون لعملهم قيمة اقتصادية فهو ما يجعله محلاً للملكية لأن حق الملكية لا يرد إلا على ما يكون له قيمة.

ويقودنا هذا التعريف إلى إدراك وقبول حقيقة مهمة، وهي أن الأفكار والاختراعات والتصميمات والألحان والأشعار، وكل ما يمثل إنتاجًا فكريًا مهما كانت له من قيمة ثقافية وحضارية إنسانية، له أيضًا جانب تجاري واقتصادي، فالنظر إلى المنتج الفني أو الأدبي على أنه ذو طبيعة خاصة تجعله ملكًا لكل من يرغب في الاستمتاع به أو إلى الاختراع العلمي على أنه ملك للإنسانية كلها يصطدم مع حقيقة أن هذا المنتج أو الاختراع يمثل لصاحبه نتاج عمل وتضحية واستثمار يجعل من حقه أن يستمتع بعائده الاقتصادي.

السؤال الثاني هو: لماذا تسعى التشريعات المختلفة للحد من قدرة الأشخاص على تصوير الكتب واستنساخ شرائط الموسيقى وبرامج الكمبيوتر برغم أن هذه هي الوسائل الوحيدة المتاحة لكثير من الناس للحصول والتمتع بهذه المنتجات الفكرية؟ والإجابة البسيطة هنا هي أن كل اعتداء على الملكية الفكرية نوع من السرقة نظرًا لأن هذه الملكية مثلها مثل ملكية الأشياء المادية، تعطي لصاحبها وحده حق الاستفادة منها والتمتع بثمارها الاقتصادية. والفول بغير ذلك يترتب عليه أمران، الأول: أن صاحب هذه الملكية يجد نفسه قد بذل الجهد والعمل بلا مقابل ولا أجر، والثاني: هو أن استباحة حقوق الملكية الفكرية عن طريق التصوير أو الاستنساخ (ما يسمى بالقرصنة) لا بد أن يترتب عليهما في نهاية الأمر إحجام كل من لديه القدرة والملكية الفكرية عن الإبداع وإحجام كل من لديه الإمكانيات والموارد اللازمة للبحث العلمي عن الاستثمار في هذا المجال لعدم الثقة في وجود عائد مناسب على مثل هذا الاستثمار.

ولعل ما يشجع على فرصنة المنتجات التي تتضمن حقوقًا للملكية الفكرية وبكاد يعطي صفة المشروعية لها هو التباين بين ثمن هذه المنتجات وقيمة المواد المكونة لها، أي الزيادة الكبيرة في أسعار بعض الأدوية مثلاً عن المواد الكيمائية الداخلة في تركيبها، أو أسعار الكتب عن الورق أو الحبر اللازم لتصنيعها أو أسطوانات الموسيقى وبرامج الكمبيوتر عن المكونات الصناعية لها. ولكن الواقع أن هذا التباين في حد ذاته طبيعي ولا يمكن أن يكون مبررًا للسرقة.

فكما أن ثمن المنزل مثلاً يتجاوز قيمة مكوناته من الأسمنت والرمل والحجارة لأن الفارق يمثل نصيب كل من اشترك في التصميم والبناء والإشراف، كذلك فالفارق بين أثمان هذه المنتجات وقيمة المواد المكونة لها يمثل تكلفة الإنتاج والتصنيع والتسويق بجانب تكلفة شراء أو استغلال حقوق الملكية الفكرية. «فالتباين في سعر المنتج عن قيمة مكوناته إذن في حد ذاته ليس مدعاة للاستنكار وبالتأكيد ليس مبررًا للسرقة. إنما يصبح الأمر أكثر صعوبة حينما يزداد هذا التباين إلى الحد الذي يعبر فيه عن استغلال فادح من النوع الذي لا تقبله الأخلاق، ولا يقبله في بعض الأحيان القانون.

فبقدر ما يكون من واجب سلطة التشريع في أي بلد أن تتدخل لتحمي الملكية الخاصة وتعطي لكل شخص حقه وتتيح له التمتع بثمار عمله، بقدر ما عليها أيضًا ألا تغفل الجانب الاجتماعي من القانون، فتحد من الاستغلال وتعيد توزيع الثروة. وهذا الأمر لا يتعلق بالملكية الفكرية وحدها وإنما بجميع أنواع الملكيات مهما كان محلها. ولذلك نجد أن النظم القانونية، حتى في أكثر بلدان العالم أخذًا بالاقتصاد الحر، تنظم المنافسة وتمنع المستهلكين من الغش والاستغلال، بل وتعيد توزيع الثروة من خلال السياسات الضريبية.

- فمواجهة مخاطر التباين الفائق بين أسعار المنتجات التي تعتمد على الملكية الفكرية وقيمة مكوناتها لا تكون بالتصوير أو الطبع أو الاستنساخ، وإنما باكتمال البناء القانوني الوطني الذي يحد من هامش الربح غير المبرر عن طريق تشجيع التنافس وحماية المستهلك من خطر الممارسات الاستغلالية.

وفي المملكة المتحدة مثلاً، قررت لجنة برلمانية منعقدة للنظر في أسعار الأسطوانات المدمجة للموسيقى أن هذه الأسعار مرتفعة بدرجة لا تبررها التكلفة الاقتصادية للإنتاج وتمثل هامشًا للربح يعبر عن وجود خطر في التنافس.

وأهمية ما سبق تكمن في التأكيد على خطورة قيام الدول النامية بإصدار تشريعات تنظم مواضيع معينة دون الأخذ في الاعتبار بباقي المنظومة القانونية التي توازن بين مصلحة الفرد ومصلحة المجتمع. والنقاش الدائر حول تشريعات حماية الملكية الفكرية مثال على ذلك، إذ أن مساوئ إصدار هذا القانون لا يتم تجنبها أو الحد منها عن طريق رفض القانون برمته أو تأجيل إصداره، وإنما عن طريق الحرص على أن يواكبه إصدار باقي التشريعات الاجتماعية التي تحقق توازنًا معه. هذه القضية بالغة الخطورة - أي المواءمة بين حماية صاحب الملكية الفكرية وبين مصلحة الجمهور والمجتمع - ثارت في الآونة الأخيرة على نحو مهم ومثير بشأن صناعة الدواء، فمن المعروف أن التركيبة الكيمائية لكل دواء تعد من أهم أنواع الملكية الفكرية التي تسعى شركات الأدوية للدفاع عنها بسبب التكلفة الباهظة التي تتطلبها الأبحاث العلمية في هذا المجال.

وقد تمكنت بعض شركات الأدوية أخيرًا من التوصل إلى منتجات جديدة تحد من خطورة مرض الإيدز وتوقف تقدمه. وكان طبيعيًا أن تباع هذه الأدوية بأسعار مرتفعة تتناسب مع الاستثمارات التي أنفقتها الشركات في البحوث والتطوير.

ولكن على الجانب الآخر من المعادلة يقف الملايين من سكان القارة الأفريقية الذين يعانون من مرض الإيدز الفتاك (نسبة الإصابة به في بعض البلدان الأفريقية تقرب من ٢٥٪ من السكان) ولا يقدرون على شراء الدواء الجديد ذي السعر الباهظ، كما يوجد معهم على نفس الجانب شركات أدوية في مختلف أنحاء العالم بدأت في إنتاج الدواء بشكل غير قانوني وبيعه بأسعار زهيدة نسبيًا. فلما تدخلت شركات الأدوية صاحبة حقوق الملكية الفكرية لمنع الإنتاج والبيع غير القانوني، اندلعت المظاهرات في عدد من البلدان الأفريقية وتبعتها مظاهر احتجاج من المعارضين لاتفاقيات حماية حقوق الملكية الفكرية وجشع شركات الأدوية في البلدان الصناعية المتقدمة.

والواقع أن الاحتجاج في مثل هذا الموقف مشروع، فكيف يمكن قبول استمرار وضع يموت فيه عشرات الآلاف كل يوم لعدم قدرتهم على سداد ثمن دواء صار معروفًا ويمكن توفيره؟ ولكن من جهة أخرى فإن الخروج نتيجة أن الحل يكمن في السماح لمن يرغب في أن ينتج الدواء دون التزام الملكية الفكرية لمن اكتشفه يعني ضياع كل حافز في المستقبل للمزيد من البحث العلمي والاكتشاف. نعم هناك سبب للاحتجاج، ولكنه ليس مبدأ احترام الملكية الفكرية ولا التسريع الخاص به، نعم يلزم حصول سكان العالم على أحدث الأدوية، ولكن ليس مقابل إهدار كل استثمار في البحث العلمي. التوازن بين النقيضين يكمن في اكتمال البناء القانوني الذي يحدد على نحو متوازن ما يعد ربحًا مشروعًا وما يعتبر استغلالاً. ويكمن أيضًا في تحديد من الذي يتحمل تكلفة توفير الأدوية الحديثة مرتفعة الثمن لسكان العالم، هل هي شركات الأدوية، أم الحكومات أم المنظمات المعنية بالصحة أم غيرها؟

ويقودنا كل ما سبق إلى سؤال ثالث وأخير: إذا كانت البلدان النامية هي الطرف الخاسر من تنفيذ اتفاقات حماية حقوق الملكية الفكرية، فما الذي يدفعها إذن للدخول فيها والالتزام بأحكامها؟

والإجابة عن هذا السؤال لها عدة جوانب. من جهة أولى، فحتى مع افتراض صحة القول بأن اتفاقات وتشريعات حماية حقوق الملكية الفكرية تحقق مصالح أكبر للدول الصناعية المتقدمة باعتبارها صاحبة النصيب الأكبر من تلك الحقوق التى لها قيمة اقتصادية كبيرة، فيظل على البلدان النامية أن تنضم إلى تلك الاتفاقيات والتشريعات؛ والسبب فى ذلك يرجع إلى تحول مهم حدث فى العقود الأخيرة فى طبيعة القانون الاقتصادى الدولى. هذا التحول يتمثل فى ربط كل منظومة المعونات والتعاون الاقتصادى الدولى ببرنامج سياسى واجتماعى واقتصادى شامل يجعل الدول النامية عضوًا مقبولاً فى المجتمع الدولى الجديد. وهذا التحول هو ما يصفه رجال القانون الدولى بالانتقال من مرحلة القانون الدولى الرخو إلى القانون الدولى الصلب أى من القواعد الدولية والاتفاقات التى تكون فى الأصل إرشادية وانضمام كل دولة إليها اختياريًا، إلى القواعد الدولية التى يصبح قبولها والانضمام إليها إجباريًا لأنه شرط يقبل الدولة عضوًا فى المجتمع الدولى الاقتصادى، بكل ما يمثله ذلك من فرص ومزايا.

وحماية الملكية الفكرية من المسائل التى ينطبق عليها تمامًا وصف التحول السابق فى القانون الدولى الاقتصادى، فالاهتمام بهذا الموضوع فى المعاهدات الدولية ليس جديدًا، بل قارب عمره القرن الكامل. ولكن التحول الجذرى الذى طرأ عليه هو أنه بدلاً من أن تكون حماية الملكية الفكرية مقررة بموجب اتفاقات ومعاهدات وتشريعات متفرقة، مثلما كان الحال من قبل، تنضم إليها بعض الدول ولا تنضم دول أخرى، يتبانى الاهتمام بتطبيقها فعليًا من مكان إلى آخر، صارت هذه الحماية ركنًا أصيلاً وداعمًا فى برنامج العمل الذى يلزم على كل دولة أن تطبقه لكى تكون عضوًا فى المجتمع الاقتصادى الدولى. وقد تحقق هذا التحول من مرحلة القانون الرخو إلى مرحلة القانون الصلب عن طريق إضافة ملحق كامل من هذا الموضوع إلى اتفاقيات التجارة الدولية التى تم بموجبها إنشاء منظمة التجارة العالمية فى منتصف التسعينيات من القرن الماضى، فأصبح بذلك أمام كل دولة نامية أن تختار بين قبول هذه المعاهدات بما فيها الالتزام بحماية حقوق الملكية الفكرية، أو عدم الانضمام إليها والبقاء خارج المجتمع الدولى الاقتصادى المعاصر بما يترتب على ذلك من الحرمان من كل المزايا التى تنبجها العضوية فيه. وأمام هذا الاختيار الواضح، اختار معظم الدول النامية الانضمام.

وهنا تجدر الإشارة إلى خطأ شائع فى الحوار الدائر حول مغزى الانضمام إلى اتفاقية التجارة الدولية وشقيقتها اتفاقية التجارة فى الخدمات بما تتضمنه من التزامات بشأن حماية حقوق الملكية الفكرية. ففى مصر مثلاً يدور جدل واسع حول مزايا وعيوب مشروع حماية الملكية الفكرية بمناسبة تقديم الحكومة المصرية لمشروع القانون إلى البرلمان المصرى. ووجه الخطأ هنا هو الاعتقاد بأن المطروح هنا هو هل يصدر القانون أم لا يصدر، إذ أن مصر بانضمامها بالفعل إلى مجموعة الاتفاقات المتصلة بمنظمة التجارة العالمية قد وافقت بالفعل على الالتزام بأحكام المعاهدة الدولية لحماية حقوق الملكية الفكرية وصار التزامها قانونيًا منذ أقر البرلمان المصرى هذه الاتفاقية. كل ما يتبقى هو إصدار التشريع المصرى ليس من أجل إنشاء أحكام قانونية جديدة بقدر ما يفرض وضع أحكام المعاهدة الدولية موضع التطبيق المباشر فى صيغة وبناء يقبلهما القانون المصرى. فالمطروح إذن ليس قبول أم عدم قبول الانضمام إلى المعاهدة الدولية، وإنما هل تقبل مصر الاستمرار فى عضوية المجتمع الدولى المعاصر عن طريق الوفاء بما التزمت به سابقًا، أم تنسحب من هذا المجتمع؟

ما سبق يوضح مبررات إصدار تشريع لحماية الملكية الفكرية فى بلد من البلدان النامية من منظور القانون الدولى. ولكن هل هذا هو السبب الوحيد؟ بالقطع إن الإجابة هى النفى.

فبمعزل عن اعتبارات الكسب والخسارة من المنظور الدولى، يظل إصدار تشريع لحماية الملكية الفكرية ضروريًا لأسباب داخلية، وهى ضرورة حماية وتشجيع الابتكار والإبداع والاختراع محليًا من الاعتداءات المختلفة سواء من الداخل أم الخارج.

لقد اعتاد المعلقون على التركيز على البعد الدولى من حماية الملكية الفكرية حتى توازن تمامًا اعتبارات أن المؤلف والمبدع والمخترع أحيانًا ما يكون من مواطنى العالم الثالث. وأنه أيضًا جدير بالحماية وجدير بالحصول على العائد الاقتصادى لعمله. وهذا فى حد ذاته مبرر لإصدار تشريع يحمى حقوق أهل البلد.

فإذا قيل أن هذا الاعتبار الأخير يتضاءل أمام المكاسب الكبرى التى سوف تحققها الدول الصناعية فى مواجهة العالم النامى، فإن الرد على ذلك أن هذا التباين لا يرجع فقط إلى التقدم العلمى والتقنى الذى تتمتع به الدول الصناعية، وإنما أيضًا إلى قدراتها التسويقية والتفاوضية والدعائية، وإلى حجم الوعى المنتشر لديها والبنية المؤسسية التى تجعل صاحب الملكية الفكرية يستفيد من عمله.

فهل يترتب على كل ما سبق ضرورة قبول النظام القانونى الدولى لحماية الملكية الفكرية رغم ما يضعه على كاهل سكان العالم النامى من عبء؟ وتكلفة؟ الإجابة هنا أيضًا هى النفى. فليس علينا قبول الوضع الراهن على علاته، ولكن الاستمرار فى مناقشة المبدأ لم تعد مجدية لأن الصراع الحقيقى يجب أن يكون فى التفاصيل: تفاصيل ما يلزم أن يصاحب إصدار قانون حماية الملكية الفكرية من تشريعات مكملة له بشأن تشجيع التنافس ومنع الاحتكار وحماية المستهلك من الاستغلال، وتفاصيل تتعلق باستمرار دول العالم النامى فى التفاوض الجماعى بشأن تحسين موقفها فى المعاهدات الدولية، وتفاصيل بشأن تطوير البنية المؤسسية والتسويقية المحلية التى تساعد أصحاب الملكية الفكرية المحليين من تحقيق العائد الاقتصادى المستحق لهم وفقًا للأسعار العالمية، وغير ما سبق لن يكون أمامنا سوى التحمل بأعباء هذا النظام القانونى العالمى دون التمتع بأى من مزاياه. ■

كتاب الزاوية

من رسائل الجاحظ

٦ـ فى الأوطان والبلدان

زيّنكَ الله بالتَّقْوى، وكفاك المهمَّ من أمر الآخرة والأولى، وأتلج صَدرك باليقين، وأعزَّك بالقناعة، وختَم لك بالسَّعادَة، وجعَلك من الشاكرين.

سألتَ ـ أبقاك الله ـ أن أكتب لك كتابًا فى تفاضُل البُلدان، وكيف قناعةُ النَّفس بالأوطان، وما فى لزومها فى الفَشَل والنَّقص، وما فى الطَّلَب من علم التَّجارب والعقل.

وذكرتَ أنَّ طُول المُقام من أسباب الفقر، كما أنَّ الحركة من أسباب اليُسْر، وذكرتَ قول القائل: «الناس بأزمانهم أشبَهُ منهم بآبائهم».

ونسيتَ ـ أبقاكَ الله ـ عملَ البُلدان، وتصرُّف الأزمان، وآثارهما فى الصُّور والأخلاق، وفى الشمائل والآداب، وفى اللُّغات والشَّهوات، وفى الهمم والهَيْئات، وفى المكاسب والصِّناعات، على ما دبَّرَ الله تعالى من ذلك بالحكمَة اللطيف، والتدابير العجيبة.

فسبحانَ من جَعلَ بعضَ الاختلاف سببًا للائتلاف، وجعل الشكَّ داعيةً إلى اليقين، وسُبحان مَن عرَّفنا ما فى الحَيْرَة من الذِّلَّة، وما فى الشَّكِّ من الوَحْشة، وما فى اليقين من العِزّ، وما فى الإخلاص من الأنس.

ولولا ما يجبُ من تقديم ما قدَّم اللهُ وتأخير ما أخَّر لكان الغالبُ على النفوس ذكرَ الأوطان وموقعها من قلب الإنسان.

وقد قال عمر بن الخطاب: «عَمِّر اللهُ البُلدان بحبِّ الأوطان»، وقال ابن الزُّبير: «ليس الناسُ بشىءٍ من أقسامهم أقنَعَ منهم بأوطانهم».

الفن التلقائى وإبداع اللاوعى

حسام الدين زكريا

قدم لنا شاعر الألمانية الكبير شيللر صورة الفنان التلقائى البسيط، وكأنه كان يضع معايير للشخصية الفنية للتلقائيين قبل أن تتبلور حركتهم بقرن كامل.. إنه الرجل ذو العاطفة، الرجل البسيط الذى يزاول الأشياء بشكل طبيعى، وهو الجنة المفقودة، والمثل الأعلى لكل من تهفو نفسه إلى عالم البراءة والأحاسيس النقية

يلفت توماس كون النظر، فى كتابه «The Structure of Scientific Revolutions» (1962) إلى أن فن التصوير قد ظل لمئات السنين وكأنه منظومة معرفية تراكمية، ويرى أن ذلك الفن كان على مدار السنين مجالاً خصبًا لتراكم المهارات والإبداعات من الجهابذة على اختلاف مدارسهم وتوجهاتهم. وكان الهدف الأسمى له، وهو هدف سعى إليه السواد الأعظم من المصورين طول تلك القرون، هو إخضاع المظاهر البصرية، من خلال تكنولوجيا تصويرية يملك المصور زمامها، لكى تمكنه من تمثيل الطبيعة على أكمل وجه. وسجل نقاد الفن ومؤرخوه الكبار من أمثال بلليني Bellini (١٤٣٠ - ١٥١٦)، جورجيو فازارى فى إجلال وتوقير، سلسلة الابتكارات الفنية فى التصوير كالتقصير Foreshortening، وتوزيع الضوء والظل Chiaroscuro.. إلخ، والتى أسهمت فى تصوير الطبيعة بكل دقة، إلا أن تلك السنوات، خاصة أعوام عصر النهضة، كانت هى السنوات التى شهدت انقسامًا بسيطًا بين العلوم والفنون، والنموذج الذى قدمه ليوناردو دافنشى كان واحدًا من نماذج عديدة لفنانين تنقلوا بحرية بين مجالات - علمية وفنية - لم تعد متمايزة تمايزًا تامًا إلا فى فترة متأخرة. والملاحظ أن مصطلح الفن كان يعنى بنفس القدر التكنولوجيا والحرف الصناعية، وهى فنون كان ينظر إليها هى الأخرى باعتبارها فنونًا مطردة التقدم، شأنها شأن التصوير والنحت، والذى حدث هو أن التصوير والنحت قد نبذا تمامًا القول بأن التمثيل بالصورة هو أسمى أهدافها، وعادا أدراجهما من جديد ليبهلا من فنون البدائيين..!! هنا فقط اتخذ الانقسام بين العلم والفن، الذى نسلم به نحن اليوم، أبعاده الواضحة الراهنة.

وإذا كنا اليوم نواجه صعوبات شتى عند بيان الفارق العميق الذى يمايز العلم عن التكنولوجيا، فإن ذلك يرجع فى جزء منه إلى أن التقدم سمة واضحة لهذين المجالين. وقد شرع الفلاسفة منذ العقود الأخيرة للقرن الماضى فى تداول مصطلح سيكولوجية الشعب ضمن مصطلحات أخرى أصبحت أدوات شائعة لا غنى عنها عند محاولة إيجاد تفسير للتمايز بين العلم والتكنولوجيا، ويتداول معظمنا ذلك المصطلح كلما حاولنا فهم سلوك أى جماعة استنادًا لمعتقداتها وتقاليدها ورغباتها، وهو فهم يكون خاطئًا. ولم يكن هناك ما هو أكثر سخرية وازدراء من استخدامه على هذا النحو، ومنذ قرن مضى كان اللفظ يعنى بالتأكيد سيكولوجية هؤلاء الناس (المتخلفين..!!)، الذين يعيشون حياة لصيقة بالطبيعة فى ثقافات توجهها حتمية التقاليد والعادات المتوارثة، ولها أساليب تفكيرها المختلفة عن الحياة من حولها، والأشد بدائية بلا ريب من أناس متحضرين ومتطورين مثلنا..!! إلا أنه عندما نشر عالم الاجتماع الفرنسى كلود ليفى شتراوس Claude Levi Strauss كتابه «التفكير الهمجى La Pensee Sauvage» (1966)، أوضح للأذهان الكيفية التى كانت العقول الهمجية تفكر بها، وكيف اختلفت النماذج البدائية للتفكير عن نماذجنا المتفوقة (المزعومة)، وقد تسربت أفكاره إلى الفلسفة الحديثة، وأظهرت أنه رغم كوننا متحضرين وعلى كل هذا القدر من التقدم، فإن الطريقة التى نفهم بها ونفسر سلوك بعضنا البعض عن طريقها ظلت بدائية ومتأخرة بالنسبة للأساليب العلمية الموثوق بها فى التفسير، ومن ثم فنحن بدائيون بطبيعتنا ومازلنا نفكر بتلك الطريقة. وسنبطل تلك العادة الذميمة مستقبلاً، وهى الإشارة للحالات العقلية عند تفسير السلوك الإنسانى.

والواقع أن فن الشعب هذا يستحق بجدارة أن يدعى فنًا خالصًا (إن كان منا من يلاحظ ذلك)، ويكفيه فقط أنه يسعى لنفس الهدف أسوة بفنون التصوير والنحت فى كل مكان. إلا أنه أعثر فنًا شعبيًا بسبب ممارساته التى وضعته عند مرحلة مرتدة من التقدم الذى تسنم فيه فن التصوير الذرى من خلال مراكز الفن الكبرى، فهو نتاج لما يستطيعه الشعب بطبيعة الحال، لذا كانت النظرة إلى الثقافة الشعبية دومًا كصيغة حياة غير ناضجة نسبيًا إذا ما وضعت على كفة ميزان أمام الثقافة الأوروبية، والمفترض أن فنانى تلك الثقافات لو كان قد قدر لهم فقط معرفة التكنولوجيا اللازمة، مع تحديد الهدف، لأبدعوا أعمالاً فنية على غرار فنانى فلورنسا. إنه نفس ما كان سيحدث مثلاً لشعب الأزتيك لو كان قد عرف شيئًا عن العجلة..! على أنه يجدر القول إن ذلك لا يحدث دائمًا فى عالم الفن، فهناك عادة أسباب ترتبط بأنماط الحياة التى يمارس الفن فى نطاقها، والتى قد لا تكون متوائمة مع التكنولوجيات المتقدمة لفن التصوير، وتعطينا الصين مثالاً رائعًا لذلك - وهى بلد لا تبدو حضارتها بدائية إلا لأكثر وجهات النظر ضيقًا فى الأفق (من خلال شعور الأوروبيين الزائف بالتفوق) - عندما أقرت على الفور بأن المنظور Perspective هو الطريقة الصحيحة على وجه الدقة لإظهار العناصر كما تبدو فى الفراغ، وذلك عندما قام الأب جيوزيبى كاستليونى Giuseppe Castiglione (1688-1766)، وكان مبشرًا وفنانًا، بإجراء عرض لرسم المنظور، إلا أن مثقفى الصين مع تسليمهم بمميزات المنظور

لوحة رقم (١)
هنرى روس
فهد يفترس حصان

الرياضى، سرعان ما استشعروا أن ذلك الأسلوب ليس هو الفعالية الفنية المطلوبة فى حياتهم الثقافية، ومن ثم كانت أفضليته الموضوعية غير متصلة بممارستهم الفنية. أما ما اعترف به الصينيون فهو أن هناك اختلافًا بين دور الفن فى ثقافة ما، وبين وسائل تلك الثقافة لتجسيد الصورة، وقالوا إن الدور الذى لعبته الصور فى الحضارة الغربية لم ينفصل عن الصديق البصرى الذى تبديه تلك الصور، وهى صلة لم تتواجد فى ثقافتهم. وربما سلم الفنانون الشعبيون تمامًا بصحة الاكتشافات الموضوعية التى يظهر التقدم واضحًا خلالها، دون أن يدركوا أنهم قد يحققون فائدة من ورائها، فربما كانت للصور بالنسبة لهم أدوار أخرى تؤديها، بحيث لم يكن هناك اتساق بالمرة بين التقنية، وما تتيحه من إمكانيات دقة، مع حياتهم الثقافية، وقد يعيد ذلك لأذهاننا حكاية شعب الأزتك مع العجلة ويجعلنا نفكر فى احتمال معرفة هؤلاء القوم بتلك التكنولوجيا، وأنهم ربما فكروا فى الثمن الذى سيدفعونه لقاء استخدامها، وقرروا صرف النظر عنها. ولعلهم فى ذلك كانوا أعقل من شعوب كثيرة فى عصرنا هذا..!! عصر الصدمات التكنولوجية بحق.

مولد الفن التلقائى

«.. إننى أود أن أستعيد نضارة الرؤيا، وهى خاصية لا نجدها إلا فى منتهى الطفولة، عندما تتبدى الدنيا فى ثوب قشيب..»

«هنرى ماتيس»

عندما صاغ الفين توفلر مصطلحه «صدمة المستقبل»، واختاره عنوانًا لكتابه الشهير FutureSchock (١٩٧٠)، كان فى ذهنه ما سيلاقيه الإنسان العادى فى مجتمعات الدول المتقدمة تحت وطأة تكنولوجيات عاتية. فلقد وقع هذا الإنسان تحت وطأة مجموعة من الضغوط النفسية والعصبية والفسيولوجية، وهو يحاول لاهثًا ملاحقة التغيرات الحياتية التى سببتها تلك التكنولوجيات. والتى تتبدل وتتغير بإيقاعات فائقة السرعة تجاوزت قدراته على التلقى والاستيعاب، حيث تتنوع تنوعًا هائلاً، وتتجلى على كافة المستويات بدءًا من بطاقات الائتمان، وسروراً بفيض البث الإعلامى المرئى والمسموع والمقروء، وكأنه كان يبشر بثورة الوسائط المعلوماتية (الإنفوميديا) التى يقول عنها فرانك كيلش Frank Koelsch صاحب الكتاب بنفس العنوان Infomedia Revolution أنها ستقلب حياتنا هى الأخرى رأسًا على عقب بما فى

جعبتها من امتزاج تكنولوجى Tech. Convergence بين أعظم ثلاث قوى على الساحة الآن:

الحوسبة Computation، والوسائط الإعلامية Media، والاتصالات Communication.

وهكذا برزت مشكلة الحمل المعلوماتى الزائد Information Overload، ووجد الإنسان نفسه حيالها فاقدًا للسيطرة، تحيطه بيئة غريبة عليه لا يملك أمامها حولاً ولا قوة، فلا هو بالقادر على التفاعل مع معطياتها سواء بالسلب أو الإيجاب لافتقاده الأدوات الذهنية الضرورية لإنجاز ذلك التفاعل، ولا هو بمستطيع التواصل مع رموزها لجهله بدلالات تلك الرموز، فقد أصبحت لغة التفاهم فى معظمها مكودة Codified، تفيض بالرموز والاصطلاحات. ولم يكن هناك بديل عن الاغتراب التكنولوجى - أحدث صور الاغتراب فى العصور الحديثة، وعندها لم يجد المرء مناصا من اللجوء للحيل الإدراكية كالتبسيط المخل، والرؤية الاختزالية للأمور، ومحاولة إيجاد عالم بديل تجنبًا للوقوع فى براثن الاكتئاب والإحساس المميض بالعجز والإحباط عندما يجد نفسه لا يملك حتى ترف الفرجة.

الواقع أن ظاهرة الاغتراب هذه ليست بالظاهرة الجديدة، فقد نشأت فى المجتمعات الصناعية مع الثورة الصناعية فى أوروبا فى النصف الأخير من القرن التاسع عشر، وإزاءها اضطلع الفن بواجبه للتصدى لموجات السعار المادى الذى أخذ يجتاح المجتمعات، ولم تكن الرومانتيكية، وهى تنبئ عن تراث القرون الوسطى بفروسيتها ونقائها وخرافاتها أو الانطباعية، وهى تلهث خلف تحولات ضوء الشمس، لتزدم فى الهواء الطلق بعيدًا عن دخان المصانع، واستعباد الآلة للإنسان، إلا صيحات احتجاج ضد المادية التى أغرقت العالم فى طوفانها. ومن المثير للضحك الآن ما وصف به نقاد الفن فى تلك الأيام فن هؤلاء الثائرين، وعلى رأسهم لوى لينروى Louis Leroy: «.. إن الثائريين، أولئك الهمج المتوحشين العنيدين..! احتقروا مهمة إنجاز صورهم كسلاً أو عجزًا.. لقد اكتفوا ببعض الانطباعات..!!».

ومن المفارقات أن أحد أعداء الانطباعيين هم الذين قدموا للعالم اسم ذلك المذهب، ولو كانوا على دراية كافية لأدركوا أن شمس عصر التمثيل بالصورة والصدق البصرى قد آذنت بالمغيب، ولم تعد النظرة إلى تاريخ الفن هى مدى التقدم الذى حدث على أيدى جهابذة القرن السادس عشر، من أمثال فاساري، والذين افترضوا أن تاريخ الفن ما هو إلا بنية الكفاية التصويرية Representational Adequac. فمع نهاية القرن التاسع عشر وبزوغ تيار الحداثة، كان فن التصوير يعانى مخاض تحولات جذرية ولعب الثائرون: بول جوجان Paul Gaugin (١٨٤٨ - ١٩٠٣)، وسيزان Cezanne (١٨٣٩ - ١٩٠٦) وفان جوخ (١٨٩٠ - ١٨٥٣) أدوارهم الطليعية، ورغم أن ثورتهم كانت ثورة فردية، فهم لم يدركوا المعنى التاريخى الكامن وراء ثورتهم تلك، إلا أن التابعين، من الوحشيين Fauves، والتعبيريين، والسيرياليين، والتكعيبيين، والتجريديين، كانوا أكثر ضراوة، فى ثورتهم على القديم، وقدر للموارد التعبيرية عند

الفن التلقائى

هؤلاء الذين يطلق الغرب عليهم خطأ لفظ البدائيين، تدفعهم طاقات الشمس المختزنة، والأحاسيس المنتشية بالوجود، وحدة المشاعر، واللاوعى - أن يشكلوا الروافد الفنية الهادرة.. وولد الفن التلقائى كما نعرفه اليوم، وسط لهيب مثل تلك الثورات المتأججة، وهو لم يتبلور كحركة فنية استحوذت على الانتباه إلا عندما لفت هنرى روسو (١٨٤٠ - ١٩١٠) وهو من أعلام فن التصوير - أنظار بيكاسو، الذى نوه باعماله، كما تحمس لها أبولونير - وهو شاعر وناقد فرنسى - كثيرًا.

وهكذا كان الفن التلقائى ابنًا شرعيًا للحداثة. فروسو يقف اليوم شامخًا كرائد وعلامة طريق لهذا الفن المدهش. ولو لم يكن ليتسنم تلك القمة ما لم يحدث ذلك التطوير فى مفهوم التصوير. (ولو قدر له أن يقوم من قبره اليوم ويرى كم التبجيل الذى يحيط باعماله، وما يكتب عنه، وهو الذى وورى التراب بين حفنة من جيرانه تعد على الأصابع، لأصابه الذهول حقا).

ولابد هنا أن نذكر أن سبب الانشقاق الذى حدث فى المفاهيم بين الفن والتصوير الطبيعى كان مشكلة لا يمكن تفسيرها فى التاريخ الثقافى لأوروبا، إلا أن الفضل فيه يعود لفكرة التعددية الثقافية Multiculturalism، التى صححت الكثير من المفاهيم الخاطئة عن الفن التلقائى، عندما رسخت علاقات نسبية بين الفنون، وصيغ الحياة المختلفة التى ترتبط بها بحيث لا يدخل فيها ترتيب تصنيفى للفنانين، الأمر الذى دفع بعض نقاد الفن إلى اعتبار الجودة Quality شيئًا دخيلاً فى نطاق ثقافة معينة. وقد سعت تلك العلاقة النسبية إلى الابتعاد عن ضيق الأفق الثقافى، فهى تستوعب جميع الفنون بغض النظر عن وظائفها المتنوعة فى صيغ الحياة المختلفة، بحيث ينظر إليها جميعًا بنفس الروح الجمالية غير المتحيزة (فيما عرف باسم الانعزالية الجمالية)، كما تنظر إلى الثقافة الغربية ذاتها.

ويمكن القول بأن اللحظة التاريخية الدقيقة التى بدأ بتحول فيها الاهتمام الجمالى نحو الفن التلقائى فى الستينيات من القرن التاسع عشر، قد تطابقت مع ما يسمى غالبًا بأول لحظة للتصوير الحداثى، وهى إبداع لوحة أوليمبيا Olympia الشهيرة (١٨٦٥) للمصور الفرنسى الانطباعى الكبير إدوار مانيه Eduard Manet (١٨٨٢ - ١٨٨٣)، ومنذ ذلك التاريخ ارتبط الفن الحديث والفن التلقائى ارتباطًا مصيريا لم تنفصم عراه، وفى قول آخر: فن ما بعد الحداثة Post Modernism مع الفن اللامنتمى، ولقد وصف المصور الفرنسى الشهير جوستاف كوربيه Gustave Courbet (١٨١٩ - ١٨٧٧) لوحة مانيه، وهى عارية مثيرة، على النحو التالى: «إنها مسطحة..! لم يستخدم فيها موديلاً، بل إنها تشبه البنت فى أوراق «الكوتشينة»..!! «وهو التشبيه الذى فتح الأبواب للكثيرين كى يقولوا إن البنت فى أوراق اللعب تشبه أوليمبيا مانيه، وسواء كانت أوراق اللعب تشبه نماذج من الفن التلقائى أم لا، إلا أن مانيه كان بذلك قد بدأ، بتسطيحه لأشكاله أسلوبًا جديدًا اتبع فيه ما عرف باسم التفكيكية المنهجة Systematic Deconstruction، وهو ما جعل تاريخ الحداثة يبدو وكأن تاريخ الفن قد عاد للوراء. وربما كان بعض السبب راجعًا لظهور التصوير الفوتوغرافى، الأمر الذى شجع ديلاروش De La Roche وهو مصور فرنسى من رواد المذهب الواقعى ليقول إنه بالاختراع الذى قدمه داجيير Daguerre فى أول عملية للتصوير الفوتوغرافى فإن فن التصوير قد مات. وكان ذلك صحيحًا على الأقل بالنسبة للهدف الأسمى لفن التصوير خلال القرون الماضية (حتى القرن التاسع عشر). ما دامت كانت كل المهارات التى تصنع فنانًا قد أصبحت تؤدى من خلال آلة فى استطاعة أى شخص تشغيلها دون تعلم الرسم أو التصوير (وهو ما يمكن أن نصف به فن ديلاروش نفسه..!!).

وكان على فن التصوير أن يبحث له عن تعريف جديد أكثر دقة من مجرد التمثيل الدقيق للأشياء، وأخذ الفنانون يجدون فى البحث عن ثقافات قد يكون لديها إجابات أكثر فعالية لأسئلتهم مما قدمه تاريخهم (الأوروبى بالدرجة الأولى)، مادامت لم تعد تكنولوجيا التطور التصويرى لم تعد وثيقة الصلة بمعنى التصوير، وهكذا رأينا فان جوخ يتخذ من هوكوساى (وهو فنان طباعة ألوان ياباني ١٧٦٠ - ١٨٤٩) نموذجًا يحتذى، ويبادر جوجان باخذ صيغه التشكيلية من حفارى بريتانى، ثم يدير ظهره فى النهاية لحضارة يعلن أنها قد تعفنت (ويشد الرحال إلى جزيرة تاهيتى). وكان كل ذلك مؤشرات لفقدان ما يمكن تسميته بالثقة الثقافية، وهو ما دفع الفنانين نحو ثقافات أقل تطورًا بحثًا عما يمكن مضاهاته بما فى داخلهم، وهم ينقبون عن الأصالة والصدق. ومما لا شك فيه أن الرومانتيكيين كانوا أول من صور الشخص المغترب والمريض النفسى تصويرًا رفعه إلى مرتبة البطولة، ووجدوا فى الخروج عن المألوف شريعة لإبداع الذى لا تحده قيود، ولا يعترف بقوانين أو أعراف، حيث يدير الفنان ظهره للعالم متلفعًا بوحدته، ويتامل مكنون ذاته، وينهل من رؤاه الخاصة، ويمضى فى إبداعه كالسائر أثناء نومه، وهكذا فرض التلقائيون واللامنتمون والمجانين أنفسهم على الساحة الفنية، وحفلت قواعد الفن بالاستثناءات.

وكان باول كلى Paul Klee (١٨٧٩ - ١٩٤٠) أول فنان حديث يعترف علانية بقدرات الفن التلقائى، وفن مرضى العقول

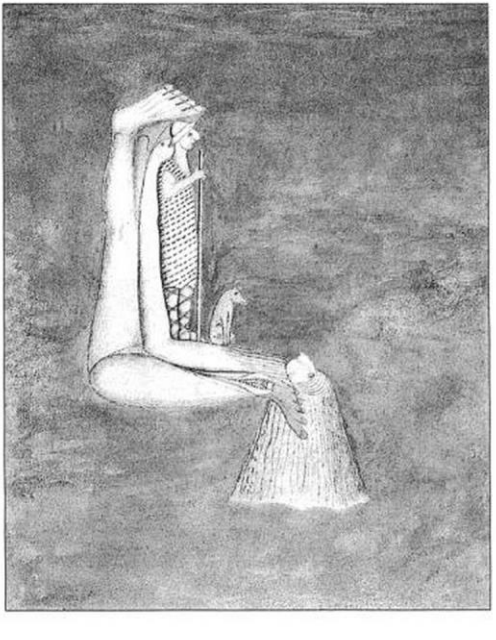

لوحة رقم (٢)
اوجست ديتر
الراعى العجيب

لوحة رقم (٣)
برونو إيبله. تيوليت أبيض

حينما تحدث عن مميزاتهم الإبداعية فى مقالته الشهيرة فى مجلة الألب (Die Alpen) قائلاً: «.. إذا ما أردنا إصلاح الفن اليوم، لن نجد ما هو وثيق الصلة بعملية الإصلاح تلك، على نحو أقوى بكثير من كل ما هو موجود فى متاحفنا كلها، سوى أعمال هؤلاء المجانين. ولكى نتفادى ببساطة استنساخ الماضى، علينا أن نعود أدراجنا للوراء أبعد قليلاً..».

وقبل ذلك بعدة سنوات، كان كلى قد كتب فى يومياته: «.. لقد وصلنا إلى نقطة تحول، إننى أنحنى احتراماً لهؤلاء الذين يشاركون فى ذلك الإصلاح الوشيك..». وربما كان كلى قد زار من قبل ذلك المتحف الصغير الذى أقامه الدكتور مورجنستالر Morgenthaler فى مدينة فالداو Waldau قرب بيرن (المدينة التى قضى فيها كلى فترة شبابه) لأعمال نزلاء المصحات العقلية فى سويسرا، وتلا ذلك بعد قليل ماكس إرنست Max Ernest (١٨٩١ ـ ١٩٧٦) الذى تأثر كثيراً بأرؤى الهذيانية للمصور التلقائى أوجست نيتر(١) August Netter (١٨٦٨ ـ ١٩٣٣)، والذى قال عنه، وهو يقارن لوحاته التى أبدعها فى مصحة عقلية، بأعمال السرياليين: «.. لم يصادفنى فى حياتى ما هو أكثر خيالاً من تلك الأعمال..». وإذا ما تمعنا فيما كتبه نيتر بنفسه كشرح للوحته العجيبة تلك لاستطعنا أن ندرك حجم التحول الذى حدث فى نظرة أقطاب الفن الحديث للمفهوم فن التصوير:

«.. رسمت فى البداية ثعبان كوبرا أخضر وأزرق بتلالاً، ثم أضفت القدم فيما بعد ورسمت القدم الأخرى، وهى مصنوعة من اللفت..! وعلى القدم الثانية ظهر رأس حماياً My Father in law، حيث تجعد الجبين ليتخذ شكل فصول السنة، ويصبح شجرة، وانشق لحاء تلك الشجرة من الأمام مكوناً الفم، ثم تكون الشعر من أفرع الشجرة، وظهرت أننى بين الساق والقدم، تلك (الـ....) هى سبب سقوط الرجل، وإحدى القدمين ترتفع نحو السماء لترمز إلى السقوط فى الجحيم، ثم يظهر راعى يهودى يرتدى فروة نعجة، وتتحول الأخرف WS إلى ثعاب، والتى تتحول بدورها إلى نعاج. لقد أصبحت ثعاباً فى ثياب نعاج.. أنا الراعى.. أنا الرب نفسه..! الذئاب هم أعدائى.. الألمان!!..». وقد يعطى ذلك الشرح فكرة واضحة عن الكيفية التى يطرح بها الفنان التلقائى، خاصة إذا ما كان مريضاً نفسيا (٩٩٪ من الحالات)، رؤاه وتصوراته من عالم اللاوعى المثير.

السريالية والفن التلقائى
أو إبداع اللاوعى

يتفق الفن السريالى مع الفن التلقائى فى أن الإثنين يرفضان الواقع ويتخطيانه، ويتخذان من اللاوعى ميداناً فسيحاً للإبداع، ويجدان فى الحلم صيغة جديدة للواقع، ويبحثان عن صيغ لاواعية دائماً، مع ما هو معروف من أن الفنان التلقائى إنما يفعل ذلك بفطرية وعفوية وببساطة دون أى تنظير أو مفهوم مسبق، فموضوعات لوحاته تطارده دوماً وكأنها وساوس يريد التخلص منها فى أول فرصة ممكنة، أو أفكار مستحوذة Idees Fixes يسعى لتحقيقها فى تصميماته، وقد يفسر ذلك سبب ترك كثير من التلقائيين، خاصة المرضى النفسيين منهم، للوحاتهم قبل إتمامها.

وما من شك فى أنه من بين جميع الصيغ المختلفة للاوعى، كان نموذج فرويد Freud (1856-1939) الأكثر عمقاً ليس فى مجال علم النفس والطب فقط، بل فى المجالات غير العلمية للشعر والفن.

لقد أعطى فرويد لكلمة اللاوعى معنى جديداً تماماً فى القرن العشرين، رغم أن اللفظ كان مستخدماً بين علماء النفس، حيث تم تعد بنية المنظومة الجسدية Physical System عنده قائمة على الوعى فقط، وهو ما جذب السرياليين لرؤيته الشاملة لعالم النفس البشرية، ورددت كتاباتهم كلماته فى كتابه تفسير الأحلام: اللاوعى هو الواقع الحقيقى بصفة عامة، وقد ميز فرويد بين استخدامين للفظ اللاوعى، كصفة Adjective، فهو يعنى ببساطة عمليات عقلية لم تكن خاضعة للانتباه الواعى، إلا أنه كاسم (بالألمانية Dasunbewusste)، فقد أخذ معنى أكثر عمقاً وأصالة، حيث كان فرويد يعنى به واقعاً ملموساً فى صميم أعماقنا، إلا أننا نجده مجهولاً لدينا تماماً، كما تبدو الحقيقة أمامنا فى العالم الخارجى، كما أنه يتمثل أمامنا على نحو غير تام من خلال المعلومات المتواجدة فى الوعى، مثلما يبدو لنا العالم الخارجى من خلال الاتصالات التى تجريها حواسنا. ولما كان علم النفس يعنى بدراسة العقل الواعى، فقد رفض المشتغلون به تلك الأفكار واعتبروها مجرد هواء، وشكل ذلك المفهوم الواسع للواقع تحدياً كبيراً للفلاسفة ناهيك عن الأطباء، فقد خرق المعايير المعهودة لكل ما هو منطقى وعقلانى. ورغم أن فرويد لم يكن يرمى إلى تلك النتيجة، إلا أن السرياليين هللوا له واعتبروه تبريراً محتملى به لرفضهم القيم البرجوازية الأوروبية، وإعادة تقييمهم لموضوع الخيال من جديد.

وفى أول مانيفستو للسرياليين، رحب أندريه بريتون Andre Breton (١٨٩٦ ـ ١٩٦٦) بالطابع الريادى لاكتشافات فرويد معلناً أنه: «.. هناك جزء كبير من عالمنا الذهنى لم تكن تحفل به، قد أعيد إلى النور، ولابد لنا من إسداء الشكر لاكتشافات فرويد.. إن الخيال على ما يبدو يلقى على أهبة الاستعداد ليطالب بحقوقه. وإذا ما كانت أغوار عقولنا تحمل فى طياتها قوى غريبة، ففى استطاعتنا تعزيز تلك القوى الأخرى الموجودة على السطح، أو شن حرب ضافرة عليها، فالمنطق يدعونا لتشديد قبضتنا عليها، إذا ما أردنا إخضاعها لسيطرة عقولنا..» وكان على فرويد أن يطور نظريتين للبنية العقلية ففى نموذجه الأول ينقسم العقل إلى ثلاثة أنظمة من المراكز النفسية: الواعى Conscious، وما قبل الواعى Preconscious، واللاواعى Uncondcious، واللاوعى ليس ما هو خارج نطاق الوعى، بل ذلك الذى انفصل عنه جذريا من خلال الكبت Repression. وفى ذلك النموذج الطبوغرافى للعقل، سنجد حواجز رقابية بين ما هو قبل الواعى، واللاواعى، حيث تتشوه الأفكار وهى تمر فى طريقها للوعى. وكما يقول فرويد، فإن ما قبل الواعى يقف كحجاب فاصل Screen بين لاوعى النظام، والوعى نفسه. ولا يقوم ما قبل الواعى للنظام بحجز عملية الوصول للوعى فقط، بل إنه يتحكم فى الوصول لقدرة الحركة الإرادية، وله تحت تصرفه طاقة تطهرية Cathartic متحركة يوزعها (جزء منها معروف لنا فى شكل انتباه) كيفما شاء لتسهل له ذلك. ولقد كان ما قبل الوعى أيضاً، والذى يسعى للإبقاء على العقل نائماً هو الذى قاد فرويد نحو افتراضه بتشوه الأفكار فى الحلم.

ورغم ما واجهته نظريات فرويد للاوعى من إنكار وتحد وتتقيح خلال القرن العشرين، إلا أنها كانت مسئولة عن التحول الكامل الذى حدث لمفهوم الإنسان لهويته، واستيعاب نشاطه الجنسى Sexuality، وإدراكه لمسئوليته. ولقد كان إدراك الإنسان لقوى أخرى مغايرة للوعى قد تحكم رغباتنا وسلوكنا، مصدراً للرعب للبعض، بينما رأى فيها البعض الآخر تحرراً وانطلاقاً. على أنه لا يجب القول بأن السرياليين قد فهموا جوهر عمليات التحليل النفسى، فلم يكن اهتمامهم به ذا علاقة بأهدافه العلاجية، أما ما جذبهم فهو أفكار فرويد نفسها كى يجدوا فى البحث عن حقل جديد للنشاط، وإن كانت كتاباته المكثفة بذراتها المعرفى المتشابك الأطراف، لم تمثل لهم سوى النزر اليسير لخلفيتهم الفكرية، إلا أنهم نجحوا فى تأكيد حقهم فى ارتياد مضامين أفكاره غير معتمدين على المحللين النفسانيين، وقد كانت تلك الأفكار خير شاهد على قضيتهم فى مواجهة التفكير العقلى الضيق والبراجماتية، والتى ما زال الافتراض بأنها أساسيات الحضارة الغربية والتقدم سارياً حتى الآن.

لقد كانت الأحلام، وزلات القلم واللسان Parapraxis شاهدًا حيًا على عمليات اللاوعى، كما كانت للشروح التى قدمها فرويد لعمليات العقل الحالم: التلخيص(٢) Condensation، والتعويض(٣) Substitution، وترحيل الوعى(٤) Displacement، وقبول كل ما هو لاعقلانى، والمحتوى العيانى Manifest للحلم، (تلك الأحداث التى يستدعيها الذهن بعد الاستيقاظ)، والذى ناقش فرويد معناها الكامن (وعادة ما يكون جنسيًا) وقع بعيد المدى فى تفسير السلوك البشرى بصفة عامة.. وهكذا وجد السرياليون فى الحلم صيغة جديدة للواقع، ذلك الواقع السحرى المتوافق مع الطبيعة الداخلية لهؤلاء الذين اختاروا العزلة بمحض إرادتهم، أو فرضت عليهم فرضًا، لظروفهم النفسية، ولم يجدوا عزاء سوى فى خيالهم، فابدعوا فنا أصبح فيما بعد وعاء للصحة الأخلاقية، ولقد كانت العزلة والزهد ضمانات لكل تلك الأصالة والمصداقية، وهى سمات غابت عن أساليب جماعات فنية عديدة بينما كانت فى نفس الوقت مواصفات قياسية لإبداعات التلقائيين التى أفزعت النقاد بدقتها المهولة، وتضميناتها الحدسية اللاعقلانية.. لقد كانوا يبدعون تحت تأثير لاوعى خارج السيطرة.

كيف تبلورت
حركة الفن التلقائى

إذا ما أردنا تعريفًا شاملاً للفنانين التلقائيين، فقد يمكن القول بأنهم هؤلاء الفنانون الذين لم يتلقوا تدريبًا منهجيا أو أكاديميا على فن التصوير، والذين يعملون بدافع ذاتى من أجل سعادتهم الشخصية، كما أنهم لا يعرفون سوى النزر اليسير من التاريخ الثقافى أو تقاليد وأصول الفنون الجميلة. وسنجد أن البعض منهم يعانى أمراضا نفسية وآخرين مهمشون اجتماعيا، وهناك قلة منهم تلقت تعليمًا جيدًا، مثل الألمانى برونو إيبله Bruno Eble (ولد عام ١٩٣١)، وكان أستاذًا للغة والتاريخ، لذا نستشعر فى لوحته أسلوبًا خاصا.

١ ـ التيوليب الأبيض
٢ ـ الراحة فى الغابة
٣ ـ عطيل

على أن الملاحظ بصفة عامة، أن معظمهم قد مروا من قبل بتجارب مضنية مع الفقر والإحباط والأمية، صهرتهم بوتقتها، واطلقت

وجد السرياليون فى الحلم صيغة جديدة للواقع، ذلك الواقع السحرى المتوافق مع الطبيعة الداخلية لهؤلاء الذين اختاروا العزلة بمحض إرادتهم، أو فرضت عليهم فرضًا، لظروفهم النفسية، ولم يجدوا عزاء سوى فى خيالهم، فأبدعوا فنا أصبح فيما بعد وعاء للصحة الأخلاقية

لوحة رقم (٤)
برونو إيبله ـ الراحة فى الغابة

قوى الإبداع لديهم، وبعضهم تدفعه قوى روحية داخلية قد تكون دينية أو صوفية، ويشترك الجميع فى نظراتهم اللامبالية لعالم الفنون الجميلة التقليدى. وقد أجمع النقاد على أن أعمال التلقائيين تستعصى تمامًا على الحل حيث لا يمكن تطبيق الطريقة العلمية، وهى أساس تاريخ الفن المتفق عليه، عند الحكم عليها. وقد قدم لنا شاعر الألمانية الكبير شيللر صورة الفنان التلقائى البسيط، وكأنه كان يضع معايير للشخصية الفنية للتلقائيين قبل أن تتبلور حركتهم بقرن كامل.. إنه الرجل ذو العاطفة، الرجل البسيط الذى يزاول الأشياء بشكل طبيعى، وهو الجنة المفقودة، والمثل الأعلى لكل من تهفو نفسه إلى عالم البراءة والأحاسيس النقية. إن استخدامنا الحالى للكلمة يشوبه بعض الغموض، فمعناها الإيجابى الجوهرى هو الإحساس بما يشبه الطفولة، مع شعور بعدم الالتزام بعادات وتقاليد.

ولا يمكن الفصل بسهولة بين أعمال الفنانين التلقائيين، وبين أعمال من أطلق عليهم مرضى العقول، فالمتاحف الآن تقتنى أعمال الجدة موسى(٥) Grandma Moses (١٨٦٠-١٩٦١)، وروائع هنرى روسو Henri Rousseau (١٨٤٤ ـ ١٩١٠)، وهما مثالان رائعان للفن التلقائى، الذى أبدعه أشخاص أسوياء، فالأولى كانت أما لأطفال خمسة وتشارك زوجها فى إدارة المزرعة وتحيا حياة عملية عادية، وهو ما ينطبق على الثانى (مع بعض التجاوز عما تناثر حوله من قصص حول اتصاله بعالم الأرواح، وحياة الوحدة التى يحياها)،

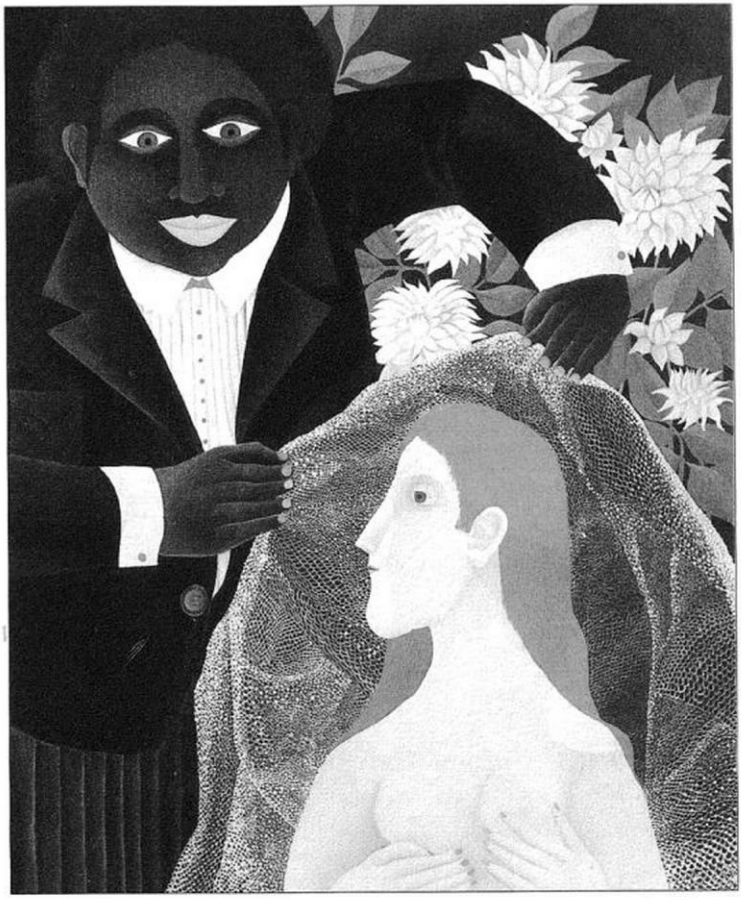

لوحة رقم (٥): برونو إيبله - عطيل

وذلك جنبًا إلى جنب مع أعمال فنانين انشب فيهم الجنون أنيابه وقضوا حياتهم نزلاء مصحات عقلية، بل اغتيل بعضهم على أيدى النازى بدعوى قتل الرحمة، من أمثال الويزة كـوربات Aloisa Corbath (١٨٨٦ - ١٩٦٤)، وفرانتس بول Frantz Pohl (١٨٩٤ - ١٩٤٠)، وأنطونيو ليجابو Antonio Ligabue (١٨٩٩ - ١٩٦٥).

ويرجع الفضل فى لفت أنظار العالم المتحضر إلى فن هؤلاء المظلومين، إلى رجلين كان لهما أكبر الأثر فى بلورة حركة الفن الفطرى التلقائى، وربطهما بتيار الفن الحديث، وترسخ مبادئها: اتجاه فنى له اعتباره، وهما الألمانى برينسهورن، والفرنسى جان ديبوفيه.

فى عام ١٩٢٢، نشر الطبيب النابه هانز برينسهورن Hans Prinzhorn كتابه الرائع الذى فتح الأبواب على مصاريعها نحو البحوث فى مجال الفن التلقائى، وكان بعنوان Bildnerei der Geisteskranken (الإبداع الفنى عند مرضى العقول). وكان برينسهورن قد بدأ حياته بدراسة الفلسفة وتاريخ الفن والغناء أيضًا، وكان ذا صوت باريتون موهوب بالفعل، ثم تحول للاهتمام بالأمراض النفسية عندما أصيبت زوجته باضطراب نفسى فى بداية زواجهما، فتحول إلى دراسة الطب وممارسته، وكما قال: «بحثًا عن مهنة لابد للمرء فيها من أن يفعل الخير مضطرا». وبذا كان من الشخصيات الفريدة فى تاريخ الفن. وقد حدث التحول الكبير فى حياته، والذى مكنه من تقديم أكبر خدمة لتفسير الفن التلقائى، وفن المجانين، عندما كلفه الدكتور ويليامز Williams مدير المصحة النفسية بجامعة هايدلبرج بالإشراف على إنشاء مجموعة أعمال فنية للمرضى النفسيين بغرض الدراسة العلمية. وقد بدأ برينسهورن عمله عام ١٩١٩ وكرس نفسه تمامًا لتلك المهمة واستطاع أن يجمع أربعة آلاف لوحة رسمها أربعمائة مريض من ألمانيا وسويسرا، والنمسا، وإيطاليا مع دراسات نقدية مثيرة. وكان برنستون محاضرًا نابغة أيضًا مما سبب ذيوعًا كبيرًا لكتابه، وكان أهم أهداف الكتاب هو إثبات أن هؤلاء المرضى فنانون من الطراز الأول لم تلوثهم الحياة العادية للمجتمع. ورأى أن فنهم ينبعث من الأعماق وخفايا النفس Psyche واعتبرهم صفوة تمتلك بصيرة نحو الحقيقة المطلقة. ومما لا شك فيه أن برينسهورن كان متأثرًا بالنظريات الميتافيزيقية للمذهب التعبيرى وهى الحركة الفنية الرائدة التى تبلورت فى العشرينيات من القرن الماضى فى ألمانيا، وكانت أهم سماتها الثورة ضد التقاليد التصويرية السائدة وهى ترفع شعارها: الاتجاه لما هو بدائى وروحانى والتقمص العاطفى. وهو لفظ أخذ عن الألمانية (Einfuhlung (عاطفة مشاركة).

وقد شارك برنسهورن التعبيريين احتقارهم لكل ما يسعى إلى تصوير العالم من الخارج فى بساطة مخلة، وهو ما اعتنقه فن الغرب منذ عصر النهضة، ضد حرية التعبير الفردى. وفى عبارة أخرى، ركز برينسهورن على الوظيفة الذهنية للفن. وكان يعتقد اعتقادًا جازمًا بأن الطاقة الفنية للترتيب والتشكيل لدى الفنان، إنما تنبع من تجربة الحياة نفسها وليس من ملاحظة الموجودات المرئية أو المهارة فى النسخ التصويرى. وبدت له التعبيرية كرد فعل للجانب العقلانى للمرضى من المجتمع الحديث، والذى كادت الأجيال السابقة فيه أن تخنق أعظم الفنانين بعقلانيتها البغيضة.

ومن حسن حظ تاريخ الفن (وبدا ذلك كمعجزة) أن تلك المجموعة من الأعمال الفنية قد نجت من الإبادة. فعندما صعد النازى للسلطة فى عام ١٩٣٣، بدءوا فى القضاء على كل من يعانون من أمراض عقلية وتم إعدام من قاموا برسم تلك المجموعة، بعد تجميعهم فى هايدلبرج (رحمة بهم كما ادعى هؤلاء الذين اعتقدوا فى فلسفة السوبرمان..!!)، وفى يوليو ١٩٣٧ أمر هتلر بإقامة معرض فى ميونيخ للفن المنحط (كما أسماه) وعرض فيه أعمالاً للفنانين البارزين فى القرن العشرين، بمن فيهم بيكاسو، ونولده، وكوكوشكا، وطاف المعرض بالمدن الألمانية، وهو يضم أيضًا مجموعة برينسهورن جنبًا إلى جنب مع أعمال الجهابذة، ومن المعروف أن هتلر ونظامه قد طاردا كل من أصر من الفنانين الطليعيين فى فترة ما بين الحربين العالميتين، على مواصلة رسالته!!

من حسن الحظ أن كتاب برينسهورن كان قد تداولته أيدى المثقفين ورواد الفنون فى أوروبا قبل أن يستولى هتلر على السلطة، فكانت هناك نسخة لدى باول كلى استخدمها فى التدريس فى معهد الباوهاوس Bauhaus فى العشرينيات، حيث كان يستشهد بالمجموعة وما تحمله من عمق تعبيرى (للدرجة التى لا

يستطيع هو نفسه أن يصل إليها، على حد قوله)، وشارك فاسيلي كاندينسكي كلي إعجابه بتلك اللوحات وخاصة ملاك الإبادة لفرانتس بول (١٨٦٤ - ١٩٤٠)، ذلك التعس الذي أعدمه النازي دون ذنب جناه سوى أنه كان مريضًا، بينما يشبه النقاد أعماله بروائع دورر وجرونفالد.

اسمه بالكامل جان فيليب آرثر دي بوفيه Jean Philippe Arther Du Buffet، ولد في ميناء الهافر لأسرة ثرية حيث كان والده يملك تجارة للنبيذ، وفي البداية مارس دي بوفيه التصوير كفنان واعد موهوب، إلا أنه وجد الطريق أمامه مسدودًا بأعمال جهابذة الفن الحديث: بيكاسو، براك وماتيس، وقد أصابه الإحباط بالفعل، حيث أحس بعقم محاولات مواجهة هؤلاء العمالقة وهجر التصوير مرتين قبل أن يكتشف توجهه الذاتي ويعثر على ضالته أخيرًا، ويتخطى فن العظام من المشاهير، ليكشف في أعمال المرضى النفسيين الصيغة الفنية التي مكنته من تحقيق أهدافه.

ويختلف دي بوفيه عن برينسهورن الذي كان منهجه علميا تحليليا، أما كيف تعرف دي بوفيه على فنون هؤلاء المرضى، فيرجع الفضل في ذلك لكتاب برينسهورن الذي ذكرناه آنفًا، ورغم أنه لم يترجم إلى الفرنسية إلا في عام ١٩٨٤، إلا أن دوائر السيرياليين الفرنسيين كانت قد بدأت في تداوله بعد صدوره، بقليل، فكان أندريه بريتون - وهو شاعر كبير من رواد السيريالية - يعلق أهمية كبيرة على الجنون، وذكر أول مانيفستو للحركة السيريالية «مسألة الجنون الذي نضع عليه القيود، عندما يرفض الانحناء للتقاليد الاجتماعية، وأبدى إعجابه بهلوسة وأوهام المجانين. فهم يستقون إلهامهم من المنابع الحقيقية للخيال، وكان أقطاب السيريالية يجتمعون في الأستوديو الخاص بالشاعر والأديب أندريه ماسون Andre Mason، والذي كان قد اقتنى نسخة من الكتاب، فكان هناك خوان ميرو Joan Miro، وجورج ليمبور George Limbour، الذي اصطحب معه صديقه جان دي بوفيه، وهو يجد في البحث عن هويته كفنان، وكانت المرة الأولى التي اطلع فيها على فن هؤلاء المبدعين التلقائيين.

وقرر دي بوفيه أن يجمع أعمال أمثال هؤلاء الفنانين المجهولين، ولم يقتصر على أعمالهم، بل ضم إليها أعمال فنانين ممن لم يتلقوا تعليمًا فنيا، والذين لم تسمع عنهم المتاحف، وأطلق عليهم اسم الاممتنمين The Outsiders، ما داموا لم تمنعهم غرابة أطوارهم من ممارسة حياتهم العادية. وقد صك دي بوفيه مصطلح الفن الفج أو الخشن Art Brut (أو الفن الخام Raw Art) مشيرًا به إلى كل إنتاج فني سواء رسومات وتصويرا، أو تطريزا، أو الأشكال المنمذجة والمنحوتة، والتي تتميز بتلقائية وابتكارية واضحة، ولا تحمل سوى النزر اليسير من سمات الفن التقليدي، والكليشيهات الثقافية المعتادة، يبدعها أناس عاديون وقد يكونون مجهولين، ومن خارج الدوائر الفنية للمحترفين، وبسبيل ذلك أسس دي بوفيه ما عرف باسم مقر الفن الخشن Foyer de L'Art Brut (وهو نفس التصنيف الذي أطلقه النقاد على أعمال دي بوفيه نفسه)، والذي نجح في خلال خمسة وعشرين عامًا، أن يكوّن مجموعة فريدة ضمن ثلاثة آلاف عمل فني أبدعها فنانون تلقائيون تنوعت مهنهم ما بين خباز وإسكافي وساعي بريد، وعمال مناجم، وآخرين من اللامنتمين، ومنهم من حقق شهرة عالمية، ووضعت أعماله جنبًا إلى جنب مع رواد الفن الحديث من الأكاديميين.

بين الفن التلقائي والفن الشعبي

الملاحظ أن هناك الكثير من الخلط بين الفن الشعبي والفن التلقائي، إلا أن هناك فروقًا جوهرية بينهما لا بد لمتذوق الفن أن يكون متنبهًا لها، فالفن الشعبي لا يدرك الوظيفة الجمالية الذاتية للعمل الفني، فهو فن يكمن في جوهره أنه فن تطبيقي، لا تظهر وظائفه إلا من خلال عالم ما هو نفعي، ومن ثم فإن قيمته ليست في تفرده، بل بالأحرى في إخلاصه وأمانته في نقل نماذج سابقة (الموروث الشعبي)، وهو لا يعرف أي تنويع في التعبير الذاتي، وقد تميز الفن الشعبي بخاصية تفرد بها، وهي أنه لم يكن هناك على الإطلاق تلك المسافة التي تفصل أذواق الجماهير العريضة عن الأعمال الفنية، فهناك تطابق تام بين المنتجين والمستهلكين للفن الشعبي، والفن الشعبي نفسه يحمل خاتم العقلية العامة، فهو لا يبتعد أبدًا عن الإطار العام للتقاليد والعادات المحلية، كما لا يتخذ موقفًا متعارضًا في مواجهة الإدراك الحسي الاجتماعي البسيط، وبذا يكون على طرفي نقيض مع الفن التلقائي - هبة التفرد - بما يمتلكه من تجربة فردية بالدرجة الأولى، تدير ظهرها تمامًا لكل الموروثات والتقاليد الفنية. إذن فمن الممكن القول إن الفن الشعبي ما هو إلا نتاج تجارب تراكمية يلعب فيها الموروث والأعراف والتقاليد الدور الأساسي، بحيث لا تخطئ العين الموروث الشعبي للفنان وعشيرته، أما الفن التلقائي فالتجربة الشخصية فيه هي الفيصل، بما تشكله من صدمة غير متوقعة للمتلقي، إذا ما أدرك أن اللاشعور ليس مخزنًا مهملاً، بل هو مكان شديد الحيوية يشبه حديقة الحيوان، على حد قول عالم التحليل النفسي إيريك برن Eric Berne. أما نقطة التلاقي الوحيدة بين الإثنين فهي أن الفنانين الشعبيين نادرًا ما يشكون نماذج واقعية لما هو موجود في الطبيعة المرئية، فهم يقومون بكل بساطة بالمبالغة والتبسيط وتعديل التكوينات لما هو موجود أمامهم من موضوعات، وهم بذلك لا يعملون إلا تحت تأثير توتراتهم العاطفية، وبذا يربطون بين تجاربهم المحلية والعالم الخارجي، وعند التلقائي، لا يتم التواصل بينه وبين العالم الخارجي إلا من خلال تجربته الذاتية.

وما من شك أن الإبداع الفني يتأثر على نحو مباشر بالتحولات الاجتماعية، وما يطرأ على البيئة المحيطة بالفنان من تغيير، فالفن لا يمكنه أن ينطور بمنطقه الداخلي الخاص دون تدخل من مؤثرات شتى تنتمي إلى مجالات خارجة عنه، فهناك دائمًا رابطة قوية بين الفن وما يسمى بالعامل الاجتماعي، والذي هو في الواقع مجموعة عوامل اقتصادية وسياسية وثقافية وتاريخية في آن واحد، بل إن العامل العرقي (الإثنوجرافي Ethnographic) ليشكل هو الآخر إطارا عامًا لشخصية الفنان المبدع، ومهما كانت الظاهرة الفنية، فلا بد من إلقاء الضوء عليها في نطاق الحياة الاجتماعية، والحضارة الإنسانية عمومًا. ولا يمكن أن تكفي شخصية الفنان، والظروف الفردية التي مر بها داخل بيئته التي ترعرع فيها، لكي يتم وضع تصور ومفهوم واضح عنه، علمًا بأن دوافع الفن التلقائي ما زال يشوبها بعض الغموض، خاصة أنها دوافع فردية لكل فنان تلقائي على حدة، وبصفة عامة، نجد أنه كلما تعقدت المجتمعات، وتقدمت مظاهر الحضارة، قل الارتباط بين الفن والظروف البيئية المحيطة به، وبعبارة أخرى، كلما ارتفع مستوى الثقافة التي ندرس فنها، تعقدت شبكة العلاقات البيئية، وزاد غموض الأصل الاجتماعي للظاهرة الفنية، إلا أنه لحسن الحظ، فإن التفسيرات الاجتماعية للظاهرة الفنية تكون أكثر سهولة كلما كان العصر الذي حدثت فيه تلك الظاهرة أقرب إلينا، حيث تتجمع المعلومات بوفرة، وإذا ما كانت ظاهرة الفن التلقائي قد تبلورت في أوروبا أولاً، فإن ذلك يرجع إلى وجود تراكم ثقافي، وتاريخ للفن مدون على نحو أكاديمي، مع رصد للظواهر الفنية والاجتماعية أولاً بأول، إلا أنه ما من شك أنها كانت موجودة داخل مجتمعات عديدة عبر القارات الخمس، غير أنها كانت تحتاج دومًا لمن ينقب عن هؤلاء الموهوبين المهمشين، وهناك بوادر لذلك في مصر من خلال الدراسات الأكاديمية في كليات الفنون.

ومع تصاعد الاهتمام بالفن التلقائي، والتزايد المستمر في أعداد الفنانين الذين قد يمكن إدراجهم في قوائم التلقائيين، تتردد أسئلة ملحة في أوساط النقاد والمؤرخين عما إذا كان هذا الفن يحقق تقدمًا بالفعل، وعما إذا كان مثل هؤلاء الفنانين يقفون بمعزل عن حركة تاريخ الفن وأساليبه، وهل ما يحققه الفن التلقائي من شعبية متزايدة علامة على استمراريته، أم هو مجرد ظاهرة وتنويع على فنون التصوير البدائية..؟ وهل يمتلك الفن التلقائي من الديناميكية ما يؤهله لتجديد نفسه بوسائله مستقلاً، أم هل سيتوقف عن أن يكون هو نفسه بمجرد ما يخرج جوهره الفريد بوسائل زائفة ومصطنعة؟

والملاحظ أن الفن التلقائي يكتسب كل يوم أرضًا جديدة، وهو يصادف شغفًا ملحوظًا بين المهتمين بالفن، فمع الإنجاز الهائل في المنجزات التقنية المعلوماتي المتزايد، والتسارع

لوحة رقم (٧)
لويزة كوريك - مرآة الكريسماس

لوحة رقم (٦)
لويزة كوريك
صور فوتوغرافية

لوحة رقم (٨)
انطونيو ليجابو - صورة مع كلب

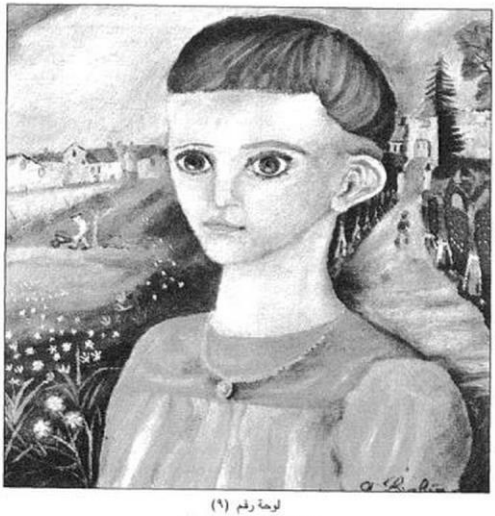

لوحة رقم (٩)
انطونيو ليجابو - صورة ألبا

لوحة رقم (١٠)
د. هانز برنسهورن

المعقدة لعصرنا الراهن، ترتفع أصوات الشكوى من أن الحياة لم تعد تتيح لنا لحظات يمكننا أن نخلو فيها إلى أنفسنا، وتسمح لنا بالاسترخاء بعد يوم طويل من العمل الشاق، والذى أنبسته الرتابة ثوبًا رماديا من الكآبة والملل، الأمر الذى أصبح الإنسان يشعر معه أنه يفقد جزءًا حيويا من آدميته وبساطته وتلقائيته.

خاتمة

إن الكشف عن تلك المواهب يبدو وكأنه كشف عن حفريات نفيسة وروائع لا تظهر إلا عندما يهز الزلزال القشرة الأرضية ويقذف بها إلى السطح، فى أرض أناس لم يكونوا يدرون عنها شيئًا على حد قول الدكتور بنيامين روش Benjamin Rush: أول من قام بجمع الأعمال التى أبدعها الفنانون التلقائيون فى أمريكا، والآن يقتنع كثير من محبى الفنون الجميلة، ونقاد الفن بأنه لا يمكن التغاضى عن مكانة التلقائيين ضمن مسيرة الفن فى القرن العشرين، وإن كان عالم النفس الفرنسى توليبه Thuillier قد رفض التسليم بالقيمة الفنية لهم مدعيًا أنهم لا يجيدون المنظور أو مزج الألوان، ولا يملكون المهارات الأساسية، وقارنهم بالمصورين البدائيين فى كهوف ما قبل التاريخ، فإنه قد مدحهم بالفعل دون أن يدرى، أما ديبوفيه أكبر نصير لحركة الفن التلقائى فقد قال: «.. إذا ما صنفنا الإبداع الفنى فى التصوير فلا بد أن ندرك أنه لا يوجد ما يقال له فن المجانين أو فن المصابين بعسر الهضم، أو المصابين بالرومانيزم، فالأليات النفسية Psychological Mechanisms التى يحتويها الفن فى جميع صوره تدفعنا إلى تصنيف كل الفنانين على أنهم أصحاب حالات مرضية نفسية ممن يقال لهم سيكوباتيين، أو توسيع مفهومنا عما هو صحى وطبيعى بحيث يضم بين جنبيه كل صور الاضطراب النفسى والجنون والاغتراب».

لوحة رقم (١١)
فرانتس بول - صورة شخصية

لوحة رقم (١٢)
فرانتس بول - ملك الإبادة

والخلاصة أن الفن التلقائى مقصور فى مظهره الإبداعى على أفراد معينين، يملكون مواهب أو مهارات معينة، وهى ليست قدرات فكرية أو أسلوبية فى معظمها، وإنما قدرات تعبيرية تجسيدية تحيل الأشياء المجردة إلى أجسام، وقد تحيل تلك الأجسام إلى مجردات ورموز على نحو شديد الخصوصية، وهم يعبرون عن همومهم وأحلامهم ووساوسهم ورؤاهم. وبهذه القدرات استطاع الفنانون التلقائيون أن يخاطبوا المشاعر والأحاسيس، من خلال صدقهم أولاً، ثم بغرابة تجاربهم الذاتية ثانيًا، وثالثًا بعدم تأثرهم بأى قواعد أو تقاليد فنية، كما لو كان عقلهم اللاواعى يعمل طوال الوقت، ولا عجب أن أطلق بعض النقاد على هؤلاء الفنانين اسم اللامنتمين The Outsiders.

وما زالت المعركة لم تحسم بعد لإقامة علاقات سوية بين التراث التلقائى العام والفن التلقائى. ■

هوامش

(١) أوجست نيتر August Neter (١٨٨٦-١٩٣٢) ولد فى رافنسبورج Ravensburg بولاية بادن فورتنبرج، وكان فنيا ميكانيكا ماهرًا، عمل فى فرنسا وسويسرا والولايات المتحدة قبل أن يعود لألمانيا ويدير منشأة خاصة به. فى عام ١٩٠٧ فقد شهيته تمامًا للعمل وحاول الانتحار وتم تشخيص حالته كفصام حاد مصحوب بهذيان، وفى المصحة التى ادعى فيها مرة أنه حفيد نابليون الأول واتخذ لقب أوجست الرابع، ومرة أخرى أنه المسيح، بدأ فى إنتاج أعماله التى جلبت له شهرة عالمية ومنها: الراعى العجيب Miraculous (رسم بالقلم الرصاص ١٩,٥×٢٤,٥سم)، ومحور العالم والأرنب البرى Axid of the world and Hare (رسم بالقلم الرصاص والألوان المائية ٢٠٥×٢٦١سم) وتحولات التنورة Metamorphoses of the Skirt (رسم بالقلم الرصاص ١٦×١٠سم)، وكلها من مجموعة برينسهورن Prinzhorn. جامعة هايدليرج، وتوفى نيتر فى مصحة روتنايل Rottweil، وبذا كان سعيد الحظ بنجاته من المذبحة التى أعدها النازى لأمثاله بدعوى قتل الرحمة Euthanasia.

(٢) انصهار فكرتين أو أكثر.. إلخ فى رمز واحد، وبحث ذلك بصفة خاصة فى الأحلام.

(٣) إحلال منتظم لتعبير ما بآخر.

(٤) نقل المشاعر العاطفية من موضوعها الأصلى إلى موضوع آخر يخفى طبيعتها الواقعية.

(٥) أنا مارى روبرتسون موسى Anna Mary Robertson Moses (1860-1961) فنانة تلقائية أمريكية اشتهرت باسم الجدة موسى حققت شهرة مدوية استمرت خمسين عامًا، وتحولت إلى شخصية قومية (احتفلت البلاد بعيد ميلادها المئوى). أعادت إحياء أجواء القرن التاسع عشر ونفخت فيها روحًا جديدة بأسلوبها الخاص، من أشهر أعمالها: عشية عيد القديسين Halloween (١٩٥٥)، والأزمنة القديمة Old Times (١٩٥٧)، وخياطة اللحاف The Quilting (١٩٨٠).

المراجع

(1) Outsider Art -n Jean Louis Terrail - 1997
(2) Self Taught Artists of The 20Th Century-Chronicle Books - San Francisco 1998.
(3) Art Unsolved - Irish Museum of Modern Art - Dublen - 1998.
(4) Der NaiveMaler Bruno Edle - Rudiger Zuck - Verlag Stadler 1977

ماك

ISO 9001 SGS QUALITY ASSURED FIRM

ماك على الإنترنت www.maccarpet.com

سجاد ماك.. لكل الأغراض... لكل الأجيال

مودرن
شرقى
سجاد أطفال
قطع موكيت
دواسات حمام
مشايات
مطبوع

مراكز بيع بواقى التصدير والرواكد

مصر الجديدة: ١٢ ش محمد المهدى . نبيل الوقاد أرض الجولف ت: ٤١٤٧١١٣

مدينة نصر: أرض المعارض بوابة (٩) شارع الفنجرى ت: ٤٠١٦٦٢٠

الزيتون: ١٣ ش عين شمس . ميدان حلمية الزيتون ت: ٢٤١١٣٤٧

عين شمس: ش أحمد عرابى من أحمد عصمت أمام مزرعة الزهراء للخيول ت: ٢٩٦٦٥١٤

الشرابية: ١٠ شارع الألبانى ت: ٢٢٤٤٢٤٦

المرج : ش ترعة السلطوحية عمارة سعيد شاهين

الحرفيين: ميدان الحرفيين عمارة الربيع ت: ٢٨١٧٨٨٠

شبرا: ٦٤ ش روض الفرج . دوران شبرا ت: ٤٣٢٦٩١٠

ناميا: ٦٢ ش ناميا بولاق الدكرور

الزاوية الحمراء: ٦ شارع منشية الجمل صارة المعندا أمام مصنع الماف

العمرانية: ٢ ش عبدالرحمن مطر ت: ٥٦٠٠٨٦٢

إمبابة: ٦٣ ش الوحدة ت: ٢١٠٧٧٢٦

الهرم: ٤٥٦ أول ش الملك فيصل ت: ٥٧٢١١١٨

مصر القديمة: ٥ ش أثر النبى ت: ٥٣١٠٩٨٧

المعادى: ٢ طريق مصر حلوان الزراعى محطة المطبعة ت: ٥٢٤٦٩٦٥

حدائق القبة: ١٤٥ ش مصر والسودان . محطة الجراج ت: ٠١٠/٩٤٥٥١٠٧

القلعة : ١ ش سوق السلاح ت: ٠١٢/٣٤٣١٠١٥

القناطر الخيرية : ٣٥ ش البقلى متفرع من ش ١٤

شبين القناطر: ٩ ش الدلتا

دكرنس: ش مجلس المدينة عمارة م التميمى

العاشر من رمضان : دوار العاشر . طريق الإسماعيلية

الفيوم: ش ٣٦ بوابة عدلى يكن سابقا ت: ٠٨٤/٣٤٤٢٢٢

دمنهور: ١٢ ش الشيخ عبدالكريم ت: ٠١٢/٣٤٣١٦٠٦

بيت بمبر: ١ ش بورسعيد

سوهاج: ٢١ ش النهضة بجوار عمر أفندى ت: ٠٩٣/٣٢٣٨٩٠

طوان: ٢٧ ش أحمد بدوى من رابل ت: ٥٥٥٩٨٨٧

المنزلة: شارع عبدالمنعم رياض عمارة الدكتور الخربيى

فيصل التعاون: ٢٥٧ شارع الملك فيصل . محطة التعاون . الهرم ت: ٣٨٣٢٠٢٦

بلقاس: ش طريق الحرية . خلف المحكمة

العاشر من رمضان : الحى الأول ت: ٣٦١٢٢٢٤

العاشر من رمضان : المجاورة ٩ ت: ٣٦٦٧٧٨

مكرم عبيد: ٣٥ ش أبو دواد الظاهرى . مكرم عبيد ت: ٨٣٧٦٣٢١

الأقصر: ش مدرسة الصنايع . السوق التجارى ت: ٣٧٢٠٨٣

الصحفيين: ٢ شارع النيل الأبيض . أحمد عرابى

العباسية: ١٥ ش العباسية . ميدان الجيش

بهتيم: ٣٢٩ ش ١٥ مايو أمام حى شبرا الخيمة ت: ٢٢٠٨٥٥٥

بنها: ش الكوبرى ت: ٢٢٣٩٧٠٠

السويس: ٦٦ شارع الجيش ت: ٣٢٨٧٨٠

المحلة الكبرى: ش شكرى القوللى من ش الجيش

طنطا: ٨٧ ش سعد الدين من ش انتعاس ت: ٤٠٨٢٧٤

المنصورة: ش الجمهورية أمام كلية العلوم ت: ٢٧٦٦١٧٤

كفر الشيخ: أ ش الشهيد محمد المرداش الشباتى ت: ٢٢٣٠٨٥

الإسكندرية: ٥٠ ش مصطفى كامل أمام كلية التربية الرياضية . ت: ٥٨٠٤٧٩٧

ظلمنج

رمادا : برج رمادا بالإسكندرية ت: ٥١٨٢٩٣٩

صفط اللبن : سنتر الساوى . شارع التحرير

بنى سويف: ٦٠٥ ش أرض المحلج ت: ٣١٥٤١٦

قنا: ش كبرى دشرة عمارة أحمد عامر ت: ٢٢٢٦٤٨

قنا الجديدة: ش جودى متفرع من ش الأقصر سوق ليبيا أمام البوستة الجديدة

الزقازيق: ش المديرية عمارة العقدين الكبيرة المنتزة ت: ٢٢٣٣٣٩

أسوان: هيميمى الجبلاوى متفرع من شارع قاضى الجداوى الإسماعيلية: ٧٦ شارع السكة الحديد ت: ٢٢٥٧٦٥

شبين الكوم: ٢ شارع صلاح الدين أبو الخير من شارع الجلاء البحرى

أسيوط: ١٣ ش المدينة المنورة الزهراء

دمياط: ش جنينة سرور أمام الفرن الآلى ت: ٢٣٨٠١٣

كفر الدوار: ٩ ش أحمد عرابى ت: ٠١٢/٣٤٣٦٠٧

أبو حماد: ٣٠ ش التحرير برج العزازى

السنبلاوين: ٦ الجيش المصرى ت: ٠٥٠/٦٩٨٥٧٧

كوم حمادة: ش ممتشفى الهواسة خلف مجلس المدينة

المنيا: ٢١ ش الجمهورية ت: ٠٨٦/٣٥٣٦٦٦

كفر الزيات: ش الجيش أمام نادى المعلمين

العريش: ش ٢٣ يولية أمام بنك القاهرة ت: ٠١٨/٣٢٢١٠٩

هاقوس: ش المناخة عمارة المنوم . خلف المحكمة

دسوق: ش الجيش . أمام عمر أفندى

بورسعيد: ش الأمين وشارع ١٠٠ (بانا) سابقاً ت: ٢٢٧٦٩٣

منوف: ٨ ش ترعة الحشاشة . طريق التأمين الصحى ت: ٦٦٠٠٧٣

بنى سويف الجديد: ٣١ شارع أحمد عرابى ت: ٠١٢/٣٨٣٧٢٨

دار السلام : شارع الفيوم أمام مجمع المدارس

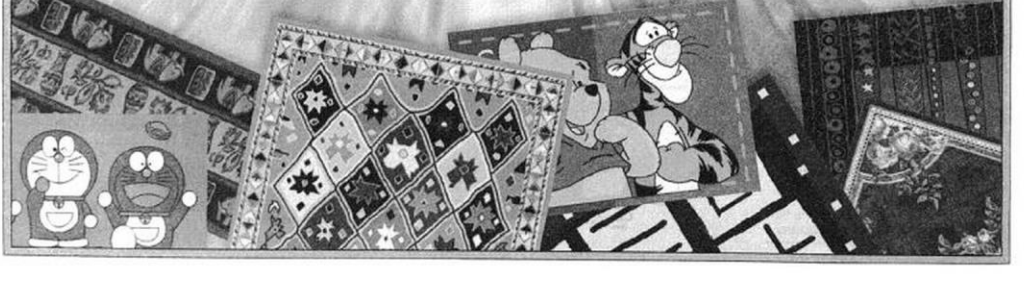

آثـــــار حمـــــايـة البيئـــــة

يرى بعض الخبراء أن الخسائر التى قد تترتب على ارتفاع حرارة الغلاف الجوى تتضاءل إلى جانب الخسائر الاقتصادية التى تلحق بالاقتصاد العالمى نتيجة لفرض المزيد من ضرائب الطاقة . فالاحتباس الحرارى من شأنه إبطاء معدلات النمو الاقتصادى وهو ما يسبب خسائر لا تتجاوز ٢٠٪ من الناتج المحلى الإجمالى GDP على مستوى العالم على مدى مائة عام

BIBLIOTHECA ALEXANDRINA
مكتبة الاسكندرية

■ ■ ينطلق إلى الغلاف الجوى بمعدلات كبيرة غاز ثانى أكسيد الكربون Carbon Dioxide (CO2) كنتيجة لعوامل طبيعية . ولكن المبتعث من ذلك الغاز يفعل الطبيعة تمتصه عوامل طبيعية كالأشجار والنباتات، وبذلك يتحقق التوازن فى المدى الطويل. غير أن النشاط البشرى يطلق أيضا كميات متزايدة من ذلك الغاز مما يؤدى إلى زيادة تركزه فى الغلاف الجوى محدثا ما يعرف بظاهرة البيت الزجاجى أو الاحتباس الحرارى Greenhouse Effect وهو ما يؤدى بدوره إلى ارتفاع درجة حرارة الغلاف الجوى المحيط بالكرة الأرضية Global warming. ومن هنا اتجه أنصار حماية البيئة إلى الربط بين ما ينبعث نتيجة للنشاط البشرى وبين هذه الظواهر التى تهدد نوعية الحياة على كوكب الأرض . وتأييدا لتلك النظرية يقول حماة البيئة إن درجة تركز CO2 قد ارتفعت على مدى الأعوام المائة الماضية من نحو ٢٩٠ إلى ٣٥٠ جزءًا فى المليون بمعدل نمو يتراوح بين ٢٠٪ و٢٥٪ خلال الفترة المذكورة . وتشير الدراسات التى قدمت لمؤتمر الأمم المتحدة للبيئة والتنمية UN Conference on Environment and Development، الذى عقد فى ريو دى جانيرو بالبرازيل عام ١٩٩٢ ويعرف باسم قمة الأرض Earth Summit، إلى أن متوسط درجة حرارة الغلاف الجوى قد ارتفع خلال الأعوام المائة الماضية بما يتراوح بين ٠,٣ و٠,٦ درجة مئوية . وكان المبتعث من الكربون نتيجة للنشاط الصناعى وغيره من الأنشطة البشرية لا يتجاوز ١,٦ مليار طن عام ١٩٥٠ إلا أن نمو استهلاك الوقود الحفرى (وهو أساسا الفحم والبترول والغاز الطبيعى) صاحبه نمو تلك المبتعثات بحيث بلغت فى عام ١٩٩٠ نحو ستة ملايين طن كربون . وإذ يتأكسد الكربون بحيث يتحول طن الكربون إلى ما يعادل نحو ٣,٦٧ طن ثانى أكسيد الكربون CO2 فإن مبتعثات ذلك الغاز تقدر بنحو ٢١ مليار طن فى عام ١٩٩٠ وبنحو ٢٣ مليارًا عام ١٩٩٦ . وإذا بقيت الأمور على ما هى عليه ، فإن المتوقع أن تبلغ مبتعثات ثانى أكسيد الكربون نحو ٣٠ مليار طن عام ٢٠١٠ ونحو ٣٧ مليارًا عام ٢٠٢٠ . ويرى بعض أنصار حماية البيئة أن ذلك التطور من شأنه أن يرفع حرارة الغلاف الجوى بحلول عام ٢٠٥٠ بحيث تؤدى إلى إذابة الغطاء الجليدى فى القطبين الشمالى والجنوبى فيرتفع مستوى المياه فى البحار والمحيطات لكى يغرق الأراضى الواطئة فى الكرة الأرضية.

ويرد بعض الخبراء على هذه النظرية بأن

Kyoto Protocol

بروتوكول كيوتو

UN Conference of the Parties (COP).
Kyoto December 1997

على عوائد النفط العربي

حسين عبدالله

الخسائر التي قد تترتب على ارتفاع حرارة الغلاف الجوي تتضاءل إلى جانب الخسائر الاقتصادية التي تلحق بالاقتصاد العالمي نتيجة لفرض المزيد من ضرائب الطاقة. فالاحتباس الحراري من شأنه إبطاء معدلات النمو الاقتصادي وهو ما يسبب خسائر لا تتجاوز ٢٠٪ من الناتج المحلي الإجمالي GDP على مستوى العالم على مدى مائة عام. أما آثار الضرائب الإضافية فمن شأنها تقليص استخدام الطاقة وهو ما ينعكس على الاقتصاد العالمي بآثار انكماشية تفوق ذلك كثيرا، وبصفة خاصة في الدول النامية التي تحاول جاهدة اللحاق بركب الدول المتقدمة. وبخلاص من يعارضون ضرائب الكربون إلى أن العالم ما زال في حاجة لإجراء المزيد من الأبحاث العلمية بغية التوصل لتعريف حقيقي المشكلة. ومتى تحقق ذلك يمكن تحديد العلاج الناجع بدلا من التسرع بتنفيذ سياسات وقرارات متعجلة لا يمكن تلافي آثارها الضارة متى تم تنفيذها.

ويتركز الاهتمام العالمي بالبيئة، بصفة أساسية، فيما تم إنجازه بإشراف الفريق الحكومي الدولي للتغير المناخي UN Intergovernmental Panel on Climate Chang (IPCC) الذي تأسس في إطار الأمم المتحدة عام ١٩٨٨ وعهد إليه بمهمة تقويم المعلومات المتعلقة بالتغير المناخي من الزوايا العلمية والفنية والاقتصادية والاجتماعية. ومن تلك الإنجازات وضع الاتفاقية الإطارية للتغير المناخي Framework Convention of Climate Change (FCCC) التي اعتمدتها الأمم المتحدة يوم ٩ مايو ١٩٩٢ وعرضت لتوقيع ممثلي الدول أثناء انعقاد مؤتمر الأمم المتحدة للبيئة والتنمية الذي انعقد في ريو دي جانيرو بالبرازيل يوم ٤ يونيو ١٩٩٢. وقد تعهد الموقعون على الاتفاقية بوضع برامج لمعالجة التغير المناخي وتبني سياسات محلية في كل دولة عضو لتخفيض GHG عند مستوى عام ١٩٩٠.

وتنفيذا لتلك التعهدات عقدت بعد ذلك عدة مؤتمرات عرفت بمسمى مؤتمر الأعضاء Conference of the Parties (COP). وقد انتهى المؤتمر الثالث في كيوتو باليابان باعتماد بروتوكول كيوتو Kyoto Protocol الذي وضع أهدافا محددة كميا لمبتعثات الكربون في الدول المتقدمة ودعا لاتخاذ التدابير الكفيلة بتحقيقها خلال الفترة ٢٠٠٨ - ٢٠١٢. وإذ يمكن اعتبار عام ٢٠١٠ كمتوسط لتلك الفترة، فإننا سوف نستخدم العام المذكور - افتراضا - باعتباره نهاية الإطار الزمني المحدد لتحقيق أهداف البروتوكول.

ويقضي بروتوكول كيوتو - متى أصبح نافذا - بإلزام الدول الصناعية خفض مبتعثات الاحتباس الحراري بما يتراوح بين ٥,٢٪ و ١٪ تحت مستوى ١٩٩٠ بحلول الفترة ٢٠٠٨ - ٢٠١٢. وبذلك يتوقع أن تتأثر أنماط استهلاك الطاقة خلال المستقبل المنظور تأثرا جوهريا بما يتخذ على المستوى العالمي من تدابير لحماية البيئة. ذلك لأن حجم مبتعثات الكربون المرتبطة باستهلاك الطاقة يعتمد من ناحية على حجم النشاط الاقتصادي معبرا عنه بالناتج المحلي الإجمالي GDP، كما يعتمد من ناحية أخرى على طبيعة خليط الطاقة المستخدمة. وتقاس العلاقة الأولى بحجم ما يستهلك من الطاقة لإنتاج وحدة من الناتج المحلي الإجمالي ويطلق على هذا المقياس «كثافة الطاقة» Energy intensity. كما يستدل على طبيعة خليط الطاقة المستهلكة، والذي يضم وقودا حفريا إلى جانب وقود غير حفري، بما يعرف بكثافة الكربون Carbon intensity.

ومن مؤدى ذلك الارتباط المزدوج أن محاولة تثبيت حجم مبتعثات الغازات الملوثة أو خفضها على المستوى العالمي لابد أن يتحقق إما بخفض كثافة الطاقة، أي تحسين كفاءتها، أو بخفض كثافة الكربون، أي إحلال وقود غير حفري محل وقود حفري، أو بكليهما معا. وهذا ما يحتاج لبعض التعريف:

فكثافة الطاقة تقاس بحجم ما يلزم استهلاكه من الطاقة، معبرا عنه بوحدات مثل طن أو برميل بترول معادل، لإنتاج وحدة من الناتج المحلي الإجمالي معبرا عنه بوحدات نقدية كالدولار. وينأثر هذا المقياس بمستوى كفاءة الأجهزة الرأسمالية الموجودة، مثل محطات توليد الكهرباء، والأجهزة المعمرة التي يستخدمها المستهلك النهائي في استهلاك الطاقة، ووسائل النقل والمواصلات ..إلخ. وتتأثر كفاءة الأجهزة والمعدات المستخدمة للطاقة بدورها بالأسعار النسبية للطاقة وغيرها من مدخلات الإنتاج مثل رأس المال والعمل. وكلما كانت كلفة الطاقة أعلى من كلفة غيرها من عوامل الإنتاج ازداد الحافز للاستثمار في تنمية تكنولوجيات كفاءة الطاقة وفي دعم أنشطة البحث والتطوير R&D الموجهة لتحسين تلك الكفاءة. وبالمثل، إذا كانت الطاقة تمثل جانبا مهما من ميزانية المنتج ازداد الاهتمام بكفاءة الطاقة وحجم استهلاكها وارتفع بذلك الحافز لترشيدها. وبعكس ذلك يكون الحال، كلما انخفضت أسعار الطاقة أو تضاءلت كلفتها، واستمر ذلك لفترة طويلة.

ففي تلك الحالة ينقلص الحافز للإنفاق على ترشيدها ورفع كفاءتها.

وقد انخفضت كثافة الطاقة بصورة مطردة في معظم الدول الصناعية كنتيجة لارتفاع أسعار البترول وما اقترن بها من شح الإمدادات خلال عقد السبعينيات. ومن ذلك ما حدث في الولايات المتحدة إذ انخفضت كثافة الطاقة فيها، وخاصة بعد تصحيح أسعار البترول في أعقاب حرب أكتوبر، بمعدل ٢,٢٪ سنويا في المتوسط خلال الفترة ١٩٧٠ - ١٩٨٦، وذلك نتيجة لتحول الاقتصاد إلى الأنشطة الأقل كثافة في استخدام الطاقة ونتيجة أيضا للتقدم التكنولوجي خلال تلك الفترة. أما خلال الفترة ١٩٨٦ - ١٩٩٨، وهي الفترة التي تأكدت خلالها أسعار البترول، وبعد أن أنجزت برامج ترشيد الطاقة أهم أهدافها في تجميع الهدر في استخدام الطاقة، فقد تضاءل معدل انخفاض كثافة الطاقة إلى نحو ١٪ سنويا في المتوسط.

أما كثافة الكربون فتقاس بكمية الكربون الذي يتخلف عن إنتاج وحدة من الطاقة، ومن ثم فإن تلك الكثافة تختلف باختلاف المحتوى الكربوني لكل مصدر من مصادر الطاقة المستخدمة. فالطاقة النووية ومعظم مصادر الطاقة الجديدة والمتجددة، مثل طاقة الرياح والشمس والطاقة الكهرومائية Hydroelectricity، لا يتخلف عنها شيء من الكربون. أما مصادر الطاقة الحفرية فيختلف محتواها الكربوني بحسب المصدر. إذ يرتفع ذلك المحتوى بالنسبة لكل وحدة حرارية منتجة في حالة الفحم، ويتدرج انخفاضا في الزيت ثم في الغاز الطبيعي. ومن ذلك أن احتراق ما يعادل طنا من البترول Ton of oil equivalent (toe) تحت ظروف معيارية متماثلة يتخلف عنه في حالة الفحم نحو ١,٠٥ طن كربون، بينما يتخاف عن البترول ٠,٨٢ طن كربون ويتخلف عن الغاز الطبيعي ٠,٦٣ طن كربون. ومن هنا يعتبر خليط الطاقة المستخدم في أية دولة ذا دلالة حاكمة في تحقيق الأهداف البيئية، إذ تتوقف قدرة الدولة في خفض المنبعث من الغازات الملوثة على قدرتها في إحلال مصدر للطاقة ذي محتوى كربوني منخفض محل مصدر ذي محتوى كربوني مرتفع.

وإذ يتوقع أن يتقلص استخدام الطاقة النووية لما يحيط بها من مخاطر فإن الغاز الطبيعي يعتبر المناقس الأقوى بين المصادر التي يمكن أن تحل محلها، وذلك لما يتمتع به من صفات بيئية حميدة. أما الطاقة الكهرومائية وإن كانت تخلو من الغازات الملوثة إلا أن إمكانياتها ستظل محدودة، لأن أغلب المواقع التي تصلح لاستغلال تلك الطاقة في الدول الصناعية قد تم استغلالها بالفعل، ولا يتوقع أن يتجاوز نصيبها ٨٪ من الاستهلاك العالمي للطاقة خلال المستقبل المنظور.

ولا يبقى من مصادر الطاقة المتجددة التي يمكن التوسع في استخدامها مستقبلا سوى طاقة الرياح والطاقة الشمسية، وخاصة الخلايا الشمسية الفطائية Photovoltaic cell، وطاقة الكتلة الحيوية ذات الحلقة المغلقة Closed loop biomass. ومع أن استخدام تلك المصادر لا يتخلف عنه كربون إلا أن نصيبها سيظل أيضا محدودا خلال المستقبل المنظور. ولذلك يتوقع أن تظل مصادر الوقود الحفري تلعب الدور الرئيسي في مواجهة الاحتياجات العالمية المتزايدة من الطاقة.

وتختلف التحديات التي تواجهها الدول الصناعية، في مجال مكافحة الأضرار البيئية الناتجة من استهلاك الطاقة، عن نظائرها التي تواجه الدول النامية. فالدول المتقدمة استطاعت أن تحقق ما حققته من نمو اقتصادي بفضل ما أتيح لها من مصادر رخيصة نسبيا من الوقود الحفري. وبالنظر لضخامة المستثمر في المعدات الرأسمالية المستخدمة لذلك الوقود، فإن تلك الدول سوف تحتاج لوقت أطول حتى تتمكن من إحلال مصادر ذات محتوى كربوني منخفض محل المصادر ذات المحتوى الكربوني المرتفع، وحتى تتمكن أيضا من استبدال الأجهزة والمعدات اللازمة لذلك الإحلال. ومن هنا يتمثل التحدي الذي تواجهه الدول الصناعية المتقدمة في استنباط سياسات تستهدف حماية البيئة على المستوى العالمي، وتوفر لهذه الدول، في نفس الوقت، المرونة الزمنية التي تتطلبها المعدات الرأسمالية.

أما بالنسبة للدول النامية، فسوف يتطلب الأمر أن تواصل كفاحها لتحقيق أهدافها التنموية، وإن كان في مقدورها الاستفادة من التجارب التي مرت بها الدول الصناعية في مجال التنمية الاقتصادية. فالكثير مما يوجد الآن في الدول الصناعية من بنية صناعية ومعدات رأسمالية مستهلكة للطاقة لا يزال نظيره في طور البناء في الدول النامية. وفي ذلك ما يعتبر ميزة ينبغي أن تستغلها الدول النامية لكي تحسن اختيارها منذ البداية فيما تقتنيه من تلك المعدات ومن مصادر الطاقة الأكثر مناسبة لتحقيق الأهداف البيئية والتنموية في آن واحد.

يتمثل التحدي الذي تواجهه الدول الصناعية المتقدمة في استنباط سياسات تستهدف حماية البيئة على المستوى العالمي، وتوفر لهذه الدول، في نفس الوقت، المرونة الزمنية التي يتطلبها تعديل نظم الطاقة فيها بما يحقق تلك الأهداف

العدد الثامن والعشرون - مايو ٢٠٠١م

سيناريوهات لمواجهة المشكلة

قامت منظمة الدول المصدرة للبترول (أوبك) ببناء سيناريو استرشادى Reference case لقياس التغيرات التى يمكن أن يعكسها بروتوكول كيوتو على إنتاج وصادرات الدول الأعضاء فى المنظمة وعلى حصيلة عوائدها المالية الناتجة من تلك الصادرات . ويفترض السيناريو أن سعر البترول سوف يتراوح حول ١٧ دولارا للبرميل من سلة أوبك . وأن السعر سوف يتدرج ارتفاعا (بدولارات ثابتة القيمة) بمعدل ١,٥٪ سنويا فى المتوسط خلال المدى المتوسط والطويل . وبذلك يرتفع السعر (بدولارات ١٩٩٨) إلى ١٩,٤ دولار عام ٢٠١٠ وإلى ٢٢,٥ دولار عام ٢٠٢٠ . ومعنى ذلك أن السعر - معبرا عنه بالدولارات الجارية - سوف يتدرج ارتفاعا بمعدل التضخم السنوى فى الدول الصناعية أو بمقدار ما يصيب الدولار من انخفاض فى قيمته بالنسبة للعملات الأخرى . وذلك للمحافظة على القيمة الحقيقية لأسعار البترول . وفى رأينا أن تلك القيمة لا تقل عن ٣ - ٤٪ ، وبذلك لا يقل معدل ارتفاع السعر الجارى عن ٥٪ سنويا فى المتوسط .

آثار كيوتو على استهلاك البترول

يتوقف تنفيذ بروتوكول كيوتو على تصديق ما لا يقل عن ٥٥٪ من دول الملحق الأول مما لا يقل نصيبها من مبتعثات دول الملحق الأول عن ٥٥٪ عام ١٩٩٠ . وقد بدأت منذ مطلع التسعينيات محاولات الاتحاد الأوروبى لفرض ضريبة للكربون على مستوى الاتحاد لتخفيض المبتعثات الملوثة ، ولكن تلك المحاولات ما زالت تتعثر . والأرجح أن كل دولة سوف تقوم بتبنى هيكل ضريبى فى إطار سياسة محلية موجهة لحماية البيئة وتحقيق أهداف كيوتو . وقد سارع بعض دول الاتحاد الأوروبى بالفعل إلى إضافة ضرائب تحت مسمى الكربون إلى الهياكل الضريبية القائمة ، ولكن دون الالتفات إلى التزامات كيوتو التى لم تصدق عليها بعد . كذلك أبدت الولايات المتحدة أنها ستواجه عقبات كبيرة إذا فكرت فى فرض ضرائب جديدة بمستوى مؤثر . وقد فشل الرئيس كلينتون فى تمرير اقتراحه الخاص بفرض ضريبة على أساس وحدات الحرارة البريطانية المستهلكة وذلك بحجة تأثيرها السلبى على معدل البطالة . كذلك رفض الكونجرس الأمريكى الموافقة على ضريبة هزيلة بمعدل ٤,٣ سنت أمريكى لكل جالون من الوقود المستخدم فى النقل والمواصلات . ولعل فى ذلك ما يفسر انحياز الولايات المتحدة إلى جانب المطالبين بالتوسع فى تجارة صكوك الكربون، وهى وسيلة أجازها كيوتو وبمقتضاها تقوم دولة بخفض مبتعثات ليست ملزمة بخفضها ثم تبيع صكا بما حققته لدولة أخرى من دول الملحق الأول لكى تستخدمه فى الوفاء بالتزاماتها . وبديهى أن تحمل الدول التى تشترى تلك الصكوك بثمنها أو بتكلفة المشروعات التى حققتها سوف يلقى على كاهلها من الأعباء المالية ما يوازى ضرائب الكربون المحلية . غير أن استخدام تلك الوسيلة لا يحمل صورة الضرائب الظاهرة ويتمشى مع نظام منفذ بنجاح فى الإطار المحلى، وهو التجارة فى صكوك ثانى أكسيد الكبريت فى الولايات المتحدة . ولذلك يعتبر شراء صكوك الكربون من دولة أخرى أسهل قبولا لدى المواطن الأمريكى من فرض ضرائب جديدة .

وعلى الرغم من أن استخدام الضرائب فى دول الملحق الأول كوسيلة لتحقيق أهداف كيوتو يعتبر احتمالا ضعيفا . فسوف نقوم بتحليل عدد من السيناريوهات التى تقوم على افتراض استخدام الضرائب كوسيلة وحيدة لتحقيق أهداف كيوتو . وقد تحددت تلك الأهداف فى المناطق الثلاثة المكونة للمجموعة الصناعية الغربية (وهى شمال أمريكا وغرب أوروبا واليابان) كما يلى ، منسوبة إلى مستوى مبتعثات كل منطقة عام ١٩٩٠ : شمال أمريكا خفض ٦,٥٪ ، وغرب أوروبا خفض ٨٪ ، واليابان (اليابان وأستراليا) خفض ٣,٢٪ .

ويفترض السيناريو الأول والمسمى Kyoto Alone أن كلا من المناطق الثلاثة سوف يفرض من ضرائب الكربون ما يكفل تحقيق التزامه بحلول ٢٠١٠ وفقا لبروتوكول كيوتو . كذلك يفترض السيناريو الأول أن تأثير تلك الضرائب سوف يكون محايدا من حيث وقعه على مستوى الدخول والتضخم . بمعنى أن الدولة سوف تعيد ضخ الحصيلة فى الاقتصاد المحلى فى صور مختلفة ، مثل خفض ضرائب الدخل أو أقساط التأمين الاجتماعى أو زيادة إعانات البطالة ، وبذلك يعاد تدوير الحصيلة بما يحافظ على قوة الدفع السابقة على تحصيلها .

كذلك يفترض السيناريو الأول أن أسعار البترول ستظل دون تغيير عند مستواها المفترض فى سيناريو أوبك ، بمعنى أن أى انخفاض فى الطلب على البترول ، نتيجة لفرض الضرائب ، سوف تمتصه أوبك بتخفيض مماثل فى حجم إنتاجها وصادراتها مع الحفاظ على السعر دون أية زيادة . وأنها وحدها دون سائر المنتجين من سيتحمل عبء هذا الخفض فى الطلب على البترول .

ومن شأن فرض الضرائب وفقا للسيناريو الأول بمعدلات تبلغ لكل طن CO_2 نحو ٦٨ دولارا فى شمال أمريكا ونحو ١٢٨ دولارا فى غرب أوروبا ونحو ٩٤ دولارا فى اليابسفيك ، أن ينخفض الطلب على البترول فى المناطق الثلاثة بنحو ٦,٥ مليون ب/ى سنويا فى المتوسط حتى عام ٢٠١٠ بحيث يبلغ نحو ٤٢ مليون ب/ى بدلا من ٤٨,٥ مليون ب/ى فى حالة عدم فرض ضرائب الكربون . وينعكس هذا الانخفاض فى الطلب على أوبك فى صورة انخفاض فى إنتاج الدول أعضاء المنظمة بنحو ٧ ملايين ب/ى فى عام ٢٠١٠ بحيث يبلغ ٣٢,٧ مليون ب/ى بدلا من ٣٩,٦ مليون ب/ى. ومن مقتضى ذلك الانخفاض فى الإنتاج أن تنخفض عائدات تصدير البترول بنحو ٢٣ مليار دولار كمتوسط سنوى Annualized خلال الفترة المذكورة (وذلك باستخدام ٥٪ سنويا كسعر خصم لتقدير المتوسط السنوى للخسارة) .

ولكن الأرجح أن هذا السيناريو يعتبر غير قابل للتطبيق لعدم واقعيته من حيث ارتفاع حجم الضرائب إذ تبلغ تقريبًا مثل ما هو قائم بالفعل فى الوقت الحاضر من ضرائب على برميل من المنتجات المكررة فى المناطق الثلاثة. وقد سبق أن أوضحنا موقف الاتحاد الأوروبى والولايات المتحدة من ضرائب الكربون .

وإذ يفترض السيناريو الثانى Kyoto OECD إمكانية التبادل التجارى فى صكوك الكربون ولكن فقط بين دول المجموعة الصناعية الغربية ، فإنه يحقق ما يحققه السيناريو الأول من خفض فى المبتعثات وفقا لبروتوكول كيوتو . غير أن السماح بتبادل صكوك الكربون يؤدى إلى توحيد الضريبة عند ٨٥ دولارًا لطن CO_2 فى جميع أقاليم المجموعة الصناعية الغربية . عند ذلك المستوى الضريبى الموحد يتجاوز خفض المبتعثات فى شمال أمريكا هدف كيوتو لهذه المنطقة والذى كان يكفى لتحقيقه فرض ضريبة بمعدل ٦٨ دولارا للطن . أما فى غرب أوروبا فإن فرض ضريبة بمعدل ٨٥ دولارا لطن CO_2 من شأنه خفض المبتعثات بما يقل عن هدف كيوتو والذى يتطلب لتحقيقه فرض ضريبة بمعدل ١٢٨ دولارا للطن . وفى إقليم اليابسفيك من المجموعة الصناعية الغربية يتقارب مستوى الخفض فى ظل السيناريو الأول والثانى . ويعتبر هذا التفاوت بين المناطق الثلاثة أساسًا للتبادل التجارى فى صكوك الكربون فيما بينها، إذ تعتبر شمال أمريكا فى ظل السيناريو الثانى منطقة تبيع الصكوك لغرب أوروبا . وهنا تصطدم تلك الفرضية بالواقع المستخلص من المواقف التفاوضية لتلك المناطق ، إذ تعتبر شمال أمريكا المنطقة الأكثر حرصا على شراء الصكوك وليس بيعها . ومن هنا ينبغى توسيع دائرة البحث عن إمكانيات التوسع فى تجارة صكوك الكربون فى الأجل الطويل .

وبالنسبة لدول أوبك فإن أثر السيناريو الثانى يستوى مع أثر السيناريو الأول إذ يقدر متوسط خسائرها بنحو ٢٣ مليار دولار سنويا على أساس الافتراضات المستخدمة فى

يتبين من تحليل السيناريو الثالث أن التوسع فى استخدام الآليات المرنة التى تضمنها بروتوكول كيوتو، ومنها التجارة فى صكوك الكربون ، يعتبر ذا تأثير مباشر قوى ليس فقط على الدول المستهلكة للبترول، بل أيضا على صادرات وعائدات أوبك

السيناريو الأول والذى لا يتضمن التجارة فى الصكوك . ذلك لأن النقص فى حجم الطلب على البترول فى إقليم يعوضه الزيادة فى الطلب عليه فى إقليم آخر ، ومن ثم تقل الخسارة الكلية بالنسبة لإنتاج وصادرات أوبك كما كانت فى ظل السيناريو الأول .

مرة ثانية يرجح عدم الأخذ بالسيناريو الثانى ، لتعارضه مع المواقف المعلنة لكل دولة من دول المجموعة الصناعية الغربية ، إذ لا يوجد بينها من عبر عن استعداده لكى يكون بائعا لصكوك الكربون .

أما السيناريو الأرجح فهو السيناريو الثالث Annex I Trade الذى يفترض اتساع نطاق التجارة فى صكوك الكربون لكى تشمل جميع الدول المصنفة تحت الملحق الأول لبروتوكول كيوتو ، بما فيها الاتحاد السوفيتى سابقا وشرق أوروبا . ومع أن منطقة الكتلة السوفيتية (سابقا) تخضع أيضا لالتزامات كيوتو إلا أن تدهور استهلاكها من الوقود الحفرى بالنسبة لاستهلاكها عام ١٩٩٠ يؤهلها لكى يكون لديها من صكوك الكربون فائضا يمكن بيعه للدول الصناعية الغربية . لذلك ، ووفقا للسيناريو الثالث تتراجع كلفة الالتزام بتحقيق أهداف كيوتو إلى أقل من ٤٠ دولارا لكل طن CO_2 . وعندئذ تبلغ مشتريات شمال أمريكا من الصكوك أقل من ٥٠٪ من التزاماتها طبقا لكيوتو . بينما تتجاوز مشتريات غرب أوروبا ٧٠٪ من جملة التزاماتها التى حددها البروتوكول .

أما أوبك فإن خسائرها فى ظل السيناريو الثالث تنخفض إلى ١٤ مليار دولار سنويا فى المتوسط بدلا من ٢٣ مليار دولار . إذ ينخفض الطلب على البترول فى الدول الصناعية الغربية بنحو ٢,٣ مليون ب/ى سنويا فقط مع انخفاض ضئيل بمعدل ١,٥ مليون ب/ى فى منطقتى الاتحاد السوفيتى وشرق أوروبا . وبذلك تخف الآثار السلبية المنعكسة على صادرات وعوائد أوبك .

ويتبين من تحليل السيناريو الثالث أن التوسع فى استخدام الآليات المرنة التى تضمنها بروتوكول كيوتو ، ومنها التجارة فى صكوك الكربون ، يعتبر ذا تأثير مباشر قوى ليس فقط على الدول المستهلكة للبترول ، بل أيضا على صادرات وعائدات أوبك . فبالنسبة للدول الصناعية المصنفة تحت الملحق الأول تنخفض الكلفة إلى ٤٠ دولارا للطن بدلا من ٨٥ دولارا فى السيناريو الثانى . وبالنسبة للاتحاد السوفيتى وشرق أوروبا فإنها تستفيد من بيع صكوك الكربون للدول الصناعية الغربية دون جهد ، إذ يتيح لها كيوتو الارتفاع بمستوى استهلاكها من الوقود ، المتدنى حاليا بسبب ما أصاب اقتصادياتها من ركود ، إلى مستواه المرتفع عام ١٩٩٠ . أما دول أوبك فإن خسائرها تتراجع من ٢٣ مليار دولار سنويا فى المتوسط فى ظل السيناريو الأول والثانى إلى ١٤ مليار دولار فى ظل السيناريو الثالث كما ذكرنا .

ومما تجدر ملاحظته أن وضع حد أعلى لتجارة الصكوك بنسبة ٥٠٪ فى إطار السيناريو الثالث ، كما يقترح البعض ، يمكن أن يؤثر تأثيرا سلبيا على أوروبا الغربية وحدها ، إذ يفوت عليها فرصة شراء نسبة الـ ٧٠٪ المتاحة بكلفة تقل كثيرا (٤٠ دولارا لطن CO_2) عن الكلفة التى يفترض تحملها فى غياب تجارة الصكوك وتقدر بنحو ١٢٨ دولارا للطن وفقا للسيناريو الأول . أما إقليما شمال أمريكا والباسيفيك فإن مشترياتهما وفقا للسيناريو الثالث ستكون أقل من نسبة الـ ٥٠٪ على أى حال . وفى ظل تحديد تجارة الصكوك بنسبة ٥٠٪ تزيد خسائر أوبك بنحو مليار دولار سنويا عنها فى حالة إطلاق التجارة بين دول الملحق الأول دون وضع حد أعلى .

وأما السيناريو الرابع Global Trade فيفترض إطلاق التجارة فى صكوك الكربون على المستوى العالمى تحقيقا لأهداف كيوتو التى تلتزم بها دول الملحق الأول . ومع أن إطلاق التجارة العالمية فى الصكوك لم يرخص به صراحة فى البروتوكول ، إلا أن آلية الإنماء النقى Clean Development Mechanism (CDM) تعتبر الوسيلة المتاحة لمساهمة الدول النامية فى جانب من تلك التجارة . وعلى ذلك فالمقصود بهذا السيناريو بحث ما يمكن أن ينعكس على أوبك نتيجة لاستخدام آلية الإنماء النقى ، والتى تتلخص فى قيام دولة من دول الملحق الأول بتمويل مشروع لخفض المبتعثات المئوثة فى دولة لا تخضع لهذا الالتزام وهو ما ينطبق على دول العالم الثالث . وبذلك تنتفع الدولة الممولة للمشروع بصكوك للكربون تقدر قيمتها بقدر ما تحقق فى المشروع من خفض للمبتعثات .

فى ظل هذا السيناريو تنخفض تكلفة الكربون إلى نحو ١٥ دولارا لطن CO_2 وينتج عنه تراجع خسائر دول أوبك إلى نحو ١٢ مليار دولار سنويا فى المتوسط ، وهو ما يقرب من نصف خسائرها فى ظل السيناريوهين الأول والثانى . كما تعتبر أخف الخسائر الممكنة فى ظل السيناريوهات الثلاثة السابقة . ويعزى نحو ٤٥٪ من انخفاض المبتعثات فى ظل السيناريو الرابع إلى الدول التى لم تصنف تحت الملحق الأول Non-Annex I .

وفى تلك الحالة يتراجع الطلب على بترول أوبك بمقدار ١,٨ مليون ب/ى فى دول الملحق الأول عام ٢٠١٠ . كما يتراجع بنحو ١,٧ مليون ب/ى فى الدول النامية وهو ما يمكن أن يصدر به صكوك كربونية تشتريها دول الملحق الأول وتحسب لتغطية جانب من التزاماتها وفقا لكيوتو .

ويستخلص من تلك السيناريوهات أن التوسع فى تجارة صكوك الكربون يؤدى إلى خفض التكلفة الحدية لمكافحة الكربون . إذ يتاح فى ظل تحرير تجارة الصكوك خيارات أرخص لمكافحة الكربون ليست متوافرة على المستوى المحلى لدول الملحق الأول . ويترتب على ما تقدم تحول مركز الثقل من السيناريو الأول والثانى إلى السيناريو الثالث حيث يستفاد مما يوفره الاتحاد السوفيتى سابقا وشرق أوروبا ، أو إلى السيناريو الرابع الذى يشجع الدول النامية على خفض مبتعثاتها بحصولها على مقابل مالى . كذلك يقترن بهذا التحول الإقليمى تحول فى الاهتمام بخفض استهلاك الفحم ، ومن ثم لا يتحمل الطلب على البترول كامل العبء الناتج من تحقيق أهداف كيوتو وإنما يشاركه فى حمل ذلك العبء وقود ذو محتوى كربونى أكثف وهو الفحم .

فى ظل تلك السيناريوهات . بقيت أوبك طرفا سلبيا تتلقى نتائج السياسات التى تضعها وتنفذها دول مستهلكة للبترول . وتتحمل أوبك فى النهاية خسائر تتراوح بين ١٢ و٢٣ مليار دولار سنويا . أما كيف يمكن أن تتحول أوبك إلى طرف فاعل مؤثر له سياسته المستقلة التى تدرأ عنه تلك النتائج السلبية فسوف نقوم بمعالجته فى دراسة قادمة بإذن الله .

تحريفات العامية

شوقي ضيف

ذكرت في المؤتمر السابق لمجمع اللغة العربية أن العامية المصرية ـ مثل العاميات العربية المختلفة ـ أهملت الإعراب للأفعال والأسماء المعروف في الفصحى. كما ذكرت طائفة من تحريفات العامية المصرية للفعل المضارع والأدوات الداخلة عليه والملحقة به، وصيغ اسم المفعول. وبعض صيغ الأسماء والأسماء الإشارة. ومما ذكرته أيضًا إلغاء العامية الألف والنون في صيغة المثنى. والمد في صيغتي الثلاثاء مع قلب الشاء تاء والأربعاء، والغت في مفرداتها أربعة أحرف هي الثاء والذال والظاء والقاف.

واليوم أذكر طائفة أخرى من تحريفات العامية لصيغ الفعل الماضي، والمشتقات، وبعض صيغ المثنى والجموع. وبعض الأسماء المبنية، والحروف، والمنادى، والتصغير، والنسب.

التحريف في الفعل الماضي الثلاثي:

معروف أن للفعل الماضي الثلاثي ثلاث صيغ ثابتة هي فَعل بفتح الفاء وكسر العين، وفَعَل بفتح الفاء والعين، وفَعُل بفتح الفاء وضم العين. والصيغة الأولى حرفت العامية جميع أفعالها إلى فِعل بكسر الفاء والعين، فتقول:

تِعب في تَعب ـ جِمد في حَمد ـ خِجل في خَجل ـ سِهر في سَهر ـ علم في عَلم ـ عِمل في عَمل ـ فِهم في فَهم ـ وِرث في وَرث.

والصيغة الثانية: فَعل بفتح الفاء والعين وقد تبقى العامية عليها دون تحريف في حركاتها مثل:

بَسَط ـ جَدَب ـ حَكم ـ سَطع ـ ضَرَب ـ عَطف ـ غَرس ـ فَخر ـ لَمس ـ مَزج.

وتنقلها العامية أحيانًا إلى صيغة فِعل بكسر الفاء والعين المحببة لديها مثل: حِسب في حَسَب ـ حِمد في حَمَد ـ رِجع في رَجَع ـ سِكت في سَكَت ـ صِبر في صَبَر ـ عِرض في عَرَض ـ عِرف في عَرَف ـ كِتب في كَتَب.

والصيغة الثالثة لا توجد في العامية المصرية وتجعلها إما في صيغة فَعل بكسر الفاء والعين مثل برد في بَرُد ـ بطل في بَطُل ـ بعد في بَعُد ـ حلم في حَلُم.

وإما في صيغة فُعل بضم الفاء والعين مثل:

حُمُض في حَمُض ـ حُرُم في حَرُمَ ـ سُهُل في سَهُل ـ طُهُر في طَهُر.

وقد تنطق العامة في هذه الصيغة بالنطقين المذكورين لها، فتقول: رُخُص أو رِخِص في رَخُص ـ سُخُن أو سِخِن في سَخُنَ ـ صُعُب أو صِعِب في صَعُب. والعامية في صيغة فعل نادرة تنطلها بصيغة فَعل المحببة لها ونادرة تجانس بين فائها وعينها فتنطلقها بصيغة فُعُل بضم الفاء والعين كما في صيغة صَغُر فتقول فيها صُغُر أو صِغِر حسب ذوق المتكلم.

وواضح أن أكثر صيغ الفعل الماضي الثلاثي شيوعًا في العامية صيغة فَعل، وجعلتها مطردة في صيغة فَعل الفصحى بفتح الفاء وكسر العين، واستروحتها في طائفة من صيغ فَعَل بفتح الفاء والعين وصيغة فَعُل بفتح الفاء وضم العين. وينبغي أن تتخلص العامية من كل صور صيغ الأفعال التي حرفتها وترد أفعالها إلى صياغتها الأصلية في الفصحى.

صيغة الماضي المعتل الآخر بالياء

هذا الفعل في مثل بَقِيَ ـ خَشِيَ ـ نَسِيَ تنطقه العامية أحد نطقين: نطقًا تقلب فيه الياء ألفًا والكسرة قبلها فتحة فتقول في بقي بَقَا وبالمثل في خَشِيَ: خشا، وفي نسي: نسا، وكانت قبيلة طيئ في شمال الجزيرة تحتم فيه هذا النطق، ودخل منها مصر كثيرون مع فتحها وبعده. ويبدو أنهم هم الذين أشاعوه بمصر. وشاع معه نطق ثان رُدَّت فيه هذه الصيغة الماضوية إلى صيغة فعل الثلاثية الماضوية التي تستروحها مصر، كما أسلفنا، فيقولون: بِقي، خِشي، نِسي. والنطقان في الفعل الناقص بالياء عاميان، وينبغي أن تبرأ منهما العامية المصرية.

زيادة ياء في الماضي بعد تاء المخاطبة

وذلك في مثل «قرأت وكتبت» تقول العامية: «قرأتيه وكتبتيه» إذ تمد كسرة تاء المخاطبة فتتولد منها ياء ونجدها في كتاب المكافاة لابن الداية المصري على لسان تاجر يكافئ امرأة على جميل أسدته إليه. وينبغي أن تتخلص منها العامية المصرية وتكتفي بكسرة التاء مثل الفصحى.

إلحاق علامة الجمع بالماضي مع ذكر الفاعل المثنى والجمع للذكور والإناث

تقول العامية: حضروا الطالبان ـ حضروا الطالبتان ـ حضروا الطلاب ـ حضروا الطالبات.

والعامية في ذلك تلغي في الفعل الماضي ألف المثنى مع الذكور والإناث ونون النسوة وتضع مكانها واو الجماعة، وينبغي أن تعود هذه الأفعال إلى الفصحى.

والعامية ـ بذلك لا تستخدم ألف التثنية في المثالين الأولين ولا نون النسوة في المثال الرابع إذ تعمم فيهما واو الجماعة للذكور، ويجب حذفها منها جميعًا، وأيضًا في المثال الثالث حتى لا يكون للفعل فاعلان: ضمير واسم ظاهر.

الجزء الثاني من البحث الذي ألقاه الأستاذ الدكتور شوقي ضيف رئيس المجمع اللغوي في الدورة السابعة والستين للمجمع (مارس ٢٠٠١) بعنوان «العامية فصحى محرَّفة». وقد سبق نشر الجزء الأول من البحث في «وجهات نظر» عدد مايو ٢٠٠٠

يذكر لفظ لا فى الجواب على المتكلم بالنفى، فيقال لا، غير أن العامية المصرية أضافت إليها همزة ساكنة، فيقول المصريون فى الجواب بالنفى « لأ »، ويذكر عن قبيلة طيئ أنها كانت تقلب الألف الموقوف عليها همزة، وكأن المصريين أخذوا من عشائرهم الوقف على « لا » بالهمزة، وشاعت بينهم إلى اليوم. وينبغى أن تعدل العامية عن نطقها إلى نطق الفصحى

تسهيل الهمزة وحذفها فى الأفعال

تكثر العامية من تسهيل الهمزة فى الأفعال، فتقول فى أداه: واه بقلب الهمزة واوا، وتقول فى قرأت ـ قلأت: قريت ـ مليت بكسر الحرف الأول والثانى فى الفعل وقلب الهمزة ياء. وتقول بالمثل:

فى بدأت: بديت ـ وفى خبأته: خبيته بقلب الفتحة قبل الهمزة كسرة وقلب الهمزة ياء. وبالمثل فى هدأته: هديته، وفى هنأته: هنيته ـ وفى توضأت: توضيت وكل هذه الأفعال ينبغى أن ترد هى وما يماثلها إلى أصلها المهموز الفصيح.

وتكثر العامية من حذف همزة صيغة أفعل الرباعية فتقول: تلفه فى أتلفه ـ حبه فى أحبه ـ سعفه فى أسعفه ـ عطاه فى أعطاه ـ فطر فى أفطر ـ كرمه فى أكرمه، وكل هذه تحريفات فى العامية وينبغى ردها إلى أصلها المهموز الفصيح.

وتحرف العامية حركة الحرف الأول فى بعض صيغ الأسماء المفردة، من ذلك أن صيغة إفعيل مثل أبريق، فى العامية بفتح الهمزة المكسورة فى الفصحى، وصيغة فعْيل مثل بطيخ فى العامية بفتح الهمزة المكسورة فى الفصحى.

وصيغة مفعيل بفتح الميم المكسورة فى مسكين ـ منديل.

التحريف فى المشتقات

ذكرت فى حديثى فى المؤتمر الماضى التحريف فى صيغة اسم المفعول وأذكر الآن التحريف فى بقية المشتقات:

اسم الفاعل

أبدأ باسم الفاعل وتحريفاته ومن أهمها كسر الميم المضمومة فى أوله حيث يشتق من غير الثلاثى مثل معلم ـ مسامح ـ منتصر. ومن ذلك تسكين عين اسم الفاعل الثلاثى وفى مثل فهمين أى فاهمين وكتبين أى كاتبين وقرْئين أى قارئين. ومن ذلك مغنيّه وفاكهة مستوية، وأفكار ملتوية بتشديد الياء فيها، والياء فيها جميعًا غير مشددة.

وأحيانًا يشتق اسم من الفعل الثلاثى فى العامية وهو يشتق من الفعل الرباعى مثل راسل الخطاب والصواب مُرْسِل ـ ورجل ماسك أى بخيل والصواب مُمْسِك ـ ورجل فاطر أى غير صائم والصواب مُفْطِر. ويا غائث المستغيثين والصواب: يا مُغيث. ويسمى مكان المصلين مصلية والصواب مُصَلّى.

وقد يوضع اسم المفعول مكان اسم الفاعل مثل مذهول والصواب ذاهل، وعمل مهول والصواب هائل. وقد يوضع اسم الفاعل مكان اسم المفعول مثل: مركب موسوق ـ ورقة ملصوقة والصواب مُلْصقة ـ ومال مودوع والصواب مودَع ـ فرس ملجوم والصواب مُلْجم ـ ونار موقودة والصواب موقدة ـ وراسه موجوع والصواب موجَع.

تحريفات الصفة المشبهة، من ذلك:

١ ـ كسر الحرف الأول فى صيغتى فعيل وفعل فتقول: كبير ـ شريف ـ سعيد، كما تقول عكر ـ نكد ـ إنف.

٢ ـ فى الألوان والعيوب: حين تدخل العامية على صيغة أفعل أداة التعريف تحذف همزتها وألف أداة التعريف وتفتح لامها، فتقول: لَبْيَض ـ لَحْمَر وينبغى أن تنطقها مثل العربية: الأبيض ـ الأحمر. وفى صيغة فَعْلاء المؤنثة: تحذف المد وتزيد هاء السكت فتقول فى مثل: بيضاء ـ حمراء: بيضة بكسر الباء ـ حمرة، وينبغى رجوعها إلى الفصحى. وتنطق العامية فى لُغْساء للمرأة الوالدة نفْسة وينبغى ردها إلى الفصحى، وتقول فى كلمة الآخر: راخر بتسهيل الهمزة وقلب لام التعريف راء مع فتحها. وكل هذه التحريفات فى الصفة المشبهة ينبغى أن تتخلص منها العامية.

تحريفات اسم الآلة:

مما حرفته العامية فى اسم الآلة فتح الميم فى صيغة مِفْعل بكسر الميم مثل: مَبْرد ـ مَدْفع ـ مَسْند ـ مَصْعد ـ مَضْرب ـ مَقْرش.

وفتحت الميم فى يَفْعَل بكسر الميم فى:

مبخرة ـ مدخنة ـ مروحة ـ مشنقة ـ مصيدة ـ مطحنة ـ مقرمة ـ مطرقة ـ مقرعة.

وضمت الميم فى صيغة مفعال فى اسمين هما:

مُفْتاح ـ مسمار ـ فقول مُفتاح ـ مُسمار

ومما حرفته فى هذه الصيغة كلمتا: مصْفاة ـ مِلْاة.

تنطق بهما العامية: مَصفى ـ مَلّى وقد تقول مقلاية بزيادة ياء وهاء السكت.

وحذفت العامية ألف مفعال فى الأمثلة التالية مع فتح الميم فى المثالين الأخيرين مخلاة ـ مسْحاة ـ مطواة ـ مكْواة

فتقول: مخْلة ـ مسْحة ـ مطْوة ـ مكْوة

وكل هذه التحريفات فى اسم الآلة ينبغى أن تصحح وتنطق بها العامية نطقًا سليمًا.

فى المثنى والجمع

تحذف العامية حالة الرفع بالألف والنون فى المثنى المعروفة فى الفصحى. وتقول حوالينا بكسر اللام خطأ وهى مفتوحة: حوالينا، وتقول عصاتين وهما عصوان رفعًا وعصوين نصبًا وجرًا. ولا يقال اثنين مليون مثل العامية بل يقال مليونان، ولا يقال ثلاثة مليون إلى عشرة، إذ الصحيح ثلاثة ملايين وهى عدوى من تعلم اللغات الأجنبية.

وتحذف العامية علامة الرفع بالواو والنون من جمع المذكر السالم وتسكن النون فى حالتى النصب والجر. ولا تمنع من الصرف صيغة مفاعل مشددة العين. واللام فى مثل مشاق جمع مشقة ـ ملاذ جمع ملذة ـ مهاب الريح جمع مهب ـ ومهام جمع مهمة. وأيضًا تنون خطأ صيغة فعلاء مثل: أدباء ـ علماء ـ فقهاء ـ زعماء ـ شرفاء ـ عظماء ـ كبراء ـ كرماء ـ شعراء.

تحريف أسماء الاستفهام:

(مَنْ) تقول العامية فيها مِنْ جاء

أين: تحذف العامية فيها همزة الاستفهام حين تصلها بواو أو فاء فتقول: وين ـ فين.

متى: تجعل العامية قبلها همزة استفهام وتسكن الميم وتحذف الألف الأخيرة فتقول: إمْتْ.

كيف: تنطقها العامية بكسر القاف. كم: تزيد العامية فيها ألفًا تقول كام الساعة.

وكل هذه التحريفات فى العامية ينبغى تصحيحها.

تسهيل الهمزة وحذفها فى الأسماء

تقلب العامية الهمزة الساكنة إلى جنس الحركة السابقة لها فى الأسماء مثل:

بير فى بئر ـ ديب فى ذئب يقلب الذال دالاً ـ شوم فى شؤم.

وتسهل العامية همزة القطع مع كسرها فى ضمير المخاطب: أنت وفروعه كما سيأتى ومن تحريفاتها:

بَيْرة فى دائرة ـ عَباية فى عباءة ـ مراته فى امرأته ـ بيْه فى مائة ـ وجميع الأرقام المئوية حرفتها العامية، فتقول: ميتين فى مائتين ـ تُلْتمية فى ثلاثمائة بقلب الثاء تاء وهكذا.

ومن التحريف فى الأسماء: ودن فى أذن ـ إودان فى آذان ـ وقه فى أقة.

وحذف الهمزة فى الأسماء كثير وهى تحذف فى الأسماء الممدودة بعامة فيقال: دوا فى دواء ـ سما فى سماء ـ صحرا فى صحراء ـ كيميا فى كيمياء.

وينبغى أن تعدل العامية عن حذف همزة المد. وبالمثل ينبغى أن ترد الكلمات التالية إلى أصلها المهموز فى الفصحى، وهى:

فين: أصلها فأين. كسرت الفاء فيها وحذفت الهمزة.

منين: أصلها من أين. حذفت همزتها وكسرت النون قبلها.

وستذكر تحريفات الضمائر المنفصلة المرفوعة والمنصوبة. ومما حذفت فيه الهمزة ياخى أصلها يا أخى.

ياهل الخير: أصلها يا أهل الخير.

والهمزات المحذوفة فى جميع الكلمات السابقة ينبغى أن تعود إليها حتى لا تشذ عن أصلها الفصيح.

القصر والمد

تحذف العامية الألف قصرًا فى صيغ متعددة هى صيغة فاعل وفاعلة حين يسكن الحرف الثانى لها مثل قَشْيه (فى كاتبة) وقطْمه (فى قاطمة). وصيغة مفاعل مثل مرْجعه (مُراجعه) بحذف الألف وكسر الميم، ويقال مراجْعينه (فى مُراجعيه) بذكر نون الجمع مع الإضافة. وتحذف الألف من الخَصْرة (فى الخاصرة) والعُقْبة (فى العاقبة) مع ضم العين، والعيلة (فى العائلة) مع قلب الهمزة ياء وكسر العين، ويَسْمين (فى ياسَمين). وتحذف الألف الأخيرة من الموسى فتقول موس وتجمعه على أمواس والصواب مواس. وتحذف الألف الأولى والثانية من ناداه فتقول نْدَه.

وتمدّ العامية الفتحة فتقول كام فى كم الاستفهامية كما أسلفنا ـ وتقول معاك (فى معك). وتمد الضمة فتقول كورة فى كرة. ويطرد ذلك فى الوقوف بالأمر من الفعل الثلاثى الأجوف الواوى مثل: توب ـ زوغ ـ عوم ـ قوم ـ وخود (من خذ) مع قلب الذال دالاً، وكول (من كل) والأجوف اليائى والواوى فى مثل: بيع ـ زيد ـ صيد ـ قول.

وينبغى أن تصلح العامية هذه التحريفات فى الكلمات حتى تعود بها إلى الفصحى.

للفصحى !!

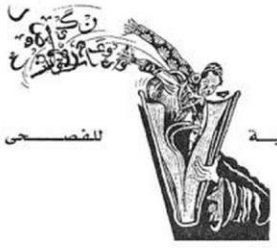

تحريفات العامية للفصحى

التحريف فى الضمائر المتصلة

هاء الغيبة: تنقل العامية فى ضمها إلى الحرف الذى قبلها وتحذف وتسكن ما بعدها وتمد الضمة فتتولد منها واو فى الأفعال مثل كَتَبُو (فى كاتبهْ) والأسماء مثل مكتوبو فى (مكتوبهْ).

وبالمثل إن وأخواتها يقال فيها: إلُّو فى (إنه) وكأنُّو (فى كأنه) ولكنو (فى لكنه).

وأيضًا مع كل مضاف إلى هذه الهاء مثل: علمو (فى علمه) وكتابو (فى كتابه) ومع ثلاثة من حروف الجر ـ فى اللام فى مثل لو (فى له) ومنو (فى منهْ) وعنو (فى عنهْ).

ياء المتكلم: تُلحق بالأفعال والأسماء والحروف. وتقول العامية عصايتى (فى عصاى) فتضيفها إلى ياء المتكلم مرتين. وتشددها مع اللام فتقول لىّ (فى لى) لحنًا واضحًا.

الضمائر المنفصلة المرفوعة والمنصوبة

أنا: تحذف منها العامية الهمزة إذا سبقتها واو العطف أو حرف النداء (يا) فتقول ونا (فى وأنا) ويانا يانا (فى يا أنا ـ يا أنا).

نحن: تنطقها العامية إحنا بقلب النون الأولى همزة وفتح النون الثانية مع مدها.

إنت: تنطق العامية هذا الضمير وفروعه بكسر الهمزة.

هوّ ـ هىّ: تشدد العامية الواو والياء فى هذا الضمير، وكانت تشدده قديمًا قبيلة همدان النازلة بالجيزة فى الفتوح الإسلامية. وعنها شاع فى العامية المصرية.

هم: تشدد العامية الميم فى هذا الضمير الساكن فى الفصحى.

إياك: تحذف العامية همزة القطع فى هذا الضمير المنفصل المنصوب وفروعه مع واو العطف فى إياك وإياكم فتقول فى مثل رأيته وإياك: رأيته ويّاك.

التحريف فى الحروف الجارة

على: تحذف العامية منها اللام والألف إذا أعقبها اسم معرف بالألف واللام فى مثل: سافر ع الطايرة ـ سبح ع الماء، وكانت تنطق بذلك قديمًا قبيلة بنى الحارث وأشاعتها فى مصر حين استوطنتها. وينبغى أن تردها العامية إلى نطقها الفصيح.

عنْ: تشدد العامية نونها فى استعمالين: إذا اتصل بها ضمير المفرد المخاطب فى مثل: عنُّك تقول (عنُّك) أو اتصل بها ضمير المفرد الغائب فى مثل عنه تقول عنُّو بتشديد النون وحذف الهاء مع نقل ضمتها إلى النون المشددة وزيادة واو. وحرى أن تعدل العامية عن هذا النطق إلى نطق الفصحى فيهما.

اللام الجارة: تفتح هذه اللام فى الفصحى مع جميع الضمائر ماعدا ضمير المتكلم فإنها تكسر معه مثل هذا الكتاب لى.

أما فى العامية فإنها تضم مع ضمير المفرد الغائب وجماعة الذكور الغائبين فيقال أعطيت لو الكتاب (فى أعطيت له الكتاب) بنقل حركة الهاء المضمومة إلى اللام مع حذفها ومد الضمة. ويقال (أعطيت لُهم الكتاب) بضم اللام أو حذفها.

وتكسر لام الجر مع بقية الضمائر فى لنا ـ لك ـ لكم ـ لها. ويقول السيوطى فى كتاب الهمع إن عشائر قبيلة خزاعة كانت تكسر لام الجر مع المضمر وكأنها هى التى أشاعتها بمصر. وحرى أن يُرد نطقها إلى الفصحى.

من: حين تذكر معها نون الوقاية تشددها العامية فتقول (منى) وهو تعبير صحيح لإدغام نون من فى نون الوقاية، غير أن العامية المصرية تطرد ذلك مع ضمير المفرد المخاطب والمفردة المخاطبة والغائب المفرد فتقول: منُّك ـ منِّك ـ منُّه. وينبغى أن تعود فيها جميعًا إلى نطق الفصحى بسكون النون.

فى حروف القسم والجواب

واو القسم: مفتوحة فى الفصحى، والعامية تكسرها مثل والنبى ـ والمصحف ـ وحياتك. ومثال واحد تفتحها فيه هو لفظ الله فتقول ولله. وينبغى أن تلغى كسرها وتفتحها دائمًا مثل الفصحى.

إى: بكسر الهمزة فيها وياء ساكنة، وهى حرف جواب مثل نعم تمامًا ويليها دائمًا قسم بالله مثل: إى وربى وإى والله. ومجىء واو العطف بعدها جعلت العرب يقولون فى الجواب بها «إيوه» كما ذكر ذلك الزمخشرى. ومن هذه اللهجة شاعت فى عامية مصر كلمة «إيوه» بمعنى نعم مضيفة إليها هاء السكت للوقف. وقد تفتح العامية الهمزة فتقول «أيوه» وتختصرها العامية فتقول: «أه» بمعنى

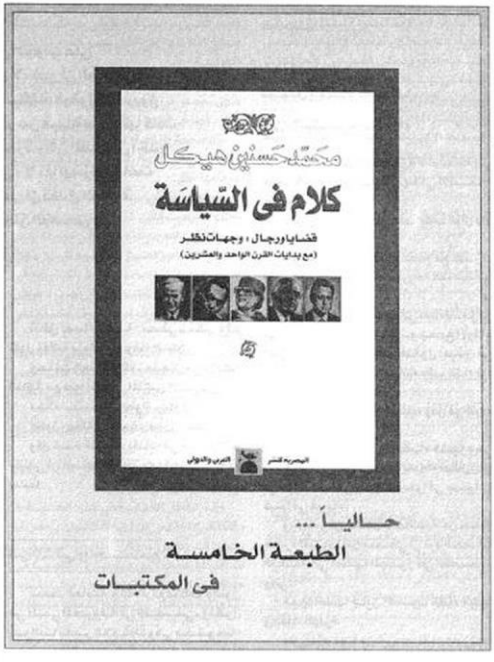

شاعت فى عامية مصر كلمة «إيوه» بمعنى نعم مضيفة إليها هاء السكت للوقف، وقد تفتح العامية الهمزة فتقول «أيوه» وتختصرها العامية فتقول: «أ» بمعنى نعم بالمد أو بدونه، وواجب أن تصحح العامية الكلمة

نعم بالمد أو بدونه، وواجب أن تصحح العامية الكلمة.

لا: يذكر لفظ لا فى الجواب على المتكلم بالنفى، فيقال لا، غير أن العامية المصرية أضافت إليها همزة ساكنة، فيقول المصريون فى الجواب بالنفى «لأ» ويذكر عن قبيلة طيئ أنها كانت تقلب الألف الموقوف عليها همزة، وكان المصريين أخذوا عن عشائرهم الوقف على «لا» بالهمزة، وشاعت بينهم إلى اليوم. وينبغى أن تعدل العامية عن نطقها إلى نطق الفصحى.

تحريفات متنوعة

فى النداء: تسكن العامية الحرف الأول فى العَلَم إذا كان ثانيه متحركًا فى مثل:

يا محمد - يا حسين - يا سليمان.

وتحذف همزة القطع فى ثلاثة أعلام هى: أحمد - إبراهيم - إسماعيل

وتبدل اللام فى نهاية العلم الأخير بنون فتقول: إسماعين. وتبدل ألف الوصل بألف القطع فى لفظ الجلالة للاستغاثة أو للتعظيم فتقول: يا ألله.

يا أنا: تحذف العامية همزة القطع مع (يا) من الضمير «انا» فيقول «يانا يانا» تحسرًا على ضياع شئ.

وينادى مثل «أبوحسن» بنفس لفظ «أبو» يا أبو حسن بنطق الواو وعدم إبدالها بالف لأنها مضافة.

وتقول العامية: يابوى - ياخوى تحريفًا بدلاً من يا أبى - يا أخى. وينبغى أن تعدل العامية عن كل هذه التحريفات فى النداء فيما عدا لفظ: يا ألله.

فى التصغير

تحذف العامية فى صيغتين من صيغ التصغير أولاهما صيغة فُعَيل تجعلها فعيل فى كثير من الأعلام مثل:

حَميد (فى حُمَيد) سعيد (فى سُعَيد).

والثانية صيغة فُعَيْعِل تفتح حرفها قبل الأخر فتقول صُغَيِّر فى صُغَيِّر وكُبَيِّر فى كُبَيِّر.

فى النسب

تخطئ العامية فى كلمات كثيرة بالنسب، من ذلك كتبى بسكون التاء: نسبة إلى الكتب، وصوابها كُتُبِى - حَلوانى، وصوابها حَلْوانى.

خُضَرى: نسبة إلى ما يبيعه من الخضروات، وصوابها خَضْرَوانى بفتح الخاء.

فكهانى: نسبة إلى فاكهة والصواب فاكِهانى بزيادة ألف مع كسر الكاف.

الكسر قبل هاء الوقف فى مثل:

جدُه - شدُه - سكُه - سيرُه - سلامُه - رياسَه - هدايَه - كلمَه - فكره - نكته.

وينبغى أن تعدل العامية عن كسر هذه الكلمات إلى فتحها قبل الوقف عليها.

تقاليب الحروف فى الكلمة:

تاء افتعل

الفصحى تجعل التاء بعد فاء الفعل فى صيغة افتعل والعامية تقدم التاء على الفاء فتصيح اتفعل فى أفعال كثيرة مثل:

اتبل فى ابثل - اترمى فى ارتمى - اتروى الزرع فى ارتوى - اتغنى فى اغتنى - اتغاط فى اغتاظ - اتكسى فى اكتسى - اتلوى فى التوى - اتملى فى امتلى.

وينبغى أن تعدل العامية عن هذا التحريف فى صيغة افتعل.

تحريف فى الكلمات التالية

الباط: الإبط: جعلت العامية الهمزة بعد الباء وحولتها إلى ألف وصل.

جوز: زوج: نقلت آخر الكلمة إلى أولها وضمتها، وصنعت ذلك فى كل المادة فتقول: الجواز فى الزواج وجوزوه فى زوجوه.

سقف: صفق: قلبت العامية السين صادًا وقدمت القاف على الفاء.

فحص: فى فحص البيضة بتقديم الفاء على العين.

مقص ودنه: فى صلم اذنه قدمت العامية الميم إلى مكان الصاد ووضعت الصاد مكانها.

تصنت: تنصت أى تسمع، قدمت العامية الصاد على النون.

وينبغى أن تعود العامية فى كل التحريفات التى ذكرناها إلى النطق الفصيح الصحيح. ■

كتاب الزاوية

من رسائل الجاحظ

٤ - فى ذكر المدينة

أمرُ المدينة عَجَبٌ، وفى تُربها وتُرابها وهوائها، دليلٌ وشاهدٌ وبرهانٌ على قول النبى صلى الله عليه وسلم: «إنَّها طيِّبة تَنْفى خَبَثَها وتنصع طيبَها» لأنَّ من دخلها أو أقام فيها، كائنًا مَن كان من النَّاس، فإنَّه يجد من تُربتها وحيطانها رائحةً طيبةً، ليس لها اسمٌ فى الأرابيح، وبذلك السبب طاب طيبُها والمعجوناتُ من الطِّيب فيها. وكذلك العُودُ وجَميعُ البَخُور، يَضَاعَفُ طيبُها فى تلك البلدة على كلِّ بلدٍ استعمل ذلك الطِّيب بعينه فيها.

وكذلك صَبَّاحها والبَلَحُ والأُترجُّ والسَّفَرْجل، أعنى المجعول منها سُخْبًا للصِّبيان والنِّساء.

فإن ذكروا طيب سابور فإنَّما طيب سابور بطيب أرياح الرَّياحين، وذلك من ريح رياحينها وبساتينها وأنوارها، ولذلك يَقْوَى فى زمان، ويَضعُف فى زمان.

ونحن قد ندخل دجْلة فى نهر الأُبُلة بالأسحار، فنجد من تلك الحدائق، ونحن فى وسَطِ النهر، مِثْلَ ما يجد أهلُ سابورَ من تلك الرَّائحة.

وطِيْبة التى يسمُّونها المدينة، هذا الطِّيب خلقةٌ فيها، وجوهريَّة منها، وموجودٌ فى جميع أحوالها. وإنَّ الطِّيب والمعجونات لتُحْمَلُ إليها فتزداد فيها طيبًا، وهو ضَدُّ قَصَبَة الأهوَاز وأنطاكيَّة، فإنَّ الغَوالىَ تستحيل الاستحالة الشَّديدة.

ولسنا نشكُّ أنَّ ناسًا ينتابون المواضعَ التى يباع فيها النَّوَى المُنْقَع، فيستنشقون تلك الرائحة، يُعجَبون بها ويلتمسونها، بقدر فرارنا نحن من مواقع النَّوى عندنا بالعراق، ولو كان من النَّوى المَعجوم ومن نَوَى الأفواه.

حفـظ الســلام

تقرير لجنة حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة برئاسة الأخضر الإبراهيمي صيف عام ٢٠٠٠

■■ في السادس من سبتمبر ١٩٩٩، هاجم حشد غاضب مكتب إغاثة تابعًا للأمم المتحدة في تيمور الغربية. وقد نهبت الجماهير المبنى، وفيما بعد رد فعل منيرًا للغثيان لما حدث في مقديشو سنة ١٩٩٣، أحرقت جثث ثلاثة من العاملين مع الأمم المتحدة في الشوارع. وأسرعت الأمم المتحدة بسحب ما تبقى من أفرادها في الإقليم الإندونيسي، وهو ما كان له وقعه السيئ على مهمتها غير المستقرة في إقليم تيمور الشرقية الذي استقل حديثاً.

وأبرزت تلك الكارثة تقريراً مستقلاً كانت الأمم المتحدة قد أصدرته قبل ذلك بأسابيع قليلة. وبما أن الورقة نشرت في وقت كان يتوالى فيه اتخاذ المئات من جنود حفظ السلام في سيراليون رهائن - وآخرهم جنود بريطانيون ذهبوا لإنقاذ من سبقوهم من ذوي البريهات الزرقاء - فقد كانت رسالة للفوى التي انتقدت جهود الأمم المتحدة لحفظ السلام انتقاداً شديداً، كما كانت بمثابة «روشتة» لمزيد من القوات النشطة والسيطرة والرقابة.

أثارت تلك الأحداث ومعها تقرير الأمم المتحدة جدلاً حول ما بات أمراً مألوفاً إلى حد كبير. ويدور الجدل حول العديد من المسائل الرئيسية مثل هل يمكن جعل حفظ السلام الذي تقوم به الأمم المتحدة يعمل لمدى طويل، أم أنه محكوم على هذه الجهود بالفشل؟ وهل المعايير الدولية فعالة، أم أن العسكرية السافرة قد تكون هي الشيء الوحيد لوقف أشرار العالم ممن هم على شاكلة فودای سنكوه؟ وهل التدخل الإنساني غير عملي، أم أن هناك طريقة ما للموازنة بين حقوق السيادة والقيم الكونية؟ شغلت مثل هذه التساؤلات اهتمام الأكاديميين والمفكرين فترة طويلة من العقد الماضي، منذ أن تحول عالم الحرب الباردة المرتب ذو الصراعات بين الدول - الذي قامت فيه الأمم المتحدة بدور بسيط غير مثير للجدل، باعتبارها منطقة عازلة على طول خطوط إطلاق النار والحدود (كما في قبرص والشرق الأوسط) - إلى هذه الدوامة الحالية من المذابح العرقية والقبلية والدينية.

ويعد هذا الجدل حول التدخل الإنساني مهماً ويتسم بحسن نواياه. وهو كذلك جدل يفتقر في أغلبه إلى الصدق. فالنقاش يطرح خيارات زائفة، على الأقل بالشكل الذي تم تأطيره به في السنوات القليلة الماضية. وفي الجزء الأكبر من فترة ما بعد الحرب الباردة، تركز الجدل الدائر حول النظام العالمي الجديد على إذا ما كانت أي من الأمم المتحدة أو الولايات المتحدة - وهما تعملان منفصلتين أو بالتنسيق فيما بينهما - يمكنها أن تصبح شكلاً من أشكال الشرطي الكوني. غير أنه بحين الوقت، بعد عشر سنوات من سقوط الاتحاد السوفيتي، للاعتراف بأن أياً من الخيارين لن يحظى بالقبول. فواشنطن ليس لديها الاستعداد لذلك، بينما الأمم المتحدة تعوزها الوسيلة (بفضل شح الولايات المتحدة في الغالب).

إلا أنه يخرج حالياً من هذا الفراغ نظام جديد على أرض الواقع، في الأزمة تلو الأخرى. ولنسمه حكم الشرطة الإقليمية. إنه نظام هجين يعتمد على كل ما تمنحه الأمم المتحدة من مشروعية وكذلك على القوة المحلية. ولكي يعمل النظام الجديد، فهو بحاجة إلى قوى وتنظيمات إقليمية تؤدي العمل البغيض الخاص بحفظ السلام وصنع السلام. غير أن هذه القوى الإقليمية يجري تدريبها والضغط عليها إلى حد كبير كي تعمل وفق معايير الأمم المتحدة، وكي تخضع في العادة لقرارات مجلس الأمن.

هذا هو النموذج الذي اتبع من أجل تيمور الشرقية في سبتمبر ١٩٩٩، عندما قبل الرئيس الأمريكي الأسبق بيل كلينتون بسعادة عرض أستراليا إرسال قوات مقاتلة تتصدى لميليشيات إندونيسيا المقاتلة - حتى عندما بادر الرئيس الأمريكي بتنظيم رد فعل متعدد الجنسيات وترتيب قرار للأمم المتحدة. وكان تلك هي المقاربة التي اتبعت في كوسوفو كذلك. فقد أصرت الولايات المتحدة على استخدام حلف شمال الأطلنطي (الناتو) لطرد سلوبودان ميلوشيفتش - وفي ذهنها الطريقة التي فشلت بها قوات الأمم المتحدة فشلاً مهيناً في الحيلولة دون وقوع الفظائع المبكرة في البوسنة - ولكنها عملت في نهاية الأمر تحت علم الأمم المتحدة.

وكما امتد هذا النموذج بحرص شديد إلى غرب أفريقيا. ففي الصيف الماضي، أعلن كلينتون أنه سيرسل مدربين عسكريين أمريكيين إلى نيجيريا، كان ذلك اعترافاً ضمنياً ليس فقط بالشرعية الجديدة للحكومة الديمقراطية، وإنما بحقيقة أن نيجيريا، تلك القوة الرئيسية في المنطقة، لابد أن تقوم بدور رئيسي في الحيلولة دون وقوع فظائع في سيراليون - بغض النظر عن السلوك الوحشي الذي ربما كانت القوات النيجيرية قد سلكته هناك من قبل.

الهجين

مايكل هيرش

بأرخص الأسعار

هل سينتشر هذا النموذج أكثر وأكثر؟ وهل ينبغي له أن ينتشر؟ لكي نجيب عن هذا، لابد من مواجهة بعض الحقائق الصعبة. فالنزاع الحالي حول صنع السلام عادة ما يركز على إذا ما كان ينبغي زيادة موارد الأمم المتحدة كي تتعامل مع مواقف بعينها ـ هي في العادة الصراعات الأهلية التي تتراوح بشكل خطير بين السلم والحرب الصريحة ـ وهي تلك التي دفع إليها الأمين العام للأمم المتحدة كوفي أنان الهيئة الدولية بشجاعة. ويحلل تقرير صدر الصيف الماضي للجنة حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة، التي يرأسها الأخضر الابراهيمي، أخطاء النظام الحالي تحليلاً حاداً ويضع خطة له تصحيحية. وفي اجتماع الألفية للجمعية العامة للأمم المتحدة في نيويورك في شهر سبتمبر، اعتلى المنصة الزعيم تلو الآخر ليقدم الدعم الضمني أو الصريح لروشتة الإبراهيمي. ومن بين هؤلاء الزعماء الرئيس كلينتون، الذي دعا إلى قيام الأمم المتحدة بدور أكبر في التدخلات الإنسانية.

ولكن اعتقادنا بأن نصيحة لجنة الإبراهيمي سوف تنفذ، الآن أو فيما بعد، معناه أننا نذهب بالأمر إلى نقطة الانكسار. فالمطالعة بقوة أكثر نشاطاً تتبع الأمم المتحدة، وتنضمن وحدات «متأهبة» جاهزة للقتال، ترجع إلى ما قبل انهيار الشيوعية. ولا وجود لذلك السبب القوي الذي يجعلنا نظن أنها سوف تنجح الآن فيما أخفقت فيه من قبل. وبينما كان يروج لتوصيات حفظ السلام الجديدة (التي سيتكلف تنفيذها ٢٠٠ مليون دولار أمريكي سنوياً) في نيويورك، كان الكونجرس الأمريكي الشحيح في واشنطن يسعى لتخفيض ميزانية الأمم المتحدة الحالية لحفظ السلام. فمن ناحية، حاول أعضاء الكونجرس بالفعل إلغاء مهام حفظ السلام في أفريقيا بالمرة، مراعاة للحد الأقصى للميزانية ـ بالرغم من جهود ريتشارد هولبروك مندوب الولايات المتحدة في الأمم المتحدة لإعطاء أفريقيا حجماً في اعتبارات الأمن القومي الأمريكي يزيد على أي وقت مضى.

ومن ثم يتضح عبث حث كلينتون الأمم المتحدة على الإعداد لمزيد من التدخل، في حين لم يف هو بما وعد به منذ أربع سنوات من دفع معظم ما على الولايات المتحدة من مبالغ متأخرة. وطبقاً لما ذكره رئيس ميزانية الأمم المتحدة جوزيف كونور، فإن الولايات المتحدة مسئولة عما يزيد على نصف متأخرات الأمم المتحدة التي تقدر بـ٣,٢٤ مليار دولار. وقد اشتكى كونور أثناء اجتماع الجمعية العامة الذي انعقد بمناسبة الألفية قائلاً: «قالت الولايات المتحدة أظهروا الإصلاح وسوف ندفع. وقد أظهرنا الإصلاح [ولا وجود] للمال». وبينما لا تزال الولايات المتحدة على رفضها للدفع، يزداد تردد أعضاء آخرين مثل اليابان في تسديد ما عليهم.

ومن هنا ينبغي أن نكون واقعيين بشأن ما ننتظره من الأمم المتحدة فيما يتعلق بحفظ السلام. والولايات المتحدة، باعتبارها القوة العظمى الوحيدة في العالم، لها حصة في النظام الكوني السلمي أكبر مما لأية دولة سواها. وإذا لم تفعل واشنطن المزيد من أجل الأمم المتحدة الآن ـ في وقت غير مسبوق من التفوق الأمريكي والفائض القياسي في الميزانية، وفي لحظة ليس فيها جندي أمريكي واحد يخاطر بارتداء بيريه الأمم المتحدة الأزرق في أي مكان من العالم ـ فمن غير المحتمل أن يحدث ذلك في أي وقت قريب. وليس من المحتمل كذلك أن تبرهن واشنطن على استعدادها للقيام بدور منتظم، باعتبارها «مقاولاً من الباطن» لأمم المتحدة ـ كما حدث مرتين فقط من قبل في كوريا والكويت، عندما جمعت القوات متعددة الجنسيات تحت لواء الأمم المتحدة. ويصح هذا بصورة أكبر بعد كوسوفو، التي كانت بمثابة مدخل لانعدام الخسائر بالنسبة للتدخل الإنساني الذي تقوده الولايات المتحدة.

التخبط

إلا أن هذا لا يعني أن الدافع وراء التدخل الإنساني سيتضاءل بتضاؤل ميزانية الأمم المتحدة. فقد خلق التدخل ليبقى، شاءت واشنطن أم أبت. وسوف يستمر بطريقته العشوائية، حيث جرت العادة على أن تجتذب أضخم عناوين الصحف وأشد اللقطات التلفزيونية إثارة للرعب أضخم الجهود، حتى في الوقت الذي يحلل فيه الأكاديميون والخبراء «القواعد» العديدة للتوقيت الذي ينبغي فيه أن

على عكس التقليد الطويل الخاص بالدول المتقدمة التى كانت توفر الجزء الكبير من قوات حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة، نجد فى السنوات القليلة الماضية أن ٧٧ بالمائة من الجنود فى الوحدات العسكرية المشكلة.. أسهمت بهم الدول النامية

تتدخل أمريكا وغيرها من القوى الكبرى - وكان هذه الإرشادات شديدة الدقة لها أى ثقل فى مواجهة أثر «سى إن إن».

ونجد أن المؤيدين القدامى للسياسة الواقعية، الذين يرفضون النزعة الدون كيشوتية للتدخل الإنسانى - أو الذين ينصحوننا فقط بانتظار السلام الذى يحل بمجرد استنفاد الأعمال القتالية لشهوتها الدموية، مثل الكاتب إدوارد لتواك - يتخلون عن ابتعادهم عن الضغوط المفروضة على المسئولين المنتخبين فى عصر الديمقراطية «فائقة التمكين» (التى عادة ما تهم وسائل الإعلام فائقة التمكين) وجهلهم بها. وقد يكون الأمر كذلك هو أن التدخل الإنسانى «يجمد الصراع بطريقة اصطناعية». كما يقول لتواك. إلا أن الناس فى عالم، تسيطر عليه الأعراف الغربية، لا يأبهون بذلك فى واقع الأمر. فهم لا يرغبون وحسب فى رؤية المذابح على شاشات التلفزيون. وبتشجيع من المنتقدين الكثيرين الذين تتزايد أعدادهم باستمرار، سوف يطالب هؤلاء حكوماتهم دائماً بأن تفعل شيئاً بشأن هذا الأمر - وعادة ما يكون هذا الشىء» سريعًا وسهلاً. ونحن نعيش الآن فى عالم تحدد معالمه المثالية الويلسونية، كما اعترف هنرى كيسنجر على مضض. وكان ليون ويزلتير قد كتب فى صحيفة «ذا نيو ريبابليك» إبان حرب كوسوفو، ملخصاً الوجدان الشعبى بقوله إن أى «مكان يطرد فيه البريئون من الرجال والنساء والأطفال ويقضى عليهم، لهو مكان يتسم بالأهمية. ذلك أنه مكان يتساءل عن الفلسفة التى نزعم أننا نعيش بها».

وبذلك سوف يستمر التدخل. غير أننا إذا تمسكنا بالنظام الحالى، فإن هذا التدخل مقضى عليه بأن يظل على مستوى الهواة ومتأخراً وموارده ضعيفة بصورة تدعو للأسى، كما أظهرت تجارب البوسنة وكوسوفو وسيراليون. وقد يكون هذا عالماً ويلسونياً، ولكنها ويلسونية شحيحة غارقة فى أمورها الذاتية. وكما بولغ فى موت الدولة القومية أيما مبالغة، فقد كانت هناك كذلك مبالغة فى فكرة أن حاجات «المجتمع الدولى» سوف تفوق المصالح القومية. وربما لا تكون لدى الأمريكيين فى الوقت الراهن فكرة واضحة عن ماهية مصالحهم القومية، إلا أن المصلحة التى هم على يقين تام منها هى أن أبناءهم وبناتهم لن يموتوا بعد اليوم فى المعارك.

وما لم تكن الولايات المتحدة على رأس من يتولون أمر العناية بالأمم المتحدة، فليس من المحتمل أن يملأ غيرها الفراغ. والواقع أنه رغم كلام رئيس الوزراء البريطانى تونى بلير وغيره من الزعماء الغربيين المؤيد للأمم المتحدة، فإن حفظ السلام الذى تقوم به الأمم المتحدة الآن قد ألقى على عاتق العالم النامى. ويقول تقرير الإبراهيمى:

على عكس التقليد الطويل الخاص بالدول المتقدمة التى كانت توفر الجزء الكبير من قوات حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة خلال الخمسين سنة الأولى من عمر الهيئة الدولية، نجد فى السنوات القليلة الماضية أن ٧٧ بالمائة من الجنود فى الوحدات العسكرية المشكلة.. أسهمت بهم الدول النامية.

الخروج من المأزق

ويرسم التقرير صورة قاتمة. إلا أنه قد تكون هناك طريقة للخروج من هذا المأزق - إذا تم تعديل لغة النقاش تعديلاً شديداً لتبرير التفويض الإقليمى. ويغير ظهور شرطة الأمم المتحدة لفرض العقوبات الكثير من الأشياء. منها أنه قد يسمح لنا فى النهاية بأن نرمى وراء ظهورنا الجدل الذى لا ينتهى بين مؤيدى المعايير والمؤسسات الدولية (كالأمم المتحدة) وهؤلاء الذين يروجون لواقعية القوة تحق الحق. وفى ظل النظام الجديد، وبدون قرار من مجلس الأمن، سوف يصبح تدخل القوى الإقليمية، غزواً - بغض النظر عن نبل دوافعه - وسيحمل معه تهديداً للهيمنة الإقليمية. وهو لن يحظى بترحيب الأطراف المحلية ويبذر بذور الصراع الذى يقع فى المستقبل.

ومن ناحية أخرى، فإنه بدون قوة أو تحالف القوى التى تمثل القوة العسكرية الإقليمية، فمن المؤكد أن الأمم المتحدة، التى تعانى على الدوام من نقص الأموال، سوف تظل تخسر مصداقيتها، كما خسرتها فى البوسنة وتيمور الشرقية وسيراليون قبل دخول القوى الإقليمية. وقد أجبرت الظروف الراهنة أتباع السياسة الواقعية واتباع النزعة العالمية الليبرالية، الذين طال أمد خلافهم، على الوقوف جنباً إلى جنب. ومن المستحيل فى كثير من المواقف أن يوجد أى الاتجاهين دون الآخر.

ويوحى هذا بما قد سيكون عليه أهم دور للأمم المتحدة فى المستقبل - وهو إضفاء الشرعية على القوى المحلية. وربما ترى بلاد كثيرة أن مجلس الأمن الحالى قد يبدو أقرب إلى المحكمة السرية منه إلى مصدر التشريع الدولى. ومن المؤكد أن صورة المجلس قد تتحسن إذا جعلت القوى الكبرى الأخرى مثل ألمانيا واليابان أعضاء دائمين، وبالتالى يتخلص المجلس من ممارسات حقبة الحرب العالمية الثانية البالية. إلا أنه سواء أكان مجلس الأمن به عيوب أم لا، فهو لا يزال قوة فريدة. ذلك أنه المحكمة الفعالة الوحيدة والمستودع الفريد للقانون الدولى المستمد من السوابق الخاص بالتعامل مع التطهير العرقى وغيره من أشكال الرعب الإنسانى. وعليه، فلا بد أن يظل بمثابة الفيصل فى التدخلات.

وسوف يساعد استخدام قوات حفظ السلام الإقليمية التى تحظى بموافقة الأمم المتحدة على حل مشكلة مهمة أخرى، وهى كيف نجعل التدخل الإنسانى متوافقاً مع المصلحة القومية. فأستراليا، التى تراقب الفوضى فى تيمور المقابلة لها على الجانب الآخر من البحر، وربما تخشى تدفق ركاب القوارب عليها، كانت شديدة الحرص على التدخل مجاناً. وقد لا ينصرف غير الأستراليين فى المواقف المشابهة بالشكل الذى تصرفوا هم به. إلا أن هناك أمارات تبشر بالأمل. فبينما انتهز فى الماضى الكثير من الفاعلين الإقليميين فرصة نوع من الشماتة الجيوبوليتكية - استغلال نقاط ضعف جيرانهم فى الحرب - فإن عدداً قليلاً من الحكومات التى تتزايد أقلمة اقتصاداتها القومية يرغب الآن فى المجازفة بالاضطراب الاقتصادى وتدفقات اللاجئين، التى هى من أهم نتائج الصراع الذى تدور رحاه على مقربة منها. ومن هنا تأتى قوة التنظيمات الإقليمية المتزايدة فى أنحاء الأرض، من المنتدى الإقليمى لآسيان إلى منظمة الدول الأمريكية (أواس) التى كانت فى يوم من الأيام غير مؤثرة. والكثير من هذه الجماعات بدأ كهيئات اقتصادية ولكنه صار بعد ذلك قوى أمنية.

ولا تزال النزعة الإقليمية تعالج مشكلة أخرى كانت تشغل جهود حفظ السلام التى تقوم بها الأمم المتحدة، وهى كيفية السيطرة على القوات متعددة الأجناس التى غالباً ما تتبع عادات عسكرية مختلفة وتعمل فى ظل إساءة فهم كل منها للأخرى، على نمط ما أصاب بناة برج بابل من فوضى. وأخيراً فإن الرؤساء الأمريكيين وغيرهم من زعماء القوى الكبرى، الذين يواجهون مشاكل الآن فى الحصول على اعتمادات الأمم من مجالسهم النيابية، قد يجعلون الأموال الخاصة بالنزعة الإقليمية فى المستقبل تحت مسمى المساعدات الثنائية.

والآن ما لا يسر

طبيعى أن تكون هناك أماكن كثيرة قد تثبت فيها استحالة الحلول الإقليمية التى تقرها الأمم المتحدة، أو تكون أمراً لا يمكن التنبؤ به على أحسن الفروض. ومن الواضح أن الدول الخمسة دائمة العضوية فى مجلس الأمن تتمتع بالحصانة، بما لها من أصوات تتسم بالقداسة. كما أن الحلول المحلية لا تجعل الأمور أيسر على الدوام. فأى قوة إقليمية يمكنها التدخل فى الهند وباكستان؟ والصين وأفغانستان؟ فلا وجود للدولة التى يمكن الوثوق بها بالقدر الكافى لقيامها بهذا الدور. وفى الوقت ذاته فإن نيجيريا حديثة العهد بالتعاون، التى تحررت من ماضيها الذى لم يكن خاضعاً للأعراف، قد يظن ظان أنها ستصبح الشرطى الإقليمى الذى يستعد مشروعيته من الأمم المتحدة فى غربى أفريقيا. إلا أنه ليس فى شرقى القارة من يرغب فى تحرك الأليوبيين العنيدين أو الكينيين - وهما القوتان المهيمنتان فى المنطقة - لحل مشاكلهم فى أى وقت قريب. وفى أفريقيا الوسطى، تحارب القوى الإقليمية هناك بالفعل فى جمهورية الكونغو الديمقراطية. وفى أمريكا الجنوبية، تتعايش شيلى والأرجنتين والبرازيل فى عدم ثقة يجيش فى نفوس جيوش كل منها. وتبين هذه المواقف كلها أنه

السلام الهجين

فى يوغوسلافيا، كانت واشنطن بحاجة إلى مساعدة موسكو؛ وبحاجة إلى الأمم المتحدة لإدخال موسكو فى العملية. وبدعم من قرار مجلس الأمن وقوة حفظ السلام، أثبت الروس أهميتهم فى إجبار ميلوسيفتش على الاستسلام. واضطر الناتو، إلى اللجوء إلى مشروعية الأمم المتحدة لنيل ما يريد

لا تزال هناك حاجة إلى مقدرة قوية على حفظ السلام داخل الأمم المتحدة كذلك. وعلى عكس قوات الأمم المتحدة، فإن القوى الإقليمية نادراً ما تبقى على التزامها لفترات طويلة ـ فقد اضطر الأستراليون على سبيل المثال لفرض ضريبة خاصة لتمويل مغامرتهم فى تيمور الشرقية وتركوها بعد خمسة أشهر فقط على الأرض.

إلا أن هناك طرقاً إقليمية للخروج من الكثير من تلك المآزق ـ ويعتمد الكثير من هذه الطرق على المساعدات الأمريكية، ودعم المنظمات الإقليمية، وقبل كل ذلك على نوع من الذبات طويل المدى كانت سياسة حكومة كلينتون الخارجية تفتقر إليه. فقد دفعت واشنطن بوينس آيريس على سبيل المثال إلى خلق دور لحفظ السلام (وأعطت الأرجنتين دوراً صغيراً فى التدخل فى هايتى). إلا أن البنتاجون جعل تدريباته العسكرية المشتركة الموسعة فى أمريكا اللاتينية أكثر اعتماداً على التعاون الإقليمى برعاية منظمة الدول الأمريكية التى لم تشب بعد عن الطوق ـ وهى التى حالت دون وقوع حرب بين الإكوادور وبيرو فى منتصف التسعينيات ووجهت اللوم إلى رئيس بيرو السابق البرتو فوجيموورى بسبب التلاعب فى الانتخابات. وفى جنوب شرقى آسيا، من المعتقد أن منتدى الأسيان الإقليمى قد يزداد قوة بمشاركة الصين، وأن يحمل علم الأمم المتحدة فى كمبوديا فى نهاية الأمر، إذا تصرفت بكين التصرف اللائق.

وعموماً فإنه يبدو أن الحالات التى قد تفلح فيها النزعة الإقليمية تزيد على تلك التى قد لا تفلح فيها. ففى العام الماضى حددت دراسة قام بها مجلس الاستخبارات القومى ٢٣ دولة بها حالات طوارئ إنسانية قائمة بالفعل، وذكرت أن تسع دول أخرى يحتمل أن تظهر فيها أزمات. ومن بين تلك الحالات الاثنتين والثلاثين، قد تستفيد الأغلبية العظمى من حفظ السلام الإقليمى أو حلول فرض السلام ـ مع بعض الاستثناءات الرئيسية، كالهند وباكستان وروسيا وربما نيجيريا نفسها. بل إن النزعة الإقليمية باتت فى بعض الحالات تقليداً. فالولايات المتحدة تقوم منذ مدة طويلة بدور الشرطى الإقليمى إلى الجنوب من حدودها، وأقرب ما كان ذلك فى هايتى. وقامت المملكة العربية السعودية بهذا الدور فى حرب الخليج، حيث جعلت التدخل الذى تقوده الولايات المتحدة مستساغاً فى العالم العربى (وإن لم يكن كذلك بالنسبة لأسامة بن لادن).

وليس هناك ما هو أفضل من كوسوفو لبيان المقاربة الجديدة لصنع السلام وحفظ السلام. وبعد ما أصاب الولايات المتحدة من إخفاق فى البوسنة، دخلت أزمة كوسوفو وهى عاقدة العزم على إدارة الحملة من خلال حلف الناتو وحده. وفى البداية لم يعط أى دور لقوات الأمم المتحدة. ولم يحتمل الروس واحتجاجاتهم أحد وقوبلوا ببدلوماسية الرفض واللامبالاة. وقال مسئول أمريكى أثناء الحرب: «إننا نحاول وحسب أن نجعلهم يظلون أن لهم دوراً».

إلا أن هذا كله تغير بنهاية حملة القصف التى شنها الناتو طيلة ثمانية وسبعين يوماً. فقد كان ميلوسيفتش أشد صلابة مما توقعه أحد، وواجه كلينتون بحلول أوائل يونيو التوقع المخيف سياسياً الخاص بإصدار أوامر الغزو البرى. وكانت واشنطن بحاجة إلى مساعدة موسكو؛ وكانت بحاجة إلى الأمم المتحدة لإدخال موسكو فى العملية، وبدعم من قرار مجلس الأمن وقوة حفظ السلام التى تحظى بموافقة الأمم المتحدة، أثبت الروس أهميتهم فى إجبار ميلوسيفتش على الاستسلام. واضطر الناتو، وهو أقوى شرطى إقليمى فى التاريخ، إلى اللجوء إلى مشروعية الأمم المتحدة لنيل ما يريد.

طريقة الدفع

من المفارقات أن الكثير من هذه الرؤية «الجديدة» الخاصة بحفظ السلام منصوص عليها فى ميثاق الأمم المتحدة (فى الفصل الثامن الذى طال تجاهله). إلا أن عدداً قليلاً من المراقبين ربط بين ذلك القسم والفصل السابع الأكثر استخداماً، الذى يفرض الرد على ما يهدد السلام. وتخلى النزعة الإقليمية بفقرة وحسب من تقرير الإبراهيمى الذى تحوبه سبعون صفحة، وحتى المراقبين الدهاة مثل ستانلى هوفمان، الذى كان لماحاً فى اتخاذه موقفاً وسطاً بين طرفى الواقعية التقليدية والنزعة الدولية الليبرالية فى كتابه المهم الصادر فى ١٩٩٨ بعنوان «الاضطرابات العالمية»، كانوا يغفلون فى الغالب احتمال المقاربة الجيدة. ويعترف هوفمان فى كتابه بأن مجلس الأمن هو «المصدر الرئيسى للسلطة» فيما يتعلق بالشرعية الكونية. إلا أنه يقلل من أهمية الصلة المحتملة بين سلطة الأمم المتحدة والنزعة الإقليمية، حيث يرفض المنظمات الإقليمية باعتبار أنها «كثيراً ما تتورط فى النزاعات التى بين دول المنطقة، أو داخل كل منها، أو تسليمها تلك النزاعات تأثيرها، أو أنها تفتقر إلى وسائل فرض القرارات».

ويظل هذا صحيحاً فى بعض الأحيان. ويتوقف تحسن الأمور أكثر وأكثر على مبادرة الدولة التى سوف تستمر بلا شك فى الهيمنة خلال القرن الحادى والعشرين، وهى الولايات المتحدة. والواقع أن مسئولى حكومة كلينتون أصروا على أنهم ينظرون إلى حفظ السلام منذ مدة طويلة على أنه نموذجهم المثالى، مشيرين إلى الجهود الإقليمية مثل المبادرة الأفريقية لمواجهة الأزمات. إلا أن مقاربتهم العشوائية أضاعت الكثير من الفرص. فلو كان كلينتون قد اعترف قبل ذلك بإمكانيات العمل الإقليمى، على سبيل المثال، لأتيح له استغلال عروض نيجيريا وتنزانيا وغانا وغيرها من الدول لإرسال قوات حفظ سلام إلى رواندا فى المراحل المبكرة من الإبادة الجماعية التى حدثت سنة ١٩٩٤. فى النهاية فإن تلك القوات بقيت على أرض الوطن، لأنه كانت تعوزها وسائل النقل والمعدات. وقد تحسر الرئيس الأمريكى بشدة على عدم اتخاذه إجراء ما فى رواندا.

وإذا كانت هناك بدائل، فلماذا جرى تهميش الخيار الإقليمى؟ أحد الأجوبة هو أن الانتقال إلى النزعة الإقليمية من الناحية البنائية يعد مرتقى شديد الانحدار. ولا تزال الحكومة الأمريكية برمتها تعتمد على العلاقات الثنائية. فالسفراء الأمريكيون فى الدول المختلفة أشد نفوذاً بكثير من نظرائهم فى المنظمات الإقليمية؛ وفى وزارة الخارجية الأمريكية يدير الموظفون الضعاف معظم السياسة الإقليمية. ويميل صنع القرار إلى اتباع الهيكل التنظيمى. والسبب الآخر هو أن قليلين فى واشنطن يهتمون بمواجهة احتمال أنهم قد يضطرون للعمل بقدر أقل من الفردية ويصبحون أكثر انشغالاً بجداول أعمال الآخرين. وبالنسبة للأمم المتحدة، فهى لا ترغب فى الوقوف موقف المتفرج من قواتها.

ولن تبدو النزعة الإقليمية فى جاذبية مبادرات الأمم المتحدة. فأى نظام يأتى به النيجيريون الآن إلى سيراليون، على سبيل المثال، محكوم عليه بأن يكون أقل قوة من ذلك الذى وعد به اتفاق لومى الذى أبرم تحت رعاية الأمم المتحدة (وإن لم يتحقق). وفى آخر مرة تدخل فيها النيجيريون فى ذلك الصراع احتلو فريتاون بعشرة آلاف جندى، بينما أتاحوا للمتمردين الهروب إلى الريف ـ وتجارة الماس. وأيا ما كانت أساليب النيجيريين، فقد نجحوا فى وقف أعمال القتل وتقطيع الأطراف. وكما قال أحد مخططى البنتاجون بإيجاز: «لكى يتحقق للولايات المتحدة المزيد من النجاح فى النزعة الإقليمية، فإن عليها فى واقع الأمر أن تعترف بالأهداف الإقليمية» ـ وكان لا بد أن يضيف إلى ذلك الأساليب الإقليمية. ومع ذلك فإن الولايات المتحدة والأمم المتحدة يمكنهما أن يجعلا دعمهما مشروطاً بمراعاة الفاعلين الإقليميين لمعايير السلوك الدولى.

وبذلك نجد أن أى نظام للشرطة الإقليمية التى ترعاها الأمم المتحدة سيكون بعيداً عن النموذج المثالى. فهو حل يتسم بالفوضى، وهو فى كثير من الأحيان غير متسق ويتم التوصل إليه بغير نظام. كما ينطوى على الكثير من المخاطر. إلا أنه فى بيئة من البدائل الصارمة ـ حيث الدور الأمريكى الذى تقرر أن يكون فى حده الأدنى، والأمم المتحدة التى تعانى نقصاً شديداً فى الأصول ولا تحظى بالدعم الواجب ـ قد لا تكون هناك طريقة عملية أخرى أمام المجتمع الدولى لوقف الفظائع التى لم يعد يبدو أنه قادر على تحملها. ■

بترتيب خاص مع مجلة «Foreign Affairs»
ترجمة: أحمد محمود

السلام الهجين

بدلاً من استعارة الانتماء لأوروبا أو أفريقيا

عروبة مصر

التاريخ يحسمها .. والمستقبل فى صالحها!

ذوقان قرقوط

أما كنا تشتتنا وهروبا من المسئولية؟ أبعد استعارة الانتماء إلى أوروبا بدافع الغرور أو مركب نقص، أو الانتماء إلى أفريقيا.. أو لمحمد على الألبانى، أو لعله يجيئ من يقول بانتمائنا إلى النيل.. وربما غدا إلى منابعه فى بحيرة ألبرت؟

إن هوية مصر العربية ليست هوية مستعارة على نحو ما حاول بعضهم استعارة هوية افريقية لها أو متوسطية أو أوروبية إلخ هربًا من المسئولية. بل هى هوية عربية أصيلة: عرقًا ولغةً وتاريخًا وجغرافية مثلها مثل فلسطين والعراق والسعودية واليمن وسوريا. إلا أنها أكبر مسئولية. فمصر هى بالعرق أو بالجنس جزء من هذه المنطقة الممتدة من الخليج إلى المحيط التى يمكن أن نعتبرها منطقة اللغة العربية ونسميها الوطن العربى. وهى منطقة متصفة بسمات الوحدة الطبيعية والوحدة البشرية والوحدة التاريخية المتصلة المتجانسة عبر العصور (كما يقرر الدكتور يوسف أبو الحجاج وآخرون، فى بحوث فى العالم العربى) ولعل تجانسها هو سبب استقرار اللغة العربية فيها، فقد اندفع العرب بالإسلام وبالعربية إلى أسبانيا واستقروا قرونًا. إلا أنهم وإن كانوا خلفوا لدى انحسارهم آثارًا خالدة لم يتركوا من العربية شيئًا يذكر.

وفى الشرق، على نحوم المنطقة العربية، وليس على نحوم الإمبراطورية، سادت اللغة العربية فى ظل سيادة الإسلام واستمرت هى اللغة الدينية والحضارية (واللغة المحكية) قرونًا عديدة. وكانت وسيلة التعبير الوحيدة لجهابذة العلم والمبدعين فى الأدب والفقه. تفتح آفاقًا رحبة، جديدة للفكر والابتكار، إلا أن اللهجات المحلية الخاصة «القومية» ما لبثت أن تماسكت وانتعشت، على الرغم من خشية اتهامها باعتبارها «لغات زندقية»، تغذيها مشاعر قومية، أمسكت بها عن الزوال والتلاشى، فظلت على شكل لهجات محكية.

وعلى عكس الفرس الذين كان لهم ماض عريق فى الحكم والحضارة، لم ينسوا أبدًا أن العرب أدالوه، لم يكن للعنصر التركى عمومًا ثم للأتراك العثمانيين خصوصًا حين وفودهم إلى عالم الإسلام وولوجهم إلى الحكم، ماض يذكر أو حضارة: كان الإسلام وسيلتهم الوحيدة للظهور على المسرح العالمى، ومع تلازم الإسلام للغة العربية كانوا الوحيدين من بين الشعوب الوافدة من السهوب على العالم الإسلامى الذين احتفظوا بلغتهم الخاصة، وجعلوها لغة للدولة وتمسكوا بها بعنجهية كجامع لقوميتهم. وهى لغة أقل ما يقال عنها إنها لهجة أقوام رعاة من السهوب لا تمت بصلة إلى اللغات العريقة ولا لأية حضارة غير حضارة الإسلام. لم تتميز بأحرف خاصة ولا بنمط كتابة. فاتخذت كالفارسية والأوردية طريقة الكتابة باللغة العربية. وما أن انهارت الإمبراطورية العثمانية فى الحرب العالمية الأولى وانقسم ما بينها وبين تمثيل الإسلام على المسرح العالمى، حتى أقلعت عن أية صلة باللغة العربية فاتخذت قالبًا لها الحروف اللاتينية.

وأيا ما كان الرأى فى أسباب هذا التمايز فى اللغات وبقائه واستمراره بين أمم إسلامية انتظمتها روح ثقافة واحدة، يصدح فيها الآذان بدينها يوميًا خمس مرات بلغة واحدة، ومهما تشعبت الآراء فيها وتغلب اجتهاد على آخر، يبقى للجانب العرقى وللأصول التاريخية الواحدة الجانب الأقوى، سواء فى انبعاث اللغة الفارسية وإحيائها أو فى تمسك الأتراك بلغتهم أو باستعادة الأسبان للغتهم. وليس من المجافاة للحقيقة القول هنا أن ثقيل شعوب المنطقة العربية للدين العربى واللغة العربية هو التجانس العرقى.

أصل واحد:

ذلك أن جماعات بشرية تمت إلى سلالات واحدة، أخذت منذ أقدم العصور تجوب أرجاء هذه المنطقة وتنخير أماكن المكوث فيها، ومما عرف من التاريخ حتى الآن وما كشف من علم الأجناس لم يذكر أن شعوبًا أخرى من جنس مخالف لجنس شعوبها سبقت إلى استيطان هذه المنطقة، وإنما يرد ذكر أمم، من خارج هذه المنطقة، غريبة عن مسار الحياة فيها، غزت سكان هذه المنطقة وحلت فيها «حكامًا» أو الأصح حلت فى أطرافها، وتمركزت فى مخارجها، كالقوط واليونان والفرس والرومان، مدًا طالت أو قصرت. إلا أنه ما من أحد يستطيع القول أن أمة من الأمم توصلت بذلك الغزو، إلى تغيير التركيب الأنثولوجى الأساسى لهذه المنطقة، وضمن هذا الإطار نفسه، لا خارجه كما يفعل الاستعمار يجب التماس أسباب تميز الأقلية البربرية فى المغرب.

فمن قبل أن توجد هذه الأمم «الغازية» وتتشكل فى دول، بل قبل أن تصل الموجات البشرية القادمة من شمال شرقى آسيا إلى أوروبا، إلى القارة المواجهة، ونبدأ بمناصبتنا عداءها المستحكم، كانت شعاب منطقتنا هذه من الخليج إلى المحيط مفتوحة للأقوى من تلك الجماعات البشرية المتحدرة من سلالة واحدة ولمن يستطيع أن يطرقها تلمسًا لمناطق العشب فى الجهات الممطرة منها، ومناطق النباتات الطبيعية وأحواض الأنهار، فما لبثت طبيعة المنطقة الجغرافية ودواعى حركة الاستقرار والتبادل البشرية أن قضت بظهور مراكز تجمع سكانية كبرئ فى أماكن غنية جدًا، نموذجها: الفرات والنيل وفى أماكن أقل غنى مثل سوريا وفلسطين وتونس وليبيا أو الحجاز ونجد، متباعدة بعض الشيء، إلا أنها غير منقطعة الصلة بعضها ببعض كأنما هى سلسلة واحات ولكنها مؤهلة، تقع على صفحة يابسة من الصحارى والسهوب وبذلك لم يتكون فيها «عرب سعيدة» واحدة فحسب، على حد قول الدكتور جمال حمدان، وإنما حلقات سعيدة مترابطة عبر هذه المنطقة المترامية الأطراف الممتدة من حضرموت وقتبان فى الجنوب إلى أور فى الشمال الشرقى، إلى صيدون «صيدا» فى الشمال الغربى، إلى قرطاجة وإلى مصر فى الجنوب الغربى فاليمن، فكانت هى الدائرة التى نشأت فيها وسادت معظم الحركات التاريخية وجرت فيها أهم فصول الحياة البشرية.

ومصدر واحد أيضًا:

فى صدد البحث عن أى هذه المراكز فى هذه المنطقة أسبق فى العمران وتشييد الحضارة: سومر أم أكاد أم مصر، لفت شونيفرت أنظار العلماء إلى حقيقة طريفة، عظيمة الدلالة فى هذا الأمر وهى أن الشعير والذرة الرفيعة والقمح وتانيس الماشية والماعز والضأن، وإن ظهرت كلها فى مصر وبلاد ما بين النهرين، من أقدم العهود المدونة، لا توجد فى حالتها البرية الطبيعية فى مصر، بل فى بلاد آسيا الغربية وبخاصة فى بلاد اليمن وبلاد العرب القديمة، يريد الاستدلال من هذا على أن الحضارة - وهى هنا زراعة الحبوب، واستخدام الحيوانات المستأنسة - قد ظهرت فى العهود القديمة غير المدونة فى بلاد العرب، ثم انتشرت فى صورة «مثلث ثقافى» إلى ما بين النهرين (سومر وبابل وآشور)، وإلى مصر وإن كان ما وصل إلى علمنا عن تاريخ بلاد العرب القديمة حتى الآن، يبلغ من القلة جدًا لا نستطيع معه إلا القول إن هذا مجرد فرض جائز الوقوع، بيد أننا إذا فحصنا المعتقدات الدينية، ولا شك أن العلاقات فيها حميمة فإننا نجد فيها إشارات قد تؤيد ما ذهب إليه شونيفرت فى بلاد ما بين النهرين وفى مصر، فإن آلهة سومر وأكاد وبابل لم تكن سوى نسخة من آلهة مصر، طرأ عليها تبديل وتحوير وظل «سن» إله القمر، كبير آلهتها سائدًا إلى ما بعد أيام إبراهيم الخليل، وكان القمر إلها فى مصر، بل لعله أقدم ما عبد فيها من الآلهة، قبل أن تتفوق فيها عبادة الشمس وتتطور وفى أسطورة أوزوريس، أكبر آلهة مصر القديمة أنه سافر إلى اليمن حيث تعلم زراعات عديدة رآها لأول مرة ونقلها إلى مصر، وأورد ديودور الصقلى، وهو يسرد أسطورة إيزيس، عن لسان قدماء المصريين، علاقاتهم بمدن تقع فى بلاد العرب.

ويرجع «جواد على» الأسباب إلى الأصول الواحدة، ويعتبر المؤرخون لا يخالف منهم إلا قليلاً، أن البلاد المواجهة للمحيط الهندى هى المخزن الرئيسى لأنها - فى علم التاريخ - كانت

ترى ماهولة دائمًا ومكتظة، إلا أن تعليل ذلك مازال يعوزنا؛ وهي توصف بأن الجبال التي تشكلها في مواجهة المحيط الهندي تعوقها كالمعصم، تتصل اتصالاً وثيقًا من الشرق بسهل غرينى متدرج، آخذ في الاتساع من قطر إلى الإحساء، فمنخفض الكويت إلى أن ينفتح على العراق، كما أن سلسلة الجبال الغربية، أو بالأحرى سلسلة الهضاب، لأنها لا تعلو أكثر من ألف متر إلا في عدد من القمم التي تتجاوز ثلاثة آلاف أو أربعة آلاف، تمتد من عدن جنوبًا إلى الإسكندرونة شمالاً فتحتضن سوريا وفلسطين ومديان والحجاز واليمن؛ وعلى حين يحول المحيط العربي الهندي وميناه الخليج من الشرق دون التوسع السكاني إلى الخارج في الجنوب والجنوب الشرقي، فلا يجد الناس أمامهم إلا المنحدرات والوديان والسهول، فإن عيون سكان الجبال الغربية الغنية، على العكس تتجه دائمًا إلى الخارج، عبر البحر الأحمر، البحيرة العربية التي كانت إلى زمان قريبة مغلقة عند باب المندب، أو البحر الأبيض المتوسط إلى السواحل المقابلة من أفريقيا، أو عبر سيناء التي يسميها الدكتور عباس عمار في كتابه الرائع المعبر الشرقي إلى مصر صعودًا أو إلى ما يليها بمحاذاة الساحل احيانًا.

هكذا لا فرق بين الأقوام التي عمرت مصر من الشمال عبر سيناء والأقوام التي عمرتها من الجنوب فكلهم من أصل واحد، الفرق الوحيد ربما أن الأقوام القادمة عبر سيناء كانت أسبق إلى الحضارة كما تدل دراسة مقابر بني حسن، وكانت أكثر عرضة لتدفق سيول الأقوام اللاحقة من الشرق، كما يشير بناء «حائط الأمير» الذي أقيم لصدها عن ورود النيل بقطعانها، الذي ينوه إليه سيمون لاكوتور في كتابه عن مصر، ولا تخفى أسباب تأخر بناء الحضارة في جنوب الوادي عنها في شماله عن فطنة المؤرخ.

ولقد أمكن تحديد تاريخ الهجرات الكبيرة وأزمان حدوثها، على وجه التقريب، وجرى الاستناد في ذلك على الاعتقاد بفكرة الطفرة السكانية، وحدوث تغيرات مناخية واحيانًا بسبب «الجفاف» في رأي هينتنجتون «Huntington»، ولم يؤخذ بعين الاعتبار التدافع والتنازع بين السابق واللاحق منها، ربما لعدم توفر الأدلة والمعلومات اللازمة، كما لم تؤخذ بعين الاعتبار الأسباب الأساسية الدافعة، ولم تؤخذ بعين الاعتبار الحركة المحيطة بشبه الجزيرة العربية من تقلص وامتداد، ويكاد الإجماع ينعقد على أن حدوث تلك الهجرات كان يتم في فترات زمنية متقاربة، فقد قرر جيمس هنري برستد، وهو أكبر الدارسين في هذا الباب، أن «تاريخ الهجرة الأولى إلى مصر يرجع بالامراء، إلى ما قبل العصور التاريخية، لكن الثابت أن هذه الغزوة تكررت بعد ذلك مرارًا في العصور التالية، ويرى آخرون ويؤيدهم برستد ان موجة أمت وادي النيل، واستقرت فيه عن طريق باب المندب هي الموجة التي يطلق عليها «موجة الجزيريين» نسبة إلى الجزيرة العربية، وذلك حوالي ٣٥٠٠ ق.م في الوقت الذي اتجهت فيه موجة الأكاديين، وقبائل من العموريين الذين كان منهم البابليون ونابغتهم حمورابي إلى العراق، كما اتجه إلى العراق أيضًا العموريون بعد ذلك بحوالي ألف سنة. إلا أن المطاف انتهى بأكثرهم إلى الاستقرار في سوريا وفلسطين، وفي نفس الوقت توزعت القبائل الكنعانية في أجزاء كثيرة من سوريا وفلسطين ولبنان قادمة من شرق الجزيرة العربية بدلالة وجود أسماء أماكن وجزر ومدن وقرى أقامها الكنعانيون في لبنان وفلسطين، فضلاً عن وجود مثل هذا التشابه في المقابر والهياكل والمساكن، كما نجد تشابهًا الآن باسماء قرى عامرة، مسكونة واخرى خرائب في جنوب سوريا واسماء قرى ومدن في جنوب شبه الجزيرة، وقد استقر اليبوسيون وهم أحد بطون الكنعانيين في القدس وما حولها، واستقر الفينيقيون وهم بطن آخر من الكنعانيين في لبنان وعلى الساحل الشمالي من فلسطين وتفاخروا بامتلاكهم شواطئ المتوسط وتلقب بعضهم بملوك العالم وملوك الأقطار الأربعة.

ويذكر إسرائيل ولفنسون (أبو ذئيب) - في تاريخ اللغات السامية (مطبعة الاعتماد / القاهرة) - وإن كانت الأمانة تنقصه في بعض ما يذكره احيانًا - أن قبائل «معين» كانت تسكن جوف اليمن فنزحت في مرحلة أولى واستوطنت بلدان شمالي الجزيرة العربية حيث أثرت في لغة القبائل الحجازية واقلامها وفي حضارتها تأثيرًا عظيمًا، ثم عرف أنها تفرقت في الألف الثاني قبل الميلاد، وانتشرت انتشارًا واسع النطاق في جميع أنحاء الحجاز وهضاب طور سيناء إلى مصر، وتفرقت في جنبات وادي النيل بدلالة الكتابات التي اهتدى إليها الباحثون وجاء فيها ذكر لبطون تعرف باسم «معين مصران» تؤيدها نقوش عثر عليها في بلاد اليمن وورد ذكرها في التوراة في أخبار الأيام الأولى باسم «معونيم» وفي أخبار الأيام الثانية باسم «بعل جور»، حيث يذكر أبو ذئيب أنها هي التي تصدت لبني شمعون فمنعتهم من التوغل في أرض الجزيرة ومزقتهم شر ممزق. وقد حافظت الدولة التي شكلها أحد فروعهم في غزة بفلسطين على وجودها حتى جاء الإسكندر، فوقفت في وجهه ما يقرب من ستة أشهر وبعد تدميرها اضطر «معين» إلى الانسحاب إلى طور سيناء.

وثمة أمر آخر لم يعره أحد من الباحثين بعد اهتمامه في سكنى المنطقة العربية، بل ولم يلتفت إليه وهو التسرب - إذا صح التعبير - الذي يجرى من البادية إلى الحضر بجماعات أو افراد أو بيوت محدودة تتفرق كأنما هي طلائع وتتخير سكناها غالبًا على حواف المعمور، ففي كل عصر وتاريخ كل دولة من دول هذه المنطقة تسمع بذكر جماعات من البدو تتعامل هذه الدولة معها سلبًا أم إيجابًا ثم يختفي ذكرها وما نلبث أن نسمع بذكر جماعات أخرى غيرها حلت محلها، مما يدل على أن سيل هذه الجماعات لم يكن ينقطع باتجاه العمران، وإنها كانت كلما تأنس ظروفًا مواتية، تستقر وتندمج فيما يليها، ولعل هذا ما يفسر تقدم أو تأخر حدود هذه الدول في البوادي المحيطة بها.

وذلك كان شأن الأشوريين مع «البدو» فقد كانوا يتوغلون في بلاد العرب، أحيانًا كثيرة للسيطرة عليهم في مناطقهم؛ وإذا كان «حائط الأمير»، كما ذكر جان وسيمون لاكوتور، في كتابهما «مصر تتحرك الذي شيد بين مصر وسيناء قد درس ولم تنقطع سبل قطعان البدو عن ورود مياه النيل من هذه الجهات. إلا عندما تكون الحكومات قادرة على السيطرة على سيناء نفسها، بل والامتداد إلى فلسطين، فإن الأشوريين جعلوا قاعدة حكمهم اضطرارا ولا شك في قلب صحراء العرب. ويؤخذ من سجلات الأشوريين أن مواقعهم مع البدو امتدت من «قرقر» شمالي مدينة حماة في سوريا، حيث اشتهرت بالمعركة مع «جندب» أحد مشايخ العرب إلى «أدومو» في شبه الجزيرة التي يسمونها «قلعة العرب» وهي التي تطلق عليها المصادر العربية اسم «دومة الجندل» ولقد «بادت» هذه القبائل الواردة في سجلات الأشوريين و«بادت» تلك الوارد ذكرها في تاريخ المصريين. كما جاء بعدها غيرها هنا وهناك وباد أو الأصح أنه اندس في المعمور واندمج وذاب، ولم تنقطع مع ذلك سيول القبائل. وحتى الآن.

ولا أظن اننا نجد أوضح مسلكًا إلى عمران مصر إلا أن كتابة المؤرخين الغربيين، كثيرًا ما توقعنا في الالتباس وكالعادة تسهل علينا مجاراتهم في آرائهم دون تمحيص، مثلاً كما جرى بشأن الهكسوس والليبيين مع أن أمر البت في أصل هذه الأقوام لا يحتاج إلى عناء كبير إذا خسنت «النية»، ففي الهكسوس إننا لا نعتقد أن تكهن المؤرخين الآن، باعتبارهم غرباء عن المنطقة، أقرب إلى الصحة من معلومات قدامى المصريين أنفسهم عن الهكسوس؛ فقدامى المصريين كانوا يعتبرونهم «شيوخ الصحراء الشرقية وقبائل آسيا الجنوبية الغربية» وهذا الاعتبار وحده يحسم الأمر.

والأغرب تشتت المذاهب في أمر «الليبيين» والذهاب إلى احتمال أن

يكونوا من أصل أوروبى والوصول إلى التقرير بأن الليبيين بعكس المصريين كانوا يكتبون من الشمال إلى اليمين (رجاء الاطلاع على كتاب الدكتور على فهمى الخشيم فى اللغة)، لكن كبير هؤلاء المؤرخين - وهو برستد - سرعان ما يتراجع عن هذا الرأى بعد صفحة واحدة من كتابه الضخم ليتفض ما ذهب إليه، إذ يعجز عن أن يبين كيف ركب البحر أو اجتاز المسافات الطويلة عبر أسبانيا إلى ليبيا هذا «العنصر الأوروبى» كما يقال، ليتبنى حضارة فى ذلك الوقت الذى كانت أوروبا فيه بالكاد مسكونة بعد، ثم يقفز إلى مصر ليحكمها، بينما الإجماع منعقد على أن اتجاه الحضارة، بل والعمران كان يسير من الجنوب إلى الشمال. ثم إذا بيرستد ينبذ فى تحليله اللاحق وجود أية روافد بشرية يعتد بها يمكن قدومها إلى وادى النيل من غير باب المندب والبحر الأحمر أو من غير سيناء وصحراء العرب، المرتبطة ارتباطًا وثيقًا بتلك المعابر، إذ من بين الطرق المؤدية إلى مصر، بقيت سيناء «حتى منذ الأزمان التى كانت فيها الآلهة هى التى تحكم مصر»، كما تشير الميثولوجيا المصرية أهم قنطرة ثابتة مفتوحة دائمًا للهجرات على نحو ما يقرر عباس مصطفى عمار، تقطعها إليها بشكل موجات فردية أو بشكل موجات فردية وجماعات قليلة أو بشكل غزوات كبيرة منظمة، سواء أكان ذلك بدافع الطمع فى الثروة أو هربًا من قوة عاتية تدفعها من الخلف. فإننا فى جميع الأحوال لا نجد قبيلة فى سيناء ليست لها فروع ممتدة ومتفرقة فى مصر، كما أننا لا نجد قبائل سيناء قد ظلمت نفسها ذات مرة وانكفأت داخل سيناء، قاطعة علاقاتها بأصولها المشرقية، فليدلنا الضالعون فى العلم على قبيلة كانت تنحدر من «أدم» مباشرة، نشأت فى سيناء ولم تكن أصولها ممتدة ضاربة فى الأردن وفى سوريا وفى الحجاز وفى مصر.

وهذا ما يجعل مصر - باستثناءات شاذة - تلتفت بوجهها إلى المشرق إذ أن نظرة إلى الخريطة البشرية توضح لنا أن مصر طوال تاريخها المعروف تنتمى إلى آسيا العربية، أكثر مما تنتمى إلى أفريقيا لأنها على حد قول الدكتور عبد المنعم أبو بكر (الأهرام ١٩٦٩/٩/٢٩)، وهى فى موقعها هذا منذ الأزل بينها وبين تجمعات العرب البشرية علاقات حضارة وشيجة، لم تنقطع طوال الزمن، وإنما نمت وتبلورت فى مفاهيم جديدة.

مميزات حضارة واحدة

لم تتوقف الصلات والتفاعلات بين الأقطار العربية ومختلف إقاليم عند الصلة العرقية الواحدة التى لم يعد هناك موجب للشك فيها؛ وإنما هذه الصلات لم تنقطع أبدًا، بل كانت تتزايد مع الزمن، ففى كتاب ميلاد الحضارة يكتب الدكتور أحمد فخرى مستندًا إلى أقوال العلماء (المجلة التاريخية المصرية عدد أول أكتوبر ١٩٥٠ ص٦-١٠) يكتب أنه لكثرة ما شاهده علماء الآثار من تأثير فن العراق فى الفن المصرى حملهم على القول باحتمال وقوع هجرة بشرية واسعة النطاق من بلاد الرافدين إلى وادى النيل منذ عصر ما قبل الأسرات (العصر الناسى فى مصر والسومرى فى العراق ٣٠٠٠ ق.م) فمما عثر عليه من ذلك العصر المبكر أختام أسطوانية، مأخوذة عن الأختام الأسطوانية التى كانت معروفة فى العراق من العصر الذى يطلق عليه الآن عصر ما قبل اختراع الكتابة. وكما عثر على ما يشير إلى تأثير العراق فى مصر، عثر على ما يشير إلى تأثير مصر فى العراق. وينتهى «ول ديورنت» من دراسته إلى القول إنه لم يكن التشابه بين مصر والعراق كالتشابه بين قطرتين من الماء فحسب، وإنما كان الشبه كذلك فى الفرص فى حضارات بلاد الشام وسيناء وفى التوراة وما جمعه الإسرائيليون وخلوه من تلك العهود (قصة الحضارة، ج٢ - ترجمة محمد بدران ص ٤٤-٤٥).

ولا غضاضة على مصر فى أن يكون العراق قد سبقها، لأنه لم يكن غضاضة على مصر نفسها فى أن يبدأ فيها نشوء الحضارة بالدلتا - قبل الجنوب - لموالاتها لسيناء وبلاد الشام ولسبقها لجنوب الوادى بالتجمعات السكانية، ثم تنشأ فى طيبة فإن الأصول التى استمدتها الحضارة فى مصر من أرض دجلة والفرات، سرعان ما نمت وأينعت وأثمرت حضارة بيئة خاصة فذة، راحت تعبر عن المنطقة بأكملها: تعبير الجزء المترع عن الكل - أغنى تعبير، وبلا ريب كان أغنى ما قدمه التاريخ المعروف وأعلاه شأنًا وأرفعه وأعظمه.

وقد التقت حضارتا مصر والعراق فى حضارات أخرى من حضارات المنطقة وتداخلتا فيها - فلمة قرائن قوية توحى بوجود صلات بالغة القدم بين حضارات ممالك السبئيين والمعنيين والحضريين والقتبانيين الراقية فى الجنوب وحضارة ما بين النهرين، كما كان للأدوميين فى المنطقة الواقعة بين البحر الميت وخليج العقبة وبين المؤابيين والعمونيين فى شرق الأردن، ثم الأنباط الذين جاءوا بعدهم علاقات بقيت وثيقة باصولهم فى الجنوب، حتى ليكاد يخيل للدارس أنها هى الأقوام التى عمرت سيناء لا ينفصل بعضها عن بعض إلا بالاسم (د. حازم نسيبة - قومية عربية - ترجمة عبد اللطيف شرارة).

إن وحدة العناصر السكانية كانت تنزع بالطبع هذه المنطقة منازع صلات أكثر حميمية، إنها كانت تنزع من التشابه الحضارى والتقارب فى الأساطير والعبادات، إلى التشارك فى ابتداع وسائل التعبير، فإذا نحن تجاوزنا «المدارس» القديمة فى النظر إلى اللغة واعتبرناها كائنًا حيًا يتطور بتطور الإنسان وقدراته العقلية وحاجاته، لا أنها قديمة قدم الله ولا أنها لغة الله ولغة الوحى، كما كان يقال، وكان القصد بهذه وتلك الإنقاص من تأهل العرب بجهدهم وأهليتهم لحمل رسالة الإسلام.

لعل أول من سبق إلى القول بوضع اللغة كان «ابن جنى» وإن وضعها لم يكن فى وقت واحد، بل على دفعات إذ تلاحق تابع منها بفارط على حد قوله فى كتابه «الخصائص»، ثم القاضى عبد الجبار الأسد أبادى فى «المغنى الذى دلل على أن اللغات تتطورًا عضويًا، ثم تلاهما ابن خلدون.

إذا كانت اللغة العربية قد شرفت حقًا بالقرآن الكريم وأن القرآن الكريم قد صادف فيها أغنى اللغات وأغزرها تجربة وأفصحها بيانًا وأقدرها على توفير الإعجاز، إلى آخر ما نعتز بوجوده فيها من صفات، فليس ذلك متأتيًا من أنها كانت قديمة قدم الخليقة، أو كانت لغة آدم فى الجنة.. أو.. وإنما لأنها حصيلة تلك الحضارات القديمة الرائعة التى نشأت فى جنبات هذا الوطن وورثة تجاربها، استطاع أهلها بما ميز لهم من ظروف فى وسط تلك الحضارات، أن يصفوها ويقطروها فيرتقوا بها وترتقى بهم، حتى إذا ما آن أوان رد فعلهم على حصار الأمم الغازية ليبلادهم من حولهم وتضييق الخناق عليهم فى شبه جزيرتهم من الخارج ومحاصرتهم بالعقائد الغريبة من الداخل، عند دوران القرن السادس الميلادى، كانت وكانوا أهلاً لحمل الرسالة إلى العالم.

ولا شك فى أن لهجات «محلية» و«إقليمية» عديدة، بل ولا حصر لها للتفاهم وجدت وفقًا للمجتمعات البشرية سبقت تكون اللغة، وراحت الحاجة تزداد إلحاحًا لتحويل رموز «البغمات» المحلية إلى ما يشبه القواعد للتفاهم نسبيًا للمصالح المتشابكة.

ابتداءً توصل قطبا تلك الحضارات: مصر والعراق إلى أسلوب واحد للتعبير بالصور: فسميت الكتابة المصرية بالهيروغليفية وكانت ترسم على أوراق البردى لتوفرها فى مصر ومجموع صورها خمسمائة، وسميت العراقية بالمسمارية لأن الصور كانت تحفر على ألواح من الطوب وكان مجموعها ثلاثمائة صورة، ولول ديورانت رأى لم يقطع به بعد، بانتظار بت المختصين مؤداه أن الكتابة التصويرية التى كان قدماء المصريين يستخدمونها قبل عصر الأسرات، كانت قد انتقلت إلى مصر من العراق مستندًا إلى أنه «كلما رجعنا إلى الوراء فى دراسة المصرية القديمة زاد ما نجده فيها من صلات بينها وبين لغات الشرق الأدنى السامية، حتى نكاد نقول إنها لغة واحدة»، وأيا كان من أمر انتشار الكتابة واتجاه انتشارها، فإنها أصبحت متقدمة تمامًا فى أوائل الألف الثالثة قبل الميلاد، وبالكتابة بدأ التاريخ.

ولقد ظل رجال العلم الحديث أمدًا طويلاً، يرون أن الأبجدية الفينيقية الشهيرة مشتقة مباشرة من الهيروغليفية لما بين البلدين من صلات وثيقة، بلغت قبل أن تقوى جذور الإقليمية حد اعتبار فينيقية امتدادًا للأراضى المصرية، وعلى قلة الآثار الفينيقية المتبقية إلى الآن، فإن الفن الفينيقى يشير إلى تبعيته التامة للفن المصرى، وكذا سائر مظاهر الحضارة الفينيقية، ومن ذهاب البعض إلى أن الفينيقيين هم الذين كانوا أول من عمم طريقة الكتابة بالحروف الهجائية، أخذوا أصولها من مصادر مصرية.

ولقد كشفت الحفريات فى ناحية بنت جبيل (رأس شمرة) شمالى اللاذقية بسوريا على الساحل الفينيقى عن كتابات اتضح إنها من الأبجدية الأوغاريتية المؤلفة من ثلاثين حرفًا، متأثرة بالهيروغليفية وبالكتابة المسمارية، وقد أوردت جميع الحروف على ترتيب الأبجدية الأرامية المكونة من (٢٢) حرفًا صامتًا، وهى تشكل كذلك إحدى الحلقات المفقودة التى يبحث عنها، ولوحظ أنه استعمل فيها نظامًا أبجديًا على أساس مختلف إذ كتبت الأبجدية بقلم على ألواح الطين، ولذلك اتخذت علامات مسمارية أو إسفينية، مستعينة لا شك بما ابتكره الكنعانيون من تبسيط، كذلك وجدت كتابة بهذا الخط فى بيت شمش، وهناك ما يحمل على الظن بأن هذه الكتابة كانت فى القرون السابقة، بل ربما كانت هناك بالإضافة إلى هذين النوعين من الكتابة الذين تم التوصل إليهما فى سيناء وفى الساحل اللبنانى والسورى أنواع أكثر تعقيدًا استخدمت ولم تصلنا، المهم فى ذلك كله هو ظهور هذا الواقع المتشابك بين أطراف عديدة فى الآثار المكتشفة التى تشير إلى الإسهام والمشاركة.

وأقتبس الأراميون عن الفينيقيين لغتهم، فنمت وانتشرت بانتشار تجارتهم ونفوذهم وبما أدخل عليها وغزت سائر المشرق وحلت فيه محل الهيروغليفية والمسمارية البابلية والأبجدية الفينيقية، فغيبا اكتشف منها فى تل العمارنة - عاصمة أخناتون - أمنحتب الرابع - تظهر أن الحكام المصريين كانوا يخاطبون أمراء سوريا باللغة الأرامية، مكتوبة بالخط المسمارى أى أن تلك اللغة كانت هى اللغة الدبلوماسية المتعارف عليها فى العالم المتحضر حينئذ، وكان هذا العالم لا يعدو الشرق العربى الآن وبلاد فارس، (جون ويلسون: الحضارة المصرية، ترجمة: د. أحمد فخرى)، وكانت تلك الكتابات بالخط المسمارى الأكادى قبل أن تأخذ الأرامية شكلها الأخير، وقد سهلت ببساطة أبجديتها على الجنوب اشتقاق لغتهم مباشرة من الكتابة السينائية التى كان لها على الفينيقيين كذلك فضل تحقيق المرحلة الابتدائية.

لا فرق بين الأقوام التى عمرت مصر من الشمال عبر سيناء والأقوام التى عمرتها من الجنوب، فكلهم من أصل واحد. الفرق الوحيد ربما أن الأقوام القادمة عبر سيناء كانت أسبق إلى الحضارة كما تدل دراسة مقابر بنى حسن، وكانت أكثر عرضة لتدفق سيول الأقوام اللاحقة من الشرق، كما يشير بناء «حائط الأمير» الذى أقيم لصدها عن ورود النيل بقطعانها

بات بحكم الثابت الآن أن تلك «اللغات» التي يجمع المؤرخون مع ذلك، على أنها من عائلة لغوية واحدة، بل ومن أصل واحد، لم تكن في حقيقتها إلا لهجات، ضاع غيرها كثير للغة واحدة لم تكن قد اكتملت بعد، ويرجع ما بين هذه اللهجات من أوجه الخلاف إلى عوامل عديدة مثل الزمن وجغرافية المكان وانعدام الوحدة السياسية والأوضاع الدينية.. إلخ لا إلى الخلاف في المنشأ الجنسي، وهذا ما يدعو الباحث المتعمق إلى القول بأن هذه المناطق عثرت في اللغة العربية بمجيء الإسلام بالقرآن على ضالتها: على اختصار لجهدها فوجدت فيه ما يعبر أحسن تعبير عما تريد فلم تكره على تبني اللسان العربي كما يقال، وإنما تقبلته برضى، كما استقبلت حكم العرب المسلمين.

المقصود الأهم، ليس تقديم دراسة في اللغة وأصول نشأتها، وإنما بعد بيان الأصول العرقية الواحدة لهذه المنطقة، إظهار مشاركتها في تطوير اللهجات التي انتهت إلى اللغة العربية، وأصبحت لغة القرآن، وعليه فاللغة الصفوية، لغة سكان الصفا، الدولة المشهورة التي قامت جنوب سوريا ممتدة من شمال الأردن إلى النمارة - كانت لهجة عربية قريبة من لغة القرآن أو هي عربية الكتابة كما يدل على ذلك أقدم نص يرجع إلى القرن الرابع الميلادي وهو نقش النمارة وهي مرتبطة ارتباطاً عضوياً بجنوب شبه الجزيرة.

وبانساع ثلر التجار الأراميين اتسع أثر لغتهم وبانتشار الأراميين انتشرت الأبجدية الفينيقية - الكنعانية لغة واحدة فقط، راحت تنمو وتتقدم وتنتشر بجانب الأرامية حيثما كان في جنبات المنطقة، هي اللغة العربية وذلك مع انسياح العرب المستمر، فقد كانت في بوادي الشام والعراق، في المدن والقرى المتاخمة وعلى الأخص في حمص وقنسرين ووادي الأردن وفي الشام والأنبار والمدائن والموصل والرها ونصيبين.. إلخ. في العراق والجزيرة، هي اللغة الدارجة، كما راحت تنتشر في الشمال الإقريقي وفي مصر، بدلالة مراكز الملاحة العربية المنتشرة في عهد البطالمة ووجود الكتابات العربية في المعابد المصرية.

يخطئ من يظن أن اللغة العربية مجرد أبجدية: حروف ترصّ وتراكيب تنشأ في بناء أصم، إنما هي كائن حي لا تحمل من المعاني والأفكار التي تعبر عن الأفراد فحسب، بل هي ما يلخص وهي تقوم بهذا الواجب بين الأفراد والشعوب والوجود الحضاري للمجتمع واللأمة، لذلك فإن الباحث في اللغة العربية يجب أن يجد مفتاح فهمها وغناها وسعتها في هذه المجتمعات الحضارية التي انتهت بتطورها عبر العصور إلى إخراج اللغة العربية، فقول بعض الباحثين في تاريخها ممن مس بعض جوانب الحقيقة بهذا القول، بأن قبائل جمة، آرامية وكنعانية وآمورية ومعينية.. إلخ، امتزجت بالـ «عرب» في الجزيرة العربية أو على تخومها وتركت فيهم آثارًا ظاهرة - صبحي الصالح - ليس كل الحقيقة، فالوصول إلى استجماع هذه الحقيقة لا بد من الأخذ بعين الاعتبار إلى جانب تمازج هذه الحضارات، الهجرة السلبية منها، هجرة أقوام من الحضارة إلى البادية، على غرار عودة إبراهيم الخليل من الاستقرار فترة، ثم معاودة الترحال، وعودة قبائل «معين» في العراق مرة إلى حياة البادية وعودة القبائل النبيية بعد أن اجتازت النيل إلى الغرب، إلى أرض مصر مرة ثانية للاستقرار فيها.. إلخ. وتمازج البداوة بالحضارة في جميع مراحل تاريخ هذه الأقوام، ونشوء اللهجات المحلية والإقليمية في كافة هذه المجتمعات الحضارية قبل أن تنفتح بعضها على بعض في الإسلام، فيها هنا مصدر سعة التعبير في اللغة العربية وكثرة المفردات وتنوع الدلالات.

العدد الثامن والعشرون - مايو ٢٠٠١م

كتابة المؤرخين الغربيين، كثيراً ما توقعنا في الالتباس وكالعادة تسهل علينا مجاراتهم في آرائهم دون تمحيص، مثلاً ما جرى بشأن الكهسوس والليبيين مع أن أمر البت في أصل هذه الأقوام لا يحتاج إلى عناء كبير إذا حسنت «النية»، فمتى الكهسوس لا نعتقد أن تكهن المؤرخين الآن، باعتبارهم غرباء عن المنطقة، أقرب إلى الصحة من معلومات قدامى المصريين أنفسهم عن الكهسوس

الحكم الأجنبي ومحاولات التحرر بالمسيحية العربية

لم تكن هذه المنطقة التي يسكنها العرب الآن ويعيشون على سطحها، غائبة عن الصراع الطويل الذي نشب في العصور القديمة بين الشرق ممثلاً في الفرس حينئذ والغرب ممثلاً في اليونان والرومان، الذي أدى بكورش Xerkes أن يصل إلى محاربة الغرب في عقر داره، في ماراثون وإلى أن يرد الغرب الكيل كيلين فيجتاز البحار إلى احتلال الشرق، الذي كان يتمثل في المنطقة العربية وما وراءها، وإنما كان الصراع في حقيقته وجوهره هو عليها وبالذات على الطرق التي تخرج منها أو تؤدي إليها جالبة سلسبيل الحياة إلى المجتمعات البشرية.

ولقد أدى هذا الصراع إلى تناوب السيطرة على هذه المنطقة التي يسكنها العرب ومع أنه ما كان في قدرة هذا الحكم الأجنبي أن يتغلغل ويغير من طبيعة الشعب إذ بقي طيلة وجوده لم يتعد بعض الثغور والبؤر، «محاصراً» لا حاكماً، فالإسكندرية وإن بقيت عاصمة البلاد إلا أن اسمها أصبح Polis، الحاضرة وأصبح الوادي هو الريف Chorix وكان مغزى هذا الثنائي ازدهار الحضارة المصرية من خلال معاملتها في معابد إدفو وإسنا وفيلة وطيبة ودندرة، حيث كان وراء نشاط المعماريين والرسامين في زخرفة المعابد ونقش الأساطير الكونية وعلاقتها بمصير الإنسان على الأرض، اعتزاز واضح بخلود مصر من خلال أن الاعتقاد بتخليد هذه الطقوس على الحجارة الضخمة وهو أقوى مواد الكتابة، سيجعلها تخلد لأن خلودها خلود لمصر وللكون بأسره.

ويذكر هيرودوت ما يؤكد على امتناع المصري عن الاندماج، إذ كان ينفر من الإغريقي ويعاف تقبيله كالعادة عند التحية، كما يرفض أن يستخدم سكيناً أو مقلاة أو مرجلاً صاحبه إغريقي، وحرم على المصريين تذوق لحم العجل المذبوح بسكين إغريقية، وقد ظلت المعابد طوال تاريخها قلاع المقاومة ضد الغزاة وكانت مراكز الثقافة الوطنية، وقد حظر دخولها على غير المصريين. وإذا ارتاب الكهنة في أن يتوصل الأجانب إلى معرفة سر السحر المصري المنقوش على حوائط المعابد ويبطلوا مفعوله، لجأوا إلى تحويل الكتابة المصرية إلى طلاسم ورموز ذات شفرة خاصة لا يعرفها سوى خاصة الخاصة من الكهنة.

ولم تختلف طبيعة الحكم الروماني إلا في أن مدته كانت أطول وأنه كان أشد صلفاً وأكثر عنفاً، فمن المعروف أن علية القوم من أهل المدن في بلاد الرومان نفسها كانت تتفرد بحقوق لا يتمتع بها عامتها ولا يرقى إليها أهل الريف فيها، فما بالك بأهل المدن وبأهل الريف في البلدان الأجنبية التي فتحت بحد السيف، إذ لم يكن من حق الشعوب الأخرى أن تنال من الاعتبار إلا بمقدار علاقتها بالتاريخ الروماني على حد تعبير البان ويدجري، من هنا كان لابد للإرادة الحاكمة في المقاطعات الخاضعة للحكم الروماني من أن تكون منفصلة تماماً عن الشعب المحكوم، ولم تكن القوانين التي فتحت الأبواب لتسرب عناصر عربية إلى الحكم في أواخر الحكم الروماني، بهدف تحرير الشعوب العربية بقدر ما كانت دليلاً على تنازلات الحكم الروماني نفسه، فما لبثت السلطة المركزية أن تفككت وإذا بدوقيات مصر الخمسة تستقل الواحدة عن الأخرى بحكومتها وحاميتها، تجعل الواحدة منها ما تفعله الأخرى حتى دخل العرب المسلمون الإسكندرية.

هكذا يمكن القول بأن «المسيحية» الأولى كانت مسيحية عربية، لم يشرف القرن الثالث من تاريخها على نهايته، حتى كانت لها مراكز ثابتة ينتشر منها المبشرون إلى من جاورهم من الأمم في الشمال الغربي من سوريا وفي الشمال الشرقي من العراق وفي الغرب والجنوب من الحبشة، فمن بيت المقدس ومن دمشق ومن انطاكيا ومن الرها انطلق المبشرون إلى حيث العرب، أي إلى حيث مركز القبائل، وحينئذ كما يؤكد د. أسد رستم وياخذ عنه د. عباس مصطفى عمار، بدأت تطرق الأسماء أخبار أساقفة بصرى وتدمر.. إلخ. ولم يشعر معتنقو هذا الدين الجديد بشيء من الطمأنينة على دينهم إلا حين انتشرت الكنائس في بلاد العرب الصخرية وقام فيها كرسي ديني عرف بكرسي فلسطين الثالثة امتدت فروعه إلى أيلة وفاران وجبل سيناء وغيرها Palestine Tertur.

كانت رغبة شعوب المنطقة في «الخلاص من الحكم الأجنبي» ظاهرة بكيفية أو بأخرى، وظهور «المسيحية» وانتشارها شكل مرحلة جديدة في تبلور واشتداد نزعة التحرر من خلالها، فقد عثرت فيها هذه الشعوب على طريق الخلاص. وفي هذا اختلفت شعوب شرقي البحر الأبيض المتوسط وجنوبه عن الشعوب غربه وشماله لأسباب عديدة، فكان أن تولدت عوامل الحرص على وحدة الإمبراطورية، وهي وإن بدت بطيئة ولكنها كانت فعالة في تحول القياصرة، وبالنتيجة إلى اعتناق الدين الجديد وحرف تجاهه، إذ مهما حيك من قصص حول اعتناق قسطنطين للمسيحية، فإنها كانت محض أساطير، فشتان ما بين الإيمان بمرسوم كما يجري في الغرب والإيمان العفوي في الشرق للتوافق بين آفاق الدين الجديد والأماني الدفينة التي يغذيها الإنسان في دخائله للخلاص من وضع مهان فيه والانتقال إلى وضع أفضل، كما كان الحال حينئذ بين الغرب الحاكم والشرق المحكوم.

فمادا يهم الإنسان غير ما هو فيه، فإن ذهب به همه إلى أبعد: إلى الجنة أو جهنم فإنما هو ناجم عما هو فيه ودواه له، فلم يكن تعطش ذلك العالم الذي ولدت فيه المسيحية إلى القوة الروحية ناجماً من فراغ، وكانت خشية الإمبراطورية الرومانية من هذه القوة الروحية دافعها إلى الاضطهاد لإيقاف الانسياق إلى التحرر بالمسيحية، ومن هنا جاء المجمع النيقي الأول (٣٢٥م) لنافي هذا «التحرر» في الانساق الماضي فيه، الذي كان سيؤدي إلى انفراط الامبراطورية إلى اتجاهين، لذلك عاد الامبراطور قسطنطين بإيمانه وقد عاد يجمع في يديه كل السلطة في العالم الروماني شرقه وغربه - بعد أن قسمه إلى إبارتين - يحشد جميع القوى السياسية والدينية في مجمع نيقيا المسكوني لإعطاء الإمبراطورية المهددة بالانهيار، وبالتالي المهددة بانعتاق جزئها الشرقي من نيرها، دعماً بوحدة أيديولوجية، فكان لابد لذلك من تغليب المفهوم التقليدي الملكي عن «الرب المغذب» على ذلك المفهوم المنطلق من النظر إلى يسوع المسيح على أنه رسول وكانت تمثل هذه النظرة الإسكندرية وعلى رأسها «اريوس» الليبي الأصل، ومن ورائه «المنطقة العربية».

من هنا، من مجمع نيقيا، تبدأ حقبة الاضطهاد الثانية في تاريخ المسيحية، وهي الحقبة التي تشتد فيها محاربة الدولة والكنيسة الرسمية (التابعة لها) لمسيحية الشرق لإعادتها إلى عقيدة الغرب، باعتبار أن المسيحية أصبحت عقيدة الدولة، ولكن بتفسيرها الخاص لها: اليوناني - الروماني - وليس بعقلية اعتناق المناطق الشرقية لها، وبدت ملامح الانشقاق واضحة بين العقليتين وبين المفهومين. إلا أنه على الرغم من تمسك هذه المناطق بثقافاتها وبهويتها المتميزة عن المحتل رغم جبروته، وبدينها فيظهر المسيحية، ثم بعد ظهورها بتمسكها العنيد بتفسيرها الخاص لها المتميز الأكثر إنسانية وتحملها الاضطهاد والتشرد في مرحلتي تاريخها قبل صدور مرسوم ميلانو ٣١٢، وهو المرسوم الذي جعل المسيحية دين الدولة وقد الاضطهاد لفرضها وتعميمها، على الرغم من توفر

خصائص التفرد، هذه كلها لم تتوصل هذه المناطق التي يكاد ينتظمها نزوع واحد للتحرر من الحكم الأجنبي إلى الاستقلال عنه، ولئن كان مجمع خلقيدونيا عام ٤٥١م الذي انعقدت بعده المسيحية نهائيًا قصارت مسيحيتين، بدل على شيء بذلك، فإنما يدل على استعصاء هذه المناطق الشرقية التي انفصلت بدينها عن روما، على الاندماج مع أنها أحق بزعامة المسيحية، لكن الثابت في التاريخ أن الزعامة الدينية لابد من أن تظللها قيادة مدنية سياسية لتمكن لها.

المعروف أنه عندما أصبحت كنيستا أنطاكية والإسكندرية صاحبتي العقيدة المركزية، أي منذ تأسيسهما حتى مجمع خلقيدونيا عام ٤٥١م، قد حصلتا على «صلاحيات الإدارة الذاتية والمستقلة»، وعندما اعترفت الدولة على تملك أهل مصر للأراضي، أخذت الكنيسة فيها والأديرة تضيف باستمرار إلى ممتلكاتها وأصبحت أقاليم بكاملها تخضع لسلطانها (أبو سيف يوسف، وجاك تاجر)، كما أصبح للبطاركة والأساقفة سلطات مدنية، بل وكانت لهم سلطات قضائية، وتوطد نفوذهم ليمارسوا حق الإشراف على الإدارة الحكومية، ولم يجئ القرن السادس حتى صارت الكنيسة المصرية تعد أكبر الملاك، تتمتع بحق الحباية الذاتية وحق الحماية الذي حرم منه كبار الملاك، على ما تؤكد نفس المصادر، وكانت الكنيسة المصرية بلغت ذروة نفوذها في عهد البطريرك ديستوريس الذي قيل إنه كان «سيد البلاد المطلق» (صبحي وحيدة) وكان ينسب إليه، كما يذكر جاك تاجر قوله: «إن البلاد لي بأكثر مما هي للإمبراطور، وإنني أطالب بالسيادة على مصر» وهو كلام غير مستغرب، لأن تقديرعدد أتباعه في رأي أبو سيف يوسف بكتابه (الأقباط والقومية العربية) كان ستة ملايين على عقيدة واحدة مقابل مائتي ألف، إذ يؤخذ من كتاب أميلينو عن حياة شنودة أن عوامل الاستقلال كانت آخذة في التوافر فإن عوامل استقلال إقليم أخميم كان يتجلى في عجز الدولة والامبراطور عن الوقوف في وجه المد «العربي» وهجمات القبائل البدوية.

ولا أظن أننا نسقط على حركة «الرهبنة» التي نشأت وتفاقمت «نزوعًا» إلى الاستقلالية عن روما لم يكن فيها، فمما لا شك فيه أنه كانت لحركة الرهبنة التي انطلقت من مصر جذور تاريخية في حياة المنطقة لم يكن الحكم الروماني وهيمنته بعيدين عنها، بل تسلطه واستبداده، يلاحظ هذا بوضوح من طبيعة وظروف الأقاليم التي انتشرت فيها: كان أهمها الإقليم الطيبي في الصعيد وفي الصحراء الشرقية، في حماية القبائل، وما لبثت - إذ اتسع نطاقها - أن تحولت إلى حركة جماهير معظمها من الفلاحين الهاربين من قراهم، طابعها المميز خضوعها لنظام موحد، يعكس النظم الإدارية والعسكرية إلى حد بعيد، يشمل أديرة عديدة من الصعيد الأعلى، ثم انتشرت هذه الأديرة في طول البلاد وعرضها من أعالي الصعيد إلى شمالي مصر عند وادي النطرون، ومما يلفت النظر في هذه الحركة نظام «رهبان الشركة» الذي كانت المعيشة فيه «بمقتضى حياة جمعية».

فمن منتظر الحكم الروماني المسيطر المستبد من جهة ومن منتظر الأهالي من جهة أخرى إذا لم يكن في هذه الحركة سمات للتحرر والانعتاق، فماذا يكون إذن؟

وبالتأكيد، لم تكن «الحركة الديرية» حركة تصوف منقطعة، منعزلة عما يجري حولها، فإننا نراها إبان احتدام صراع بطاركة الإسكندرية ضد المذهب الرسمي للدولة تشكل فرقًا منتظمة من وادي النطرون ومربوط تظهر في مدينة الإسكندرية لتساندهم، كما شهدت البلاد القتال إلى سيناء وأحيانًا إلى الاصطدام بقرعون مصر، وتوغل البابليون في شبه الجزيرة العربية وأخضعوا واحة «أدومو» التي عرفت فيما بعد بواحة دومة الجندل فلئًا منهم أنها معقل العرب وبإخضاعها يكونون قد أخضعوا العرب، ولكن برزت لهم أيام الدولة البابلية الحديثة، واحة تيماء اضطرت الملك نابونيد أن يقيم فيها فترة حكمه، ويبدو أن قبيلة تيم الشهيرة هي التي كانت تملكها.

وقد اختلف الرأي في أصل هذه التسمية: عرب وعربي وعروبة، كما اختلفت الآراء في نطقها في بداية ما نعرف من انتشارها، فقيل إنها كانت تعني «أربي» وكانت في لغة الأشوريين غرب، أي تعني اتجاهًا جغرافيًا، كما قرئت «أروب» و«أربي» و«عـربي»... إلخ، وعلى أية حال فالرأي السائد بين العلماء أن تلك اللفظة أو العبارة الواردة لأول مرة في أخبار تلك الحملات التي كان يقوم بها ملوك الأشوريين على ما حولهم من البوادي في القرن التاسع ق.م - إلى أن يكتشف غيرها - أيا كان نطقها، كانت تعني البدو من ساكني الأطراف الشمالية للجزيرة العربية (بادية السماوة وشبه جزيرة سيناء وشمالي الجزيرة العربية)، وهؤلاء هم الذين أطلق عليهم اليونانيون بادئ ذي بدء اسم سراكيونى (Sarakenai)، على ما يذكر مكسيم رودنسون في كتابه (محمد: طبعة دي سوى) وأطلق عليهم في اللاتينية (Saracini)، أي الذين يعيشون في الخيام، اشتقاقًا من كلمة (Skene وتعني خيمة، والمقصود «بيت الشعر».

والملاحظ أن هذه الصفة كانت تختلف في بدايات إطلاقها باختلاف اللغات واللهجات التي تصفها من مواقع الحضارات التي تحيط بالمنطقة والتي بدأت تتعامل معها.

فإذا نحن نحينا جانبًا الأساطير التي روجت حول الإسكندر تمهيدًا للفتوحاته في الشرق بأنه في الحقيقة ابن الإله آمون رع وليس من صلب فيليب المقدوني، كما يقول مؤرخه كاليثينس (Callisthincs) (مصر وعالم البحر المتوسط: إعداد وتقديم د. رءوف عباس) أو ما نطرق إليه د. جواد علي من ترويج الشائعات بأن أصل اليونان من العرب، فإن أول احتكاك جدي كان بين اليونان وهؤلاء العرب هو عندما تصدى زعيم عربي لجيوش الإسكندر في غزة ليصدها عن المضي في طريقها لاحتلال مصر، وإعاقتها مدة ستة شهور بتحالف مع جيوش عربية أخرى من سيناء اضطرت الإسكندر إلى نصب آلات القتال فأحرقتها وأرغمت المقدونيين المتحصنين على التراجع وأوشك جيش الإسكندر على الهزيمة لولا المدد، وتسمى المصادر الأجنبية زعيم هذا الصمود باسم بانس (Batis) لعله باطش بالعربية، وقد علل الدكتور فيليب حتي وهو يحمل ما كتبه هيرودوت وبيليوس وغيرهما من الكلاسيكيين عدم ذكر هذه الأقوام الأفلة للأقسام الشرقية من مصر والمتصلة بطور سيناء بصفة «عرب» بأن كلمة عرب لم تكن تعرف بعد، علمًا على فئة متميزة، فعدم ورودها لا يمكن أن يكون لعدم الاتصال لأن هذا الاتصال كان طبيعيًا يجري مجراه منذ القدم، بل لأن قدماء المصريين كانوا يصفونهم بكلمة «عمو» (Ammou) التي تعني عندهم معنى «عرب» أي بدوي وآسيوي.

لعل المسعودي (أبو الحسن علي بن الحسين) هو الوحيد الذي أشار إلى علاقة شبه الجزيرة العربية بمنطقة الحضارات المحيطة بها بجملة مقتضبة وإن كانت معبرة قال: «إن أمة واحدة سكنت العراق والشام والجزيرة الفراتية والجزيرة العربية، وإن الشعوب الأشورية والآرامية هي فروع أمة واحدة (الكدانية) وإن نسانها كان واحدًا، إلا أن بلوغ ذلك المستوى الرفيع من الرقي والتقدم بتماسك شخصية الفرد، والفصاحة والبلاغة في الشعر والحكمة، مما أقر الإسلام الأخذ به ولم ينبذه، يبقى بدون تفسير كاف مقنع حتى الآن.

من هنا ذهب قائلون في تفسير هذا الرقي البالغ المعجز في «لغة العرب»، التي هي لسان رفيعهم، أنها «لغة قديمة قدم الله» أو قدم الخليقة وأن آدم كان يتكلمها، أو أنها كانت على الأصح لغته، حتى لقد نسبوا إليه شعرًا حفظه العرب وتناقله الناس، هزئ به المعري بسخريته اللاذعة في رسالة الغفران وهو يصف بصورة رائعة آدم بين الجنة والأرض، وإياكان حسن النوايا الدافع إلى هذا الكلام فإن المقصود كان هو التقليل من جهد العرب للوصول إلى مستوى حمل رسالة الإسلام كدين تميز إليه بالترجمة والعدل ومقت الظلم والحقد.

حقيقة كان ظهور العرب على ذلك النحو المعجز بدون تعليل إنساني في ذلك الزمن، إلا إرادة السماء مدعاة للإذهال لدى الذين لم يفطنوا لحكمة التطور في الكون، فظهورهم فجأة هكذا في التاريخ، وعلى نحو يكاد يظهر أنهم في أوج مراحل تطورهم كان مثار الكثير من الاجتهادات والتفسيرات الغريبة.

نختار من بينها مثالين: أحدهما من بلاد الشام والآخر من أرض الكنانة، بدلان - عند غياب العلم - على الأفرق بين تعليل يساق منذ أربعة عشر عامًا وتعليل في القرن العشرين، ففي دمشق كان أحد أبرز القادة اللوميين يفسر أعجوبة نهضة العرب الجاهليين بأنها الفارق بين العرب والأمم الأخرى أن العرب ولدوا أطفالاً يكامل ألسنتهم ولا يلبثون انتظار تلاميذه إلى الأثر المتبادل بين هؤلاء العرب والحضارات المحيطة التي كانت لاتزال مدفونة، ولم يكن - في دراساته العليا في السوربون ببباريس - يهتم إلا بما كان حينئذ مقدونًا به: الحضارة اليونانية. وعندما صارت الحضارات العربية القديمة تنبش ويكتب عنها كان ذهنه قد أصبح عصيًا على القراءة، وأغرب من هذا ما طالعنا به في مصر الدكتور لويس عوض في كتابه فقه اللغة، إذ تساءل من هم العرب وما موقعهم من

ظل رجال العلم الحديث أمدًا طويلاً، يرون أن الأبجدية الفينيقية مشتقة مباشرة من الهيروغليفية لما بين البلدين من صلات وثيقة، بلغت قبل أن تقوى جذور الأقليمية حد اعتبار فينيقية امتدادًا للأراضي المصرية، وعلى قلة الآثار الفينيقية المتبقية إلى الآن، فإن الفن الفينيقي يشير إلى تبعيته التامة للفن المصري، وكذا سائر مظاهر الحضارة الفينيقية

ظهور الجيل العربي

بدأ ذكر العرب، كجيل جديد من سكان هذه المنطقة الممتدة من «الخليج إلى المحيط» التي تعددت أسماؤها بعد أن أخذ يتردد في عدد من النصوص في سجلات ملوك الأشوريين التي بدأت تصف بعض الشخصيات بأنهم «عرب» أو أنهم ملوك أو ملكات على «بلاد العـرب» - بدون تحديد المدى لمفهوم بلاد العرب، وجاء أوله بمناسبة معركة «قرقر» التي جرت بين شلمناصر الثالث (حكم من ٨٦٠ إلى ٨٢٥ ق.م في العراق) وبين ملك دمشق الآرامي وحلفائه، وكان أحدهم «جندب» أحد مشايخ العرب، وأكمل نص لسجل هذه المعركة ما أورده الدكتور لطفي عبد الوهاب يحيى (العرب في العصور القديمة - دار النهضة العربية - القاهرة) هو: «قرقر عاصمة المملكة أنا خربتها، أنا دمرتها، أنا حرقتها بالنار، ١٢٠٠ مركبة، ١٠،٠٠٠ جمل لجندب العربي، هؤلاء تاليوا علي».

ثم يتوالى ذكر الحروب مع العرب وقبائل العرب في سجلات الأشوريين طوال ثلاثة قرون تقريبًا حتى عهد نبوخذ نصر أو يختنصر، كما في الكتب العربية، يرد فيها اسم عدد من القبائل البائدة مثل غبابر وثمود والقبائل الباقية مثل تيم، وتمتد غزوات ملوك الأشوريين لهذه

الحضارات حولهم فى مصر والعراق، وانتهى من تحليله المسهب إلى أن ثمة مخزنًا بشريا عظيما خرج منه عديد من أقوام منطقة الشرق القديم منذ الألف الثالثة قبل الميلاد، كانت المنطقة المحيطة ببحر قزوين من ميديا عبر جبال القوقاز حتى البحر الأسود، وآخر هذه الموجات كانت الموجة العربية التى وفدت إلى شبه الجزيرة على المستوى الجماعى فى الشرق القديم (مقدمة فى فقه اللغة، الهيئة المصرية العامة للكتاب ص٣٠). ولم يذكر كيف نقدموا ولا كيف تيسر لهم الانتشار وهى لهم تلك الرقى، ولا علاقة للفتهم بماضيهم ذاك! وبما وبمن حولهم.

فمن يقرأ المقريزى فى كتابه: «البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب»، أو كتاب الدكتور عباس مصطفى عمار: «المدخل الشرقى لمصر»، أو كتاب احمد لطفى السيد (باشا) المقلب باستاذ الجيل الذى توقف فيه عند نهاية جزئه الأول لأمر لازال مجهولاً، يلاحظ أنهم فى تاريخهم للقبائل البدوية العربية التى عنوا بها لم ينطلقوا من فراغ ومن أن أرض مصر كانت قبلها خالية، كما أراد بعض المؤرخين حينما اعتبروا أول قدوم للقبائل العربية إلى مصر إنما كان بطلب من ولاة مصر المسلمين، فالبدو فى مصر كما فى جميع أمصار الوطن العربى، أصل الحضر يشهد بذلك، كما يقول لطفى السيد فى كتابه «العليقات» التحقيق فى نسب أهل الأمصار فإنك تجد أوليتهم من جانب المصر وبواديه وانهم أيسروا فبنوا الدور والقصور ولهذا نجد التمدن غاية يسعى وراءها البدوى وكذلك رأى القبائل البدوية كلها ولا يختلف هذا عن رأى ابن خلدون.

كانت طلائع هذا «الجيل العربى» فى المشرق أوضح وأكثر رسوخًا بسعة الانتشار وكثرة تأسيس الإمارات والممالك، فمنذ القرن الرابع قبل الميلاد أصبح العرب الأنباط الذين لا يعرف على وجه الدقة متى تقدموا من الجنوب يهيمنون على الطرق التجارية بين مصر والشام والجزيرة العربية وجنوب الجزيرة، وفى مستهل القرن الجديد غلوا كعادة الذين يؤسسون الإمارات والممالك من القبائل، أهل إبل وماشية معًا ثم مهيمنين للتنقل، وفى القرنين الأخيرين قبل الميلاد صارت مملكتهم هى المتنفذة فى فلسطين الجنوبية وفى الأقسام الشمالية من الحجاز وبين النبط وحكومة «سبأ وذى زيدان» إمارات ومشيخات.

وعلى كل، منذ بداية التاريخ الميلادى على الأقل، صار المرء أينما سرح نظرة فى بلاد الشام وسيناء وأطراف مصر والعراق بامتداد شبه الجزيرة العربية، إلى قوس جبال طوروس الشاهقة فى الشمال، حيث ديار بكر، نجد قبائل عربية تفترش البوادى وجيوبها فى المعمور، تتنقل فى رحلتين دائمتين بين مصايفها ومشاتيها مرتبطة بمراكز مشيخاتها وإماراتها أو ممالكها الثابتة فيما يشبه رحلتى الشتاء والصيف لقريش اللتين يبدو أنهما خالدتان فى حياة البدو الرحل (د. فتحى سحاب: إيلاف قريش، رحلة الشتاء والصيف، المركز الثقافى العربى - بيروت). وهما رحلتان خالدتان فى حياة البدوى العربى بشكل أو آخر، فإننا نرى الأمراء السعوديين الآن، رغم بعد الزمن ببعضهم على انطلاقهم من حياة البداوة بين الدرعية موطنهم فى السعودية ودبار حمص، دبار رحلتهم فى الصيف، لا يزالون يحنون إلى مناخ الصحراء فيرتحلون كل عام.

ويذكر أن قبائل العرب فى بلاد الشام وما بين النهرين، راحت فى عام «الوفود» ترسل وفودها إلى المدينة، وليس من شك فى أن قبائل مصر فعلت فعلها، إن لم نذكر - وقد أسلم بعضها مثل بنى النمر وقضاعة وكان منها من يفترش أرض مصر لورود ذكرها فى استقبال عمرو بن العاص، وبعضها لم يسلم فظل على نصرانيته، وكان أحد وفود بنى تغلب لا يزال على ونيته فاعتنق الدين الإسلامى، وقد عقد النبى مع المسيحيين منهم معاهدة سمح لهم فيها بالاحتفاظ بدينهم (الوثائق السياسية جمع محمد حميد الله، دار النفائس بيروت)، ويظن أن ما شرط فيها من عدم تعميد ابنائها كان من اقتراح أسر «تغلب» نفسها، فى حين أن د. خليل عبد الكريم فى كتابه «دولة يثرب - دار سينا، يرى أنه ترك للآباء حريتهم فى الاختيار، وعلى كل فمن المعروف أن المسيحية استمرت طويلاً فى هذه القبيلة، رغم ولائها للدولة وللإسلام، وكان شاعرها أشهر ثانى اثنين من شعراء عهد بنى أمية كله، وقد حرم الخليفة عمر ومن جاء بعده استخدام أية وسيلة من وسائل الضغط عليها للفضل ما قدمته فى حروبها إلى جانب الإسلام، ومشهور هو قتالها ببسالته ونخوته الذى شق صفوف المقاتلين فى حرب الإسلام بفارس قاصدًا المرزبان وعاد شاهرًا سيفه يثير حمية الفرسان وهو ينادى: أنا قتلت المرزبان!

لذلك فإن الجزية التى كانت تفرض مقابل الحماية، كانت قبيلة تغلب تدفعها باسم صدقة أو زكاة لا باسم جزية، وقد جرى الأمر على هذا النحو مع قبائل أخرى كقبيلة الجراجمة (بجوار أنطاكية) وغيرها من القبائل التى كانت تقيم شمال بلاد فارس، ولابد أنه كانت لدى الخليفة عمر أسباب شبيهة منها اشتراك المصريين فى صفوف المسلمين وراء أمره بمعاملة البلدان التى فتحت صلحًا.

إن المخطوطات التى عثر عليها مؤخرًا فى شرق الأردن تدل على أن معظم السكان كانوا من العرب المرتحلين، مستعدين أن يعتنقوا وحمايته الإسلام الخالصة، الإسلام الذى يرى أن إبراهيم وموسى وعيسى كغيرهم من الأنبياء هم رسل الله، وهم أنبياء مبشرون بالإسلام، مرحصون بخبره، فها هنا مفتاح الإجابة عن التساؤل الكبير الذى يدور فى أذهان المؤرخين حول تقرير بلاد الشام فى معركة واحدة (اليرموك - ٢٠ آب / أغسطس ٦٣٦م / أوائل رجب ١٥ هجرية)، التى وجد فيها المحتل الأغريقى نفسه وحيدًا وقد انفض عنه الشعب كله بعد أن انسحب النصارى العرب منه وتمرد النصارى الأرمن، فانسحب الجيش البيزنطى ووصلت الجيوش الإسلامية إلى دمشق دون قتال، كما تقرر مصير العراق وما بين النهرين فى معركة «القادسية»، ومصير مصر فى معركة واحدة، فقد أدى التطور بمفاهيم الدين والنظرة إلى الحياة والكون إلى ما يشبه التلاؤم مع شبه الجزيرة.

ففى تلك، ابتداءً كما يقول روجيه جارودى فى (فلسطين أرض الرسالات) يكون مفتاح فهمنا لوصول الجيوش العربية - الإسلامية بتلك السرعة الخاطفة إلى سفوح جبال طوروس، حدود التماس بين المد من داخل المنطقة العربية وموجات الأقوام الأخرى، لا فى الاستبداد القمعى الذى مارسه الأباطرة البيزنطيون فأيدوا به الكنيسة الرسمية فى اضطهادها للكنيسة الشرقية. كما يحلو تصويره فى نظر بعض المؤرخين، لا ولا أيضًا بسبب ما راج على أثر نظرية «هنتنجتون» أن القحط والجفاف والفقر والطمع فى ثروات الحضارات.. إلخ كانت وراء استبسال الجيوش العربية - الإسلامية - فتلك نظرية سقطت وبار الأخذ بها (كتابنا الجامعى: تاريخ العالم الثالث - جامعة دمشق ١٩٨١-١٩٨٢). وكما ثبت زيف مقولات العصور الوسطى، وبخاصة التى صدرت عن «كاثوليكية» أسبانيا المعادية للعرب من مسلمين ومتنصرة التى تمخضت عن محاكم التفتيش وافتراءاتها، ومع ذلك لا نزال نجد بين ظهرانينا ممن يفترض انهم أقرب إلى تفهم حقائق التاريخ العربى يأخذون بمثل تلك الآراء والمقولات المستهجنة، فيعتبرون ان دافع تلك السرعة الخاطفة كان «استيسالاً» من بدو أو شبه بدو للفوز بالغنائم السمينة والفيوء الضخمة التى نهبت من المستعمرات، كذا (خليل عبد الكريم: دولة يثرب، بصائر فى عالم الوفود، دار سينا - القاهرة)، وهو فى كتابه هذا عندما يتعرض لـ«فتوح» يسميها: «فتوح النهب والاستيلاء والاستيطان والاستعمار التى ابتليت بها الشعوب المجاورة» (كذا)، بل والأغرب أننا لا نزال نجد بين ظهرانينا حتى الآن - رغم ما تكشف من الحقائق وبعد من الزيف الذى غلفت به حياة العرب فى «الجاهلية» لطمس مستواهم والتقليل من شأنهم والازراء بدورهم، ولذلك بقصد إعلاء مستوى البلدان المجاورة، نرى من لا يزال يردد مقولات العصور الوسطى فى أوروبا، بل ما يتضمن اشد ظلامية منها.

وقد راق للبلاذرى أن يرى فى سرعة وصول الجيوش العربية الإسلامية إلى جبال طوروس «فتحًا سهلاً» فى حين انه ما كان فتحًا سهلاً ولا انتصارًا حربيًا وإنما كان تحريرًا. وهو ما قرره البطريرك أغناطيوس يعقوب الثالث، بطريرك انطاكية وسائر المشرق من انه السبب فى «إطلاق نصارى بلاد الشام على عمر بن الخطاب بلسانهم السريانى لقب «فاروق»، ومعناه المحرر المنقذ، وما كان من تقديس المقدسيين من يدى امراء الجند المسلمين وفى استقبالهم عندما يمرون بدنحهم وقراهم فى حمص وفى معرة النعمان وفى شيزر.

وكان هذا هو الشان فى العراق ومصر. فقد كان أبو بكر يقارن العقيدة التى يدين بها عرب العراق النصارى فيجدها اقرب إلى الإسلام منها إلى نصرانية الرومان التى أراد هرقل فرضها، وكذلك كانت عقيدة قبط مصر (أبو سيف يوسف: الأقباط والقومية العربية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ص٣٢) فهم يؤمنون بما جاء فى القرآن عن السيد المسيح عيسى بن مريم ويرون كما يرى المسلمون أن من الكفر القول بانه إله أو بانيه ثالث ثلاثة آلهة: ﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم﴾، ﴿ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام﴾. فقد أرسل الخليفة أبو بكر وعمر إلى امراء الجيوش ان يحسنوا عرض الإسلام على الناس ولا يطمعوا او يفرحوا بأموال الجزية ويذكروهم: ﴿ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون (٨٢) وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين﴾ (عبد الرحمن الشرقاوى، الصديق أول الخلفاء - الأهرام ١٢/٨/١٩٨٧).

بالنظر لما بدا لنا مما تقدم من مدى انتشار هؤلاء العرب وامتداد الموجة بهم فى أطراف شبه الجزيرة فاصبحوا فى «سلع» على منطقة تمتد من فلسطين وعبورًا فى طور سيناء حتى مشارف النيل فى مصر، متوسعين فى بلاد الشام حتى الرافدين، وإذا كان بنو حفنة الذين عرفوا باسم الغساسنة قد اتخذوا حوران كلها والجولان وشرق الأردن وباديتها إلى باب الجابية فى دمشق، منازل مستقرة لهم وافترشوا ما يتداخل من البوادى حتى حدود الثلثميين فى الحيرة (العراق)، وأن عرب تدمر يسيطرون على السهول الممتدة المتداخلة مع المعمور فى جميع الجهات ويتغلغلون إلى الحكم والنفوذ قبل أن تتشكل دولتهم، وبالمقابل كان شأن العرب على ساحل الخليج حتى جبال طوروس (بكر وتغلب) ناهيك عن الأقوام المستقرة من قبل فى العصور الخوالى، فماذا يكون قد بقى تحت الحكم البيزنطى.

وها هنا تفسير أسباب إحاطة البيزنطيين للمعمور بأبراج المراقبة، وأسباب سلوكهم لطرق مستقيمة، معلاة عن سطح الأرض تتوسطها أبراج مراقبة ومبانى وقلاع ودهاليز، فعلى ضوء هذه الوقائع الأثرية يجب أن نقرر من كان يدفع لمن، من أجل أن يحميه فى أواخر العهد البيزنطى.

فهل تخامرنا، بعد أن ناخذ علمًا بكل هذا، اية غرابة أو شك فى صحة ما أثر عن عمرو بن العاص من قول، ردًا على مساومة قسطنطين بن هرقل له للرجوع عن «الفتح»: هذه البلاد لنا وليست لكم، انتم غرباء فيها، لانه لا يعقل أن يكون شخص كعمرو بن العاص جاهلاً على الاقل بأخبار الأنباط وعرب الزباء فى تدمر والضجاعة وسليح بين غوطة دمشق والأردن والغساسنة وعرب الصفا وأخبار العمالقة، ثم المناذرة فى العراق وتغلب وبكر؟ ■

يخطئ من يظن أن اللغة العربية مجرد أبجدية، حروف ترص وتراكيب تنشأ فى بناء أصم، إنما هى كائن حى لا تحمل من المعانى والأفكار التى تعبر عن الأفراد فحسب، بل هى ما يلخص وهى تقوم بهذا الواجب بين الأفراد والشعوب والوجود الحضارى للمجتمع وللأمة، لذلك فإن الباحث فى اللغة العربية يجب أن يجد مفتاح فهمها وغناها وسعتها فى هذه المجتمعات الحضارية

مستشفى فؤاد الأول «التابع لقصر العيني» عند افتتاحه

بدأت بالتعريب وانتهت بسيادة اللغة الإنجليزية

مدرسة الطب المصرية

ممرضات مستشفى قصر العيني والتدريب على استعمال الأقنعة الواقية من الغازات السامة أثناء الحرب العالمية الثانية

■■ مرت الأمة العربية في تاريخها بمرحلة من الإبداع العلمي والحضاري امتدت من أواخر القرن السابع إلى القرن الثالث عشر للميلاد، ثم تباطأ الإنتاج العلمي العربي في القرنين الرابع عشر والخامس عشر، ويحلول القرن السادس عشر واجهت الأمة العربية تراجعًا علميًا حضاريًا بما يشبه العقم في الإنتاج، وقد استمر هذا الوضع طويلاً، والتعليم الطبي العربي لا يخرج عن هذه القاعدة، إذ مر بمراحل مد وجزر وهو ما يتناوله كتاب (تاريخ التعليم الطبي في البلاد العربية) الذي يركز بشكل خاص على التعليم الطبي في القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، لأن هذه المرحلة امتازت بقيام مدارس طبية يتم التعليم فيها بما يشبه التعليم في أيامنا الحاضرة. وفي حدود معرفة المؤلف فإن موضوع الكتاب وعرض المدارس الطبية خلال القرن التاسع عشر لم يكتب عنه باللغة العربية بشكل منهجي حتى الآن، وإنما وردت عنه نبذ وفقرات في مؤلفات ودوريات مختلفة غير مستكملة شرائط البحث العلمي.

لكل عمل كبير رائد، قصة وتاريخ. ومدرسة (أبي زعبل) الطبية في مصر، قصتها وتاريخها لا يخلوان من الإثارة والمغامرة. ففي العام ١٨٢٤م أوفد الخديوي محمد علي، حاكم مصر فرنسيًا يدعى فلورانٍ تورنو Florent Tourneau مندوبًا عنه إلى فرنسا للتعاقد مع ضباط السيد (بوزاري Bozary) الطبيب الأول للخديوي محمد علي، فطلب منه الذهاب إلى الخانقاه حيث مركز تجمع القوات العسكرية النظامية، وهناك بدأ بتنظيم الأوضاع الطبية، واهتم بمستشفى المعسكر الذي كان شبه منهدم، والفوضى تشيع فيه، فبادر إلى تنظيمه من ناحية الترميم والإطعام والمحاسبة وجميع الشئون الأخرى المتعلقة بتشغيله بأعلى مردود، وبنا كان هذا المستشفى مما يصعب الاعتماد عليه بسبب صعوبة ترميمه وإصلاحه، وبناء على اقتراحه أقيم مستشفى جديد، عام ١٨٢٦م في ضاحية أبي زعبل.

لم يكن من السهل استقدام أطباء أو صيادلة من أوروبا، لأن استخدامهم في ذلك الوقت يتطلب وجود تراجمة لهم وهو أمر غير متيسر، ولم يكن الجيش المصري هو وحده الذي يشكو نقص الأطباء، بل كان الشعب المصري بمختلف فئاته يشكو ذلك.

لذلك أرسل الدكتور كلوت إلى الخديوي محمد علي باشا كتابًا يقول فيه: إن مؤسسات النفع العام لا بد لتأمين استمراريتها من أن تكون بأيد وطنية، لأن ارتباطها المباشر بجهات أجنبية يعرضها لاحتمالات التعثر أو التوقف في أداء خدماتها ويقترح إنشاء مدرسة للتعليم الطبي ضمن الخطوط العامة التالية:

١ ـ أن يلتحق بالمستشفى الذي أقيم حديثًا في أبي زعبل، مائة وخمسون شابًا مصريًا، يتقنون لغتهم العربية وأن يعهد إلى أساتذة يوضعون تحت إدارته بشئون التدريس.

٢ ـ أن ييسر التعليم الطبي بالاستناد إلى اللغة الفرنسية وبواسطة تراجمة أكفاء يقومون بترجمة الدروس الفرنسية إلى اللغة العربية ليستوعبها الطلاب.

٣ ـ أن يجرى توزيع المقررات التالية على سنى الدراسة: الفيزياء، الكيمياء، النبات، التشريح، الفسيولوجيا، علم الصحة، المفردات الطبية (الفارماكولوجيا)، السموم، التشخيص المرضي الداخلي والخارجي.

٤ ـ تكليف أعضاء المجلس الصحي، برئاسة وزير الحربية، بالإشراف المباشر على سير الامتحانات.

٥ ـ تكون مدة الدراسة خمس سنوات، ويجرى توزيع الخريجين على المشافي والقطاعات الحربية.

وفور اطلاع محمد علي باشا على هذه الاقتراحات، وافق عليها بمجموعها وأصدر أمرًا بتسميته مديرًا لهذه المدرسة.

كانت أول مهمة قام بها هي تعيين الجهاز التعليمي بعد الأخذ بعين الاعتبار مقدرة الأطباء الموجودين، فوزع المهمات التدريسية كما يلي:

* الطبيب الإيطالي جيتاني Gaetani: للتشريح العام والوصفي والمرضي.
* الطبيب دوفيفيو Duvigeam: لعلم الأمراض وللعيادات الداخلية.
* السيد برنار Bernard: لتدريس علم الصحة Hygiene الخاصة والعامة والعسكرية بالإضافة إلى الطب الشرعي.
* الصيدلاني برتلمي Barthelemy: لتدريس علم الأدوية وفن التركيب وفن المداواة وبحث السموم.
* الصيدلاني فيغاري Figary: لتدريس علم النبات بالإضافة إلى إدارة حديقة النباتات الطبية الملحقة في ساحة المستشفى.
* السيد سيليزيا Celisia: لتدريس الكيمياء والفيزياء.

أما الطلاب فتم تحديدهم بمائة وخمسين طالبًا، وذلك انتقاء من بين طلاب الفقه والعلوم الدينية وخاصة من طلاب الأزهر وتأمين معيشتهم على حساب الدولة مع رواتب شهرية تعطى لهم وكان النظام العسكري مطبقًا عليهم.

واجهت المدرسة الجديدة صعوبة كبيرة تمثلت في تأمين التواصل والتفاهم بين الأساتذة الذين يجهلون الفرنسية وكان من الصعب ولضيق الوقت أن يتعلم الأساتذة العربية والطلاب الفرنسية، وقد حل الدكتور كلوت والعاملون معه هذه المشكلة بتعيين لمائية مترجمين أكفاء تسمح لهم ثقافتهم ومعلوماتهم بالقيام بترجمة صحيحة ودقيقة

من أبي زعبل إلى قصر العيني

محمد فؤاد الذاكري

لم يكن من السهل استقدام أطباء أو صيادلة من أوروبا، لأن استخدامهم في ذلك الوقت يتطلب وجود تراجمة لهم وهو أمر غير متيسر. ولم يكن الجيش المصري هو وحده الذي يشكو من نقص الأطباء، بل كان الشعب المصري بمختلف فئاته يشكو من ذلك

لتدريب الجيش المصري، ومع أطباء لتأمين الخدمات الصحية لذلك الجيش.

وقد تعرف تورنو على طبيب شاب يدعى (انطوان برتلمي كلوت)، فوقع معه عقدًا مؤرخًا في ١٨٢٤/١٢/٢٢م ليعمل في مصر رئيسًا للأطباء والجراحين في الجيش المصري لمدة خمس سنوات، وبراتب قدره ثمانية آلاف فرنك فرنسي، على أن يبدأ سريان مفعول العقد من يوم مغادرة الدكتور كلوت ميناء مرسيليا مبحرًا إلى مصر، وفي اليوم الواحد والعشرين من شهر كانون الثاني (يناير) من عام ١٨٢٥م استقل الدكتور الباخرة من مرسيليا متجهًا إلى مصر برفقة السيد تورنو المذكور ومصطحبًا عشرين طبيبًا آخرين تعاقدوا أيضًا للعمل في مصر.

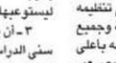

وصل الدكتور كلوت إلى القاهرة في الثامن من مارس عام ١٨٢٥، ويذكر في مذكراته المنشورة بالفرنسية أنه فور وصوله قابل

في مجالات علمية، وأخذ كل مترجم يترجم درس الأستاذ في الفرع المكلف به بعد أن يكون قد فهمه، هذا الإجراء كان صعبًا ومعقدًا في بادئ الأمر إلا أن العادة والتكرار جعلاها أقل صعوبة، فللحصول على نص دقيق بالعربية، كانت النصوص الفرنسية المخطوطة أو المطبوعة تعطى للمترجمين فيدرسونها ويترجمونها إلى العربية، ثم يقوم المترجم بترجمة عكسية لها أي يعيد ترجمة النص إلى الفرنسية أمام الأستاذ، وبعد اطمئنان الأستاذ إلى صحة الترجمة، يصار إلى تدقيق النص العربي من الناحية اللغوية من قبل أشخاص يتقنون اللغة العربية ومن ثم يعطى للطلاب ليدرسوه.

وقد بذل أساتذة المدرسة والمترجمون واللغويون جهودًا كبيرة للتغلب على الصعوبات التي واجههم والمتمثلة في تعريب الكثير من المصطلحات الطبية والفنية التي لم تكن موجودة في الطب التقليدي بسبب التقدم الكبير الذي طرأ على العلوم الطبية في القرن التاسع عشر في البلاد الأوروبية، ونخص المرحوم الدكتور حسني سبح رئيس مجمع اللغة العربية بدمشق المنهج الذي سلكوه في اختيار صياغة المصطلح الطبي قائلاً:

وسلكوا في سبيلها ما يأخذ به المشتغلون باستعراب الطب اليوم:

* أحيوا من مصطلح الطب العربي الإسلامي ما راوه وافيًا بالغرض.
* واجتهدوا في وضع مقابل بالعربية لما جد من مصطلحات.

١ ـ تاريخ التعليم الطبي في البلاد العربية
محمد كمال شحادة
سوريا: منشورات جامعة حلب، ٢٠٠٠.

٢ ـ مذكرات الدكتور كلوت بك (بالفرنسية)
القاهرة: مطبعة المعهد الفرنسي للآثار الشرقية، ١٩٤٩.

٣ ـ بناء أسس التطبيب بمصر في القرن ١٩ (بالفرنسية)
سيرج جاكايو
باريس: منشورات البحث في الحضارات، ١٩٨٦.

* أما ما لم يهتدوا فيه إلى لفظ عربي مناسب، فلجأوا فيه إلى التعريب.

كذلك عمل الدكتور كلوت على إنشاء مدرسة ملحقة بمدرسة الطب مهمتها الرئيسية تعليم اللغة الفرنسية لطلاب الطب، وعندما أعيد تنظيم التعليم الطبي فيما بعد، أدخل تعليم اللغة الفرنسية في برنامج المدرسة الطبية.

تدريس التشريح

كانت المشكلة الأخرى التي واجهت الدكتور كلوت تتعلق بدراسة التشريح وتدريسه، ويكتب حول هذا الموضوع بقلمه من مذكراته:

عندما أنشئت المدرسة، نقل لي وزير الحربية رغبة محمد علي باشا بالأمس جثث الموتى. وكان من الصعب عليّ أن اقتنع بمثل هذه الرغبة وبالالتزام بها، فبدون التشريح لا يكون تعليم طبي، فاتصلت بالشيخ العروسي وهو شيخ الإسلام، وكان يتمتع بشهرة وبنفوذ ديني كبير في كل البلاد المصرية، وكنت أهتم به كثيراً، وباعتباره دستًا فقد كنت كثير الالتقاء به للكشف عن صحته ولمعالجته، وكان يعاملني بعطف ظاهر، ولكني كلما تطرقت إلى موضوع التشريح يرفض إعطاء أية موافقة للقيام به، وكانت حجته الأساسية هي أن الجثث يمكن أن تتألم، وكنت أتظاهر بقبول هذه الفكرة مع تأكيدي له بأن الجثة في كل الأحوال، سرعان ما تبدأ بالتفسخ وتصبح فريسة للدود، وكنت أقول له أن الدين مادام يقبل الطب والمداواة وبحث عليهما فيجب أن تكون الوسائل المادية المؤدية إلى تعليم هذا العلم مقبولة، ومن هذه الوسائل التشريح الذي هو ضروري جدًا لتدريب الطبيب واطلاعه على تفاصيل الجسم البشري. وكان الشيخ العروسي يجيبني دومًا، بأن المؤلفات المنشورة عن شئون التشريح تكفي لتثقيف الطلاب وتعريفهم به، وفي ذات يوم جربت في محاولة لإقناعه، أن أقدم له مقارنة تثبت أن العلم النظري لا يمكن أن يعطي معلومات كاملة، وكانت المقارنة ما بين جسم الإنسان والساعة، وبينت له أن الساعاتي لكي يستطيع تصليح الساعة لا بد له من أن يعرف كل أجزائها بشكل واقعي وعملي، وكذلك الجسم لا بد من معرفة أجزائه وأجهزته لكي يتمكن الطبيب من إصلاحها في حالة المرض، لقد بدا لي أن هذا المثال أدخل في نفسه الصراحة ولكنه لم يرد أن يعبر عن ذلك صراحة، إلا أني شعرت بموافقته الضمنية على دراسة التشريح والقيام به، عندما طلب مني التحفظ ومراعاة السرية عندما أود القيام بتشريح الجثث لتعليم طلاب الطب.

وكانت تنتظر الدكتور كلوت مهمة أخرى تتمثل في إقناع الطلاب بضرورة التشريح وإزالة ما في نفوسهم من كراهية ورهبة تجاهه، فاحضر من فرنسا هيكلاً عظميًا عرضه في الصف ليعطي به أول درس في التشريح وكان يردد: هل يعتبر جرمًا أن تكون بين أيدينا عظام تخلفت من جثث منبوشة من قبل ضبع أو ابن آوى مبعثرة في إحدى المقابر المجاورة ولغاية تدريسية؟ واقتنع بعض الطلاب بالفكرة واستجابوا! بان جلبوا ما وقع تحت أيديهم من العظام البشرية وتم تأمين عدد كاف منها لدراستها وتدريسها، أما تشريح الجثث فقد استطاع أن يقوم به بدعوى أنها جثث لعبيد وثنيين، لا يدينون بأي دين سماوي أي ليسوا من أصحاب كتاب.

كلوت بك

كل هذه الاحتياطات فيما يتعلق بدروس التشريح، لم تمنع الطالب (حسن الأشموني) من محاولة اغتياله، ففي العشرين من يونيو عام ١٨٢٩م كان الدكتور كلوت يحضر درسًا للدكتور شروبيني Cherubini في مادة الفسيولوجيا فتقدم الأشموني منه في نهاية الدرس وناوله رسالة مكتوبة باللغة العربية لإلهائه، واستل في الوقت عينه خنجرًا كان مخبأ تحت ثيابه وضربه على رأسه فانزلقت عليه شفرة الخنجر، ثم عاد وطعنه ثانية فأصابه في ذراعه اليمنى. وأمام هذا المشهد استولى الذعر على الأستاذ الفرنسي والمترجم ففرا من قاعة الدرس وتركاه ينزف دمًا، وعلى الأثر قامت ضجة كبيرة في الصف، هجم الطلاب فيها على المعتدي وجردوه من سلاحه، حافظ الدكتور كلوت على ثيابه وأمر بحبس المعتدي في سجن المستشفى وقام بتهدئة الجميع لأنه خشي أن يؤدي هذا الحادث إلى مضاعفات غير محمودة.

متحف للتاريخ الطبيعي

طلب الدكتور كلوت موافقة وزير الحربية لتعيين السيد ريجيس Regis المختص بالعلوم الطبيعية للإشراف على تأسيس متحف للتاريخ الطبيعي، ولكن طلبه جوبه بالرفض من قبل الوزير بحجة عدم وجود مخصصات، إلا أن كلوت الخبير بالأنظمة واللوائح تعلم كيف يواجه الصعوبات فبادر إلى تعيين الشاب ريجيس بصفة صيدلاني وكلفه بمهمة الإشراف على جمع نماذج من الحيوانات والحشرات لتأسيس متحف طبيعي ممتاز تابع للمدرسة الطبية، حيث تم الاحتفال بتدشينه في فترة الاحتفال بانتهاء السنة الدراسية الثانية من تأسيس المدرسة، ونتج عنه تبادل ناشط بين نماذج من مجموعات المدرسة ونماذج من مختلف المتاحف الطبيعية في أوروبا، وبذلك أمكن تأمين مجموعات كاملة لرباعيات الأرجل والحشرات والطيور والعنكبوتيات والأسماك والأصداف.

أما حديقة النباتات الطبية فاقيمت في الباحة الداخلية للمستشفى، فأضفت مسحة جمالية إضافة لكونها ضرورية للتدريس، وتولى إدارتها صيدلاني من مدينة جنوا الإيطالية هو فيغاري Figari. وخلال فترة تقل عن ثلاثة أشهر، وصلت البذور والشتلات لأنواع كثيرة من النباتات، وكان الأستاذ دوليل Dolille مدير حديقة النباتات في جامعة مونبلييه بفرنسا، يمد باستمرار حديقة أبي زعبل بكثير من النباتات المهمة والنادرة.

نشاط مدرسة أبي زعبل الطبية

كانت السنة الدراسية تبدأ في أول شهر شوال وتنتهي في أول شهر رمضان، ويخصص شهر رمضان بكامله ليكون عطلة سنوية. وحرص المشرفون على المدرسة وبتوجيهات من الدكتور كلوت أن يعهد إلى الأساتذة الذين يدرسون أحد الفروع الطبية من الناحية النظرية أن يقوموا هم بأنفسهم بتدريب طلاب المدرسة على التطبيقات لذلك الفرع، وذلك لئلا يكون ثمة فروق أو تضارب في الآراء ما بين الدروس النظرية وتطبيقاتها العملية أو السريرية. ونصت أنظمة المدرسة على أن يخضع الطلاب لامتحانات شهرية فيما تعلموه، وحينما يحوز طالب الدرجة الأولى في الامتحان، يعهد إليه برئاسة الشعبة التي فحص فيها. وتطلب الأمر كثيراً من الجهد بذله الأساتذة والطلاب ولكن فائدته كانت كبيرة في حث الطلاب على العمل لخلق روح المنافسة العلمية فيما بينهم. وبدأت الامتحانات العامة للسنة الدراسية الأولى (١٨٢٧ ـ ١٨٢٨) في الخامس والعشرين من شهر شعبان وكانت اللجنة الفاحصة برئاسة الطبيب بوزاري، وعضوية الصيدلاني المفتش (الساندرى Alessandri) والطبيبين (دبياغي Dibaggi) و (دوساب Dussap) وأساتذة مدرسة أبي زعبل الطبية، وذلك باحتفال رسمي حضره عثمان باشا رئيس الأركان العامة والكولونيل (العقيد) سليم بك مساعد رئيس الأركان والعديد من ضباط الجيش كما حضره فاضل فرنسا وإنجلترا وروسيا والنمسا وهولندا وسردينيا وكثير من الشخصيات البارزة، استمرت الامتحانات خمسة أيام وكانت النتيجة نجاح عشرين طالبًا بدرجة ممتازة وثمانية وثلاثين بدرجة أولى، وثلاثة وأربعين بدرجة ثانية. أما طلاب مدرسة اللغة الفرنسية، فقد خضعوا أيضًا للامتحان والنتيجة نجاح ثلاثة وثلاثين طالبًا بامتياز، وثلاثة وعشرين بدرجة متوسطة وخمسة وأربعين بدرجة دون المتوسط، وقد منحت مكافآت إلى جميع المتفوقين في الامتحانات الطبية وفي امتحانات اللغة الفرنسية.

وبالنسبة للامتحانات العامة للسنة الدراسية الثانية من تأسيس المدرسة (١٨٢٨ ـ ١٨٢٩) فقد بدأت في اليوم الأول من شهر مارس من سنة ١٨٢٩، وذلك في مدرج المستشفى. ومن تقرير تركه لنا الدكتور كلوت في مذكراته نستنتج أنه تم تدريس المواد التالية للطلاب: التشريح والفسيولوجيا، علم الصحة، علم الأمراض (الباثولوجيا)، فن المداواة وعلم الأدوية، الفيزياء، النبات، كما خص المترجمين بالكثير من الثناء وأشاد

بالمترجم (يوحنا عنحوري) قائلاً: إن السيد عنحوري يستحق التقدير، لأنه ترجمان بارع فقط، بل أيضًا لنشاطه الكبير ولمثابرته في البحث عن المصطلحات الطبية في بطون الكتب، وعن مفردات العلوم الطبيعية، وهي إنجازات كبيرة تحققت بفضل هذا العالم المتعاون معنا.

ولم يفته أن ينوه بنتائج مدرسة تعليم اللغة الفرنسية الملحقة بالمدرسة الطبية وأبدى رضاه عن نتائج الامتحان الذي جرى بعد الانتهاء من فحوص المدرسة الطبية مباشرة من قبل لجنة برئاسة السيد (كونيغ Koenig) الذي كان يتقن اللغتين العربية والفرنسية مما جعله قادرًا على الحكم على قوة الطلاب، أما امتحانات السنة الثالثة (١٨٢٩ - ١٨٣٠) فكان من المفترض أن تبدأ جلسات الفحوص النهائية في ١٣ فبراير من عام ١٨٣٠، وعبّر محمد علي باشا عن رغبته في حضورها شخصيًا إلا أن ظروفًا طارئة منعته من ذلك، فكلف وزير الحربية ليثوب عنه، وهذا التغيير استدعى تأجيل البدء بالامتحانات ليوم تال وقد تسابقت شخصيات بارزة للحضور إلى القاعة الكبرى للمستشفى من بينهم شيخ الإسلام ورؤساء مختلف الطوائف الدينية وإبراهيم بك ابن أخ محمد علي وجنرالات وضباط من رتب عالية في الجيش.

كانت اللجنة الفاحصة برئاسة الدكتور (باريست Pariset) الذي سبق أن صدرت تسميته أستاذ شرف بالمدرسة في فرمان (مرسوم) واحد، وعضوية الدكتور (بوزاري Bosari) والصيدلاني (اليساندري Alessandri) مدير مدرسة الصيدلة وعضو المجلس الصحي، والدكتور كلوت مدير المدرسة الطبية وعضو المجلس الصحي وأستاذ الأمراض والعيادات الخارجية، وعدد من أساتذة المدرسة، وبعد إلقاء الخطابات والكلمات بدأت الامتحانات بشكل علني أمام جمهور من المستمعين.

كان من المقرر أن تنتهي الدراسة في مدرسة أبي زعبل الطبية في نهاية السنة الدراسية الرابعة (١٨٣٠ - ١٨٣١) للطلاب الذين قبلوا في المدرسة منذ افتتاحها عام ١٨٢٧، إلا أن صعوبات عديدة سببت إضاعة الكثير من الوقت على الطلاب فقد تقرر بعد محاولات طويلة تمديد الدراسة سنة خامسة وصادق على هذا القرار أعضاء المجلس الصحي ووزير الحربية وتأجيل امتحانات السنة الرابعة إلى السنة الدراسية التالية.

وهكذا فإن طلاب السنة الخامسة الذين اجتازوا هذه الامتحانات بنجاح، كانوا أول فوج من الأطباء المصريين يتخرج من مدرسة أبي زعبل، وأدى الخريجون قسم أبقراط الطبي على غرار ما كان يحدث في جامعات أوروبا.

واتخذ النص المعتمد في جامعة مونبلييه بفرنسا، أساسًا تمت ترجمته إلى اللغة العربية مع إجراء بعض التعديلات على النص العربي، التي تقتضيها الاعتبارات الدينية الإسلامية، وأصبح كما يلي:

«أقسم بالله العظيم ونبيه الكريم محمد صلى الله عليه وسلم، على أن أكون أمينًا حريصًا على شروط الشرف والبر والصلاح في تعاطي صناعة الطب وأن أسعف الفقراء مجانًا ولا أطلب أجرة تزيد على أجرة عملي، وإني إذا دخلت بيتًا فلا أنظر عيناي ماذا يحصل فيه ولا ينطق لساني بالأسرار التي ائتمنوني عليها، ولا أستعمل صناعتي في إفساد الخصال الحميدة ولا أعاونها على الذنوب، ولا أعطي سمًا البتة، ولا أدل عليه ولا أشير به، ولا أعطي دواء فيه ضرر على الحوامل، ولا إسقاط لهن وأكون موقرًا وحافظًا المعروف مع الذين علموني، ومكافئًا لأولادهم بتعليمي إياهم مما تعلمته من آبائهم، مادمت حريصًا على عهدي وأميًا على يميني، فجميع الناس يعتبروني ويوقروني، وإن خالفت ذلك أكون المرذول المحتقر، والله شهيد على ما أقول، قد تم العهد».

ويلاحظ مؤلف الكتاب أن نص القسم يشكو من ركاكة واضحة بدون تفسير مقنع في حين أن أكثر الترجمات التي أنجزت آنذاك في مدرسة أبي زعبل، كانت نصوصها أفضل من الناحية الصرفية والنحوية ومن ناحية سلامة الأسلوب الإنشائي.

من الواضح أن الطلاب المتخرجين كانوا يتمتعون بكفاءات طبية ممتازة بالإضافة لإتقانهم اللغة الفرنسية مما يسمح لهم بالتوسع في دراستهم الطبية بتلك اللغة وبناء على اقتراح الدكتور كلوت وموافقة الخديوي محمد علي باشا فقد تقرر إيفاد اثني عشر من أولئك الخريجين إلى فرنسا وهم:

أحمد الرشيدي، حسين الرشيدي، محمد منصور، حسين الهبياوي، إبراهيم النبراوي، مصطفى السبكي، محمد الشباسي، محمد السكري، محمد الشافعي، أحمد بخيت، محمد علي البقلي وعيسون النحراوي.

وصدر المرسوم الخديوي بتاريخ ١٨٣٢/٤/١م والمتعلق بالموافقة على تشكيل ذلك الوفد، نص يسمح لكلوت بمرافقة الوفد، ويمنحه إجازة مدفوعة الأجر لمدة مائة وعشرين يومًا تبدأ من يوم وصوله إلى مدينة مارسيليا وحتى تاريخ إبحاره في العودة وذلك مع الاحتفاظ بكافة حقوق رتبته العسكرية، وفي ١٨٣٢/٨/١٧ غادر الموفدون ميناء الإسكندرية وصلوا بعدها ميناء مرسيليا بعد رحلة بحرية استمرت أربعة وثلاثين يومًا، وبعد زيارة بعض المؤسسات الطبية في مرسيليا ومدينة ليون، نجح الدكتور كلوت في مسعاه لتشكيل لجنة فاحصة من شخصيات طبية فرنسية مرموقة لتقيّم المعلومات الطبية للطلاب الموفدين، وتم الامتحان في رحاب الأكاديمية الطبية الملكية في باريس يوم الأحد في ١٨ نوفمبر عام ١٨٣٢، وحضر جلسة الامتحان عدد كبير من أعضاء الأكاديمية الطبية ومن الأطباء البارزين، منهم طبيبا الملك البارون دوبوا Duboisi والدكتور مارك، وكانت الضجة الكبرى التي أثارتها الصحف حول كلوت وطلابه المصريين النجباء سبب الإقبال على الحضور، ونتائج الامتحانات جيدة جدًا، وعبّر الحضور مرارًا عن استحسانهم بالتصفيق الحار، حيث اختتم الدكتور دوبوتيرن Dupuytren جلسة الامتحانات بخطاب هنأ الطلاب المصريين قائلاً: إن إجاباتكم الصحيحة على أسئلتنا، جعلتنا نعتقد أنكم ستكونون الخلف الصالح لابن سينا والرازي والزهراوي.

حرص الدكتور كلوت قبل أن يغادر باريس أن يعهد إلى لجنة من أعضاء الأكاديمية الطبية وبعض الأطباء بالاهتمام بشئون هؤلاء الطلاب، من ضمنها إجراء امتحان دوري كل ثلاثة أشهر ترسل نتائجه إلى مصر بهدف الاطلاع على سير دراستهم لتقديم التوجيهات والمساعدات اللازمة لهم.

قصر العيني

طالب الدكتور كلوت بنقل المدرسة الطبية والمستشفى بأبي زعبل إلى القاهرة، لأن الخناقة بقربها وهو معسكر يضم حوالي ستين ألف جندي فرغ من الجنود بعد بدء الحملة المصرية على سورية عام ١٨٣١، ولم يعد المستشفى يخدم سوى عدد محدود من المرضى القادمين من القاهرة، وهذا لم يكن كافيًا للتطبيقات والدروس السريرية لطلاب الطب، لكن هذه المبررات وغيرها لم تقنع محمد علي باشا، لعدة سنوات، وأخيرًا بعد إلحاح متواصل اقتنع بنقل المدرسة الطبية والمستشفى من أبي زعبل إلى القاهرة، وفي عام ١٨٣٧ صدر الأمر بنقلهما إلى مباني قصر العيني الذي يقع بين القاهرة القديمة وبولاق مقابل جزيرة الروضة على الضفة الغربية لنهر النيل الذي أنشأه عامي (١٤٦٦ - ١٤٦٧) أحمد بن العيني، أحد كبار أمرى سلاح الفرسان في ذلك الوقت، وفي فترة الحملة الفرنسية كان المبنى بملكية إبراهيم بك المملوكي وحول إلى مستشفى عسكري، أما محمد علي باشا فأصلحه وحوله إلى مدرسة تحضيرية عسكرية عام ١٨٢٥ والقصر يتألف من طابق أرضي يعلوه طابقان وتتألف أجنحته من صفوف مزدوجة من قاعات في كل واحدة منها خمسون سريرًا يفصل بينها ممرات عريضة، أما الطابق الأرضي فهو مؤلف من أقبية مفتوحة للتخزين، وتقوم أربع مجموعات سكنية متفصلة بمحاذاة الجناح الجنوبي للقصر، خصصت إحداها للمدرجات ومخابر الكيمياء وغرف الفيزياء والعلوم الطبيعية والثانية لقاعات النوم والطعام وفي الثالثة أسست الصيدلية المركزية أما الرابعة فشغلت بالمطابخ والحمامات والمغاسل، كما جهزت حديقة نباتات جديدة على قطعة من أراضي جزيرة الروضة، ومن النتائج الإيجابية التي تحققت أنه أصبح للمرضى المدنيين الحق ولأول مرة في الاستفادة من خدمات المستشفى وكانوا قبل ذلك لا يقبلون فيه إلا بإذن خاص من الباشا.

أوضاع المدرسة الطبية

خلال السنوات العشر الأولى من تأسيسها (١٨٢٧ - ١٨٣٧) تخرج فيها أربعمائة وعشرون طبيبًا وفي ١٨٣٧ عام انتقالها إلى قصر العيني كان عدد طلابها خمسمائة طالب، في عام ١٨٤٩ غادر الدكتور كلوت مصر عائدًا إلى مرسيليا وذلك بعد زمن قصير من وفاة محمد علي باشا، وبعلل «جرجي زيدان» ذلك بسبب وحشة بينه وبين الخديوي عباس الأول فبدأت أوضاع المدرسة تسوء وديت فيها الفوضى، رغم المحاولات المبذولة لإصلاح الأمور، تراجعت خدماتها التعليمية، وبناء على نصيحة طبيب ألماني، استبدل الخديوي (عباس) المعلمين الفرنسيين بأساتذة ألمان وتم التعاقد مع الدكتور (جريسنجر Griesinger) أستاذ علم الأمراض (البالولوجيا) في جامعة كيبل الألمانية، ليكون مديرًا لمستشفى قصر العيني والمدرسة الطبية ورئيسًا للمجلس الصحي، وطبيبًا خاصًا للخديوي الذي عمد إلى إرسال بعثة من خريجي المدرسة الطبية إلى ميونيخ، لم تفلح كثيرًا ربما بسبب عدم تمكن أفراد البعثة من اللغة الألمانية.

أما الخديوي الجديد سعيد باشا بن محمد علي فقد عمد في عام ١٨٥٥ إلى إغلاق المدرسة الطبية بعد أن ساءت أحوالها كثيرًا وإرسال جميع

كانت تنتظر الدكتور كلوت مهمة أخرى تتمثل في إقناع الطلاب بضرورة التشريح وإزالة ما في نفوسهم من كراهية ورهبة تجاهه، فأحضر من فرنسا هيكلاً عظميًا عرضه في الصف ليعطي به أول درس في التشريح وكان يردد: هل يعتبر جرمًا أن يكون بين أيدينا عظام تخلفت من جثث منبوشة من قبل ضبع أو ابن آوى مبعثرة في أحد المقابر المجاورة ولغاية تدريسية؟

طلابها إلى القطاعات العسكرية، أما الأساتذة فقد تم الاحتفاظ بهم للاستفادة من خدماتهم فى معالجة مرضى قصر العينى.

وفجأة رجع الدكتور كلوت إلى القاهرة لتقديم واجبات الاحترام لابن أميره السابق، الذى بادر بتكليفه بإعادة تنظيم الخدمات الطبية المصرية المدنية والعسكرية بما فيها شئون المدرسة وتم ذلك فعلاً فى ١٠ سبتمبر عام ١٨٥٦ باحتفال كبير. لكنه اضطر إلى مغادرة مصر نهائيًا عام ١٨٥٨ لاعتلال فى صحته، وانطوت صفحته إلى الأبد حيث توفى فى مرسيليا عام ١٨٦٨.

تعاقب أطباء عديدون على إدارة المدرسة، ففى (فبراير) من عام ١٨٦٢ لم يبق فى المدرسة سوى خمسة وعشرين طالبًا. لكن الدكتور (محمد على باشا البقلى) الذى تولى إدارة المدرسة فى عام ١٨٦٣ استطاع بإخلاصه ومقدرته الإدارية والعلمية أن يقوم بإصلاحات كبيرة فى المدرسة، من أهمها التدريس باللغة العربية الفصحى من قبل أساتذة مصريين تابعوا دراسات اختصاصية فى أوروبا، أى بدون مترجمين ولم يبق فى المدرسة آنذاك إلا أستاذ فرنسى واحد، وكان يوجد فى المدرسة ١٨ أستاذًا مصريًا و١٩٥ تلميذًا فى عام ١٨٧٦ كما يذكر الدكتور سيرج جاكابو وهو مصدرنا الثانى بعد مذكرات الدكتور كلوت التى انطفت برحيله.

استقال الدكتور البقلى بعد خلاف بينه وبين وزير المعارف على مبارك فى أواخر عام ١٨٧٥، فاستلم الإدارة الطبيب غابلاردوت GailIardot ومع بداية الاحتلال البريطانى لمصر عام ١٨٨٢ كان التعليم فى مدرسة الطب غير منتظم وغابت مقررات مهمة عن المجال التدريسى كعلم الجرائم والمخابر غير صالحة للعمل، واستطاع الدكتور عيسى بك حمدى الطبيب الخاص للخديوى ومدير المدرسة الجديد أن يدخل بعض الإصلاحات كان لها أثر فى إعادة تنظيم الأوضاع والحصول على مخصصات مالية لإقامة بناءين كبيرين فى الباحة المركزية للمستشفى أحدهما للمخابر والثانى لقاعات التدريس. فى عام ١٨٨٧ تشكلت لجنة برئاسة أرتين باشا لإجراء التعديلات والإصلاحات الضرورية فى النظام التدريسى ومن توصياتها إقرار نظام أساسى أصبح فيه جميع الطلاب خارجيين يداومون على المدرسة والمستشفى ويعودون إلى بيوتهم وملزمين بدفع رسوم تسجيل بدلاً من أن تدفع لهم الحكومات مرتبات شهرية كما فى السابق، ومدة الدراسة ست سنوات. يقدم الطلب بعدها رسالة (أطروحة) حول موضوع طبى أصيل.

وعند نجاحه فى الرسالة يمنح لقب دكتور فى الطب، وأصبح المستشفى بإدارة الدكتور ميلتون Milton الذى بادر بافتتاح العيادات الخارجية عام ١٨٨٥.. وسرعان ما نشبت الخلافات من جديد، واستقال المدير عيسى بك حمدى واستلم مكانه حسن باشا محمود الذى يوصف بعدم الكفاءة لكنه مدعوم من السلطة، وفى عهده توقف إرسال البعثات الطبية إلى أوروبا، كما تناقص عدد المقبولين فى المدرسة، ثم تولى الإدارة إبراهيم باشا حسن يساعده الدكتور كيتينج Keatinge، الذى عمل على زيادة المدرسين الأجانب كان من نتيجته إدخال اللغة الإنجليزية فى التدريس تدريجيًا، وفى عام (١٨٩٧) حلت نهائيًا مكان العربية، وتم حذف رسوم التسجيل وإعادة دفع المكافآت للطلاب.

يذكر الدكتور جاكابو أن المدرسة حققت فى فترة إدارة كيتينج (١٨٩٣ ـ ١٩١٩) تقدمًا ملحوظًا، وفى عام (١٩٠٢) قبلت الجمعية الملكية للأطباء والجراحين فى بريطانيا أن يتقدم المجازون من الأطباء من قصر العينى للامتحانات شهادتى الـ M.R.C.S والـ M.R.C.P فى لندن بعد أن يعملوا مدة سنة فى أحد المشافى البريطانية.

عندما أصبح سعد زغلول باشا وزيرًا للمعارف عام ١٩٠٨، اقترح أن يكون التعليم فى جميع المدارس العليا باللغة العربية ومن قبل مصريين، إلا أن الأجهزة الصحية ومن ورائها البريطانيون أقنعوه (أو أجبروه على التظاهر بالاقتناع) بقلة عدد المصريين الذين يستطيعون ملء كل فراغات التعليم العالى، وبعدم قدرة اللغة العلمية العربية على استيعاب المصطلحات والتعابير العلمية الحديثة المتكاثرة باستمرار، لذا فقد ركز جهوده على زيادة البعثات إلى أوربا وأمريكا، لكن المستشفى بقى يشكو الإهمال وأقام اللورد كرومر فى تقريره أنه لم يعد يلبى الشروط المطلوبة والمطلوب بناء مستشفى جديد، لهذا السبب توقفت أعمال الصيانة والتطوير فيه مما أعطاه مظهرًا بائسًا وتراجعًا فى خدماته وسببت ظروف الحرب العالمية الأولى بعض التحول، فالتعبئة زمن الحرب أدت إلى نقص فى الجهاز التعليمى الأجنبى، وكان الفضل للمساعدين المصريين الذين حلوا محلهم فى استمرار أعمال المدرسة بشكل ناجح.

مدرسة الصيدلة

فى عام ١٨٢٧ أسس الصيدلانى اليسائدرى Alessandri تحت إشراف الدكتور كلوت مدرسة لتخريج صيادلة عسكريين وذلك فى قلعة القاهرة بالقرب من الصيدلية المركزية التى كان يديرها اليسائدرى نفسه ثم جمعت مدرسة الطب ومدرسة الصيدلة فى أبى زعبل، وذلك لأن دروس الفيزياء والكيمياء والمفردات الطبية والنبات يمكن أن تعطى لطلاب الصيدلة من أساتذة مدرسة الطب، الأمر الذى يحقق وفرًا كبيرًا، وفى عام ١٨٣٢ تخرّج أول فوج من الصيدلة مع أول دفعة من خريجى مدرسة الطب، كما انتقلت مدرسة الصيدلة إلى مبانى قصر العينى بالقاهرة مع مدرسة الطب والمستشفى وكانت مدة الدراسة خمس سنوات، فى عام ١٨٨٧ صدر نظام أساسى جديد للمدرسة وبموجبه أصبح طالب الانتساب لمدرسة الصيدلة يجب أن يكون حائزًا على شهادة الدراسة الثانوية، كما أصبحت مدة الدراسة أربع سنوات، وأغلقت فى نهاية القرن التاسع عشر بسبب نقص عدد الطلاب فيها ثم أعيد افتتاحها عام ١٩١٠ وتقلصت مدة الدراسة فيها إلى ثلاث سنوات يحصل الخريجون بعدها على لقب مجاز فى الصيدلة والكيمياء.

مدرسة التشقيف الطبى للنساء

كانت الأمراض الزهرية تفتك بالجيش المصرى، وأصبح ذلك مصدر قلق كبير لمحمد على باشا الذى طلب من الدكتور كلوت أن يجد حلاً لهذه الأوضاع الصحية السيئة. ومن الواضح أن الرجال لا يمكن أن يتحقق لهم الشفاء التام إذا لم تتم معالجة النساء بشكل فعال، ظهرت الصعوبة حول النساء المصابات بالمرض ويكمن وجه الصعوبة أن الأطباء الرجال لا يمكنهم معالجة النساء بسبب عدم سماح التقاليد آنذاك، لاسيما إذا كان الأمر يتعلق بأمراض زهرية وبأعضاء تناسلية، كان الحل أن تتم معالجة نساء من قبل نساء، ولكن كيف يمكن إقناع أولى الأمر بقبول فكرة تعليم الفتيات من قبل أساتذة أوروبيين، فطرحت فكرة تعليم نساء من الرقيق من السودانيات والحبشيات حيث لم يكن فى الحصول عليهن أية صعوبة، فتجارة الرقيق كانت لاتزال موجودة آنذاك علمًا بأنها ألغيت فى مصر فى عهد الخديوى إسماعيل، وكان مشروع الدكتور كلوت يقتضى بتعليمهن القراءة والكتابة أولاً ثم يجرى تثقيفهن وتدريسهن على النمط نفسه الذى تم به تدريس طلاب الطب، وقد وافق محمد على باشا على الخطة وأمر بشراء عشر فتيات تم وضعهن فى مكان مجاور للمدرسة الطبية بأبى زعبل مع ضمان كل ما يلزم من مقتضيات الكساء والمعيشة تحت إشراف اثنين من الخصيان وبعناية تركى مسن وعائلته، بدىء بتدريسهن اللغة العربية، وفى الوقت نفسه وضع لهن كتاب يتضمن مبادىء الولادة وأمراض النساء والأطفال وشرح ما تضمنه من معلومات، وما حصل أن أربعًا منهن توفين أما الست الباقيات فقد حققن تقدمًا سريعًا جدًا، وأصبحن يمارسن بحذق وإتقان عمليات الجراحة الصغرى وبنى لهن مستشفى صغير مجاور لمقر سكنهن يستقبلن فيه النساء الحاملات أو المريضات لتجرى معالجتهن.

كانت الخطوة التالية إدخال طالبات مصريات فى مدرسة التثقيف الطبى للنساء كما سماها الدكتور كلوت فى مذكراته حيث يقول أنه أخذ على عاتقه جلب ست عشرة فتاة عربيات مصريات أدخلن إلى المستشفى بصفة مريضات وذلك ليستطيع تعليمهن بشكل سرى لا يجلب الانتباه، وقد احتفظ كلوت بهن بهذه الصفة طيلة سنتين كان يجرى خلالهما تدريسهن بالطريقة نفسها التى سلكها مع السودانيات والحبشيات، كما يذكر بأن المصاريف المترتبة على تدريس الطالبات كان يتحمل أعباءها من ماله الخاص وفى ذات يوم من عام ١٨٣٩ قام وزير التعليم مختار بك بزيارة المدرسة الطبية وتفتيشها، فقدم له كلوت الطالبات السودانيات والحبشيات وكان الوزير سعيدًا بما وجده عندهن من درجة ثقافية، وبدت سعادته أكثر عندما دخل القاعة بإشارة من كلوت فوجد ست عشرة طالبة مصرية، وحين وجه إليهن الأسئلة كان معجبًا جدًا وبادر إلى معانقة كلوت أمام جميع الحاضرين تعبيرًا عن رضاه العميق، ومنذ ذلك الوقت أصبح من المسموح به تعليم المصريات فى المجالات الطبية وحددت مدة الدراسة فى هذه المدرسة بست سنوات، فالسنتان الأولى والثانية كانتا مخصصتين لتعليم اللغة العربية، أما البرنامج الدراسى للسنوات الأربع التالية فتضمن دروسًا نظرية وعملية مأخوذة من مقررات مدرسة التوليد بباريس، مضافًا إليها دروس فى التشريح

بعد إلحاح متواصل اقتنع محمد على بنقل المدرسة الطبية والمستشفى من أبى زعبل إلى القاهرة، وفى عام ١٨٣٧ صدر الأمر بنقلهما إلى مبانى قصر العينى الذى يقع بين القاهرة القديمة وبولاق مقابل جزيرة الروضة على الضفة الغربية لنهر النيل الذى أنشأه عامى (١٤٦٦ ـ ١٤٦٧) أحمد بن العينى، أحد كبار أمرى سلاح الفرسان فى ذلك الوقت

والفسيولوجيا والجراحة والمفردات الطبية والصيدلة، وهؤلاء الخريجات كن يعرفن بالحكيمات. إن هذه التسمية لا تعني أنهن يمارسن أعمالهن كطبيبات وإنما كن في الواقع قابلات ومرضات في آن واحد. ولقب الحكيمات، لتمييزهن عن القابلات الشعبيات (الدايات) وفي كل الأحوال كان لهن دور إيجابي كبير في رفع المستوى الصحي المصري.

أما أشهر الأطباء والصيادلة الذين عملوا في مدرستي الطب والصيدلة في مصر أو تخرجوا منها، ففي مقدمتهم الدكتور كلوت ومن مؤلفاته: (القول الصريح في علم التشريح) ترجمة يوحنا العنحوري، طبع عام ١٨٣٢ وهو أول كتاب طبي في مدرسة أبي زعبل، و(الدرر الغوال في معالجة أمراض الأطفال) ترجمة محمد الشافعي طبع عام ١٨٣٢، و(نبذة في أصول الفلسفة الطبيعية) ترجمة إبراهيم النبراوي طبع عام ١٨٣٦، و(نبذة في التطعيم ضد الجدري) ترجمة حسن غانم الرشيدي الذي عُين معلمًا للعلوم الطبية عقب عودته من بعثته إلى أوروبا وتمتاز مؤلفاته بوضوحها وسلامة تعبيرها، وأهمها:

(بهجة الرؤساء وأمراض النساء) طبع عام ١٨٤٤، (الروضة البهية في مداواة الأمراض الجلدية) طبع عام ١٨٤٧ في مجلدين، (عمدة المحتاج لعلمي الأدوية والعلاج) في أربعة أجزاء كبيرة طبع في عام ١٨٦٧.

و(محمد علي باشا البقلي) له مؤلفات جيدة منها: (روضة النجاح الكبرى في العمليات الجراحية الصغرى) طبع عام ١٨٤٣، (غاية الفلاح في فن الجراح) وهو كتاب يبحث في العمليات الجراحية طبع عام ١٨٦٤ في جزءين، وله كتب أخرى لم تطبع. والجدير بالذكر أنه أصدر مجلة شهرية عام ١٨٦٥ أطلق عليها اسم (البعسوب) وكان يساعده في تحريرها الشيخ إبراهيم الدسوقي مصحح المطبعة الأميرية في بولاق. وتعتبر المجلة الطبية الأولى التي صدرت باللغة العربية.

ومن الأطباء البارزين نذكر: أحمد شدا بك متوفى (١٨٧٧)، وله كثير من الكتب من تأليفه أو ترجمته عن اللغة الفرنسية. عبدالعزيز الهراوي باشا من خريجي قسم الصيدلة عهد إليه بمنصب مدير معمل البارود بمصر القديمة وقد اشتهر بالرسالة التي قدمها إلى مدرسة الطب بفرنسا ونال بها درجة الدكتوراة وأثبت فيها إمكان استخراج جميع الألوان من نبات الحناء. وحسين عوف متوفى (١٨٨٣) حيث تخصص في طب العيون وعين أستاذًا للمادة وتخرج على يده أطباء عديدون في هذا الفن. وسالم سالم باشا المتوفى (١٨٩٣) الذي تولى رئاسة المدرسة الطبية والطبيب الخاص للخديوي توفيق. محمد عبدالسميع الذي شارك في الثورة العرابية وسافر إلى النل الكبير لمعالجة الجرحى. وعلي رياض بك متوفى (١٨٩٩) وهو من كبار علماء الصيدلة والكيمياء والطبيعة. ومحمد الدري باشا متوفى (١٩٠٠) الذي كان شغوفًا بالعلم، أنشأ مطبعة خاصة به متقنة يطبع بها مؤلفاته ومؤلفات زملائه بدون مقابل، ترك مجموعة تشريحية عظيمة وصورًا ملونة لجميع الأمراض. كانت معروضة في متحف مدرسة الطب في قاعة خاصة حملت اسمه. ومحمود رشدي البقلي ألف قاموسًا طبيًا بالفرنسية والعربية، طبع في باريس ١٨٦٩، يقع في ٣٥٨ صفحة ويشتمل على نحو ٧٠٠٠ مصطلح.

لقد بدأ التدريس الطبي في مصر باللغة العربية منذ عام ١٨٢٨ واستمر مدة سبعين عامًا، وكانت تجربة رائدة وناجحة، إلا أن المستعمر البريطاني الذي استولى على مصر إثر ثورة عرابي، بدأ بتقليص دور اللغة العربية في التدريس تدريجيًا، ولم يمض عام ١٨٩٧ حتى أصبح التدريس الطبي يتم بكامله باللغة الإنجليزية. وبلغ عدد ما ترجمه وألفه أساتذة مدرسة الطب في مصر ستة وسبعين كتابًا اشتملت على ألوف المصطلحات. هذه الحركة الناشطة والجدية التي قام بها مترجمون ومصححون ومدققون عرب وأجانب لنقل النصوص والكتب الطبية الأجنبية إلى اللغة العربية، أمنت منذ بداية تأسيس مدرسة الطب في أبي زعبل التدريس باللغة العربية وأدت بعد زمن قصير إلى تعريب كامل المقررات في علوم الطب والصيدلة.

تعتبر هذه الكتب أول كتب طبية تظهر في العالم العربي وباللغة العربية وبالأساليب المرتكزة على المفاهيم العلمية الحديثة. الأمر الذي يسجل لأساتذة مدرسة الطب المصرية أسبقية رائدة يحق لهم أن يفتخروا ويعتزوا بها على مر العصور، وأن تكون دافعًا نحو تكثيف الجهود لتعريب التعليم الطبي في الجامعات العربية وهو حلم ليس بمستغرب إذا تضافرت الجهود المخلصة والإرادة الطبية ولنا في سيرة هؤلاء الأطباء الأوائل وكفاحهم وجهودهم أسوة حسنة حيث نجحوا وتألقوا في مؤلفاتهم وتراجمهم بأسلوب علمي عالٍ آنذاك وصياغة لغوية متقنة.

وقت الزيارة .. مسموحات بالملابات اللف، الزي الساتر لسيدات القاهرة إلى وقت قريب

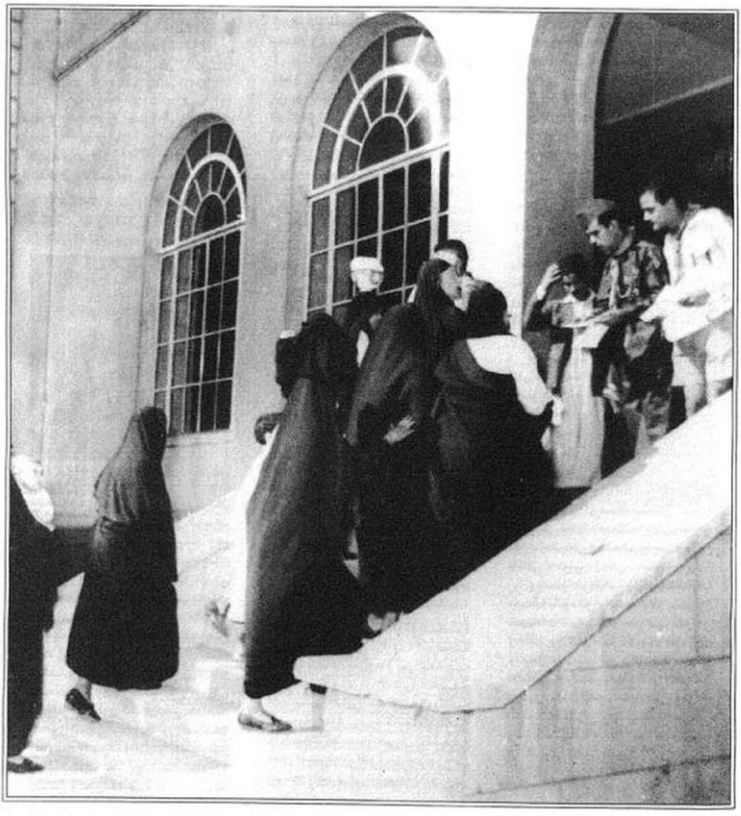

عـــــروض موجـــزة

كتب عربية

المحنة الأسيوية
قصة صعود وهبوط دول المعجزات الأسيوية
رمزي زكي
دمشق: دار المدى، ٢٠٠٠، ١٦١ صفحة

لم يكن أحد يتوقع، مهما جنح به الخيال، أن تصل الأمور إلى ما وصلت إليه في دول جنوب شرق آسيا.

فالأزمة التي ضربت دول النمور الأسيوية في عام ١٩٩٧، انقضت مثل الصاعقة بلا إنذار مسبق. بدأت الأزمة أولاً من «تايلاند» أضعف الحلقات في سلسلة النمور، وانفرطت تاليًا حبات السلسلة، من كوريا إلى سنغافورة وماليزيا وهونج كونج وتايوان وإندونيسيا والفلبين، وتباينت التحليلات حول الأسباب التي أدت إلى الأزمة، البعض أرجعها إلى هشاشة الجهاز المصرفي والفساد الإداري، والبعض رأى أن ثمة مؤامرة غربية رأسمالية هدفت إلى وضع حد للمعجزة الأسيوية الكاسحة، آخرون اعتبروا أن صعود دول النمور ونجاحاتها التي فاقت التوقعات في الاستثمار والتنمية ومعدلات النمو، إنما ترجع أساسًا إلى استفادتها من أجواء الحرب الباردة وتدفق الاستثمارات عليها.

المؤلف يبدأ من تحليل عوامل نجاح دول النمور، وبعضها داخلي مثل رخص الأيدي العاملة والدور المهم الذي قامت به الدولة في بناء شبكة بنية تحتية على درجة عالية من التقدم والكفاءة، والاستثمار الجيد في البشر بالإنفاق الجيد على التعليم والصحة والإسكان، ثم حزمة من السياسات المالية والنقدية التي تم وضعها بعناية لإبعاد شبح التضخم عن هذه الدول وتجنب الوقوع في فخ المديونية الخارجية وتشجيع الصادرات وتكوين قدر كبير من الاحتياطيات الدولية.

وهناك دوليًا قدرة هذه الدول على الاستفادة من تناقضات الحرب الباردة، وكانت نتيجة هذا كله أن حققت هذه الدول معدلات نمو اقتصادي اعتبرت من أعلى المعدلات عالميًا عبر تفوقها الاستثنائي في مجال التصدير وزيادة معدلات الادخار. وكان منطقيًا أن ترتفع مستويات المعيشة بشكل لافت وصل إلى عشرة أضعاف خلال فترة ثلاثين عامًا، من ١٩٦٠ إلى ١٩٩٥ وبعد عامين بالضبط بدأت رياح الأزمة تهب وكانت أسبابها كما يجملها المؤلف - دون أن ندخل في تفاصيلها - انفجار الديون الخارجية مما سبب عجزًا في ميزان المدفوعات، وقد حدث الانفجار في الديون بسبب التوسع الشديد في الاستثمارات، وانخفاض أصول عشرات المشروعات بسبب المضاربات على أسعار أسهمها في البورصات الأسيوية، وانخفاض قيمة العملات المحلية مما أدى إلى هروب الاستثمارات ونشوء ما يعرف بظاهرة «الاقتصادات المفرغة» التي ولدتها أنشطة المضاربات بفعل فتح الأسواق النقدية والمالية على مصراعيها أمام الأجانب.

وبسرعة تحركت «طغايات الحريق» - وهو التعبير الذي اختاره المؤلف للمؤسسات المالية الدولية مثل صندوق النقد والبنك الدوليين - لتضع روشتتها التقليدية لإصلاح حال اقتصادات النمور، وهي لم تفعل في الحقيقة سوى مضاعفة أزماتها وربطها أكثر بالاقتصاد الرأسمالي العالمي.

المؤلف بعد أن يقدم لنا تحليله المهم لأسباب الأزمة وتداعياتها عالميًا وعربيًا، يقدم لنا عشرين درسًا وعبرة - لمن يعي - لما جرى في دول النمور، التي ربما بدأت الآن التغلب على بعض مظاهر الأزمة.

□ □ □

معجم مراد
القانوني والاقتصادي والتجاري
عبدالفتاح مراد
القاهرة: المؤلف نفسه، ٢٠٠١، ٢٢٤٠ صفحة

يمثل هذا المعجم حصاد الحياة القضائية والعلمية لمؤلفه، الذي عمل بالقضاء والتدريس فجمع بين الخبرات العملية والنظرية والأكاديمية، وهو يتضمن شرحًا تفصيليًا للمصطلحات القانونية والتجارية المستعملة في الدول الناطقة بالإنجليزية، وما يقابلها في الشريعة الإسلامية واللغات الأخرى، ويشتمل على نحو ٥٠ ألف مصطلح تتعلق بجميع فروع القانون العام الداخلي مثل القانون الإداري والدستوري والإدارة العامة والقانون الجنائي والقانون العام الخارجي مثل القانون الدولي العام وقانون المنظمات الدولية والتنظيم الدولي المعاصر ومصطلحات الجات ومنظمة التجارة العالمية والعولمة والمصطلحات الواردة في فروع القانون الخاص مثل القانون المدني والقانون الاقتصادي والتجاري والقانون البحري وقانون العمل والتشريعات الاجتماعية وتشريعات الطيران الداخلي والدولي والنقل الجوي والمصطلحات الواردة في فروع القانون المختلطة مثل القانون الدولي الخاص وقانون المرافعات المدنية والتجارية ومصطلحات البنوك والتأمين والبترول ومصطلحات الشريعة الإسلامية والتشريعات المقارنة القديم منها والحديث.

كما يتضمن ما يزيد على نحو ٥ آلاف مصطلح آخر تتعلق بالمبادئ القانونية العامة والأقوال المأثورة بمختلف اللغات ومنها اللاتينية والإنجليزية والفرنسية والإيطالية مترجمة إلى اللغات العربية.

وإلى جانب المصطلحات يتضمن المعجم ستة ملاحق إضافية باللغتين الإنجليزية والعربية وهي:

ملحق بأحدث المختصرات القانونية والاقتصادية والتجارية المستعملة في الدولة الناطقة بالإنجليزية ومعناها باللغة العربية.

بيان بالاختلافات القانونية بين بعض المصطلحات الإنجليزية المستعملة في بريطانيا ونظيرتها المستعملة في الولايات المتحدة، بعض العناصر اللاتينية الداخلة في مكونات الكلمات الإنجليزية، أسماء عملات بلاد العالم وعواصمها واللغة الرسمية المستعملة فيها، المختصرات المتعلقة بالمراجع العلمية للباحثين والمؤلفين والعلماء، ملحق بالأرقام الرومانية القديمة ونظيرتها في اللغتين الإنجليزية والعربية.

□ □ □

أزمة الحماية الدينية
هاني لبيب
القاهرة: دار الشروق، ٢٠٠٠، ٢١٠ صفحة

منذ انعقاد مؤتمر الأمم المتحدة لحقوق الأقليات في عام ١٩٩٤، وقضية الأقباط تتفاعل متراوحة بين المعالجات الهادئة والأخرى ذات النبرة العنيفة المستفزة. لكن الجماعة الوطنية المصرية، بمفكريها وكُتابها المسلمين والأقباط، أجمعت على أن الأقباط لا يمكن اعتبارهم أقلية، بل هم جزء من النسيج المصري في انسجامه الأتم.

المؤلف يؤكد على هذه الحقيقة عبر استعراض العلاقة التاريخية بين المسلمين والأقباط ونضالهم المشترك ضد الغزاة والمستعمرين، وقبل ذلك بقرون عبر المواقف الوطنية للكنيسة القبطية التي استوعبت الكيان المصري كله.

في العصور الإسلامية ومنذ الفتح الإسلامي، اتسمت العلاقة بين العنصرين بدرجة من الاستقرار والنضج، خصوصًا في عصور الدولة الطولونية والإخشيدية والفاطمية والأيوبية. وحين دب الضعف في أوصال الدولة في بعض فترات الحكم المملوكي والعثماني، توترت العلاقة واضطهدت الأقلية العددية (الأقباط)، وتأكدت هذه العلاقة الحميمة بين العنصرين مع نضال المصريين ضد الحملة الفرنسية في عام ١٧٩٨ ثم كفاحهم ضد الاحتلال الانجليزي وبروز شعار مصر للمصريين وان الدين لله والوطن للجميع في ثورة ١٩١٩.

يستعرض المؤلف عددًا من الهيئات والمؤسسات القبطية التي لعبت - ومازالت - دورًا مؤثرًا في بلورة مفهوم المجتمع المدني ومنها مجموعة التنمية الثقافية والمركز القبطي للدراسات الاجتماعية وجمعية الصعيد للتربية والتنمية والهيئة الإنجيلية للخدمات الاجتماعية. ويناقش بعد ذلك فكرة الحماية الدينية عبر تقارير الكونجرس الأمريكي الذي أراد أن يعرض نوعًا من الوصاية في عصر العولمة كنوع من الضغط على الدول، ومنها في منطقة الشرق الأوسط مصر والجزائر والسودان، ويشير إلى الموقف المشرّف الذي اتخذته النخبة المثقفة بمسلميها وأقباطها، والذي تمثل في الرفض التام لأي تدخل في الشأن المصري تحت أي مسمى.

ويشير المؤلف إلى بعض المشكلات التي يواجهها الأقباط أو التي أثيرت في السنوات الأخيرة مثل قضية بناء الكنائس والجامعة القبطية وحوادث العنف التي تعرض لها الأقباط، ثم الخطر الخارجي الذي بات يطلق عليه بتعميم يخلو كثيرًا من الدقة: أقباط المهجر.

وكتب المؤلف أن ثمة مشاكل تواجه الأقباط، كما أن هناك مشاكل تواجه المسلمين، لكنها جميعًا مما يمكن حله في إطار ديمقراطي مجتمعي وليس بمنظور طائفي أو ديني.

ويقدم المؤلف في نهاية الكتاب ملحقًا بالوثائق والشهادات يتضمن شهادات للبابا شنودة والأنبا موسى والشروط العشرة لبناء الكنائس، وبعض البيانات التي أصدرها منظقو الأمة وفنانونها وعلماؤها من الطرفين وبيان لجنة الحكماء الداعي إلى وقف العنف. ثم تقرير الكونجرس الأمريكي ولجنة حماية الأقليات وتدخلاتها السافرة في شئون الدول.

□ □ □

عـــــروض مـــوجـــزة

ابن خلدون من منظور آخر
عبدالسلام الشدادي
ترجمة: محمد الهلالي، وبشرى الفكيكي
الدار البيضاء: دار توبقال للنشر، ٢٠٠٠

ثمة حقيقة مؤكدة ومبدئية في مجال العلوم الإنسانية، مؤداها أن ابن خلدون هو مؤسس علم العمران البشري - علم الاجتماع فيما بعد - ومقدمته اعتبرت دومًا عملاً رائدًا سابقًا لعصره. وابن خلدون بحسب «جاك بيرك» هو «العبقري المحيِّر» وهما كلمتان لخصتا - كما يقول المؤلف - الفكرة السائدة عن ابن خلدون لدى دارسيه.

المؤلف يعيد قراءة ابن خلدون مستفيدًا من قراءات سابقة، ومقترحًا صيغًا بديلة وفضاءات أخرى للرؤية، وبدءًا من نظام السلطة في المقدمة الخلدونية الذي لم يتم استخلاص جميع نتائجه حتى الآن بحسب رأيه.

ثم النموذج الذي يقترحه ابن خلدون لتفسير المجتمع الإنساني بسيط للغاية، فهو يميز بين مرحلتين من تطور الإنسانية: حالة المجتمع الزراعي الرعوي، وهي مرحلة أولية بسيطة لا توفر إلا الضروري، ومرحلة حضرية، أكثر تعقيدًا وتطورًا تلبي الكمالي والرفاهي، في الأولى يتحدث الاجتماعيون عن «وجود بالقوة» وفي الثانية يتحدثون عن «وجود بالفعل» ويشير المؤلف إلى مفهوم رئيسي عند ابن خلدون لم يتم أيضًا الالتفات إليه، وهو مفهوم الجاه. وهو عنده «القدرة الحاملة للبشر على التحصر فيمن تحت أيديهم من أبناء جنسهم بالإذن والمنع والتسلط بالقهر والغلبة، ليحملهم على دفع مضارهم وجلب منافعهم في العدل بأحكام الشرائع والسياسة». وهكذا يبدو الجاه، شرطًا أساسيًا لممارسة الإكراه الذي يعتبر ضرورة للعيش في المجتمع، وهكذا أيضًا فإن الشريعة الإلهية والقوانين السياسية لا تملك في حد ذاتها القوة للفرض إنها تحتاج لشيء أكثر بدائية وتجذرًا في الطبيعة الإنسانية، الجاذبية الكونية للسلطة وهالة الافتتان المحيطة بها.

والقاعدة الأساسية للبناء السياسي عنده تقوم على التعاون بين الناس خصوصًا في جانبه المتعلق بالتقسيم الاجتماعي للعمل، والإكراه الضروري لتحقيق ذلك التعاون ويرى المؤلف أن نظام الجاه يحمل بذور فنائه بداخله، لأن أصحاب «الجاهات» سيتنافسون فيما بينهم من أجل تحصيل مزيد من الثروة والنفوذ، ومن ثم تفقد الدولة ما حصلت عليه من عظمة وجلال، وسيسري هذا الفساد في المجتمع كله، إلى الحد الذي تؤدي فيه عادات البذخ إلى تدمير المجتمع.

والاقتصاد الخلدوني يعنى بصورة أساسية وسائل العيش وكسب القوت، وهي تقوم على فكرة عميقة وبسيطة في الوقت نفسه، مؤداها أن الإنسان مجبر على الحصول على ما يقتات به، وأن الله وهب للناس كل ما يوجد على الأرض، ولجميع الناس فرص متساوية في الحصول عليه، باختصار: العمل هو المصدر الرئيسي للمكاسب، فإذا اختفى العمل أو تناقص بسبب انحطاط الحضارة، فإن ذلك علامة على أنه لم يعد من الممكن امتلاك المنتوجات.

ويعطي ابن خلدون أهمية استثنائية للتعليم والمعرفة، والإنسان عنده جاهل بطبيعته لا يصبح إنسانًا إلا بالمعرفة، فالتكوين يجب أن يبدأ منذ نعومة الأظافر حينما تكون النفس بكرًا، كما أن لاختيار محتوى التعليم الأول أهمية كبيرة، وينصح ابن خلدون بعدم تعليم أكثر من تخصص واحد في الوقت نفسه، ويلح على منهج التدرج والتبسيط دون إرهاق بالواجبات على التلاميذ.

رحلة المؤلف مع ابن خلدون تجوب مواضع كثيرة في مقدمته من السياسة إلى الاقتصاد إلى التعليم، ساعيًا إلى تقديم رؤى مغايرة عن الدراسات السابقة.

□ □ □

تصطفل ميريل ستريب
رشيد الضعيف
بيروت: دار رياض الريس، ٢٠٠١، ١٥٠ صفحة

تبدو الرواية في ظاهرها الخادع، حكاية عن علاقة فراش بين زوج وزوجته، الزوج مثقور، لكنه يتمسك في فهم تسلسل علاقات القرابة بين الأبطال).

وكما يبدو فإن الحبكة قائمة على مصادفات كثيرة، وتتوسع الرواية لتغطي قرنًا من الزمان متنقلة عبر القارات والشخصيات. فبخلاف روايتها الأولى المؤثرة «في عين الشمس» لا تتعمق أهداف سويف في التكوين الذاتي للشخصية، وإنما غرضها هنا معالجة إشكالية الشرق والغرب بشكل مباشر. فهي تقدم للجمهور الغربي قصتنا مع الاستعمار من خلال البطلة الإنجليزية المتعاطفة مع المصريين، التي تنتقد سياسات ومبررات أبناء وطنها من أمثال لورد كرومر والمحيطين به. وهي تقدم قضية الاستقلال الوطني وقضية النهضة التي ارتبطت بتلك الفترة من خلال شريف باشا الذي ترسمه المؤلفة في قلب الحركة الوطنية، فهو ابن أخ محمود سامي البارودي وصديق حميم للشيخ محمد عبده وقاسم أمين وغيرهم من الشخصيات التاريخية التي تستنطقها الرواية.

وحين تعود بنا المؤلفة إلى هموم الشخصيات المعاصرة في الرواية، وحوارات المثقفين في «أتيليه القاهرة»، تضعنا أمام مقارنة تاريخية مثيرة للتساؤلات. ما الفرق بين معاناتنا من الاستعمار المباشر ومعاناتنا الآن؟ وهل تقدمنا أم تقهقرنا في مسيرة التحرر والنهضة ؟

هديل غنيم

خارطة الحب
تأليف: أهداف سويف
ترجمة: فاطمة موسى
الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠١، ٤٦١ص

عندما نقرأ الترجمة العربية لرواية الأديبة المصرية أهداف سويف «خارطة الحب» نكاد ننسى أنها كتبت في الأصل باللغة الإنجليزية. فإلى هذا الحد يأتي نص الرواية سلسًا خاليًا من التراكيب الغريبة، ويسري الحوار بين أشخاصها بشكل طبيعي بل مطعمًا أحيانًا باللغة المصرية العامية والأمثال الشعبية. وربما يعود الفضل في ذلك إلى فرصة أدبية من النادر أن تتكرر، حيث إن المترجمة هنا، فاطمة موسى، ليست فحسب من أهم نقاد وأساتذة الأدب الإنجليزي والأدب المقارن في العالم العربي، وإنما هي أيضًا والدة المؤلفة وصديقتها الحميمة، وقد اشتركتا بالعمل سويًا في تعريب الرواية التي رشحت للفوز بجائزة «بوكر». وكانت أهداف في مؤلفاتها السابقة الصادرة باللغة العربية قد قامت بتنفيذ عملية تعريبها بنفسها.

كما أن هناك عاملاً آخر يجعل الرواية تحمل الروح المصرية، وهو أن أهداف سويف لا تكتب بالإنجليزية لأنها إنجليزية من أصل مصري أو مصرية نشأت في إنجلترا، وإنما هي حسب تعبيرها ذات تكوين «أدبي» إنجليزي سبقته ظروف الدراسة والاطلاع، بخلاف تكوينها «الحياتي». فهي مصرية، نشأت في مصر وتلقت معظم تعليمها في المدارس والجامعات المصرية. ويضاف إلى ذلك أن الرواية عن مصر، وتدور معظم فصولها فيها، وكثير من أشخاصها مصريون تدور على ألسنتهم الألفاظ اليومية الدارجة. وهذا بالتحديد هو ما يجعلها مألوفة - أكثر من اللازم - بالنسبة للقارئ العربي.

إن من أبرز سمات «خارطة الحب» اختلاف حس اللغة حسب الاختلاف بين الطبقات والشخصيات والأزمنة في الرواية، والقارئ هنا بطبيعة الحال تفوته ملاحظة براعة المؤلفة في التدرج باللغة الإنجليزية من إنجليزية القرن التاسع عشر، إلى الإنجليزية الأمريكية المعاصرة، إلى الإنجليزية المعبرة عن العربية العامية. وعندما تنقل أهداف الحوار المصري العامي باللغة الإنجليزية، بشكل أسلوبها إضافة غير مسبوقة في الأدب الإنجليزي المعبر عن العرب، حيث تنجح في نقل «جو» العامية ببساطته وإيقاعه وفكاهته. ومثل هذا التنوع الغرائبي يدهش القارئ باللغة الإنجليزية ويجذبه، بينما يأخذه القارئ باللغة العربية كأمر مسلم به. فليس مما يلفت الانتباه أن نقرأ عبارة أو دعاء «اسم الذي حارسها»، ولكنك سوف تلتفت إذا قرأت عبارة (the name of God guard and protect her!) كذلك حافظت المؤلفة في النص الإنجليزي على بعض الألفاظ العربية التي كتبتها بالحروف الإنجليزية لكي لا تفقد وقعها وسحرها الخاص، مثل «ياختي» و «خلاص» و «إن شاء الله»، ثم قامت بتزويد نهاية الكتاب بقاموس يحتوي على شرح لمعاني تلك الألفاظ.

أما القصة في «خارطة الحب» فمنسوجة حول أحداث ومناخ الفترة من ١٨٩٨ إلى ١٩١٢ في تاريخ مصر، من خلال يوميات ورسائل ليدي آنا وتنربورن الأرملة الشابة الإنجليزية التي تأتي إلى مصر عام ١٩٠٠ لتقع في غرام شريف باشا البارودي الوطني المصري وتتزوج منه. هذه اليوميات تعثر عليها عام ١٩٩٧ الأمريكية إيزابيل باركمان ابنة حفيدة آنا وشريف، التي تقع في غرام قائد أوركسترا شهير في أمريكا هو عمر الغمراوي - الذي يتصادف أنه ابن عمها - وتأتي إلى القاهرة لتقابل أخته أمل الغمراوي، التي تقرأ يوميات آنا وتضيف إليها يوميات جدتها ليلى البارودي أخت شريف باشا، لتكتمل معايشتنا لتلك الحقبة الزمنية. (ولا أجد سببًا لخلو الطبعة العربية من خريطة شجرة العائلة الموجودة في الأصل، رغم أهميتها

عـــــروض موجـــزة

بالخفر والحياء والعفة. يريد زوجة بكرًا، لا خبرات سابقة لها تمكنها من أن تقارن بين زوجهـا وآخرين، ويطمح في أن يصبح أبًا لصبي، وأن تسير حياته في هدوء وسكينة لا يعكرها شيء.

ولأن عمره تقدم، والأمل - مثل كل الأمل في شرقنا العربي - يلحون عليه في الزواج، قرر أن يتزوج. وبطريقة شرقية تقليدية تمامًا، إذ لم تكن ببالـه فتاة بعينها، اختارت له الخالة عروسه، والتقى بها مرات قلائل. لم تكن كافية قطعًا كي تكشف عن أي شيء، وحين حاول أن يتنزع منها اعترافًا بما إذا كانت عاشرت رجالاً آخرين قبله أم لا، تصنعت الغضب وحردت، وحتى لا تضيع فرصة العروس التي وجدها مناسبة وقادرة على تحقيق أحلامه في الاستقرار والأبوة، سارع بالزواج منها، وبقي لياليٍ طوالا قبل أن تمكنه من تحويلها من حالة إلى حالة، وحين تم له ما أراد، هالته كمية الدماء التي نزفتها، وطاردته الوساوس، فيم إذا كانت عروسه بالفعل بكرًا أم صاحبة خبرات سابقة، وعزّز هذه الوساوس ما بدا من عروسه بعد أيام قلائل من الزواج، إذ كشفت عن لسان سليط وحِدّة بدت له زائدة عن الحد، كما أنها أظهرت قدرًا من الكراهية تجاهه لم يعد بوسعها أن تخفيه، وانتهزت فرصة مناسبة لحادثة عارضة بينهما، فتركت البيت وأجهضت نفسها، وسافرت إلى إخوتها في الخليج.

ما علاقة «ميريل ستريب» الممثلة الأمريكية الفاتنة التي يزين اسمها عنوان الرواية الذي يعني إلى الجحيم مع ميريل ستريب بهذا كله.

هذا هو الجانب الأعمق في الحكي، إذ ينبئنا الراوي أنه لم يقنع تليفزيونا منذ زواجه، لكنه اكتشف بعد أسابيع من الزواج أهمية أن يشتريه، كي يبطل حجة زوجته في الذهاب عند أمها من ناحية، وكي يتابع ما يجري في العالم عبر اشتراكه في الفضائيات العربية والعالمية من ناحية ثانية.

فجأة، وجد نفسه مع حادث شبيه بما يجري بينه وبين زوجتـه، بطلاه ميريل ستريب وداستين هوفمان. وهو من عشاق فاتنة هوليوود وقد تمناها دائمًا لنفسه، وهكذا تتداخل حكايته مع حكاية الفيلم المبثوث عبر محطة فضائية أجنبية، وهذه واحدة من فضائل - ربما - العولمة، التي تمزج الجميع في خلطة واحدة، ولكن ماعساه يفعل وهو الزوج الشرقي الذي يتمسك بتقاليد وقيم مغايرة، خصوصًا فيما يتصل بالحياة الأسرية وتضاعيفها، وكيف له أن يتخلى فجأة عن حقوق القوامة - بدون جور فهو مستتير كما أسلفنا - وحقه في زوجة بكر صانت جسدها حتى أهدته إليه بنضارته الأولى عربون حياة سعيدة ممتدة، يزينها أطفال ظرفاء؟ سيكتشف الزوج أن زوجته التي تمناها بكرًا ليست كذلك، وإنها خبيرة بالرجال حتى الشواذ منهم، وأنها فبيحة النفس وقحة، وأن الفضائيات والعولمة، نجحتا في تبديل مفاهيمها إلى حد أن حكايات البكارة والعفة والحياء وغيرها مما يقدره الراوي، صارت إرثًا من زمن ولّى ولن يعود.

□ □ □

الألقاب وأسماء الحرف والوظائف في ضوء البرديات العربية

سعيد مغاوري محمد

القـاهرة: دار الكتب والوثائق المصـرية، ٢٠٠١، ٥٠٣ صفحات

يمثل هذا البحث أطروحة جامعية لنيل درجة الدكتوراة، وموضوعه في علم الدراسات البردية العربية غير مسبوق، وهذا يبدأ بفصل عن نشأة علم البرديات العربية الذي نشأ في الجامعات والمعاهد الأوروبية، ثم يقدم في فصل تال ابرز مجموعات البرديات العربية وأشهر دارسيها. ثم يدلف إلى موضوع بحثه الرئيسي ويتقب في أصول ألقاب عربية شهيرة مثل الإبشادي والإبراهيمي والأجـرى والأزدي والأسطي، واللقب الأخير يطلق أصلاً «أسطة»، وهو ربما كان الصيغة المستعملة في اللهجة الدارجة لكلمة أستاذ، بمعنى الكبير أو الماهر في صنعته، وكذلك الإسكافي، وهو لقب يرتبط بحرفة قديمة تعنى صانعي النعـال. وبين الحـرف التي وردت في البرديات أيضًا «الجبّاش»، وهي مشتقة من جبش الشعر، يجبشه أي يحلقه وهي تعني الحلاق أو المزيّن، و«الدقّاق» وهو بائع الدقيق أو الطحين، وأحيانًا يستخدم لمن يقوم بدق القماش وتنعيمه، وكذلك «الدهّان» أي بائع الدهن، ويشمل أيضًا الطلاء بالدهان على الجدران والأسقف وطلاء الأدوات والآنيـة، وقـد كـانت للدهانين بيوت خـاصة خلف القصـر الكبير في العصر الأيوبي.

وتردد أيضًا في البرديات حرفة «الدلال» وهو الوسـيط بين البـائع والمشتـري، وهو مـا يعـرف في الوقت الحاضر بالسمسار.

وورد كذلك لفظ «رفّاص» في كشوف العمال وإيصالات الجزية والخراج، وهي تعني في نصوص البرديات العربية: الشخص الذي يتولى خلط الطين وعجنه وإعداده للبناء.

عشرات الحرف والألقاب التي وردت في النصوص العربية يتضمنها هذا المجلد الذي يبحث في جذورها وأنسابها.

كتـب أجنبيـة

State-Owned Enterprises in the Middle East and North Africa

(المشروعات المملوكة للدولة في الشرق الأوسط وشمال أفريقيا)

Edited by Merih Celasun

Auc Press, 2001, 300PP.

شهدت الفترة التي أعقبت انهيار الاتحاد السوفيتي وسقوط الكتلة الشرقية تسارعًا غير مسبوق في تطبيق اقتصاديات السوق في دول العالم النامي إضافة إلى دول أوروبا الشرقية وروسيا بالطبع، وفي مقدمة اقتصاديات السوق الخصخصة ولكن بقدر هذا التسارع العالمي فإن منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا لم تشهد مثل هذا التسارع، بل كان هناك تباطؤ ملحوظ. وأرجع الخبراء الاقتصاديون هذا التباطؤ إلى عاملين رئيسيين. الأول: العمالة الكثيفة غير المملوية في أحيان كثيرة في المشروعات المملوكة للدولة بتلك المنطقة، والعامل الثاني هو عدم قدرة اقتصاديات دول هذه المنطقة على خلق فرص عمل بالسرعة الكافية الأمر الذي أثار مخاوف المسئولين من أن الإسراع بالخصخصة من شأنه زيادة معدل البطالة وهو معدل مرتفع من الأساس.

وقد جرى تقسيم هذا الكتاب إلى جزءين الأول يعالج قضايا أساسية بشأن طبيعة الاقتصاد السياسي والمؤسسي في دول المنطقة. لإيضاح الضغوط المؤيدة والمعارضة لإصلاح وخصخصة المشروعات المملوكة للدولة. ويقدم الجزء الثاني من الكتاب دراسات تطبيقية على مصر والأردن والسودان وتركيا لتوضيح الأدوار المحددة التي تلعبها الدولة والأدوار التي تمارسها جماعات المصالح في مسيرة إصلاح وخصخصة المشروعات المملوكة للدولة. كما يتضمن هذا الجزء تحليلاً للتأثير السلبي لذلك في الإنتاجية والإصلاح المالي للقطاع العام الذي يعاني من المشاكل.

والخلاصة التي يتم الخروج بها من الكتاب هي أنه من الضروري دراسة سياسة الحماية الاجتماعية ومسائل الاستغناء عن العمال وغيرها قبل البدء في أي مشروع للخصخصة، كما يشير إلى أن زيادة الاستثمارات من القطاع الخاص للمشروعات المملوكة للدولة شرط مسبق للإسراع بانـدماج اقتصاديات دول الشرق الأوسط وشمال افريقيا في الاقتصاد العالمي من خلال البرامج ذات العلاقة بالتجارة وإصلاح البنية الأساسية.

ومؤلف الكتاب عميد كلية العلوم الاقتصادية والإدارية والاجتماعية في جامعة بلكنت في أنقرة، وقد عمل في السابق مع البنك الدولي وفي هيئة التخطيط المركزي التركية، وهو عضو في مجلس الأوصياء في منتدى البحث الاقتصادي، والمنتدى مؤسسة بحثية إقليمية ومقره القاهرة.

□ □ □

In the Wake of the Plague.. The Black Death and the World at Made

(في أعقاب الطاعون.. الموت الأسود والعالم الذي صنعه)

Norman F.Cantor

The Free Press, 2001, 245pp., $25.00,

يعادل «الموت الأسود» الذي تعرضت له أوروبا في القرن الرابع عشر حربًا نووية، فقد حصد الطاعون الذي استمر من ١٣٠٠ حتى ١٣٥٧ ما يعادل ثلث سكان أوروبا أي ٢٠ مليون نسمة. وقد أحدث صدمات غير مسبوقة في كل نواحي الحياة من اجتماعية وسياسية واقتصادية بل إنه جعل الناس يتبنون مواقف جديدة إزاء الدين والفلسفة والفن. وهذه المواقف كانت بمثابة المقدمة للتغييرات الشاملة التي عرفتها أوروبا فيما بعد، والتي أطلق عليها اسم عصر النهضة.

وفي كتـابه «في أعقاب الطاعون» يحاول نورمان كانتور أن يوفر للقارىء مسحًا جيدًا للطاعون وتأثيراته. وهو يتناول بشكل تفصيلي تأثيره على الأسر وعلى الأفراد. وأهم ما في الكتاب العواقب التي سببها الطاعون (الموت الأسود) بشكل خاص على الانجليز. فقد انخفض عدد السكان بشكل درامي وانخفض أيضًا الغذاء الذي يأكلونه، وفي المناطق الريفية ظهر نقص فادح في العمالة فوض النظام الزراعي آنذاك. فقد طالب المزارعون الأجراء بزيادة كبيـرة في أجورهم من ملاك الأراضي، الأمـر الذي كـان يحـدث

عـــــروض مـــوجـــزة

اضطرابات شديدة. ويقول المؤلف أن أعظم انتفاضة عمالية قبل القرن ١٨ حدثت في عام ١٣٨١ في انجلترا وكان من الممكن - حسب قوله - أن تؤدي إلى استيلاء الطبقة العاملة على الحكومة وتقيم ديكتاتوريا اشتراكيًا لأنه بسبب سذاجة الفلاحين وعدم نضجهم السياسي لم يتحقق هذا الحلم. وكنتيجة لذلك، فإن التأثير الاجتماعي الرئيسي للموت الأسود لم يكن زيادة أهمية الفلاحين بل اتساع رقعة الاستقطاب الاجتماعي والطبقي بينهم وبين النبلاء. الأمر الذي يشكل مقدمة لاقتصاد رأسمالي مبكر. إن الفجوة بين الأغنياء والفقراء في كل قرية انجليزية اتسعت بشكل كبير. واستغل ملاك الأراضي الظروف التي أوجدها الطاعون ليراكموا ثرواتهم وليعيش الفلاحون نتيجة لذلك في أحوال مزرية.

ويشير المؤلف إلى أن المأساة الكبيرة والهائلة التي تعرض لها الناس في أوروبا نتيجة الطاعون أفقدت كثيرين منهم قوة الإيمان بالكاثوليكية وظهرت تساؤلات وتفسيرات تحاول فهم الطبيعة الإنسانية والسلوك البشري.

□ □ □

Divided Jerusalem.. The Struggle for the Holy City

(القدس المقسمة.. الصراع على المدينة المقدسة)

Bernard Wasserstein

Profile, 412PP, £20, 2001

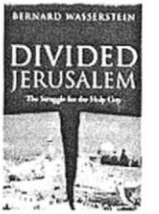

عندما قام أريئيل شارون رئيس وزراء إسرائيل الحالي بزيارة الحرم الشريف مستفزًا مشاعر المسلمين في فلسطين، فإنه تسبب بشكل مباشر في تفجير الانتفاضة التي حصدت أرواح مئات الفلسطينيين برصاص الجنود الإسرائيليين المحتلين. وقد أعادت الانتفاضة قضية القدس إلى الواجهة.

ويقول المؤلف أنه بينما يكرر شارون دائمًا أن القدس ستبقى عاصمة أبدية لدولة إسرائيل، فإن المدينة مقسمة بشكل فعلي ويشير إلى أن القدس أكثر انقسامًا من جوهانسبرج قبل ٢٠ عامًا عندما كانت في ظل الحكم العنصري للبيض في جنوب أفريقيا. إن الانقسام واضح في شتى مناحي الحياة ويكفي حسب المؤلف أن تقوم بإيقاف سيارة أجرة في الجزء الغربي من القدس الذي يقطنه أغلبية من اليهود وتسأل سائقها أن يذهب بك إلى الجزء الشرقي وعندئذ ستجد رد فعل غاضبًا للغاية وعدم رغبة في الذهاب إلى الجزء الشرقي الذي يعيش فيه الفلسطينيون.

ويركز المؤلف في كتابه على وضع القدس منذ الانتداب البريطاني على فلسطين عام ١٩٢٠. ويقول أن البريطانيين أقاموا الانتداب في فرحة وسعادة لكنهم تخلوا عنه قبيل قيام إسرائيل عندما شعروا باليأس والإحباط. ولم يتمكن الإسرائيليون من الاستيلاء على المدينة بأكملها سوى نتيجة لحرب يونيو ١٩٦٧.

ويشير إلى أنه منذ ١٩٦٧ أصبحت القدس نقطة شائكة للغاية بالنسبة للجانبين العربي والإسرائيلي في الصراع. وقد نشط الإسرائيليون في إضفاء الطابع اليهودي على المدينة لإنهاء حق الفلسطينيين في المطالبة بها.

ومن خلال استعراض لشتى نواحي المدينة الديموجرافية والثقافية والاقتصادية والسياسية يتساءل المؤلف في النهاية: هل يمكن حل قضية القدس، ويشير إلى أن اللغة التي يتم الحديث بها عن مشكلة القدس، وكيفية حلها تظهر عدم القدرة على الحل فما يتم التحدث به هو الصراع.. والصراعات، حسب رأيه ليس لديها إجابات أو حلول. إن الصراع على القدس يبدو أنه سيستمر لوقت طويل، كما أن التنبؤ بنتيجة هذا الصراع سيكون مجرد افتراض غير مبني على أسس قوية.

□ □ □

Indira.. The Life of Indira Nehru Gandhi

(انديرا.. حياة انديرا نهرو غاندي)

Katherine Frank

Harper collins, 454PP, $19.95, 2001

في مناخ يعيد إلى الأذهان رد الفعل الإيراني على كتاب آيات شيطانية للكاتب البريطاني الجنسية الهندي الأصل سلمان رشدي، صادرت سلطات إحدى الولايات الهندية نسخ مجلة تحتوي على مقتطفات من كتاب صدر للمؤلفة البريطانية كاثرين فرانك عن سيرة حياة انديرا غاندي رئيسة الوزراء الهندية الراحلة. وقد تم حرق نسخ أخرى من الكتاب على أساس أن المؤلفة تشوه سمعة انديرا غاندي.

الكتاب يدعي تورط انديرا في علاقات غير شرعية، وقد أغضب ذلك سونيا غاندي زعيم حزب المؤتمر الهندي وأرملة راجيف غاندي رئيس الوزراء الراحل ونجل انديرا. وقد فوضت سونيا محامين في الحزب لإقامة دعوى ضد المؤلفة.

نقطة الجدل الرئيسية في الكتاب إشارة المؤلفة إلى الشائعات التي ذكرت أن والدة انديرا وكانت تدعى كمالا نهرو كانت على علاقة بفيروز زوج انديرا الذي توفى عام ١٩٦٠. وبينما كانت هناك نميمة على مدى سنوات طويلة عن علاقات انديرا غير الشرعية، فإن هذه هي المرة الأولى التي يتم فيها ذكر هذه المعلومات عن كمالا.

وتشير المؤلفة، التي استمرت ٦ سنوات في جمع معلومات الكتاب، إلى أن الشائعات تركز على علاقة خاصة بين انديرا ومانهاي المساعد الخاص لوالدها نهرو أول رئيس لوزراء الهند المستقلة وتدعي المؤلفة أن هذا المساعد نشر سيرة حياته في السبعينيات من القرن الماضي لكن جرى سحب فصل منها بعنوان «مي» أعطى فيه تفاصيل عن علاقة استمرت ١٢ عامًا. ويتناول الكتاب أيضًا العلاقة المزعومة بين انديرا ومدرس اليوجا الخاص بها.

وصرح متحدث باسم دار نشر هاربر كولينز التي أصدرت الكتاب بأن محتويات الكتاب - حسب قوله - ليست هي التي فجرت الغضب الهندي بل الطريقة التي تم بها عرض الكتاب في الهند.

ومن جانبها، فإن المؤلفة أصدرت نفيًا شديدًا للاتهامات بأن كتابها غير دقيق. وقالت أنها تشعر بقلقة بشأن الجهود الذي بذلته في الكتاب مشيرة إلى أنها وصفت العلاقة بين زوج انديرا ووالدتها بأنها شائعة. وأضافت أنها أوضحت أيضًا أنه من غير المرجح بشكل كبير وجود علاقة بين انديرا وأي شخص آخر ربما باستثناء مساعد والدها. وقد ذكرت أن هناك دليلاً قويًا لتأييد ذلك.

□ □ □

Empire Statesman.. The Rise and Redemption of Al Smith

(رجل دولة امبراطوري.. صعود وافتداء آل سميث)

Robert A.Slayton

Free Press, 2001 400pp., $ 30.00.

ضمن أمور كثيرة أخرى، أظهرت الانتخابات الرئاسية الأمريكية في أكتوبر الماضي مدى الانقسام الشديد في المجتمع الأمريكي سياسيًا وثقافيًا فقد فاز جورج بوش الابن بالجنوب والغرب وأبلى بلاء حسنًا في المناطق الريفية وبين الناخبين المحافظين. أما آل جور فقد حصد أصوات سكان الساحلين الأمريكيين والمدن الكبرى والأقليات والناخبين العلمانيين.

ويقول مؤلف هذا الكتاب روبرت سلايتون أن ذلك ليس جديدًا في مثل هذه الانقسامات عميقة الجذور في المجتمع الأمريكي. ومن خلال سيرة حياة حاكم نيويورك السابق آل سميث يشير إلى أنه في أوائل القرن العشرين حدثت تغيرات عميقة في الولايات المتحدة بما في ذلك هجرة أكثر من ٢٠ مليون شخص أغلبهم من الكاثوليك واليهود. كما حدثت توسعات كبيرة في السكن الحضري. وقد فتح ذلك الباب أمام انقسام ثقافي واسع، فمن ناحية هناك المناطق الريفية والبروتستانتية حيث تزدهر الأصولية الدينية ومن ناحية أخرى هناك - كما يقول المؤلف - «أمريكا الأخرى» التي يمثلها رجال مثل آل سميث.

ولد آل سميث في أسرة ذات أصول أيرلندية وإيطالية وألمانية عام ١٨٧٣ في حي مانهاتن بنيويورك. وخرج من المدرسة وهو في سن الرابعة عشرة لمساعدة والدته الأرملة. وبعد ذلك سيفتخر آل سميث بين السياسيين بأنه عمل في سن المراهقة في سوق السمك. ويصور المؤلف عالم آل سميث في مانهاتن والانقسامات الشديدة في الحي الكبير. كما يتناول طريقه في عالم السياسة وعضويته في مجلس المدينة والشعبية التي حصل عليها عندما رأس لجنة تحقيق في وفاة ١٤٦ شخصًا في حريق بمصنع ملابس. وأصبح بعد ذلك رئيسًا للمجلس ثم حاكمًا لنيويورك عام ١٩١٨. وقد أحاط الحاكم نفسه بمجموعة من الشباب ذوي العقلية الممتازة، الأمر الذي ساعده على النجاح ومحاولة لعب دور على المستوى الأمريكي كله.

وقد رشح آل سميث نفسه في انتخابات عام ١٩٢٨ الرئاسية وحصل سميث على ترشيح الحزب الديمقراطي له ليصبح أول مرشح كاثوليكي يحظى بذلك، لكن الانتخابات كانت - كما يقول المؤلف - بمثابة إعلان حرب ليس فقط على سميث بل على الأجانب خاصة الأيرلنديين من جانب المحافظين والبروتستانت وقد خسر سميث في هذه الانتخابات أمام هوفر. ويتناول المؤلف حياة سميث السياسية بعد خسارته ومعارضته لما سمي بالصفقة الجديدة التي طرحها الرئيس فرانكلين روزفلت. ويضيف المؤلف أن سميث يرى أن الانقسامات الثقافية داخل أمريكا ظل دائمًا موجودة.

□ □ □

قـــــراءات جـــــديدة

أدب ورحلات

Journey to Portugal: In Pursuit of Portugal's History and Culture
(رحلة إلى البرتغال: بحثًا عن ثقافة وتاريخ البرتغال)
Jose Saramago
Harcourt, 2001, 452pp., $ 30.00

كتب شاعر البرتغال خوزيه ساراماجو الفائز بجائزة نوبل هذا الكتاب منذ عشرين عامًا قبل أن يترجم إلى الإنجليزية هذا العام. وقد كتبه بعد ستة أشهر من تجواله بين مدن وقرى البرتغال، محاولاً إلقاء الضوء على تاريخها وثقافتها الخاصة في ذلك الوقت، بلغته الشاعرية الخاصة.

■■■

An Unexpected Light: Travels in Afghanistan
(ضوء غير متوقع: رحلات في أفغانستان)
Jason Elliot
Picador, 2001, 473pp., $ 30.00

يتخطى هذا الكتاب مجرد الكتابة الأدبية الجميلة، أو السرد المشوق لوقائع رحلة في بلاد عجيبة. فهو يقدم نظرة عميقة في ثقافة وشعب وتاريخ أفغانستان. وقد رحل المؤلف إلى أفغانستان ثلاث مرات على مدى العشرين عامًا الماضية، في المرة الأولى عام ١٩٧٩ اشترك المؤلف مع المجاهدين الأفغان في مقاومتهم لاحتلال الاتحاد السوفيتي. وفي المرة الثانية بعدها بعشر سنوات، كان شاهدًا على القتال بين الطالبان وحكومة شاه مسعود. يصف المؤلف بحنين تلك البلاد التي أحبها والشعب الذي احترمه، إلا أنه يرثي لحاله ويشعر بالأسف لما ضاع منه.

■■■

The Flaneur: A Stroll Through the Paradoxes of Paris
(المتسكع: تمشية بين تناقضات باريس)
Edmund White
Bloomsbury, 2001, 211pp., $ 16.95

يكتب الأديب الأمريكي إدموند وايت عن مدينة باريس التي عاش فيها أكثر من خمسة عشر عامًا في الثمانينيات والتسعينيات. وقد عمل وايت مراسلاً لمجلة فوج الأمريكية في باريس. ويعلن في مستهل هذا الكتاب أن الأمريكيين غير مؤهلين لأن يكونوا متسكعين، أي جوالين بلا هدف لأنهم منشغلون بكيفية تعظيم الاستفادة من الوقت.

اقتصاد

دور البنوك في مكافحة غسيل الأموال
جلال محمدين
الكويت: بنك الكويت الصناعي، ٢٠٠٠

يضع المؤلف البنوك في قفص الاتهام، ويعتبرها شريكًا في جرائم غسيل الأموال، ويقدم مبرراته، كما يقدم مقترحاته للدور الذي يمكن أن تلعبه البنوك في مقاومة هذه العملية التي تهدد الاقتصاد العالمي.

■■■

The Insatiability of Human Wants: Economics and Aesthetics in Market Society
(الرغبات الإنسانية التي لا تشبع: الاقتصاد وعلم الجمال في مجتمع السوق)
Rigenia Gagnier
Chicago U.P. 2001, 255pp., $ 35.00

بينما ينشغل علماء الاقتصاد بأمور عملية مثل الإنتاج والاستهلاك والاستثمار والربح، يهتم علماء أو فلاسفة الجمال بالحق والجمال والذوق، مما يعني الافتراق التام بين المنهجين. ولكن هناك خيطًا يجمع هذين الفرعين وهو البحث عن «القيمة».

تقوم المؤلفة في هذا الكتاب بتوضيح هذا الجسر عبر استعراض تاريخ الفكر الاقتصادي وارتباطه بالقيم الجمالية والفنية السائدة في كل عصر.

■■■

Basic Economics: A Citizen's Guide to the Economy
(أساسيات الاقتصاد: دليل المواطن العادي للاقتصاد)
Thomas Sowell
Basic Books, 2000, 432pp., $30.00

الكتاب يشرح للمواطن العادي كيف يعمل الاقتصاد في الدولة، لكي يتفهم ما يحدث من حوله ولكي يستطيع بوعي أن يشارك سياسيًا من خلال الانتخاب.

بيئـــــة

البيئة والمشكلة السكانية
حسن أحمد شحاتة
القاهرة: مكتبة الدار العربية، ٢٠٠١

صارت البيئة همًا عالميًا في ظل العولمة، والمخاطر التي تهدد البيئة وكوكبنا «الأرض»، يتسبب في أكثرها الدول المتقدمة صناعيًا وخصوصًا الولايات المتحدة الأمريكية، ولكن البشرية جميعها تدفع الثمن. المؤلف يتناول الأخطار التي تهدد البيئة، سواء منها الطبيعة مثل الجفاف والفيضانات المدمرة، أو تلك التي من صنع البشر.

■■■

Fifty Key Thinkers on the Environment
(خمسون مفكرًا رئيسًا في شئون البيئة)
Joy A. Palmer (editor)
Routledge, 2001, 288PP, $ 16.95

اشترك أكثر من عشرين خبيرًا في تلخيص وتقديم الأفكار المتعلقة بالبيئة لخمسين شخصية مختلفة من الأزمنة القديمة وحتى الوقت الحالي.. تضم القائمة فلاسفة ورجال دين مثل جان جاك روسو وسبينوزا وجوته وبوذا، كما تضم علماء وأدباء، ونشطاء من مختلف أنحاء العالم.

تـــاريـــخ

فرسان الأمل
فاروق القاضي
القاهرة: مركز البحوث العربية، ٢٠٠١

الفرسان الذين يقصدهم المؤلف هم الطلاب، وقد لعبت الحركة الطلابية دورًا كبيرًا في توجيه مجريات الأحداث في العالم كما في مصر. والمؤلف هنا ينتبع تاريخ الحركة الطلابية وقدرتها على توجيه الأحداث في انعطافات مهمة في التاريخ المصري.

■■■

مجتمع القاهرة السري
عبد الوهاب بكر
القاهرة: دار العربي للنشر والتوزيع، ٢٠٠١

يتجول المؤلف في شوارع القاهرة القديمة التي ضمت بيوتًا للدعارة، ويجري حوارات مع نسوة حضرن تلك الأيام وسكنّ تلك الشوارع، ويلقي أضواءً على ملفات من أجهزة الشرطة تضمنت تحقيقات وقضايا لمن امتهن أقدم مهنة في التاريخ، وكذلك يشير إلى القوانين التي نظمت العمل في البغاء منذ عام ١٩٢٦ وحتى عام ١٩٥٢، وخلاصات لأهم الأبحاث الجامعية في الموضوع.

■■■

Arab Nationalism: A History:Nation and State in the Arab World
(تاريخ القومية العربية: الأمة والدولة في العالم العربي)
Youssef M. Choueiri
Blackwell, 2001, 272pp., $ 60.00

تتناول هذه الدراسة القومية العربية كحركة تاريخية وعقيدة في نفس الوقت، وتضم استعراضاً لمختلف الآراء المتباينة عن نشأتها وطبيعتها وأهميتها الثقافية. ويحدد المؤلف أربع مراحل في تطور الفكر القومي العربي، المرحلة الثقافية والمرحلة السياسية والمرحلة الاجتماعية وأخيرًا المرحلة الراهنة.

■■■

In Defense of Honor: Sexual Morality, Modernity and Nation in Early Twentieth- Century Brazil
(دفاعًا عن الشرف: الأخلاق الجنسية والحداثة والأمة في أوائل القرن العشرين في البرازيل)
SueAnn CaulField
Duke University Press, 2001, 312pp.

تتعرف المؤلفة من خلال القضايا التي كانت تعرض على المحاكم البرازيلية في أوائل القرن العشرين، على التغير والتعقد الأخلاقي والاجتماعي الذي حدث في البرازيل أثناء عملية التحديث السريعة التي كانت تجري في ذلك الوقت.

دراسات المرأة

المرأة العربية.. رؤى سوسيولوجية
عفاف عبد المعطي
القاهرة: المركز المصري للدراسات والبحوث الإعلامية، ٢٠٠١

تفرق الكاتبة بين مصطلحي النقد النسوي والنقد النسائي، وتلقي أضواءً على صورة المرأة في المجتمع من خلال نصوص لمجموعة من الكاتبات العربيات، اللائي عكسن في أعمالهن حالة الإجحاف والإبعاد التي تعانيها المرأة تاريخيًا وحتى اليوم.

■■■

Manifesta: Young Women, Feminism, and the Future
(النساء الصغيرات، والنسوية والمستقبل)
Jennifer Baumgardner, Amy Richards
Farrar Straus, & Giroux, 2000, 416pp., $15.00

يقدم هذا الكتاب أفكار جيل «الموجة الثالثة» من النسوية في الغرب. ويتوجه أيضًا لنفس هذا الجيل الجديد، أي النساء في العشرينيات والثلاثينيات من عمرهن.

ويتعرض هذا الجيل باستمرار لهجوم ونقد من أجيال الموجتين النسويتين الأولى والثانية اللاتي ناضلن بعنف من أجل المساواة، بينما ينظر العمل النسوي إلى أعضاء الجيل الحالي من النساء باعتبارهن تخلين عن النسوية متمتعات بما تحقق لهن في السابق. تنفي المؤلفتان هذا الاتهام شارحتين أنه تم استحداث أساليب جديدة تواجه مشاكل جديدة برزت في هذا العصر.

رواية وقصص

اعترافات عربي طيب
بوراك كانيوك
ترجمة: عدنان حسن
دمشق: دار كنعان، ٢٠٠٠

رواية تختلط فيها السيرة الذاتية بالنهج الروائي، لكن المعنى الذي يقدمه يشير إلى مأزق انتماء، حيث يتزوج العربي الطيب يهودية وينجب منها، ويضطر بفعل الاضطهاد النازي لليهود في ألمانيا أن يعيش في إسرائيل، وهناك يتم اقصاؤه معنويًا، وهو الذي سعى دومًا إلى تأكيد ولائه وصلاحيته للعيش بينهم، وهكذا يرفض الإسرائيليون حتى العربي «الطيب» كما يسمي الراوي أو المؤلف نفسه، وإن كانت لدينا تسمية أخرى لطيبته.

■■■

أيقونة الفن
جورج بهجوري
القاهرة: دار شرقيات، ٢٠٠١

جزء ثان من سيرة جورج بهجوري الفنان الذي عاش، جل حياته الفنية في باريس. الجزء الأول صدر في عنوان «أيقونة فلتس»، وهو الجزء الذي تناول فيه بداياته ودراسته الفنية وعلاقاته وأصدقاءه، وفي هذا الجزء يركز على الفن بالذات، الأساتذة الذين تعلم على أيديهم ثم إنجازاته ورؤاه للمدارس الفنية المختلفة.

■■■

قـــــراءات جـــــديدة

خشخاش

سميحة خريس
عمان: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠١

رواية تغوص فى أعماق امرأة اعتمادًا على المنولوج الداخلى، سعيًا إلى سبر أغوار تعقيداتها النفسية وتقلباتها الحادة بسبب وضعية المرأة فى مجتمعاتنا الشرقية عمومًا والنظر إليها ككائن أدنى، وشروط قبولها فى المحيط الاجتماعى حتى بين النسوة أنفسهن، خصوصًا إذا لم تسر حياتها وفقًا للسيناريو المعد سلفًا من قبل الأبوين.

■■■

صخور السماء

إدوارد الخراط
القاهرة: مركز الحضارة العربية، ٢٠٠١

تدور أحداث الرواية فى مدينة أخميم بصعيد مصر، وتعرض للحياة هناك خلف الأبواب وداخل أديرة الرهبان والأسافة، وهى بذلك تنضم إلى نصوص روائية قليلة تعرض لنحياة الأقباط فى مصر.

■■■

ضوء مهتز

منصورة عز الدين
القاهرة: دار ميريت للنشر، ٢٠٠١

مجموعة قصصية هى الأولى لكاتبتها التى تنهل من معين الطفولة وذكرياتها الحميمة التى تضفى أجواءً حميمية على تجربتها القصصية وتنبئ بموهبة جديدة واعدة.

■■■

Dreamcatcher

(صائد الأحلام)

Stephen King
Scribner, 2001, 20pp., $ 28.00

أصبح «ستيفن كينج» مؤلف روايات الإثارة الأكثر مبيعًا فى العالم فى يونيو من عام ١٩٩٩ فى حادث سيارة أحدث له عدة كسور جسيمة. وروايته الأخيرة «صائد الأحلام» هى الرواية الطويلة الأولى التى يصدرها كينج بعد تلك الحادثة. وعلى عكس ما توقع بعض القراء والنقاد لم تتأثر قدرة كينج على الإثارة والتشويق بعد الحادث، بل الأمر الطريف أن الرواية الجديدة تحتوى أيضًا على شخصية تعانى من كسور بسبب حادث سيارة.

■■■

The Siege of Isfahan

(حصار أصفهان)

Jean Christophe Rufin
Norton, 2001, $ 26.95

تبدأ رواية جون كريستوف رفان بعد عشرين سنة من زمن انتهاء روايته السابقة «الإثيوبى»، أى بعد أن نجح البطل «جون بابتست بونسيه» فى إنقاذ أثيوبيا من براثن لويس الرابع عشر. وقد أصبح يعيش مستقرًا مع زوجته وابنه فى أصفهان عاصمة فارس حيث يعمل كطبيب فى بلاط الشاه. وتدور أحداث الرواية مع سفره إلى روسيا بحثًا عن صديق، ثم بيعه كعبد فى أفغانستان، وتنتهى بغزو الأفغانستان لفارس.

سياسة

إسرائيل والولايات المتحدة

أحمد سليم البرصان
أبو ظبى: مركز الإمارات للدراسات والبحوث الاستراتيجية، ٢٠٠٠

حول المسكوت عنه فى العلاقات الإسرائيلية الأمريكية، والمعلن من تحالفات اقتصادية وعسكرية ومساندة أمريكية إلى حد تبنى المواقف الإسرائيلية كاملة والدفاع عنها فى كل محفل، ودور الدولتين فى عرقلة مسيرة السلام.

■■■

أفغانستان.. السياسة الغائبة والسلام المسلح

محمود المستيرى وصالح عطية
تونس: دار الجنوب للنشر، ٢٠٠٠

مازالت أفغانستان تشغل العالم، فى البداية بكفاحها المشرِّف ضد الاحتلال الروسى، ثم بعد ذلك بالنزاعات المسلحة الدامية بين فصائل المجاهدين، ثم أخيرًا باستيلاء حركة طالبان على السلطة هناك والمشكلات التى تثيرها بين فترة وأخرى. المؤلفان يعرضان للمسألة الأفغانية فى جوانبها المختلفة، وعلاقتها بجيرانها فى آسيا الوسطى، وجذور المشكلات الأفغانية والحلول المطروحة لتجاوزها.

■■■

الاتجاهات الوحدوية فى الفكر القومى العربى المشرقى

هادى حسن عليوى
بيروت: مركز دراسات الوحدة العربية، ٢٠٠٠

يعتمد الكتاب على الوثائق الأصلية الخاصة بالمشاريع الوحدوية والأعمال التى درست الفكر القومى والدوريات الحزبية فى دراسته للاتجاهات الوحدوية، فى فترة اتسمت بمقاومة الاستعمار والعداء للأجنبى وانفراج المد الوطنى.

■■■

الأحزاب والحركات والجماعات الإسلامية

جمال باروت وآخرون
القاهرة: المركز العربى للدراسات، ٢٠٠٠

عن تاريخ الأحزاب والحركات التحررية فى الوطن العربى، وكذلك نشأة وتطور الجماعات الإسلامية فى عشرينيات القرن الماضى، وتأثيرها على السياسة فى الوطن العربى، وعلاقتها بالأحزاب السياسية شدًا وجذبًا.

■■■

التسوية.. أى أرض أى سلام

محمود عبد الفضيل
القاهرة: دار سطور، ٢٠٠١

حين وصلت التسوية إلى نقاطها الحاسمة، وبدا للإسرائيليين أنهم سيدفعون ثمنًا لم يتوقعوه لبلوغها، سارعوا فورًا إلى تفجير الموقف برمته، وهدم التسوية من أساسها ورفض الاحتكام إلى أية مرجعية أو الاعتراف بأية مواثيق، اللهم إلا قوانين الأمر الواقع التى تمنح إسرائيل الأرض والسلام والأمن معًا، دون أن تضطر إلى دفع شىء فى المقابل، هذا هو ما يناقشه المؤلف.

■■■

القدس.. من العهدة العمرية إلى كامب ديفيد الثانية

وليد الخالدى
فلسطين: مؤسسة الدراسات الفلسطينية، ٢٠٠١

يقدم المؤلف فى كتابه استعراضًا تاريخيًا وسياسيًا وسكانيًا لمدينة القدس، وهى سيرة توضح كيف كانت الأوضاع فى القدس المحتلة منذ الفتح الإسلامى لها وحتى كامب ديفيد الثانية مرورًا بالحكم العثمانى والانتداب البريطانى، حيث بدأت فى المرحلة الأخيرة الأطماع الإسرائيلية التى انتهت بابتلاع المدينة.

■■■

شارون.. مجرم مذبحة الأسرى المصريين

كيف يكون مفاوضًا للسلام؟
جابر عبد السلام
القاهرة: دار قباء، ٢٠٠١

السؤال منطقى جدًا ومطروح بقوة على مستوى الخبراء السياسيين والمراقبين وعلى مستوى الشارع العربى، فتاريخ شارون الدموى لا يعطى بارقة أمل فى إمكان تحوله باتجاه السلام والعمل على إرساء دعائمه، هذا ما يؤكده المؤلف الذى يتتبع تاريخ شارون ومواقفه لينتهى إلى معاداته الأكيدة للنهج السلمى.

■■■

شمعون بيريز.. الرحلة الخيالية مع تيودور هرتزل إلى إسرائيل

تعريب: يوسف ضومط
عمان: الأهلية للنشر والتوزيع، ٢٠٠١

رسالة يبقى بيريز عبرها نواياه السياسية خلف غلالة أدبية وأسطورية. لكن أدبه كما يتبدى هنا مشبع بالأيدلوجيا إلى درجة تحيله إلى تقرير دعائى سياسى سائج، لكن المتلقى العربى سيكشف فورًا ما وراءه من أهداف تتعارض مع التاريخ والحق حتى وإن حملتها رمزية الأدب.

■■■

Beyond The Handshake: Multilateral Cooperation in the Arab-Israeli Peace Process

(ما وراء المصافحة: التعاون متعدد الأطراف فى عملية السلام العربية - الإسرائيلية)

Dalia Dassa Kaye
Columbia University Press, 2001, 256pp., $45.00

دراسة موسعة لعملية التعاون متعدد الأطراف فى الشرق الأوسط والذى بدأ فى عام ١٩٩١ فى مؤتمر مدريد للسلام. تتناول المؤلفة وهى أستاذ مساعد فى العلوم السياسية والعلاقات الدولية بجامعة جورج تاون، تطور العلاقات العربية الإسرائيلية بعد حرب الخليج. وعلى خلاف المفاهيم التقليدية للتعاون الدولى، ترى المؤلفة أن التعاون متعدد الأطراف فى الشرق الأوسط يجب أن يفهم على أنه عملية للتفاعل أكثر منه محاولة للتوصل لمجموعة نتائج.

سينما

سؤال الذات.. سينما يسرى نصر الله

نديم جرجورة
بيروت: جماعة شمس، ٢٠٠١

عن سينما المخرج يسرى نصر الله وأفلامه المؤثرة والمهمة على تلّتها، وتأثره بأسلوب يوسف شاهين وعالمه السينمائى. يقدم المؤلف رؤية نقدية لأفلام يسرى نصر الله «سرقات صيفية»، و«مرسيدس» و«المدينة».

■■■

Stars and Stardom in French Cinema

(النجوم والنجومية فى السينما الفرنسية)

Ginette Vincendeau
Continuum, 2001, 275pp., £16.99

تحلل هذه الدراسة اختلاف النجومية فى السينما الفرنسية عنها فى السينما الأمريكية. كما تتناول دور النجم فى كل من السينما الجماهيرية، حيث يكون الفيلم مجرد حامل للنجم، وخطر النجومية فى السينما الفنية التى تتطلب خضوع النجم للمخرج / المؤلف.
كذلك يستعرض الكتاب عشرة نجوم ونجمات من السينما الفرنسية محللاً تأثيرهم على الجمهور الفرنسى والعالمى. منهم: ماكس ليندر، وجان مورى، وجيرار ديبارديو، وكاترين دونوف، وجولييت بينوش وغيرهم.

■■■

A Century of Films

(قرن من الأفلام)

Derek Malcolm
Taurus, 2001, 184pp., £9.99

مؤلف الكتاب ناقد سينمائى بريطانى مخضرم، وله عمود أسبوعى فى صحيفة «الجارديان» منذ سنوات طويلة. وفى هذا الكتاب يكتب ديريك مالكوم عن أحب مائة فيلم إلى قلبه وأفضلها من وجهة نظره. لذلك تأتى أغلب محتويات قائمته من الأفلام التى صنعت بين الأربعينيات والسبعينيات، ولا يوجد سوى ثمانية أفلام من تلك المصنوعة بعد عام ١٩٨٠.

شعر

حياة عادية

محمد صالح
القاهرة: الهيئة العامة لقصور الثقافة، ٢٠٠١

قـــــراءات جـــــديدة

ديوان جديد لصاحب «صيد الفراشات» ١٩٩٦ هو الرابع فى نتاجه الشعرى، الديوان سبعة أقسام ترصد محطات فى حياة الشاعر ونشأته الريفية.

■■■

لابد من خيانة

عمر طاهر

القاهرة: دار شرقيات، ٢٠٠١

قصائد عامية تستعيد قيمًا جمالية عذبة، ومؤلفها الشاب امتداد لسلسال طويل من شعراء العامية المصريين، وهو يقدم قصائده لجمال عبد الناصر وصلاح جاهين وبليغ حمدى وغيرهما من الشخصيات التى أثرت حياتنا فى كل المجالات.

عمـــارة

فقه العمران الإسلامى من خلال الأرشيف العثمانى الجزائرى

مصطفى بن حموش

دبى: دار البحوث للدراسات الإسلامية وإحياء التراث، ٢٠٠١

تميزت العمارة الإسلامية عن سابقاتها، وهى تعد جزءًا أصيلاً من التراث الإسلامى فى الفنون والآداب، وبرغم التباين فى أساليب العمارة من بلد إلى آخر ومن منطقة جغرافية إلى أخرى، فإن العمارة الإسلامية حملت سماتها فى كل منطقة من تلك المناطق، ويتضمن الكتاب أيضًا معجمًا لأهم مصطلحات العمران الإسلامى التى تم استخلاصها من مخطوطات الأرشيف الوطنى فى الجزائر.

■■■

Architectural Reflections: Studies in the Philosophy and Practice of Architecture

(ملاحظات معمارية: دراسات فى فلسفة وممارسة العمارة)

Colin St John Wilson

Manchester U.P., 2001, 240pp., £19.99

صدر هذا الكتاب لأول مرة قبل ثمانية أعوام، ولكن خلال هذه الأعوام تبدلت سمعة المؤلف بعد أن قام بتصميم «المكتبة البريطانية»، فعلى غير العادة، أدى الإعجاب بأعماله المعمارية إلى زيادة الطلب على نظرياته.

ويهتم ويلسون بقضيته الوظيفية فى المقام الأول. وهو يطالب المصمم المعمارى بالتمسك بقدر من المسئولية والواجب العام، بمعنى أنه عليه أن يعبر عن ذاته على ألا يكون ذلك على حساب القيم العامة والوظيفة المطلوبة من البناء.

■■■

Recycled Spaces: Converting Buildings into Homes

(إعادة تدوير المساحات: تحويل المبانى إلى منازل)

Vinny Lee

Ray Main (Photographer)

Soma Books, 2000, 144pp., $35.00

يقدم الكتاب خبرة المشروعات التى قامت بتصميم منازل وشقق سكنية جميلة من مبان قديمة انشئت فى الأصل كدور عبادة أو كمصانع أو كمبان تجارية أو حكومية.

■■■

In the Company of Stone: The Art of the Stone Wall

(فن الجدار الحجرى)

Daniel Snow

Peter Mauss (Photographer)

Artisan, 2001, 128pp., $35.00

المؤلف فنان متخصص فى بناء الجدران والمصاطب والكهوف الحجرية. وهو فن قديم يعود إلى العصور الأولى ويستمر الآن على نطاق فنى ضيق، وهو يعتمد فقط على ما تنتجه الأرض من مواد طبيعية، بدون مسامير أو أسمنت، فلا شىء يمسك ما يقوم ببنائه سوى الجاذبية الأرضية وملاحظته الدقيقة لتجاويف كل حجر.

عـــلوم

الإيمان والتقدم العلمى

خالص جلبى

بيروت: دار الفكر المعاصر، ٢٠٠٠

يتيح كتاب الكون المفتوح لمن يريد أن يتعرف على عظمة الخلق، وفى كل يوم تتكشف أسرار وحقائق جديدة عن الإنسان والطبيعة، تزيد من قناعة الإنسان بقدرة الخالق، المؤلف يبحث فى نشأة الكون والتاريخ الجيولوجى للأرض والكواكب، وأهم الكائنات التى وجدت على كوكبنا، وكيف تطورت لتواكب تطور الحياة والطبيعة ذاتها.

■■■

The Ape and the Sushi Master: Cultural Reflections by a Primatologist

(ملاحظات ثقافية لعالم الحيوان)

Frans de Waal

Basic Books, 2001, 433pp., $26.00

المؤلف، وهو من أشهر أساتذة سلوك الحيوانات الرئيسية وهى تلك الفصيلة من الذبيات المتطورة التى تشمل الإنسان والقرد، ينفى الفرض القائل بأن الإنسان يتميز عن الحيوان بالثقافة أو السلوك المتعلم من الآخرين.

فمن خلال ملاحظاته ودراساته التى امتدت لأكثر من ثلاثين عامًا، يؤكد العالم أن القردة تقوم أيضًا بتدريب صغارها على أنماط مختلفة من المهارات الاجتماعية.

■■■

Mauve: How One man Invented a Color that Changed the World

(البنفسجى الزاهى: كيف اخترع رجل واحد اللون الذى غير العالم)

Simon Garfield

W.W. Norton, 2001, 222pp., $23.95

فى عام ١٨٥٦ اخترع شاب إنجليزى أول صبغة صناعية فى التاريخ، قبل هذا كانت مجموعة الألوان القليلة المستخدمة فى الصباغة منتجة من عناصر طبيعية مثل الخضروات والنباتات والحشرات والأسماك القشرية.

وحين قام وليام هنرى بركين باختراع صبغة اللون «الموف» أو ذلك المزيج من الأرجوانى والبنفسجى بعملية كيمائية، كان ذلك بمثابة فتح علمى وصناعى جديد، وفى القرن العشرين وبسبب فكرة بركين الجديدة أصبح يوجد أكثر من ٢٠٠٠ لون صناعى، أما الآن وبسبب الثورة الرقمية، فأصبح من الممكن استخراج أكثر من ١٦ مليون درجة لونية مختلفة.

فكـــر

المعرفة والسلطة فى المغرب

ديل إف. إيكلمان

ترجمة: محمد أعفيف

المغرب: مركز طارق بن زياد للدراسات والأبحاث، ٢٠٠٠

العلاقة بين المثقفين أو من نالوا قسطًا معقولاً من التعليم والسلطة إشكالية دائمًا، والمؤلف هنا يعرض لهذه العلاقة من خلال قصة حياة قاض، يشير من خلالها إلى مرحلة مهمة ازدهر فيها التعليم فى المغرب بفضل تشجيع الخلفاء والأمراء، وتوفيرهم كافة التسهيلات الممكنة لطلاب العلم، وإيفادهم فى بعثات إلى الخارج، وحين هبط الاستعمار الفرنسى أدرك المكانة المهمة التى يحتلها الفقهاء والعلماء، وسعى الفرنسيون إلى استغلال هذه المكانة فى التأثير على العامة وإقناعهم بمزايا المستعمر، وقد استجاب بعض الفقهاء لهذا الإغراء فيما رفضه آخرون.

■■■

المختلف والمؤتلف

جميل قاسم

بيروت: منشورات الآن، ٢٠٠١

يسعى المؤلف إلى بلورة فكر عربى جديد ومعاصر، عمادة ديمقراطية حقيقية، وهى - أى الديمقراطية - ربما كانت الفريضة الغائبة عن عالمنا العربى كله، والرؤى النقدية التى يتبناها المؤلف ويسعى إلى أن تسود بين مفكرينا، هى القادرة على تبديل الواقع العربى إلى الأفضل.

■■■

المصطلحات السياسية فى الإسلام

حسن الترابى

بيروت: دار الساقى، ٢٠٠١

يقدم الترابى شروحًا لمفاهيم ومصطلحات شاع استخدامها فى السياسة والحياة العامة، أو أنه يصوغ مقابلاً إسلاميًا لهذه المصطلحات، التى وردت أساسًا من الغرب الحديث، وهى اجتهادات ربما أصابت وربما أخطأت، وهى تصب بالتأكيد فى مجرى يضيف إليه زعماء الحركات الإسلامية المعاصرون، الذين يسعون إلى «أسلمة» أو إيجاد مرادفات إسلامية لمفاهيم تطورت أساسًا مع التطور الغربى.

■■■

طه حسين

حسن جغام

تونس: دار المعارف، ٢٠٠٠

لم يكن طه حسين مثقفًا عاديًا ولا أديبًا أو ناقدًا فحسب، كان انعطافة فى تاريخ الفكر العربى كله، والقضايا التى طرحها والقذائف التى أطلقها فى سماء الفكر العربى والإنسانى من نقد الشعر الجاهلى إلى مستقبل الثقافة فى مصر وغيرها، والمواقف التى اتخذها حين تولى مناصب أكاديمية أو تنفيذية تشهد له بهذه الريادة، المؤلف يقدم رؤية لهذا المفكر الفذ الذى حُرم البَصر وأضاء ببصيرته الطريق أمام كثيرين، ويركز على مواقفه من تاريخ الأدب الجاهلى وإحيائه لتراث أبى العلاء.

■■■

طواحين الكلام

محيى الدين اللاذقانى

بيروت: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، ٢٠٠٠

ينحاز المؤلف - وهو صحافى باحث وشاعر - للمرأة، ويقدم تحليلاً اجتماعيًا ونفسيًا لعلاقتها بالمجتمع ونظرته إليها، وكذلك علاقتها بالرجل. ويقدم بعضًا من آراء الأولين فى هذا الموضوع، ويقوم فى دراسات أخرى بكتابة رؤية ساخرة للأوضاع العربية.

■■■

Moral Freedom: The Impossible Idea that Defines the Way We Live Now

(الحرية الأخلاقية: الفكرة المستحيلة التى تحدد الطريقة التى نعيش بها الآن)

Alan Wolfe

W.W Norton & Comp, 2001, 256pp., $24.95

يبحث عالم الاجتماع الأمريكى عن الخصال التى تميز الشخصية الأمريكية فى الوقت الراهن، مختبرًا صحة الأفكار السائدة عن الحرب الثقافية الدائرة فى المجتمع الأمريكى. وقد اعتمد فى دراسته على نتائج استطلاعات الرأى التى أجرتها مجلة النيويورك تايمز فى عام ٢٠٠٠ والتى تناولت آراء الناس فى الأخلاق والرضا الذاتى، بالإضافة إلى مقابلات معمقة أجراها مع عينة من سكان ثمانى مناطق تمثل الجماعات أو القطاعات المختلفة فى المجتمع الأمريكى.

■■■

Dogs and Demons: Tales From the Dark Side of Japan

(كلاب وشياطين: قصص عن الجانب المظلم من اليابان)

Alex Derr

Hill & Wang, 2001, 432pp., $27.00

يرى المؤلف أن المشكلة فى الثقافة اليابانية هى غلبة الشكل على حساب الوظيفة والهدف فى كل جانب من جوانب الحياة اليابانية.

فعلى سبيل المثال يكثر الحفظ بدون تعلم، والتصميم الخارج عن السياق والبناء بدون هدف، والمعلومات بدون معرفة، والتمويل بدون إنتاج للقيمة.

فكر ديني

أمهات المؤمنين
على عبد المنعم
القاهرة: دار سفير، ٢٠٠١
أمهات المؤمنين هن المثل الأعلى للمرأة المسلمة، والقدوة الحسنة فى إخلاص العبادة وسمو الأخلاق وعفة اللسان وسعة العلم. المؤلف بعرض لحياة أمهات المؤمنين فى بيت النبوة ومواقفهن المشرفة فى كل شئون الحياة.

■■■

Wide as the Waters: The Story of the English Bible and the Revolution It Inspired
(قصة الكتاب المقدس الإنجليزى والثورة التى ألهمها)
Benson Bobrick
Simon & Schuster, 2001, 379pp., $26.00
المؤلف يسوق نظرية مفادها أن ظهور طبعات شعبية من الكتاب المقدس أحدث ثورة اجتماعية شعبية فى إنجلترا وأسهم فى ميلاد الديمقراطية.

للأطفال

من أين يأتى الطفل؟
سلسلة بدايات العلوم المبسطة
القاهرة: دار سفير، ٢٠٠١
تقدم هذه السلسلة معلومات بسيطة تشكل عقل الطفل وتغذى مداركه وتسهم فى تكوين شخصيته، وفى هذا الكتيب من السلسلة معلومات عن تكون الجنين ونموه وولادته وكيف تتم عملية الولادة وكيفية استقبال عضو جديد فى العائلة، وما الذى يمكن أن تقوم به الأم كى تمهد لإخوته قدومه.

■■■

Waiting for Wings
(انتظارًا للأجنحة)
Lois Ehlert
Harcourt Brace, 2001, 38pp., $17.00
(للأطفال من سن ٤ إلى ٨ سنوات)
كتاب مثالى لتعليم الأطفال دورة حياة الفراشة سواء فى المنزل أو المدرسة أو المكتبة، حيث تقدم المعلومات البيولوجية فى صورة قصة او حدوتة تصاحبها رسومات وصور ملونة بشكل جذاب.

■■■

Ramona's World (Ramona Series)
(عالم رامونا «سلسلة رامونا»)
Beverly Clearly
Alan Tiegreen (Illustrator)
Harper Collins, 2001, 208pp., $4.95
(للأطفال من سن ٩ إلى ١٢ سنة)
تعد رامونا كويمبى من أحب الشخصيات فى قصص الأطفال الأمريكية، وقد ابتكرتها المؤلفة بفرلى كليرلى منذ الخمسينيات. وهذه القصة تعد الأولى بعد توقف دام خمسة عشر عامًا. ويرجع سبب شعبية قصص رامونا إلى نجاح المؤلفة فى التعبير عن مشاعر الأطفال فى هذه السن، والمواقف المختلفة التى تسبب لهم الحرج أوالخوف أوالغيرة.

مذكرات وسير

Stet: A Memoir
(ستت: مذكرات)
Diana Athill
N.Y: Grove Press, 250pp., $ 24.00
تكتب السيدة الأولى فى عالم النشر البريطانى هذه المذكرات عن عملها فى السنوات الأولى مع «أندريه دويتش» الذى تحتل شخصيته وحكاياته الجانب الأكبر من هذه المذكرات.
فقد بدأت معه فى تأسيس دار النشر الشهيرة «بنجوين» بعد الحرب العالمية الثانية مباشرة. والآن تبلغ ديانا أثقل من العمر ٨٣ عامًا. وإلى جانب أندريه دويتش شريكها، وعشيقها، ورئيسها فى العمل فى ما بعد، تتحدث ديانا فى مذكراتها عن مؤلفين آخرين كانت هى أول من غامر وقام بنشر أعمالهم ومنهم فى. إس نايبول، وبريان مور، ومورفاى رتشلر.

■■■

Franco: A Concise Biography
(فرانكو: سيرة حياة مختصرة)
Gobrielle Ashford Hodges
Weidinfeld and Nicolson, 2001, 290pp., £20.00
كثيرًا ما يندهش المؤرخون من حسن الحظ الذى حالف الجنرال فرانشسكو فرانكو فى حياته العسكرية والسياسية.
فقد كان من القلة الذين نجو من مبادين القتال فى المغرب، كما قتل كثير من منافسيه الحربيين أثناء الحرب الأهلية الإسبانية فى حوادث طائرات، بينما خرج هو سالمًا. كذلك انتهت الحياة السياسية لقادة سياسيين فى إسبانيا الجديدة بحوادث اغتيال مثل خوزيه سوتيلو وخوزيه دى ريفيرا بخلاف قدرته هو على البقاء. هذا الكتاب لا يهتم بالمصادفة فى حياة الجنرال فرانكو بقدر ما يتناول التكوين السيكولوجى لشخصيته، محللاً طفولته ونشأته فى منزل غير سعيد، ومعاناته عقدة أوديب وقلقه العصبى وإحساسه بالدونية.

نقد أدبى

أبو حيان التوحيدى وشهرزاد أنور لوقا
تونس: دار الجنوب، ٢٠٠١
يؤكد المؤلف ان ثمة حداثات عديدة لا حداثة واحدة، وجمعه بين أبى حيان التوحيدى صاحب الإمتاع والمؤانسة «والمقابسات» وغيرها من عيون النثر العربى، وشهرزاد أشهر شخصيات ألف ليلة وليلة، يؤكد ذلك المفهوم.

■■■

الجوائز الأدبية.. الحدود والأقنعة
حسين بافقيه
أبها: نادى أبها الأدبى، ٢٠٠٠
لم تعد الجوائز الأدبية نزيهة أو معيارًا صالحًا للجودة والاستحقاق. المؤلف يثير أسئلة عديدة حول مقدرة الجوائز العربية على تجذير الإبداع الأدبى والثقافى ويتساءل: هل استطاعت أن تخلق قاعدة جماهيرية عريضة من القراء؟ الإجابة بالنفى. ومن ثم يقدم المؤلف أفكارًا لإعادة الاعتبار إلى الجوائز.

■■■

الشعر والوجود.. دراسات فلسفية فى شعر أدونيس
عادل ضاهر
دمشق: دار المدى، ٢٠٠١
ثمة مداخل عديدة لعالم أدونيس الشعرى، المؤلف اختار المدخل الفلسفى واختار أفكار الشاعر فى استلته الوجودية المحيرة، كيف استطاع أدونيس أن يحيل هذه الأسئلة المعقدة إلى أبيات شعرية تصنع ألقًا خاصًا.

■■■

القصيدة الحديثة فى الخليج العربى
مجموعة من الباحثين
البحرين: إدارة الثقافة والفنون، ٢٠٠٠
يرصد الباحث التحولات التى طرأت على القصيدة العربية الحديثة فى منطقة الخليج خلال النصف الثانى من القرن الماضى، ويعرض كذلك للحركة النقدية التى واكبتها وأسهمت فى تطور الشعر وتعديل مساراته.

■■■

تفكيك الرواية
فتحى أبو رفيعة
القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠١
يسعى المؤلف إلى اكتشاف طرق جديدة لتحليل النص عبر القراءة الاستدلالية، دون أن يفكك أواصر النص أو بنيته التركيبية، وهو يتناول هنا ١٦ نصًا من أجيال مختلفة وحساسيات أدبية متباينة.

■■■

سيكولوجيا الإبداع الفنى فى القصة القصيرة
شاكر عبد الحميد
القاهرة: دار غريب، ٢٠٠١
السؤال الذى يتردد باستمرار على مسامع المبدعين هو: كيف تبدأ عملية الإبداع وما هى مؤشراتها وإرهاصاتها وكيف يكتشف المبدع أن حالة الإبداع حلّت، المؤلف هنا يركز على مبدعى القصة القصيرة، ويقدم تحليلات سيكولوجية لقصص أجيال مختلفة منهم عبد الحكيم قاسم. وسعيد الكفراوى، وإدوار الخراط، وجمال الغيطانى، وآخرون. كما يقدم من خلال حواراته معهم تصوراتهم عن انطلاق اللحظة الإبداعية.

■■■

هردنيان دوسوسير
تأصيل علم اللغة الحديث وعلم العلامات
جوناثان كللر
ترجمة: محمود حمدى عبد الغنى
القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة، ٢٠٠١
يتناول المؤلف الذى يعد أحد تلاميذ دوسوسير، أهم المبادئ التى وضعها دوسوسير فى هذا الميدان، والمحاضرات التى ألقاها فى علم اللغة وعلم العلامات الذى يعد دوسوسير مؤسسه الحقيقى.

■■■

مدخل إلى الشعر الشفاهى
بول روموثور
ترجمة: وليد الخشاب
القاهرة: دار شرقيات، ٢٠٠١
يقدم المؤلف مفاهيم ودلالات جديدة تتجاوز حدود المتداول والمتعارف عليه، وتُشكل موضوعات حياتية ملحّة ومقولات فكرية معقدة. وتتحول قضية الشعر الشفاهى عنده إلى قضية وطنية سياسية، يدعو من خلالها إلى الحفاظ على خصوصيات الشعوب وتعبيراتها الجمالية والثقافية.

■■■

نظرية العماء وعولمة الأدب
سعيد علوش
الرباط: المؤلف نفسه، ٢٠٠١
يقدم الكتاب طريقة خاصة لهدم النظريات التى تم استلامها من العقود الأخيرة فى حقل النقد الأدبى فى أحيان كثيرة بلا وعى أو حاجة. ويفكك مبادئها ومصادرها التقليدية، معتمدًا على نظرية العماء التى تكشف مواقع التشوش والارتجال فى النقد العربى المعاصر.

■■■

Ethical Issues in Twentieth-Century French Fiction: Killing the Other
(قضايا أخلاقية فى الرواية الفرنسية فى القرن العشرين: قتل الآخر)
Coliu Davis
Macmillan, 2001, 228pp., $ 42.50
يرى الناقد انه ليس من المفروض على الرواية أو القصة أن تؤكد المعتقدات الراسخة لكى تكون أخلاقية، بل إن أخلاقية العمل القصصى من وجهة نظره تنبع من تفادى حسم المسائل الأخلاقية. ومن هذا المنطلق يحلل المؤلف العلاقة مع الآخر، وكيف عالجتها الرواية الفرنسية وكيف تعامل معها النقاد مثل سارتر ولاكان وليفيناس.

■■■

ورقة الخيمة والسوق

وَرَدَت في مقال سابق للأستاذ محمد حسنين هيكل إشارة إلى ثلاث أوراق تلقاها كيسنجر قبل أن يقوم باول زيارة له إلى المنطقة في شهر نوفمبر ١٩٧٣، وضمنها وَرَقة عن «الشيخ في الخيمة» والتعامل في «السوق» - وقال الأستاذ هيكل أن الورقة الأولى كانت من جوزيف سيسكو، والوَرَقة الثانية: كانت من روجر فيشر، أما الوَرَقة الثالثة فقد ذكر أنه لم يستطع معرفة كاتبها وإن كان يُرَجِّح أنه ريتشارد هاس.

واعتقادي الشخصي أن الذي كَتَبَ هذه الوَرَقة كان «بيتر رودمان». وهو من الذين صاحَبوا كيسنجر في رحلاته وساعَدوه في كتابة مُذكِّراته بخصوص الشرق الأوسط.. وكان يَحمل الحرائط في الفريق المصاحب لكيسنجر.. وكنت أن شخصيًا أثناء فترة عملي في واشنطن - كلما عَنَّ لي أن أتعرَّف على أية تفاصيل خاصة برحلات ومباحثات كيسنجر - أتصل به.

هذا وقد عَمَل «رودمان» - وهو يهودي - بعد ذلك في مجلس الأمن القومي أثناء إدارة ريجان، وكان مسئولاً عن الشرق الأوسط. أما الآن فهو يعمل في مركز الأبحاث الذي يحمل اسم «نيكسون»، ومازال قريبًا من كيسنجر.

و«رودمان» مُتَزَوِّج من «فيرونيك»، واسمها أيضًا «فايزة»، وهي مولودة في الإسماعيلية، حيث كان أبوها يَعمل في شركة القناة.. وهي ليست يهودية، وهي في الأغلب كاثوليكية لأن خالتها «مدير بولاه» (راهبة) كانت تدير مَدرسة كاثوليكية في جاردن سيتي «Mere d'Dieu».

أما «هاس» فقد عَمل مساعدًا للرئيس بوش لشئون الشرق الأوسط بمجلس الأمن القومي، وكان دوره بارزًا أثناء الغزو العراقي للكويت.. ولكنه يَعمل الآن - أي في إدارة بوش الابن - في الخارجية ويرأس إدارة التخطيط السياسي.

عبد الرءوف الريدي
سفير مصر الأسبق بأمريكا

العرب.. والصديق

.. بعدما تسلمت حكومة الدكتور عاطف عبيد إدارة الحكومة في مصر المحروسة أعلنت بصوت عال أنها تنتهج «الشفافية» سلوكًا وتدعو لها في بحثها عن حل لمشاكل اقتصادية وسياسية واجتماعية وأخلاقية باتت معقدة ومزمنة، ولقد باغتتنا الكلمة غير المسبوقة في أبجديات الحكومة وتندرنا عليها قليلاً كعادتنا كمصريين، وفي مجلة الإشعاع الثقافي الوحيدة التي تلق بها «وجهات نظر» داب الأستاذ هيكل على كتابة مقالاته المتميزة العالية والمختلفة عما يقرأه المواطن المصري في أي صحيفة قاهرية أخرى.. وهي مقالات تعتمد على ذخيرة عالية القيمة والاختيار من الوثائق التاريخية لكي نعرف أولاً ولكي نستطيع إعمال عقولنا ثانياً.. فليست هناك قاعدة معلومات ذات قدر من المصداقية المعقولة للقارىء المصري مثلما يكتب لنا أستاذنا هيكل.. وظل الأستاذ هيكل يكتب في تصاعد ملحوظ.. ويزداد اكتئابًا بشكل ملحوظ بعد كل مقالة شهرية بوجهة نظر.. لأن الجهل نعمة مع الأسف.. وحينما نعرف نختنق.. حتى أسقط علينا نحن قراء «وجهات نظر» قذيفة ذات عيار ثقيل أكلم من اللازم في مقالة أبريل.. حيث اسودت لها القلوب والعيون بمقارنته بين موقف السادات من الحليف الوحيد والرئيسي لنا قبيل حرب اكتوبر وهو الاتحاد السوفيتي بغرض تأمين احتياجات الحرب لنا مع إسرائيل.. قارنه مع موقف حكومتنا الآن وكذلك الحكومات العربية من الحليف الرئيسي والوحيد والبلطجي الأول والأخير في هذا العالم وهو الولايات المتحدة الأمريكية.. وكانت المقالة الأخيرة للأستاذ هيكل انتفاضة غير عادية مثل انتفاضة أبناء فلسطين فوق أرضهم المحتلة.. عسى أن يقرأ أحد ليتحرك أي أحد. قبل طوفان الضياع الشديد القادم والذي بدأ منذ ربع قرن وسط سحابة ضخمة ضبابية من الأوهام والأحلام الخادعة والمخدرة لجيلين كاملين من أجيال الشباب المصري.

فهل ستكون الحكومة بإعلانها القديم عن «شفافية» عونًا لهيكل لاستمرار مقالاته.

د. سمير عنتر
استشاري حميات - الطائبة - النهرم

الخرائط التوضيحية

بمناسبة ما نشرته المجلة في عدد أبريل الماضي تحت عنوان «أمراض الحيوان تهدد صحة الإنسان» وبحكم تخصصي سيقتصر تعليقي على شيء محدد، وهو الخرائط المرفقة بالمقال:

أولاً: يبدو أن الخريطتين مأخوذتان من أصل أجنبي «ملون»، ولذلك فقد فقدتا ما لهما من فائدة توضيحية بعد إعادة نشرهما في المجلة بلون واحد. خاصة خريطة أفريقيا. والتي يصعب التمييز بين الرموز المشيرة لأنواع العدوى. وكان من الواجب إما نشرهما بالألوان إذا كان ذلك متيسرًا، أو إعادة رسمهما على بد متخصص بالأبيض والأسود. وذلك لتكتمل الفائدة المرجوة من نشر الخرائط التوضيحية.

ثانيًا: جاء في الخريطتين خطأ مشترك خاص بالحد السياسي بين مصر والسودان بطريقة تجعل من منطقة حلايب سودانية، الأمر الذي يتعارض مع حقيقة أن الحد السياسي الرسمي بين الدولتين هو دائرة عرض ٢٢ شمالاً.

ورغم علمي بأن الأمر كله يندرج في إطار الهيئات التي قد لا نتوقف عندها إذا صادفناها في صحف أخرى، إلا أن الأمر بالضرورة يختلف مع مجلة في مستوى «وجهات نظر»

الدكتور / محمد عبد الرحمن المنهاوي
معهد البحوث والدراسات الأفريقية
- القاهرة

الطريق الطويل للنهضة

تابعت باهتمام ما شرحه الأستاذ رئيس التحرير باقتدار عن أسباب التخلف وكيفية النهضة في مقاله (لماذا يطول بنا الطريق إلى النهضة) المنشور في العدد السادس والعشرين الماضي من مجلتنا الرائعة «الكتب.. وجهات نظر».

لكني أستاذن هنا في إضافة بعض النقاط لما أورده من أسباب للتخلف والركود..

ففي اعتقادي أنه ليس من أسباب تخلفنا فقط انهيار نظام التعليم عندنا وتأثل التفكير العلمي وانحطاط مستوى التربية على مستوى الأسرة والمجتمع.. رغم أهمية وجوهرية كل نقطة وإنما:-

١- لأننا وبصراحة لم نفهم إلى الآن ماهية وإطار مشروع النهضة والتقدم الذي ننتمناه ونرجو تنفيذه. ولم نحدد بعد هل نحن في حاجة إلى مشروع نهضوي ديني.. يبعث من جديد الروح الدينية العالية والسليمة في النفوس.. وينقي ويفرز ما دخل على العقيدة الإسلامية من مغالطات وتجاوزات.

٢- أم مشروع نهضوي اقتصادي علمي يتشل اقتصادنا المتدهور صناعيًا وزراعيًا، كما حدث في بلدان نامية كثيرة أصبحت الآن نمورًا، وأشهرها كوريا الجنوبية التي عايرنا بتقدمها علينا الصحفي الأمريكي توماس فريدمان.

٣- أم هو مشروع نهضوي حياتي وأخلاقي نريده الآن ليعيد لنا ولو قليلاً من القيم والأخلاق المصرية الغائبة مثل قيم النظافة والاحترام والذوق ويحاول أن يجد وسيلة ما فعالة تقضي على اللغة السوقية، وعلوًا (القذرة) المنتشرة حاليًا بقوة بين قطاعات كبيرة من الحرفيين والطلبة والموظفين.. وغيرهم.

مشروع نهضوي يحاول وبقوة أن يحرر الشخصية المصرية باختلاف فئاتها نساءً ورجالاً من عبوديتها للجنس.

لنتفق بداية على ما نريد تحقيقه.. هل هو مشروع نهضوي اقتصادي أم سياسي أم علمي أم حياتي وأخلاقي ثم بعدئذ لنعاتب أنفسنا على عدم قدرتنا على إنجاب شخصيات قيادية مختلفة تتواجد كأعلام ورموز وراء مشاريع نهضوية متعددة وتقاتل في سبيل تحقيقها.. لابد أن تتزحزح القناعات الزائفة بالحاضر المتخلف من مكانها المستقر داخل نفوسنا وأن نخرج شبابنا من الغيبوبة الراقد فيها الآن. ونحطم معه بدًا بيد تماثيل الروشتة واللاشيء وقتل الوقت في اللعب.. واليأس.

وختامًا.. كل الشكر للمقال الذي أعاد تفجير القضية.

إبراهيم شعبان مصطفى
بكالوريوس التربية
جامعة المنوفية

عروبة موريتانيا

بمناسبة مقال الأستاذ هيكل في عدد مارس الماضي بعنوان: «نهايات طرق» تلقت «وجهات نظر» رسالتين بهما معلومات مهمة عن «عروبة موريتانيا».

●●●

لقد تحدث أستاذنا الفاضل عن القوافل العربية، وهي متوجهة إلى عمان خصوصًا عندما وصل إلى ما أسماه «الذيل» أو «القوافل الوافدة» من خارج كيان الأمة العربية، والتي انضمت إليها مؤخرًا، بسبب «الطفرة المفاجئة للنفط» إذ يرى كاتبنا الكبير أن أمر هذه القوافل يستحق المراجعة والنظر.

وقد عنى بهذه القوافل في الشق الأول «جيبوتي» و«جزر القمر» وفي الشق الثاني «الصومال» و«موريتانيا» باعتبار أن دخولها لجامعة الدول العربية مخالف للشروط المؤسسة للنظام الداخلي للجامعة.

وهذه الشروط كما وردت عن كاتبنا هي:

- أن تكون اللغة العربية هي لغة ذلك البلد.

- وأن يكون البلد الراغب في الانضمام إلى الجامعة قد تمكن من تحقيق قدر من الاستقلال الوطني يكفل نوعًا من الإرادة المستقلة.

ثم أن يكون البلد العربي الراغب في الانضمام على اتصال جغرافي بالعالم العربي، وانطلاقًا من هذه الشروط الثلاثة وباعتبارها أساسية في الانضمام إلى الجامعة العربية، فإني أطمع في أن يسمح لي كاتبنا الكبير في أن أناقشه في مدى توافر هذه الشروط في موريتانيا مما أهلها للانضمام لجامعة الدول العربية حسب المعطيات الموجودة وليسمح لي أيضًا أن أخالفه الرأي في أن أسباب انضمامها ليست سياسية أو اقتصادية «الطفرة المفاجئة للنفط» وسأبرهن على ذلك حتى لا يكون كلامي مصادرة على المجهول.

وأبدأ بالنقطة الأولى وهي مسألة اللغة العربية باعتبارها الوعاء الثقافي للأمة، وهنا أقول لأستاذنا الجليل إن

الشعب الموريتاني شعب عربي، يتكلم اللغة العربية، إذ ترجع أصوله إلى قبائل بني معقل القادمة من شبه الجزيرة العربية والدراسات التاريخية تثبت ذلك.

وللتذكير فإنه توجد بعض الأمثلة الدامغة التي وقعت كلها على أرض مصر، وشهد بها كبار الكتاب المصريين، حيث أظهر أبناء موريتانيا عبقريتهم وتمكنهم من ناصية اللغة العربية، ويعتبر محمود ولد تلاميد مثالاً ناصعًا في هذا المجال، وقد شهد بتفوقه عميد الأدب العربي طه حسين في كتابه الأيام إذ ذكر مدى قدرة ونبوغ الشيخ الشنقيطي في علم اللغة العربية حيث يقول: (كان أولئك الطلاب الكبار يتحدثون بأنهم لم يروا قط ضريرًا للشيخ الشنقيطي في حفظ اللغة ورواية الحديث سندًا ومتنًا عن ظهر قلب. وكانوا يتحدثون بحدته وشدته وسرعته إلى الغضب وانطلاق لسانه بما لا يطاق من القول. وكانوا يضربونه مثلاً لحدة المغاربة. وكانوا يذكرون إقامته في المدينة ورحلته إلى قسطنطينية، وزيارته للأندلس، وربما تناشدوا شعره في بعض ذلك، وكانوا يذكرون أن له مكتبة غنية بالمخطوط والمطبوع في مصر وفي أوروبا، وأنه لا يقنع بهذه المكتبة وإنما ينفق أكثر وقته في دار الكتب قارئًا أو ناسخًا). كما كان ينازعه الريادة والسبق أحمد ولد الأمين الشنقيطي وهو من أبناء موريتانيا أيضًا. فقد أثبت الرجلان تفوقهما في علوم اللغة العربية بين علماء الأزهر، هذا ولم يقتصر عطاء الموريتانيين اللغوي والديني على مصر وحدها، بل إن عطاءهم تجاوز ذلك إلى الحجاز والعراق.

كما كان لهم دور بارز ومتميز في نشر اللغة العربية والإسلام، في ربوع أفريقيا، مما شكل جسرًا للتواصل والتلاقح الثقافي ما بين العرب والقارة السمراء.

أما الشرط الثاني وهو الاستقلال فقد لا يتطلب منا الكثير من الشرح والتفصيل إذ أن موريتانيا نالت استقلالها التام ٢٨/١١/١٩٦٠ ومن ذلك التاريخ وهي تدار من قبل أبنائها وليست هذه الفترة متأخرة، فهي نفس الفترة التي نالت فيها أخواتها الاستقلال (المغرب، الجزائر، تونس) وانضمت للأمم المتحدة ١٩٦١، وكان لها دور بارز وإرادة سياسية وشعبية مستقلة، ليس لأية دولة عليها وصاية، حتى فرنسا التي كانت مستعمرة لها، تعاملها بالندية والاحترام التام لسيادتها.

وعن الشرط الثالث أقول إن موريتانيا تقع في غرب الوطن العربي، إذ تحدها من الشمال الجزائر، وهي بلد عربي حسب شهادة أساتذنا الكبير، ومن الشمال الغربي المغرب والصحراء الغربية وهما بلدان عربيان كذلك.

هذه الحدود حسب اعتقادي توفر لموريتانيا صلة جغرافية قد تشفع لها عند أساتذنا الكبير، إذ إنه توجد بعض الدول في الجامعة العربية، أكثر منها صلة موريتانيا الجغرافية بالوطن العربي، دون أن يثير ذلك اهتمام أساتذنا الكبير وبهذا الموقع تمثل موريتانيا بعدًا استراتيجيًا للوطن العربي، وذلك لاطلالتها على غرب أوروبا، وعلى شمال أفريقيا وإن كانت هذه الميزة لم تستدع من أساتذنا الجليل لحظة تأمل على الرغم من أنه محل سياسي واستراتيجي معروف!

وأخيرًا.. وليس آخرًا فإنني أؤكد لكم أن موريتانيا لا ترضى لنفسها أن تكون عبئًا على أحد، ولن تكون كذلك، ما أظلتنا الخضراء، ولن تكون عائقًا لمسيرة العرب، وعروبيتها ثابتة شكلاً ومضمونًا، قلبًا وقالبًا. إذ لا فائدة للقلب إذا قصت الأطراف.

محمد الأمين ولد أحمد عبد الله
طالب موريتاني - بالقاهرة

* * *

ما دمنا بصدد الحديث عن عروبة موريتانيا فإن من الضروري مراجعة التاريخ الوسيط والحديث للمنطقة العربية والاطلاع على ما كتبه ابن خلدون والبكري والإدريسي والناصر السلاوي، وغيرهم من كتاب القرون الوسطى عن بلاد موريتانيا والهجرات العربية التي وصلتها، وما كتبه الفرنسيون في كتبهم العلمية وتقاريرهم الاستعمارية عن الثقافة العربية في موريتانيا ودورها في تقزيم النفوذ الاستعماري الفرنسي في منطقتي الصحراء وغرب أفريقيا من خلال هزيمتها للغة الفرنسية التي قال عنها ديجول: إنها حققت للفرنسيين ما عجزوا هم أنفسهم عن تحقيقه، ولعل أكثر الحق دلالة ما شهدت به الأعداء كما يقال.

ولعل الذاكرة تسعفنا بما وصل إليه العلماء الشناقطة (الموريتانيين) من تألق في الأزهر الشريف، ذكره محمد عبده وطه حسين في مؤلفاتهم، وجسده العلماء الشناقطة في تصحيح وتدقيق الكثير من أمهات الكتب العربية، لعل أهمها وأكثرها ارتباطًا بموضوعنا القاموس المحيط الذي لا يزال مرجعية العرب اللغوية إلى حد الساعة. ولعل المفكر الكبير يتذكر أن انضمام موريتانيا إلى الجامعة العربية لم يحتج إلى فترة تأهيل، كما حدث مع بعض الدول العربية التي تلقت الدعم الفني والمادي من الجامعة العربية لتدعيم اللغة العربية فيها حتى تكون مؤهلة للانضمام إلى الجامعة، وأن تأخر انضمام موريتانيا إلى الجامعة جاء في سياق الاعتراضات التي قدمتها المملكة المغربية إلى المنظمات الدولية والإقليمية على استقلال موريتانيا على اعتبار أنها جزء من أراضي المملكة.

أما ما يتعلق بأن موريتانيا لا تتمتع بقدر كاف من الاستقلال بخولها الانضمام إلى الجامعة العربية، فنود أن نشير إلى أن انضمام موريتانيا إلى الجامعة جاء بعد ثلاثة عشر عامًا من الاستقلال التام مليئة بالأحداث المؤكدة على استقلالية القرار السياسي، منها طرد سفيري الولايات المتحدة الأمريكية وبريطانيا وإغلق سفارتيهما في نواكشوط سنة ١٩٦٧ ردًا على دورهما في حرب يونيو ١٩٦٧، ووساطة موريتانيا بين مصر والصين الشعبية بطلب من الزعيم الراحل جمال عبد الناصر، ودور موريتانيا المشرف في محاصرة إسرائيل في أفريقيا، وقرارات التأميم المؤسسي للشركات الأجنبية في البلاد، وإصدار عملة وطنية.

د. محمد الأمين ولد سيدي أحمد
موريتانيا

«وجهات نظر» والبحث العلمي

كنت قد أرسلت رسالة سابقة منذ حوالي شهر تقريبًا أطلب فيها من المجلة السماح لي بنقل مقال د. محمود عبد الفضيل المعنون بـ «نحو تفسير بسيط لأزمة السيولة والركود في الاقتصاد المصري» واستخدامه كمرجع في أبحاثي ودراساتي حيث إنني طالب بكلية الحقوق، ومن خلال قسم الاقتصاد والتشريعات الاقتصادية نتناول كل ما يهم اقتصاد البلاد وما يمر به وماله وما عليه ونحاول استخدامه كسند أو مرجع لدراساتنا الاقتصادية.

وللمرة الثانية أطلب من المجلة السماح لي باستخدامه مع حفظ حق د. محمود عبد الفضيل ككاتب للدراسة والمقال كاملاً من الناحية الأدبية والقانونية.. فأرجو مواقاتي بالرد ولعل المانع من الرد على رسالتي الأولى يكون خيرًا.

محمد أحمد عبده عليبة
شباس الشهداء - دسوق
كفر الشيخ

* جرى العرف على أن اقتباس فقرات لا «تنقل» من المقالات المنشورة، وذلك لأغراض البحث العلمي لا يحتاج إلى تصريح خاص بذلك، على أن يراعى ذكر المصدر تبعًا لمقتضيات البحث الأكاديمي.

المحرر

من السجن

في بداية رسالتي أحب أن أعبر عن مدى حبي وتقديري لهذه الموسوعة الثقافية والسياسية والفكرية التي تقدمها مجلتكم لكل من يهمه أن يعرف الحقائق والعلوم والأفكار. وإنني لسوء حظي حُرمت من نهرها الفياض بسبب دخولي السجن في قضية قتل ولم أعد أستطيع الحصول عليها، لذلك فكرت في أن أكتب إلى سيادتكم هذه الرسالة، فهل تقبلون سيادتكم أن تساعدوني لكي أتابع الأعداد الصادرة من مجلتي المفضلة وأنا أعرف أنكم لا تنظرون إلى الكسب المادي من وراء نشر هذه المجلة بقدر الكسب الفكري والتنويري، وأنا متعطش إلى طلب المعرفة فهل أجد عندكم طلبي؟

السجين / محمد عبده محمد
الإبشيهي
الحكم / مؤبد
التهمة / القتل
الطالب بالفرقة الرابعة بكلية الحقوق
جامعة المنصورة

لغويات، نبيل علي وسعادة، مستجير

في منتصف عقدنا الثامن لا يوجد لدينا الكثير من أسباب السعادة التي يطلبها لنا أحمد مستجير في مقاله بمجلة «وجهات نظر» في شهر أبريل الماضي، فبين استيلاء اليمين المتوحش على الحكم في أمريكا، وانتشار آداب وفنون ما بعد الحداثة، والعولمة واتفاقيات الجات، وتهديد الفكر العقلاني بتشويه نظريات اللاحتمية والنسبوية والشواش، بين هذا كله أصبح أمثالي ممن اجتازوا الكهولة والشيخوخة محرومين من أي سبب للسعادة.

ولكن طاقة من الأمل والنور قد انفتحت بمقال الدكتور نبيل علي عن اللغة والوراثة في نفس العدد من المجلة، ها هو صوت عقلاني واضح يتحدث، فبعد عرض جميل واضح وسليم لإضافات تشومسكي في علوم اللغويات يعرض لنا نبيل علي أهم الإضافات في لغة الوراثة، ثم يربط برباط وثيق بين لغتين.

ويتميز الدكتور نبيل علي بوضوح الفكر وعمقه وجمال وشاعرية لغته فهو يحق، كما وصفته يومًا، تشومسكي مصر، بل إنه يتميز عن تشومسكي بعمق معلوماته عن لغة الوراثة والهندسة الوراثية. ورغم سبق عرض الفكرة فإنني أظن أنها لم تعرض من قبل في أي مكان في العالم بهذا العمق وهذا التفصيل.

فإذا أضفنا إلى هذا أنني وأسرتي ناكل الآن أرزًا حصده الدكتور أحمد مستجير من نبات غاب استحدثه وراثيًا يروى بماء البحر المالح، اتضح سر تضاعف سعادتي وإقبالي على الحياة - أو على ما بقي منها.

هنيئًا لمصر أمثال نبيل علي وأحمد مستجير ممن بقوا فيها وأخلصوا لها وأحبوها حبًا جمًا وممن يستحقون بجدارة كل التكريم والجوائز والشهادات.

وهنيئًا لوجهات نظر مثل هذه الصفحات الجديدة عن العلم التي نرجو أن تستمر.

سمير حنا صادق
لجنة الثقافة العلمية
بالمجلس الأعلى للآثار

" نون "

جدلية الصحراء والمدينة

كل إنسان يشعر في لحظة ما من حياته بأن الروابط التي تصله بالحياة قد زادت وطأتها عن قدرته واحتماله يشتد إيقاع الحياة بوتيرة متسارعة تصل بها إلى حد الاختناق والشعور بالحصار. وتصبح الحاجة إلى التقاط الأنفاس خارج دائرة الحياة اليومية، بعيدًا عن الروابط الروتينية والمألوف من الممارسات، أقوى من الاستمرار بحكم العادة، أو ما يعرف في الطبيعة بقانون القصور الذاتي.

ولم يعد إنسان العصر الحديث يجد أمامه متنفسًا للخروج من المدينة الكبيرة، بشوارعها المزدحمة، وبيوتها المغلقة، وسياراتها المرصوصة بالحركة أو بالسكون، وضجيجها الذي يصم الأسماع، ورواحها التي تزكم الأنوف.. إلا بالانفلات من قيود العادة. بعض الناس يملأ قلبه عن لذات حياة تشوهت معالمها، بالعزاء النافع والصبر الجميل. والبعض الآخر يملأ قلبه بالخروج إلى البحر، أو إلى الريف، أو الصحراء كلما استطاع إلى ذلك سبيلاً.

والناس قد هجروا الريف وقلما يعودون إليه. يذهبون إلى البحر حيث تدعوهم حرارة الصيف وقسوة الهجير. أما الصحراء فنادراً ما يفكر إنسان المدينة في خوض مجاهلها واستطلاع معالمها. تظل الصحراء بالنسبة للكثيرين لغزًا غامضًا محفوفًا بالمخاطر. فالصحراء نقيض الحياة الرخية الناعمة، وهي مرادف العزلة والوحدة والتيه في خضم المجهول، رمز الترحال الدائم وعدم الاستقرار.

لم أشعر بجلال الصحراء وجمالها وعظمتها إلا حين قطعت الطريق إلى الواحات في قلب الصحراء الغربية. فجأة يشعر الإنسان بأنه انفصل عن ذاته.. عما كان منغمسًا فيه. وأصبح وحيدًا، غريبًا، منفردًا بالكون، يبحث عن شيء آخر، تتحول الحياة إلى نوبات من الانفصال والاتصال. ويصبح الشعور بالوحدة في هذا الفضاء الممتد بغير نهاية، طاغيًا آسرًا، يعبر عن الرغبة في الخروج عن الذات، والذوبان في الوجود، وحين يشتد الإحساس بالوحدة، تزداد الرغبة في الخروج منها، بحثًا عن الاكتمال ولم الشمل والتجاوب مع الحياة. وهكذا تكتمل الدائرة حين يعيد الإنسان أواصره التي تربطه بالحياة، وقد ارتد إليها متطهرًا من الشوائب والسفاسف، تتصاغر الأشياء الكبيرة في عينيه، وتتحرر روحه من سيطرة الوجود المادي المحسوس حوله. ولكنه يكون أكثر استعدادًا للفهم والتجاوز والتغلب على نفي الذات، في جدلية واعدة بالسكينة والسعادة.

للصحراء منطقها ولها لغتها.. وعندما كنت أطالع ما كتبه بعض الباحثين والمفكرين عن تأثير الصحراء على العقلية العربية، فسوف تجد اختلافًا شديدًا يصل إلى حد التناقض. ولكنه يثير ما يثيره اليوم حديث بعض المفكرين عن صراع الحضارات، وكيف أن الشعوب العربية والإسلامية بحكم حضارتها وثقافتها لا تستسيغ الديمقراطية ولا تستوعبها، ولا تملك الاستعداد للتفكير العلمي التحليلي الذي يهيئ لها السبيل إلى التقدم والاندماج في الثقافات الأخرى.

مثال ذلك ما يراه ابن خلدون من «أن العرب لطبيعة التوحش الذي هم فيه أهل انتهاب وعبث، ينتهبون ما قدروا عليه من غير مغالبة ولا ركوب خطر، ويفرون إلى منتجعهم بالقفر، والقبائل الممتنعة عليهم. بأوعار الجبال، ومنجاة من عبثهم وفسادهم.. وهم إذا تغلبوا على أوطان أسرع إليها الخراب، لأنهم أمة وحشية.. وليس عندهم في أخذ أموال الناس حد ينتهون إليه، وليست لهم عناية بالأحكام وزجر الناس عن المفاسد.. وهم متنافسون في الرياسة. وقل أن يسلم واحد منهم الأمر لغيره، ولو كان أباه أو أخاه أو كبير عشيرته إلا في الأقل. فيتعدد الحكام منهم والأمراء، وتختلف الأيدي على الرعية في الجباية والأحكام، فيفسد العمران وينتقض، وانظر إلى ما ملكوه من الأوطان كيف تقوض عمرانه، وأقفر ساكنه.. وهم أصعب الأمم انقيادًا بعضهم لبعض.. إلا بصبغة دينية من نبوة أو ولاية أو أثر عظيم من الدين على الجملة».

ويمضي ابن خلدون فيؤكد أن العرب أبعد الناس عن العلوم «لأن العلوم ذات ملكات محتاجة إلى التعليم.. ذلك كان حملة العلم في الإسلام أكثرهم العجم أو المستعجمون باللغة.. ولم يقم بحفظ العلم وتدوينه إلا الأعاجم».

وسبق الجاحظ ابن خلدون في وصف لطبيعة العقلية العربية فيقول: «إن الهند لهم معان مدونة، وكتب مجلدة لا تضاف إلى رجل معروف ولا إلى عالم موصوف، وإنما هي كتب متوارثة، ولليونان فلسفة ومنطق.. وفي الفرس خطباء.. وكل شيء للعرب فإنما هو بديهة وارتجال وكأنه إلهام. وليست هناك معاناة ولا مكابدة، ولا إجالة فكر ولا استعانة، وإنما هو أن يصرف وهمه إلى الكلام فتأتيه المعاني إرسالاً، وتنثال عليه الألفاظ انثيالاً..»

مثل هذه الأوصاف التي نسبها بعض الكتاب العرب من القدامى إلى طبيعة العقلية العربية وتكوينها، عللوها في رأيهم بما طبعته الصحراء على حياتهم وأسهمت به في تشكيل وجدانهم وطريقة التفكير وأساليب التعبير عندهم ولم تلبث أن تحولت على أيدي المستشرقين والعديد من المفكرين الغربيين إلى سمات ثابتة متجذرة في العقل العربي، لا يستطيع منها فكاكًا، ولا تتغير بتغير الأطوار التي انتقل فيها من البداوة إلى الحضارة، ومن البساطة إلى النضج، ومن حياة الصحراء إلى حياة القصور، ومن مضارب الخيام إلى المدن ذات الأبنية الشامخة والقلاع المحصنة والمساجد الباذخة والعمائر السامقة.

وقد ذهب كثيرون منهم بعد ذلك إلى إطلاق أحكام شاملة، نزعت عن العقل العربي قدرته على التحليل والتركيب والاستنتاج، وكشفت عجزه عن النظر الفلسفي، وإغراقه في الولع اللفظي الذي يغني عن الفعل، وضعف الخيال الذي يحبس نفسه في شعر الفخر والحماسة والغزل والوصف الذي يخلو من الابتكار.. وما إلى ذلك من أقوال جردت الإنسان العربي من كل قدرة على كتابة الرواية والقصة والإبداع في فنون التمثيل والمسرح.. كل ذلك لأن العربي في العصر الحديث ليس إلا نتاجًا وتسلسلاً طبيعيًا للعربي في العصر القديم.

وقد ساير عدد كبير من المفكرين العرب هذه الادعاءات. واستخلصوا منها نتائج ومقولات، بحثًا عن الأسباب التي أدت إلى الأزمة العربية المعاصرة، التي نزلت بالأمة العربية فحالت بينها وبين اللحاق بالعصر. وقد ذهب مفكر كبير مثل زكي نجيب محمود في كتابه عن «تجديد الفكر العربي» إلى أن العلة التي نشكو منها تكمن في أن «روح» تراثنا الثقافي هو إيثار السكنى في عالم اللفظ على معالجة الأشياء. وأن الفتنة باللغة في ذاتها تكاد تصرفنا عن دنيا الكائنات والحادثات، وهو يدعو من ثم إلى الخروج من دنيا اللغة إلى دنيا الأشياء، وأن ننضم إلى قافلة التفكير العلمي الذي يعالج قوانين الطبيعة ومناهج العلم الحديث.

تخايل هذه التساؤلات عقل المسافر عبر الصحراء، والسكون المخيم على الكون المحيط بملأ النفس روعة ورهبة.. فلا يملك المرء إلا أن يسأل نفسه: هل ما خلفه العرب من تراث في الشعر والقصيد، وما أفضت إليه الحضارة العربية بعد ذلك من فنون القول والرسم والزخرفة وإرهاصات التنوير الذي قاده ابن رشد وغيره من الفلاسفة، وما أنجزه الفنان العربي من خطوط هندسية محكمة، أبدعت كثيرًا من مظاهر التراث العربي في فن المعمار، وما ألهمته الصحراء للمتصوف العربي من تجليات، وما أضافه الفقهاء من أحكام عقلية في الشريعة والقانون وكل ما أبدعه في الأدب والفن والفكر والعقيدة.. ألا يستحق أن يكون جزءًا من التراث الحضاري للعالم نعتز به، كما يعتز العالم بالإيزيدة وبالملاحم والمأثورات الشعبية التي تعتبر من المرجعيات التي تؤكد هوية الفرد والجماعة؟؟

مجتمعات الترحال والبكاء على الأطلال قد تكون سمة من سمات الحياة التي تفرضها ظروف الصحراء. ولكن التراث العربي لم يكن كله بكاء على الأطلال وقلما تجد صحراء جرداء لا تتخللها الواحات العامرة بالأشجار والنخيل والأرض الخضراء، التي تمثل في حياة الإنسان دعوة إلى الاستقرار والبناء والتعمير وبناء الحضارات. تتبدى لك هذه الحقيقة حين تبصر بعينيك ما خلفه السابقون من آثار ومقابر ومعابد في الواحات التي تتناثر كاللآلئ في التيه الممتد للصحراء الغربية.. دليل لا يقبل الشك على أن تنوع التراث المشترك للإنسانية لا ينبغي أن يقتصر على نصب قائمة أو منذرة، ولكنه يجب أن يشتمل على ما خلفته قريحة الإنسان من مأثورات شعرية أو ملحمية تناقلتها الذاكرة الإنسانية عبر العصور، فلا نستهين بفنون الشعر التي أبدعها العرب وربما لم يبدعوا غيرها ولكنها صمدت على مر العصور. ومع ذلك فلم تعد الصحراء في عصرنا الحديث، قفرًا بيابانيًا، بل عمرتها يد الإنسان وزرعتها وأخرجت من باطنها من الثروات والكنوز ما يقيم دولاً وممالك، ويفجر حروبًا طاحنة من أجل شقة من رمال الصحراء هنا وهناك.. وهذه هي الجدلية الدائمة بين الإنسان والطبيعة على مر العصور!

سلامة أحمد سلامة

ده أنا ... و دى أول عربية ركبتها
دلوقتى ممكن أشترى عربية بجد

إنهارده بقينا عيلة
والعربية لازم تبقى أكبر وأسرع
عن طريق برنامج القروض الشخصية
اللى بيقدمها البنك العربى
قدرت آخذ قرض واشتريت العربية
اللى كنت بأحلم بيها
طبعاً مش قادر أحكى عن فرحة الأولاد
من الفسح فى العربية الجديدة

معلهش ... أصلى راكن صف تانى

البنك العربى
أكبر شبكة مصرفية عربية

www.arabbank.com

الكتاب
وجهات نظر
فى الثقافة والسياسة والفكر

السنة الثالثة
العدد الثامن والعشرون
مايو ٢٠٠١

تصدر عن
الشركة المصرية للنشر العربى والدولى

رئيس التحرير
سلامة أحمد سلامة

رئيس التحرير الفنى
حلمى التونى

مدير التحرير
أيمن الصياد

رئيس مجلس الإدارة
إبراهيم المعلم

عضو مجلس الإدارة المنتدب للإنتاج
أحمد الزيادى

البحوث والمتابعة
هديل غنيم

حقوق نشر جميع المواد والرسوم محفوظة

محتويات العدد:

- كلمة.. «اللغة .. والسياسة» ٣
- محمد حسنين هيكل ٤
«الفرانكوفونية .. وأخواتها»
- كريستوفر دى بيليج ١٨
«ماضى تركيا الدفين»
1 - Ideology and Legitimation of Power in Othoman Empire, 1876 - 1909، تأليف: سليم دريندجل
2 - Ataturk: The Biography of The Founder of Modern Turkey
تأليف: أندرو مانجو
- ناصيف حتي ٢٣
«لكى لا يطغى الوطنى على القومى.. أى مستقبل للجامعة العربية؟»
- رءوف عباس ٢٦
«عادل حسين ومأزق المنقف العربى»
- أمينة شفيق ٣٠
«شحاتة هارون: مصرى عادى.. يهودى غير عادى»
- زياد بهاء الدين ٣٦
«التوازن الصعب فى قانون الملكية الفكرية»
- حسام الدين زكريا ٣٨
«الفن التلقائى .. وإبداع اللا وعى».
- حسين عبدالله ٤٨
«آثار حماية البيئة على عوائد النفط العربى»
Kyoto Protocol to The U.N. Conference of The Parties (COP)
- شوقى ضيف ٥٢
«تحريفات العامية للفصحى»
- مايكل هيرش ٥٦
«حفظ السلام الهجين»
تقرير لجنة حفظ السلام التابعة للأمم المتحدة برئاسة الأخضر الإبراهيمى
- ذوقان قرقوط ٦٠
«عروبة مصر.. التاريخ يحسمها.. والمستقبل فى صالحها»
- محمد فؤاد الذاكرى ٦٦
«مدرسة الطب المصرية.. من أبى زعبل إلى قصر العينى»
- عروض موجزة ٧٢
- قراءات جديدة ٧٦
- رسائل ٨٠
- سلامة أحمد سلامة ٨٢
«نون» «جدلية الصحراء والمدينة»

•• تعبر المقالات المنشورة عن آراء مؤلفيها، ولا تعبر بالضرورة عن رأى «وجهات نظر» إلا إذا أشارت إلى ذلك صراحة ••

كتّاب العدد:

- أمينة شفيق .. صحفية.
- حسام الدين زكريا ... باحث فى العلوم اللغوية والموسيقية.
- حسين عبدالله.. أستاذ اقتصاديات البترول ووكيل سابق لوزارة البترول المصرية.
- ذوقان قرقوط.. كاتب سورى.
- رءوف عباس .. أستاذ التاريخ الحديث بجامعة القاهرة.
- زياد بهاء الدين .. محام.
- سلامة أحمد سلامة .. صحفى.
- شوقى ضيف .. رئيس مجمع اللغة العربية بالقاهرة.
- كريستوفر دى بيليج .. مراسل صحيفة «الاندبندنت» البريطانية فى إيران.
- مايكل هيرش .. صحفى أمريكى.
- محمد حسنين هيكل .. صحفى.
- محمد فؤاد الذاكرى.. باحث فى التراث العلمى من سوريا.
- ناصيف حتي.. أستاذ العلاقات الدولية ومدير مكتب الجامعة العربية بباريس.

رسوم العدد للفنانين: **محمد حجى - سعد الدين شحاتة**

يحظر النسخ أو الطبع أو التصوير على دعامات ورقية أو عبر الحاسبات لكل أو بعض المقالات المنشورة أو أجزاء منها، بغير إذن كتابى مسبق من الناشر.

المراسلات:

الشركة المصرية للنشر العربى والدولى
٣ ميدان طلعت حرب. القاهرة. جمهورية مصر العربية
ت: ٣٩٣٠٤٩٠ / ٣٩٣٠٤٩٢ / ٣٩٣٠٤٩٦ - فاكس ٣٩٣٠٤٩٨ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى (التحرير): *e-mail: info@alkotob.com*

الاشتراكات:

السنة الواحدة (اثنا عشر عدداً) شاملة أجرة البريد: داخل مصر: ١٠٠ جنيه مصرى - اتحاد بريد عربى: ٦٠ دولاراً أمريكياً - أوروبا وأفريقيا: ٧٠ دولاراً أمريكياً - أمريكا وكندا: ٨٠ دولاراً أمريكياً، باقى دول العالم: ١٠٠ دولار أمريكى.
إدارة الإشتراكات: ٨ شارع سيبويه المصرى، ص. ب: ٢٣ البانوراما. مدينة نصر
هاتف: ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس ٤٠٤٨٥٤٦ - *e-mail: weghat @alkotob.com*

ثمن النسخة:

فى مصر ١٠ جنيهات مصرية. السعودية ٢٠ ريالاً - الكويت ١.٥ دينار - الإمارات ٢٠ درهماً - البحرين ديناران - قطر ١٥ ريالاً - عُمان ريالان - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - سوريا ١٥٠ ليرة - الأردن ديناران ونصف - ليبيا دينار واحد - الجزائر ١٠ دنانير - المغرب ٣٠ درهماً - تونس ٤ دنانير - اليمن ٣٠٠ ريال.

Austria SCH 175 - France 30FF - United Kingdom £3

طبع بمطابع الشروق بالقاهرة

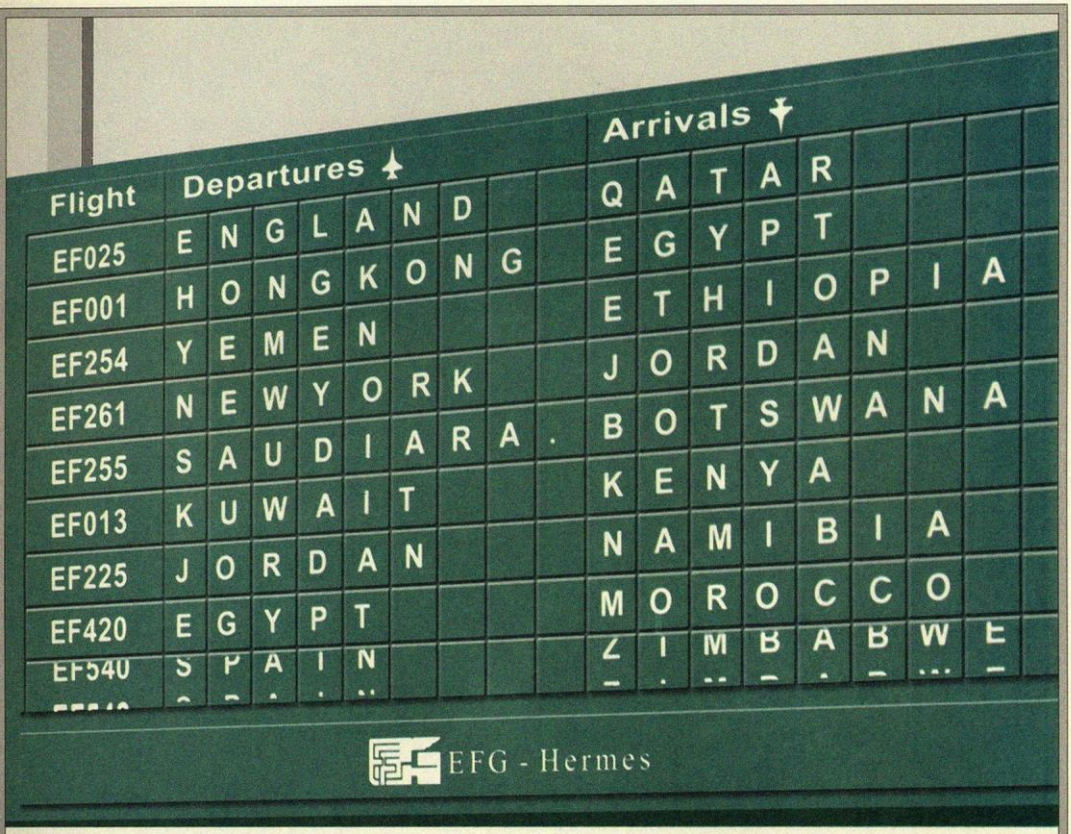

المجموعة المالية - هيرمس

خطوط الخبرة المالية

تغطى الشرق الأوسط وأفريقيا

لايوجد فى منطقة الشرق الأوسط وأفريقيا شركة لخدمات الإستثمار أكثر التزاماً لإدارة التعاملات المالية من المجموعة المالية - هيرمس.

تعد المجموعة المالية - هيرمس مؤسسة مالية متكاملة وخدماتها تشمل : بنك إستثمارى، وساطة فى الأوراق المالية، إدارة الصناديق والمحافظ المالية، الإستثمار المباشر.

EFG - Hermes
خبراء الإستثمار فى العالم العربى وأفريقيا

www.efg-hermes.com
٩٨ شارع التحرير الدقى - مصر
ت: ٣٣٨٣١٢٧/٧/٨ (٢٠٢) فاكس: ٣٣٨٣١٢٩ (٢٠٢)

mer